تاريخ الإسلام
فى غرب إفريقيـا



رواد
ومغامرون يستكشفون

دول
تتنافس على تجارة الرقيق

قــوى
وقراصنة تنهب الثروات

زعمـاء
يبيعون مواطنيهم من أجل المال

صــراع
قبلى وثنى إسلامى
على أرض إفريقيا

تأليف روسيل وورين هاو

ترجمة د. عبد الوهاب محمد الزنتاني
الحائز على جائزة ابن سينا فى الأدب من أجل السلام

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تاريخ الإسلام
فى غرب إفريقيا

تاريخ الإسلام

فى غرب إفريقيا

رواد ومغامرون يستكشفون
دول تتنافس على تجارة الرقيق
قوى وقراصنة تنهب الثروات
زعماء يبيعون مواطنيهم من أجل المال
صراع قبلى وثنى إسلامى مسيحى على أرض إفريقيا

تأليف / روسيل وورين هاو
ترجمة / د. عبدالوهاب محمد الزنتانى
الحائز على جائزة ابن سينا
في الأدب من أجل السلام

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر اعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشئون الفنية

هاو، روسيل وورين
تاريخ الإسلام فى غرب افريقيا/ تاليف روسيل وورين هاو ؛ ترجمة عبد الوهاب محمد الزنتانى. ط ١ . - القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨ .
٣٠٤ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك: ٧ - ٠١٨ - ٤٦٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - افريقيا الغربية. ٢ - الفتوحات الإسلامية.
أ - الزنتانى، عبد الوهاب محمد.(مترجم) ب - العنوان . ٩٦٦

الكتـــــاب : تاريخ الإسلام فى غرب افريقيا

المـــؤلـــف : عبد الوهاب محمد الزنتانى

رقـم الإيـداع : ٢٣٤٢٨ / ٢٠٠٨

تاريخ النشـر : ٢٠٠٩

الترقيم الدولى : 7 - 018 - 463 - 977 - 978

النـاشــــــر : **دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع**
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع: ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٢٧٩٥٤٣٢٤

التـــوزيــــع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت: ٢٥٩٠٢١٠٧ - ٢٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت: ٢٢٧٣٨١٤٢ - ٢٢٧٣٨١٤٣

www.darghareeb.com

إهـــداء

إلى أبناء بلدى الساعين إلى مستقبل أفضل من خلال التفاهم والتعاون بين بلدانهم فى الوطن العربى الكبير الذى ستتحقق وحدته بإذن الله بحيث يتبوأ مكانه ومكانته ودوره فى إرساء قواعد الثقافة والأدب والحضارة ذلك الدور الذى كان قد اضطلع به رجال أمتنا العربية على مدى قرون عدة مضت وقد فقدوه عندما تكالبت عليهم قوى البغى والطغيان وتفرّق زعماءهم وأهل الرأى فيهم حيث ساد السيف واختفى القلم، إلى أبناء بلدى الصادقين فى توجهاتهم لتعزيز التعاون مع أبناء قارتهم (إفريقيا) .

اليهم أهدى هذا الجهد المتواضع متمثلا فى ترجمة أمينة لكتاب يتناول إفريقيا وتاريخها الذى كان للعرب دوراً بارزاً فيه (لغة وثقافة وحضارة واقتصاد) وإلى كل من يجد فى التاريخ متعة ودروسا مثلما فعل الرواد الأوربيون فى اكتشاف مجاهل إفريقيا مضحين بكل شيء بما فى ذلك حياة كثر منهم وفى النهاية عرفوا وسيطروا وغنموا، على أننا لا يجب أن ننسى الرواد المسلمين الأوائل مثل: (الطبرى والإدريسى وابن بطوطة والساعدى والبكرى وابن حوقل) وغيرهم لكن جهودهم كانت فردية لم تدعمها حكومات ولا منظمات كما هو حال دول ومنظمات رواد أوربا.

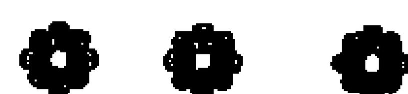
والله المعين

د. عبدالوهاب محمد الزنتانى

بلدة الزنتان فى ٢٣ يوليو ٢٠٠٧م

موضوعات الكتاب

الموضوع | الصفحة



مقدمة المترجم

لعله من نافلة القـول: إننا يجب أن نقـرأ كثـيراً عن تـاريخ إفريقـيا لنعـرف أكثـر وبالتالى نعزّز توجهنا سياسيًا واقتصاديًا وفكريًا وثقافيًا عن قارتنا (إفريقيا) .

وعندما أقـول نعزّز إنما أقصـد التعاون فى مـختلف المجالات فأنـا لست من مؤيدى فكرة الوحدة الإفريقية وأقول بالوحدة العربية والتعاون الإفريقى بحيث نجمع بين التاريخ والجغرافيا، بين الأصل والفصل، بين المصير والمصلحـة، وقولى هذا ليس ردًا على أحد ولا هو إنكار لواقع قد يستمر لبعض الوقت ولكنه لا يغيّر من حقائق التاريخ ولا يفصم رباط اللغة ذلك أن الأصل هو العروبة والفصل هو الإفريقية؛ لأننا عرب أفارقة مع إفريقيا تجمعنا الجغرافيا، وبالتالى حسن الجوار وتبادل المصالح والتـعاون، ومع العرب يجمعنا التاريخ واللغـة والدين والآمال والمصير، ولقد كنت ومازلت أعـتقد أنه لن يكون صعـبا ولا غريبا علينا أن نجـدد دور أسلافنا العرب فى إفريقيا إذا مـا درسنا وتعلمنا من التاريخ الماضى وعرفنا ضرورات الحاضر، وهذا الاعـتقاد أحد دوافع اهتمامى بترجمة كتـاب السيد (روسيل وارين هاو) حيث كان دور أولئك الرواد الأوائل فى هذه القارة كما فى غيرها من القارات والبلدان عـظيمًا دون أن يتوفر لهم ما يوجد بين أيدينا الآن من معلومـات تاريخية وجـغرافيـة وديموغرافـية ومادية مع الإرادة والإيمان، إرادة التـحرير والبـعث، والإيمان برسالة الإسـلام الخالدة، إسـلام المحبـة والتوادد والإصـلاح وحرية وكـرامة الإنسان ولأننا فى ليبيا قـد سعينا بجد وتحركنا حثيثًا، وبذلنا كثـيرا من أجل الوحدة العربية التى صعب مـنالها أو حـتى الاقتراب منـها لأسبـاب عديدة مـحلية ودوليـة، اقتـصادية وسـياسـية واجتماعية وحتى نفسيـة، أدركنا أخيراً أنه فى عالم اليوم لابد لأى تحرك أن تسنده عناصر وأول هذه العناصر الاقـتصاد والتـجارة ولهذا وبحكم الجـغرافيـا فقد صـار الاتجاه إلى إفريقـيا ولأن بوصلة أى اتجـاه تتمـثل فى المعـرفة والإدراك لكل أسـاليب الحيـاة مراعـاة للمـصلحة الوطنيـة والإقليمـية والدولية بحيث لا يحـدث التعارض الذى يؤدى غـالبًا إلى الاختلاف وأحـيانًا إلى الحروب، من هنا كـان علينا أن نقرأ وندرس ونمعن النظر فى أحداث الماضى وظروف الحـاضر وآمال المستقبل، وتلك هى الغاية أولا من هذه الترجمة، وثانيًا سيرى القارئ كيف كان التنافس

والتزاحم وحـتى التقـاتل بين الأوربيين وأهل الأمريكيتين وقـتئذ حـول تجارة الرقـيق الإفريقى وكيف كانوا يعاملون الأفارقة الذين يسترقـونهم،وهاهنا نجد المؤلف يقول [فى سوق بيع العبيد يتم التعامل معهم مثل الحيوانات عندنا وكانت المرأة أرخص بالثلث أو الخمس من الرجل، وأن إطعام هؤلاء العبـيد عند احتجـازهم فى معسكرات بالماء والخبـز يكلف (اثنين سنت) فى اليوم وعند ترحيلهم تحـمل الباخرة الواحدة بين خمـسمائة وستمـائة أو سبعمائة من الأفـراد أحيانًا، هكذا كان الحال خلال تلك القرون من السنوات (الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر) ويتساءل المرء الآن خلال القرن العشرين والواحد والعشرون، ما الذى حدث أو تغير؟

فى ذلك الوقت كانوا يشترون الإنسان الإفريقى (ذكرًا أو أنثى صغيراً أو كبيراً) وينقلونهم لتسـخيرهم فى أعـمال شاقـة ومهينة، والآن وبعـد عدة قرون من الزمـان نرى الإفريقى يذهب إليهم متسللاً وقـد يموت فى الطريق غرقًا أو عطشًا فى البحـر أو الصحراء، وإذا وصل إليهم لا يكلفهم شيئًا إذا كانوا يحتاجون إلى جهده ليستخدمونه فى أحقر الأعمال (مشكورين)، إما فى جمع القمامـة أو إطعام الخنازير!! وإذا لم يكونوا فى حاجة إليه (وهذا غالـبا) يعيدونه مطروداً مكروهًا إلى البلد الذى جاء منه، وها نحن فى هذا اليوم (١٦ / ٨ / ٢٠٠٦م) نسمع أن إسبانيا التى كانت رائدة فى تجارة الرقيق قبل خمسمائة سنة تعيد (١٦٠) إفريقى إلى البلاد التى جاءوا منها بعد اعتقالهم على شواطئها ! ونتساءل، ماذا قدمت بلادهم الإفريقية المستقلة بعد ما يسمى (حكم وطنى؟) وماذا قـدم حكامهم الأشاوس غيـر القهر والفـقر والمزيد من الاستعـباد؟ وبـم أتاهم الحكم الوطنى غير المزيد مما كانوا عليه منذ خمسمائة سنة ماضية؟

سيجد القارئ أن هؤلاء الأوربيون الذين يتهمون العرب بالتوّرط فى عمليات بيع الرقيق هم الذين أقاموا مشروعاتهم التجارية والمعـمارية والزراعية بجهد العبيد الذين اسـترقوهم بالقـوة والكرباج ونـقلوهم عنوة فى صناديق خـشـبية تسـمى (بواخـر) وعاملوهم مـثل الحيوانات كـما قال مؤلـف الكتاب، فليقـرأ من يريد أن يعلم بما كان وكيف؟ فهل ينطبق على هكذا حال قول: (بيدى لا بيد عمرو) ؟

ومن الله التوفيق والعون

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب الـذى يتكون من أربعة أقسـام وعندما طبع صـار يتألف من قـسمين يقصد منه أن يكـون تقديم تاريخى لإفريقيا السـوداء، وهو خلفية لأخبـار ومعلومات تأتى من أربعة أخماس القارة التى تقع جنوب الصحراء العظمى ومحيط الرمال.

ففى خـلال السنوات الحالية كـانت هناك أعداد كبيـرة من الكتب عن إفريقيـا، وكان هنالك بشكل خـاص مـحاولات جـادة لضم تاريخ مـتناثر بحـيث يكون واحدا وهو أمـر صعب بسبب الانتـشار الواسع، وفى ماضى الأمم الإفريقية التى تسـتطيع القراءة والكتابة تستعمل عموما اللغة العربية وهى أحـيانًا جيدة وفى أخرى تمثل عمل تخمينى ككتاب (و. بوفـيل) المعنون (قوافل الـصحـراء القديمة) الذى نشـر سنة ١٩٣٣م والذى مـثل تاريخيـا أحـداث القرن العـشـرين، وحـدث أن عددا من الدارسين بدءوا بـإعادة قـراءة رواية (ابن بطوطة) وأعمال (البكرى) كذلك كانت كتابات المستشرقين (أوربيون وصينيون) المتصلين بإفريقيا الجنوبيـة والشرقية، ولقد شهدت فـترة الخمسينيات ظهور عـدة أعمال فى الغالب باللغة الإنجليزية وحديثًا جاءت دراسات أخرى فى كتب باللغة الفرنسية، كما وصلت إلينا حديثـا أبحاث أدبيـة عن فترة الاخـتراق الأوربى مـثل قصـائد البحارة الحـماسـية وبعض المسـتكشـفـين وأخـيـرًا الجنود والموظفين الإداريين، وهناك كـتّـاب آخـرون تواصلوا مع المجتـمعات الإفـريقية تلك التى تعـامل معـها التجـار، ولسوء الحظ فإن أغلب القـيودات الإفريقـية خلال القرون المعـاصرة عن قصد أو بلا قـصد كانت منحازة تأخـذ هذا الجانب متجاهلة الآخر كـالإسهامات الأوربية أو تلك الأمور الأهلية فى الثقـافة الإفريقية وتاريخ العالم، وهذا ينطبق على بعض المؤرخين المتأخرين للثقافة الإفريقية الذين كانوا يكتبون فى ظل مناخ فترة التحرير وهؤلاء عادة يرفضون بشكل انفعالى الاختراق الأوربى على اعتبار أنه نوع من التطفل، وهذا تعـامل غـير علمى مع التـاريخ، والواقع أنه مـحاولة لإثبـات أن لإفـريقيـا تاريخ قبل مـجيء الأوربيين، لذلك فـإن بعض الانفـعال والزعم جـعل الماضى الإفريقى قائما على معطيـات مغمورة وغير مصدّقة، معطيات مـشكوك فيها تمثل نوعا من الهجوم على آراء ذات طبيعة عرقية تعود إلى عهد جنكيز خان يقابلها فى المدارس الأخرى

نقاش انفعالى أيضًا لأسباب سياسية محاولا إثبات أنه ليس لإفريقيا ماضى على الإطلاق، وفى هذا الكتاب شعـرت أنه من الواجب لتخليص تاريخ إفريقيـا من الأحجاف أن أتجنب أى محاولة للرجوع إلى تلك التعريفات .

وعن قصة إفـريقيا خلال الفـترة الإمبرياليـة (موضوع القسم الثـانى) هنالك مادة وفـيرة نشـرت وهى تتناول غـالبًا المسـاحـة أو البلاد جـاءت فى شكل قـصص بعض الرحّالة إضـافة إلى كتابات أخـرى عن الفلسفة الكونيـالية ومعلومـات أوفر عن علم الأصـول، كذلك فـإن تاريخ بعض الحـركـات الوطنيـة موثّق نسـبـيًا بـأقلام الكتـاب الوطنيين والمراقبين من الخارج وبعض المؤرخين، وفى السنوات الحالية كان هناك تدفق كبير من الكتب والكتـابات عن أماكن معينة عديد منها عن إفريقيـا السوداء المعاصرة، أو إفـريقـيـا ككل، وتناولت عـدة كـتب المشـاكل الحديـثة فى الـقارة عن الإفـريقـيـة (الأفريكانيزم) وعن الاقتصاد والطب والتطور الاجتماعى.

والسؤال، لماذا هذا الكتاب ذو الأربعـة أقسام (والذى ربما يماثل كل الكتب؟) إنه يحاول أن يؤدى عملاً يجمع معا كل تاريخ إفريقيا السوداء القديم والحديث فى عمل عام واحـد ومؤلفه يحـاول أن يتحاشى الدخـول فى الاتجاهات المعاصـرة ليكون ناقدا علاجيًا بحـيث يعتبر كل جزء من تاريخ إفريقيا، كل تبـادل ثقافى أو أى تبدّل صورى أو شكلى كمـا لو أنه جزء هام من كل، وتاريخ إفريقيـا نفسه كمـا لو أنه مرأى واحد مـعاصـر من مـاضى العـالم وحاضـره، وطالما أن هذه الكتـابة مـوجهـة للدبلومـاسى وللقـارئ المسـتـقل ولرجال الأعـمـال وللجـامـعات والمـدارس العليـا (فى إفريقـيـا وخارجـها) وإلى قـراء الكتابـات غير الخـياليـة، فلقد تجـاوزت الأسلوب المجهـد فى استخدام الملاحظات والاقتطاف الممل من المصادر مع استثناءان :

الأول: كـتّاب وكـتابات وأعـمـال القرون الماضـية التـى تكوّن جزءا من التـاريخ الإفريقى، **والثانى:** كتابات بعض الكتّاب الأفارقة المحدثين المتميزين الذين رأيت أنهم يستحقون الذكر.

وأنا مدين بشكر خاص للإسلامى الفرنسى البروفيسـور (فينيست مونتيل) من جامعة داكار وهو مصدر معـرفى لا يستغنى عنه فيما يتعلق بتـاريخ الإمبراطوريات القديمة، وإلى

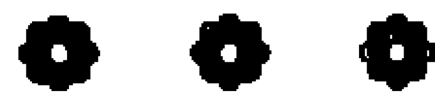
الكاتب الإنجليـزى الذى سبـقت الإشارة إليـه (بوفيل) وإلى العـلامة الأمـريكى الدكـتور (جـيمس دوفى) لعلمـه الواسع فى التـاريخ الإفـريقى البرتغـالى وإلى المؤرخ النيـجيـرى البروفيـسور (ك . أنووكا) عميد جامـعة عبدان لملاحظاته الدقيـقة البناءة فى تطورات دلتا النيجر، وللكاتب الأسترالى (آلان مورهيد) عـن عمله المتعلق بالإمبراطور (ثيودور) وغزو نابيـر لإثيوبيـا، وأخيـراً لصديقى (جـورج بادمور) مـن ترينداد الرجل الثائر الذى كـانت قيوداته عن عموم إفريقيا رائعة وفـريدة، وبعيدا عن الوقت الماضى المتعارف عليه فإن كتب أو مخطوطات (روبرت أندرى) و(روبرت كـارنيفين) و (جون رايديل) وكثيـرين غيرهم كانت بشكل خاص ذات قيمة فى مادتها الأصلية، ومن أجل اختيار ماذا يمكن التركيز عليه فى النهاية اختـرت العديد من المصادر مثل كتاب (بليكنس ديليـوس) و(جيدى) و(باربارا هول) و(كابل جونس) وهى مصادر مشابهة لتلك التى أصدرها (بوسمان وكابتن أدامس) خلال العقود الأوائل والتى كـانت قيّمة من حيث الإحسـاس بما كان فى ذلك العهد، ومن الصعب أن تكتب تاريخ مقنع دون الرجوع إلى كثير من المراجع والتسجيلات العربية إذ إن كتـابة تاريخ إفريقى لا يتم بالاعـتماد على حـساب التواريخ وحـده كما هـى الطريقة فى أغلب التواريخ الأوربية والأمريكية والأسيوية إذ لا يوجد خط محدد مرجعى مثل (الوثيقة العظمى)[1] أو عصر النهضة الأوربية أو الثورة الفرنسية، ويمكن القول: إن استغلال رحلة البحّارة البـرتغاليون (كمـقارنة بحرية وليست سـياسية) بالرحلة الأوربية إلـى أمريكا أنها ذات تأثير محدود على السواحل الإفريقيـة ذلك أنه خلال القرن الثانى عشر نرى بورنو لم تتغير كثيراً عن غانا خلال القرن الحادى عشر، وفى إفريقيا لكل منطقة سوداء ظروفها التى تختلف عن بقية أجزاء القارة فى حين أن الأحداث فى إيطاليا مثلاً تتلاقى مع تلك التى فى فرنسا وتؤثر فى تلك التى فى هولندا أو البرتغال[2] بينما الأحداث فى بريطانيا تتأثر بتلك التى فى إسـبانيـا أو ألمانيا فى حين أن دلتـا النيجـر فى تاريخهـا لا تتأثر بأنجـولا أو إثيوبـيا

---

(١) تسمى الوثيقة العظمى أصدرها يوحنا ملك إنجلترا اعترافا بحقوق النبلاء والكنيسة والأحرار سنة ١٢١٥م - المترجم .

(٢) تجدر الملاحظة إلى أن هذا الذى ذكره المؤلف يخالف ما جاء فى جمـيع الأديان السـماوية، فقد جاء فى القرآن الكريم ﴿علم الإنسان ما لـم يعلم﴾ (سورة العلق) و﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحـسن تقويـم﴾ (سورة التين) و﴿قل سيروا فى الأرض فـانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخـرة إن الله عل كل شيء قدير﴾ (سورة العنكبوت: ٢٠) - المترجم .

وبالمقابل فإن هذه لا تتأثر بالكاميرون أو السنغال، ولا يوجد تتالى فى حساب التاريخ حتى الزمن الحاضر فى القارة ذلك أن التاريخ السابق لكل بلد أو منطقـة يقوم فيما يشبه الفراغ، ولهذا فـإن الجزء الأول من هذا الكتـاب يتناول إفريقيـا قبل الأوربيين حيـث إن واحدا من اثنين من أحداث التاريخ (الاحتلال) كان واضحًا ولكن الآخر (تقدم الإنسان) كان مرتبطا بانتشار الإسلام، أمـا القسم الثانى من الكتاب فيتناول إفـريقيا قبل الاستعمـار، ولهذا فهو يبدأ بمناطق السـواحل، والقسم الثـالث يتناول فترة الاسـتعمار الـشيء الذى يتطلب إعادة مؤشر البوصلة إلى إفريقيا البرتغالية، وحتى فى سيراليون التى يتناولها القسم الأخير هناك عودة للتاريخ السابق، إن التاريخ الإفريقى يمكن أن يقدم فى عدة آلاف من الصفحات وفى اختيـار ما يسقط ومـا يؤخذ فقد حـاولت أن أبيّن كم كان الدارسون المحدثون أذكـياء فى استـخراج الماضى القـديم وهكذا فقد ركّـزت على ما ظهر لى أنه ذو أهـمية (غـانا ومالى وسونغـاى) وهى جميعـا تتماثل وتغيّـر القوى فيهـا يجعل الفرق قليل فى قصـة الإنسان، وهنا تعـاملت مع أهم جزء من التـاريخ القديم فى غـرب السودان وكـيف كانت مـحاولة شنغاى وانتـصار الجيش الإفريقى الأسود دروسًـا للمستقبل الذى حـدد لعدة مـئات من السنين تاريخ السـودان الغـربى، وبالمثل فـقد ألقـيت الضـوء على أحـداث غزو (النابيـر) لإثيوبيـا وهو الذى فتح أبواب هذا البلد للعالم الخـارجى وتلك الحملة فى الحرب العـالمية الأولى لشرق إفريقيا حـيث تقرر جزئيا مصير العالم فى تانجانـيقا، وفى الشاطئ الغربى لم أعلق أهمـية كبـيرة على الحـملة العسكرية بينمـا اعتبـرت بشكل أساسى أهمـية التـجارة وتأثيرها الحضـارى ورأيت أهمية دلتا النيجـر كخط دقيق للامتـداد البريطانى وبدرجة أقل فى السنغـال للانتشـار الفرنسى، وباسـتثنـاء تحليل ملخص للتاثيـر الاستـعمـارى المحلى المتداخل مع الاستراتيجية الإفريقية وعلاقتة بالمشاكل الأخرى وموضوع الوحدة الإفريقية، ومن هنا فإن الكتاب يتناول أحداث التاريخ الإفريقى ككل وعلاقة القارة بما وفد إليها .



الفصل الأول

رمال وسيوف

عصر الإمبراطوريات الإفريقية

الفصل الأول

رمال وسيوف - عصر الإمبراطوريات الإفريقية

حيث بدأ الإنسان فى إفريقيا :

على الرغم من أن القرود الأوائل يمكن أن يكونوا قد انتقلوا إلى مراحل طبيعية فى مختلف المناطق من كوكبنا، فإن الخبراء الآن يؤكدون أنه كان فى وحول الوهدات المطيرة (بحيرة فيكتوريا) مكان أول حيوان متطور النشأة مؤديًا إلى نشأة إنسان، ولهذا الحيوان المتطور النشأة تاريخ يبلغ سبعين مليون سنة طولاً، وأصلنا الأول يشبه إلى حد كبير الحيوان المتطور النشأة حيث كان نباتى آكل خضار وبنيته الجسدية لم تكن صالحة لأن يحيا مثل أغلب أنواع الحيوانات القادرة على تحمل المراحل الصعبة ولكن أذرعه كانت أطول من رجليه تمكنه من التأرجح من شجرة إلى شجرة بحيث يكون بعيدًا عن وصول الحيوانات الكاسرة إليه وإضافة إلى ذلك فإن الحيوان المتطور النشأة كان دماغه أكبر من بقية الحيوانات الأخرى، ومنذ عشرين مليون سنة ماضية دفع الجفاف جدنا الأول إلى الأرض وكان القرد البرى (الأرضى) قد اكتشف بواسطة البروفيسور (ل.س.ب. ليكى وزوجته) فى إحدى الجزر ببحيرة فيكتوريا وهو لم يكن يتأرجح على الشجر وإن كان قادرًا على التنافس مع بقية الحيوانات ويعيش على ما توفره الطبيعة فى الأرض، ولابد أننا فى النهاية نحن الأفارقة والأوربيين من هذا القرد الأرضى، وعلى جانب غير بعيد شرقا فى كينيا وجد (ألدوفاى جورجى) سنة ١٩٥٩م بقايا متحجرة لحيوان متطور النشأة ومن دراسة عظامه ظهر أنه من آكلى اللحوم وعمره مليون وثلاثة أرباع المليون سنة، ومنذ ما يزيد عن حوالى ثلاثين سنة على اكتشاف (ليكى) العظيم فى منطقة الجنوب من

القارة، وفى كهف حجرى مدمّر كان أحد القردة قد وجد واسمه العلمى (إسترالوبيتوكوس أفريكانو) أى قرد الجنوب الإفريقى وعمره ثمانمائة ألف سنة قبل تاريخ إفريقيا، كان طوله حوالى أربعة أقدام ووزنه حوالى سبعين رطلاً وهو يشبه إلى حد ما قزم قوقازى، بينما دماغه أكبر قليلاً من الحيوان المتطور النشأة فى (الدوغاى) على الرغم من أنه بعيد عنه فى الزمن، ولأنه كما عرف لا يتأرجح على الأشجار صار يواجه ما فى الأرض مثلنا، رأسه قائما بين كتفيه مستقيمًا وهو أفطح القدمين مثلنا ولا يستعمل الأذرع الطويلة كبقية القرود حيث صارت قصيرة تستخدم فى أغراض أخرى، ومثلنا له خلفية بارزة تحوى عضلات تمكنه من تحريك أعضاء جسمه ورشاقته ودماغه أنقذاه من الانقراض، وأسنانه مثلنا يأكل بها اللحم وليس فى فمه أضراس كثيرة تساعده على المضغ وله ناب حاد مثلنا نحن الآن، جسده كبير، عيناه وأسنانه مثلنا غير انها تبرز قليلا عند الفك الأعلى، وبتلك الأسنان الحادة الأمامية يأكل الأشياء وهى خام وله كل خواص الإحساس والفهم، ومنذ قديم الزمان تتواجد نسخة الإنسان هذا وشكراً للبروفيسور (رايموند دارت) الأسترالى الذى اكتشف هذا المخلوق قبل (ليكى) على الرغم من أن نوعه ليس كقرد (أردوقاى) ومنذ أن اكتشف (ليكى) العم الأكبر لقرد (دارت) وهو قزم آخر أطلق عليه اسم (هومو هوبيلز) وهو معاصر لنوع آخر أقل قربًا من الإنسان ينتمى فقط إلى واحد وثلاثة أرباع المليون سنة ماضية من تاريخ الأرض، ويلاحظ أن إنسان بيكين أو جاوا المسمى (بيثيكاثروبوس) ينتمى فقط إلى أربعمائة ألف سنة وهو ربما أتبع طريق مختلف، وإنما مشابه فى النشأة والارتقاء وقد حدث له ذلك فى آسيا، وأول إنسان أوربى عرف يرجع تاريخه إلى ربع مليون سنة ماضية فقط والمتوقع أنه انتقل من إفريقيا عندما انتهى العصر الجليدى من أوربا، والإنسان الحديث بفكره الواسع وقد تطور ذقنه واستقامت هيئته فى وقت قريب .

إن قصة إفريقيا السوداء هى قصة كل بلدان العالم غير المرتبطة الآن والتى قسّمت بحواجز طبيعية وتوزعت عبر قارة أكبر من مساحة الولايات المتحدة ثلاث

مرات، وهى كذلك قصة كثير من الاختلافات الخارجية من أوربا إلى الولايات المتحدة إلى آسيا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، ولقد اكتشف العلم الصلة بين الإنسان والقرد فى شرق وجنوب إفريقيا وتقديرات بعض النظريات الدقيقة عن الهجرة من إفريقيا كانت معروفة قبل هذه التأثيرات وقبل أن يتم غزو الصحراء وتحدى شاطئ البربر وإمبراطوريات غرب السودان (تحديدا فيما يعرف بموريتانيا ومالي والنيجر) دينيًا وثقافيًا وسياسيًا وصارت إفريقيا الشمالية امتدادًا قريبًا من الشرق الأوسط فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وحدث خلال السنوات الحالية ارتباط إسلامي بسيط، وكذلك جبهة عالمية بشأن بعض المواضيع الاستعمارية أحدثت صلّة بين الشاطيئين فى محيط الرمال، ولكن خلال القرون الأولى من الألفية السابقة فإن وجه البحر الأبيض المتوسط اتجه إلى كل من الشمال والجنوب وليس فقط إلى مرافئ روما واليونان والشرق، وإنما أيضًا إلى تلك المناطق التى مازالت حتى اليوم من أكثر العوائق المعروفة للإنسان وكانت الرحلة أبعد من أفق البحر مخيفة وليس صدفة أنه عندما ظهر الجمل بما له من قدرة على تخزين الأكل والشرب فى جوفه وتقدمه على البغل كثيراً من حيث السرعة وقد دخل رحلات الصحراء أن يعتمد على اعتبار أنه سفينة الصحراء، ولم يكن لأى أمة إفريقية سوداء قدرة وقوة بحرية كحالتها فى الصحراء، ومن المؤكد أنه مثلما لا تبقى رمال الصحراء آثاراً لخطوات الإنسان فإن تاريخ إفريقيا القديم كذلك لا يمكن تتبعه وإن كانت هناك بقايا من الصورة العامة فى النيل الأعلى أى ممالك شرق إفريقيا وصراع القوى القديم فى غرب السودان والرغبة فى السيطرة ومصير الإمبراطوريات الكبيرة .

إن تاريخ إفريقيا السوداء يتحدد بدرجة كبيرة بجغرافيتها ذلك أن إفريقيا شمال الصحراء هى جغرافيًا وثقافيًا مرآة العالم الذى تتصل به كثيرًا، شواطئ البحر المتوسط، الإسبان، الإغريق، الشيشيان، هم متأثرون بالعرب؛ لأن دياناتهم نظريًا تنادى بالإحسان بدلاً من السيف، وفى جنوب البحر الأبيض المتوسط هناك الصحراء

القاحلة وأبعد جنوبًا تبدأ قارة جديدة فتبرز أرض خضراء ثم مناطق واسعة بها أعشاب عالية وشجيرات ثم تدريجيًا تظهر غابات تضم (ليبيريا وساحل العاج الجنوبى من دلتا النيجر شرقًا، وجنوبًا هناك الغابات المطيرة فى الكونغو وهى مساحتها كمساحة أقطار أوربا، وهناك جنوب وشرق خط الاستواء جبال عظيمة قممها تعانق السماء محاطة ببحيرات جليلة وشلالات مياه تتكون بواسطة فلق كبير، وهنا غالبًا يكون الطقس قائظًا وهذه المناطق التى كانت لوقت طويل طاردة للأفارقة مع استثناء بسيط للنيليين والناس ذوى العلاقة (إثيوبيا، الأمهارا، والقالاس، والباقاندا، والباتوتس، هذه هى الصورة الأوسع لإفريقيا وهى فى الواقع غير كاملة حيث إنه فى جنوب غابة (أشانتى الندية) تقع الأرض شبه القاحلة حول (أكرا) وجنوب تلك المرتفعات حول (ساليزبورى) تقع غابات (ناتال) كثيرة الرطوبة، بينما قرب كينيا تظهر أرض شبه صحراء فى الشمال، وقبل فترة ظهور النفط يمكن النظر إلى إفريقيا على أنها مقاومة للإنسان وغير مفيدة، وهى تتكون من أحد عشر مليون ميل مربع أربعة ملايين ونصف منها أراضى صحراوية رملية ولقد أثر على تطور إفريقيا البحر كما هى الصحراء، وكان الأطلنطى فى الغرب حاجزا منذ عدة قرون، ومن المؤكد أن القوى البحرية كانت من ناس غرباء وأماكن بعيدة بداية من (الفينيقيين)، وفى زمن (القامبليان - عشرة آلاف سنة من قبل الميلاد) ظهر نموذج الإنسان عند مدار الجدى فى إفريقيا، وهذا النموذج من الإنسان باق الآن فى شخص إنسان الغاب بجنوب إفريقيا، ومن الواضح أن الأقزام معاصرون لنموذج الإنسان البدائى أو ربما جاءوا متأخرين عنه بعض الوقت، أما الأسود، الإنسان الحديث فيمكن أن يكون ظهوره خلال (الخمسة آلاف سنة قبل الميلاد فى جنوب إفريقيا) وكل هذه المخلوقات عاشت بشكل خاص على الصيد وعرفوا استخدام النار تقريبًا منذ (خمسين ألف سنة ماضية) وفى فترات الجفاف انتقل الكانجاريين والقامبليان إلى الغابات المطيرة الكونغولية والغانية، وخلال الفترة المطيرة تلك عرفوا أدوات كثيرة إضافة إلى الفؤوس والحراب والإبر المصنوعة من العظام، وكذلك مظاهر أدوات التجميل والخيوط، وفى الألف

السادسة والسابعة قبل الميلاد ظهرت ثقافة الحامين[1] جنوب الصحراء ويذكر أن هؤلاء الناس هم غالبًا بيض يعتقد أنهم من أصل فلسطيني، وهناك معلم أثرى معروف ينسب إليهم يقع شمال الصحراء فى قفصه بتونس، ولقد حدثت معهم خطوة عظيمة إلى الأمام فى الارتقاء البشرى، فى الزراعة وصناعة الفخار، وإذا كانت الصحراء فى وقت ما خضراء ومأهولة صارت تفقد خضرتها منذ تقريبًا ستة آلاف سنة وقد جفت الأنهار، ولم يبق إلا وديان يابسة تشاهد الآن من الجو، وكانت قبل التجفيف الحرارى متطورة وقد استبدل الصيد جزئيًا بالرعى عندما جاء الحصان المدجّن من البلاد العربية فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، ومنذئذ صارت التجارة وركوب الخيل أسباب البقاء للمجتمعات الأكثر تقدمًا، وعرفت طريق فزان عبر الصحراء واستخدمت، ومن الجانب الشرقى لشاطئ البحر الأبيض المتوسط بدأ الفينيقيون وهم الجدود الأوائل للسوريين واللبنانيين يعبرون الصحراء ويسيّرون السفن إلى الساحل الغربى الإفريقى ولكن هذه الطرق البحرية ماتت بعدذاك، ولقد كانت الصحراء قبل أى شيء آخر هى التى عطلت التطور الإفريقى فى الوقت الذى تقدم فيه الإنسان نسبيًا فى أوربا وربما فى آسيا أيضًا، وكان التقدم الثقافى الذى حصل عليه الشرق الأدنى[2] وانتشر فى أوربا يمكن أن ينتشر فى صحراء إفريقيا كذلك لو لم تقرر الرمال بغطائها عكس ذلك، وعلى أى حال كان يمكن أن يكون بشكل أوسع وأكثر، وطقس إفريقيا كان يمكن أن يحفظ مناطق الاستقرار بحيث يمكن لحضارة البحر الأبيض أن تنتشر أبعد مما حدث، وربما يصدق القول: إن الوضع العام للأرض والجفاف قد أخر إفريقيا لوقت طويل عن أن تؤسس حضارة راسخة .

---

(١) الحامين هم قوم فى شمال إفريقيا وتنذاك قيل: إنهم من نسل حام بن نوح، ومنهم التوارق والبربر- المترجم .

(٢) قال المؤلف (الآداب التى سرقها الشرق الأدنى) وقد استبدلنا ذلك بالقول: (حصل عليها الشرق الأدنى؛ لأن العلوم والآداب من وجهة نظرنا تحصل ولا تسرق كذلك كان من الإنصاف أن يقال: حصل عليها العرب وليس الشرق الأدنى؛ لأن العلوم والثقافة والآداب نقلها العرب إلى أوربا، وهو الشيء الذى تؤكده أحداث التاريخ – المترجم .

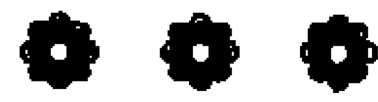
وهناك ثلاث مجموعات عرقية معروفة جيداً فى إفريقيا جنوب الصحراء وهى (البوشمين من الجنوب والزنوج والحاميين، أما الحاميين وربما الزنوج أيضًا فقد جاءوا من آسيا والاثنتين اختلطتا معا وبالنوع الإفريقى، أما البوشمين فإنهم من الأصل الإفريقى وهم كانوا حينئذ وفى ذلك الوقت يمثلون المخلوق المتقدم الأهم، أن التزاوج فى هذه الأنواع وخصوصًا بين الزنوج والحاميين متعدد وبشكل خاص فى الجانب الشرقى من إفريقيا، وبعضها ربما قريبًا نسبيًا ذلك أن الشعوب فى إفريقيا لابد أنها كانت قليلة والمواصلات بين المسافات الشاسعة صعبة، ومع ذلك فإن الهجرة كانت مبكرة، واليوم نجد أن البوسكوبر أحيانًا أطول قامة من البوشمين الأوائل، أما الأقزام فمازالوا يعيشون على الصيد والهوتونتس وهم جماعة أخرى من جنوب إفريقيا يعتقد أنهم خليط من تزاوج الزنوج والبوشمين كما أن القبيلة منذئذ وحتى الآن هى التى توفر الحماية وتحدد القانون الاجتماعى، ويلاحظ أن قليل من هؤلاء مازالوا فى أماكنهم التى عاشوا فيها أصلاً، بينما أغلب القبائل والجماعات هاجرت إلى المناطق التى هى فيها الآن منذ قرون ماضية، وفى هذه التطورات التاريخية البدوية فإن التقدم الثقافى يكون فى العادة راكدًا، والواقع أن الإنسان الإفريقى إذا كان قد تأخر فذلك لظروف وأسباب ولا يجب المبالغة فى بعض الأمور قياسًا بماضى آسيا وأوربا حيث إن هناك عادات وتقاليد تنتقل من الأب إلى الابن ومن الأم إلى ابنتها، ويجب الاعتراف بأن حالة تحسن الوضع المعيشى (الغذاء) قد جاءت مع مجيء البحّارة البرتغاليون وهو الشيء الذى يمثل نقطة تحول فى تاريخ إفريقيا، ويذكر أنه من بين خمسة آلاف نوع من المزروعات والأشجار فى الكونغو المعاصر جاءت من آسيا ومن أمريكا والقليل جداً منها كان محليًا، وهذه تنتج مختلف أنواع الغذاء، وتضمنت المستوردات العديد من الأنواع الزهرية وحتى الموز الذى يعتقد أنه إفريقى كان هناك ما يعزز الاستنتاج بأنه كان قد استنبت بالاستيراد، وهناك منتجات محلية أخرى كالبطاطا البرية الحلوة، وقد حل إنتاج

الأطعمة وتربية الماشية محل الصيد فى مناطق نهر النيل خلال الألفية الخامسة قبل وقتنا الحالى، وفى الألفية الرابعة قبل الميلاد كانت هناك حيوانات الماعز فيما يعرف بالسودان الآن ومن الواضح أنه لم يكن هناك إنتاج للبذور، وفى الألفية الثالثة قبل الميلاد بدأ الزنوج وسكان السافانا (الأرض الواسعة) يزرعون، بينما كان الفقراء البدو من قبائل الغابات قد تحولوا من مرحلة الصيد مع بداية العهد المسيحى، والمنتج الأقدم هو الذرة ومع تطور الزراعة تطور وضع الغذاء والعمر والصحة، وبالتالى زاد عدد سكان القارة .

وخلال القرن السادس والسابع صارت البواخر البرتغالية تصل ناقلة الذرة الصفراء والفواكه والفول السودانى كما عرف الليمون الذى يأتى من آسيا ومن أمريكا، وقبل ذلك بقليل عرف الأرز وأشياء أخرى وربما الموز، وكل ذلك جعل مناطق الغابات صالحة للزراعة، وصارت القبائل البدائية التى تعيش على التنقل والصيد مستقرة، واليوم فإن تلك المواد والمزروعات كالذرة الصفراء والأرز وغيرها تعتبر منتجات أساسية فى إفريقيا، أما الصيد فى أعماق البحار فقد جاء متأخراً حيث بدأ فى سيراليون، واللغة فى إفريقيا كانت بدائية مستعملة منذ خمسة آلاف سنة تقريبًا على الرغم من أن إفريقيا فى البداية كانت تتكلم بألسنة عديدة خلاف ما هى عليه الآن، أى حوالى ستمائة لغة وآلاف من اللهجات،وكانت تلك اللغات بدائية جداً قياسًا بمفهوم اللغة، ويظهر أن تلك اللغات بدأت تتطور منفردة وبتأثير قليل على بعضها، وكان هناك أربع مجموعات :

فى الشمال والشمال الشرقى كانت اللغات حامية سامية، وفى الجنوب والجنوب الشرقى من القارة فإن اللغات حلقومية بالنسبة للهوتينتوس والبوسكويز، ولذلك فإن اللغات تنقسم إلى سودانية غربية وسودانية شرقية، وبعبارات أخرى: تقّسم اللغات على ضوء الوجود الطبيعى لمجموعات من الناس، ويوجد أوسع تشابه فى مختلف ألسنة البانتو فى النصف الجنوبى من القارة، وذلك ربما منذ ألفى

سنة فقط، ولعلها تعود فى أصلها إلى غرب السودان، وإن قد اختلفت اللهجات لدى بانتو غرب السودان فى العهد الوسيط، وفى الوقت الحديث فإن اللغات فى غرب السودان مركبة وهى الهاوسا والباربارا وهذه تأثرت نسبيًا باللغة العربية، وهناك في شرق إفريقيا اللغة السواحيلية وهى آتية من اللغة العربية، ومن المعروف أن اللغات الإفريقية غنية فى كلماتها المتعلقة بالنبات والحيوان ولكنها فقيرة فى المعقولات، وأخيراً قام الباحث السنغالى الشيخ عنا ديوب بترجمة جزء من كتاب (باول لانجيفين) عن النسبية إلى لغة الوولف باستعمال معانى الجذور القائمة على الجذور العلمية فى الكلمات الإغريقية أو الأصل اللاتينى، وذلك من أجل أن يثبت أن ثراء اللغات الإفريقية لا شبهة فيه، ولكن ربما من المناسب القول: إن اللغات الإفريقية ظهر غناؤها عندما اتصلت خلال القرون الحديثة باللغات العربية والأوربية، وباستثناء العربية فإن النظرة المنصفة والموضوعية ترتاب كثيراً فيما إذا كانت اللغات الإفريقية ستعايش القرون التكنولوجية القادمة .



الفصل الثاني

البــونت وزنجيبـــار

الفصل الثانى
البونت وزنجيبار

إن حضارة إفريقيا السوداء القديمة كانت ربما فى (البونت) وهى منطقة الآن تكوّن جزءا من السودان الحديث أو الصومال، ولقد أرادت مصر رقيق الأراضى السوداء عند نهاية شواطئ البحر الأحمر وبذلك بدأ تحول الثقافة إلى الجنوب من الشرق الأدنى، ولقد تطور حجم التجارة مع ثروة مصر على الرغم من أن المعلومات عن هذه المرحلة قليلة، ولكننا نعلم أنه مع الألفية الرابعة قبل الميلاد كان الذهب يستورد وكذلك النحاس من هضاب البحر الأحمر، وكانت الموانئ قد أنشأت باستخدام الأرقاء كعمال، وهناك الشيء القليل معروفًا عن سلوك وتصرفات الناس، وإن كانت ظاهرة الإيمان بالآخرة تلاحظ فى تراتيل الدفن، وكذلك وضع بعض حاجاتهم الهامة معهم، أما فى منطقة بونت فإن البيوت خلال هذه الفترة كانت تبنى وبها نوافذ زجاجية مما يدل على بعض التقدم، وخلال الألفية الثالثة قبل الميلاد بدأ استيراد الفضة والرصاص من منطقة جزر (إيجا)[1] ولذلك صارت أحواض السفن تعمل على بناء سفن بطاقة ستين مجدافًا بحيث تعمل فى البحار الأليفة بحثًا عن الذهب والعاج والكهرمان ومواد العطور، وخلال الألفية الأولى قبل المسيح نشأت حضارة فى (كوش) الواقعة الآن شمال السودان الحالى وهنا صارت تصنع كميات من البرونز، علمًا بأن كوش كانت تقيم بها أصلاً مجموعة قوقازية، ولكنها شملت كثير من الزنوج (عبيدًا وأحرارًا) عندما توسّعت جنوبا، وكانت القيادة والإدارة فى

(١) جزر بحر إيجا تقع بين تركيا واليونان، وهى تمثل مناطق نزاع وتماس بين البلدين مما أدى إلى حروب بينهما قديمًا، والنزاع حولها مازال قائمًا، وكادت الحرب تشتعل بين البلدين أواخر سنة ١٩٨٣م، عندما أعلنت اليونان أنها ستبدأ البحث عن النفط فى تلك الجزر - المترجم .

الدولة (قوقازية)، بينما كان المعتقد الدينى مصريًا، وإذ نمت قوة الدولة تحدت جارتها الكبيرة القائمة فى الشمال، وحدث أن زعيم كوش قام بغزو مصر ولم يكتمل ذلك الغزو إلا فى عهد ابنه (فيانخى) سنة ٧٢٥م حيث أسس الأسرة الفرعونية الإثيوبية الخامسة والعشرين، وخلال القرن التالى أجبرت عناصر كوش من طرف الأشوريين لتعود جنوبا إلى أرضها الأصلية، وأخيرًا ربما من أجل تفادى جفاف الأراضى العالية نقلت عاصمة (كوش) من (نباتا) إلى (مروا) وهذه تقع على بعد حوالى مائة ميل شمال الخرطوم وآثار (مروا) الهامة ماتزال موجودة ولكن الرمال تغطيها الآن وتحتاج لعمل كبير لإظهارها، وفى القرن الرابع قبل الميلاد احتلت مروا من طرف المملكة الإثيوبية وفى هذا الوقت كان المعتقد الدينى فى كوش خليطًا من المحلى والمصرى على أن معتقد كوش هذا قد انتشر غربًا فى الصحراء وربما أبعد منها، ولقد درس ذلك الانتشار الباحثون النيجيريون فوجدوا فى بعض المناطق البعيدة أن المعتقد الدينى هناك يرجع إلى كوش، وحوالى هذا الوقت ظهر التأثير الدينى المسيحى فى المنطقة وقد ترسّخ فى إثيوبيا وشرق إفريقيا، وكانت كوش قد امتدت تعاملاتها التجارية فى ذلك الوقت إلى البلاد العربية والهند وحتى إلى الصين، وكانت الممالك إلى الجنوب من كوش وشرق إفريقيا قد تأثرت بالغزو السامى الآتى من البلاد العربية خلال عدة قرون قبل الميلاد، أما انتعاش المسيحية بين الأمهريين فيعود إلى القرن الرابع من زماننا وذلك عندما تحول الإثيوبيون إلى الدين المسيحى بتأثير قساوسة بيزنطيين فى الإمبراطورية الرومانية، أما أسد يهودا الإمبراطور كما كان يعرف دائمًا فهو إمبراطور الحبشة، والواقع أنه ليس من سلالة سليمان وملكة سبأ كما تحاول الأسطورة أن تؤكده، وإنما لقبه الرسمى هو (النجاشى) وهذا يعود على الأقل إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادى حيث كان يلقب به، ومن الواضح أن تأثير إثيوبيا الذى يمتد إلى الجنوب الآن، بل وحتى إلى جنوب إفريقيا يعرف من أسلوب الزراعة والمبانى الحجرية وغابات المناطق العالية، وفى العصر الحديدى الأزانى كانت منجزات الحضارة الكينية متواضعة وإن قد دامت إلى عدة قرون فائته وكان النظام الاجتماعى

ضعيفًا، ونجد آثار مدينة (انتاروكا) المهدمة معروفة حتى الآن من عهد (آزانيا)، ويظهر أن المملكة كانت فى الشمال لكنها دفعت إلى الجنوب بسبب ضغط الإسلام، وأخيراً انتهت (آزانيا) نتيجة لضغط فرسان الحرب من القبائل النيلية مثل: (دليو وماساى وباهيما ووانيكا)، وقد فرضت قبيلة (باهيما) مثلما فعلت (الباتوتس) من رواندا وبوروندى نظام إقطاعى شبيه بالنظام الإقطاعى فى أوربا القرون الوسطى، وكانت الطبقة العليا تكسب الأبقار والماشية مما يدل على الثروة والامتياز وتهتم ببعض الفنون البسيطة كصناعة الفخار والأقمشة، أما الباهيما كطبقة صناعية كانت تنتمى إلى قبيلة (باريو) والباتوتسى فهى من (الباهوتو)، وقد استمرت المملكة الرواندية حتى سنة ١٩٦٠م وإلى أن أتت الانتخابات بالنظام الجمهورى، أما مملكة البوروندى فمازالت باقية كنظام ديموقراطى، والصومال له تاريخ مماثل للحضارة الحامية التى فرضت نفسها على الرعاة والصيادين الزنوج، وكان هنالك نوع آخر من التأثير على المنطقة ذلك هو (النظام الشيرازى) الآتى من فارس والذى تظهر آثاره فى المسجد الرئيسى بزنجبيار وفى بناء قصر حسونة كومو الواقع فى جزيرة (كيلو) وهذا يرجع إلى القرن العشر والثانى عشر الميلادى، والكثير غير معروف عن الكيفية التى تطورت بها الحضارات الحامية والسامية أو الطريقة التى أتت بها وجعلتها تخترق وتؤثر فى إفريقيا، وكما أن الاهتمام الأوربى بشرق إفريقيا والذى تابع تطوره فى قلب إفريقيا السوداء السيد (بريستور جون) رئيس المجموعة المسيحية وهو شخصية كاريزمية ذات بأس، ولقد تأججت الرغبة الأوربية عن الجزء الجنوبى الثالث من القارة بسبب تلك القصص التى تواترت عن مملكة (مونوموتابا) وكان ما ذكره (بريستور جون) مجرد غش عن إثيوبيا ومليكها ذلك أن مملكة (مونوموتابا) استمرت على الرغم من أنه من الصعب تقدير أهميتها الحقيقية اعتمادا على العديد من الروايات والقصص التى جاءت من البحّارة والتجار، ولذلك فإن بلادها عندما عرفت بواسطة البرتغاليين أصيب الرحالة بخيبة أمل على أن مملكة (المونوموتابا) يظهر أنها أدارت البلاد بطريقة تقارن ببعض الممالك المعاصرة التى كانت فى أوربا الإقطاعية وأوربا ما بعد الإقطاع،

ولقد ذكر القبطان البرتغالى (باربوسا) الذى كان يكتب من ساحل (موكامبيكى سنة ١٥١٧م) قائلاً: خلف هذه البلاد فى اتجاه الغرب تقع مملك (بيناميتابا) وهى خاصة بأناس وثنيين يسميهم المغاربة (الكفار) وهؤلاء أناس سود يمشون عرايا فيما الوسط من الجسم، وكان الرحالة من هذه المملكة قد وصلوا الشاطئ وهم يرتدون جلودًا بذيول ويحملون سيوفًا وحرابًا ونبالاً ورماحًا حديدية، ويعتقدون أن (باربوسا) قال هناك على مسافة رحلة أسبوعين أو ثلاثة تقع مدينة كبيرة تسمى (زالجبياتشى) بها العديد من البيوت المقامة من الخشب والقش تخص الملحدين، وأن ملك (بيناميتابا) عادة ما يقيم هناك، وهذه البلاد تقع على الطريق المؤدى من (سوفالا) إلى (رأس الرجاء الصالح) وفى هذه المدينة يقيم ملك (بيتاميتابا) فى مبنى كبير ومن هناك يقوم التجار بنقل الذهب إلى (سوفالا) حيث يقدمونه للمغاربة بلا وزن مقابل أقمشة ملونة وخرز .

ويكتب السيد (قوز) بعد بعض الوقت من ذلك يقول: فى وسط هذه البلاد هناك قلعة بنيت من الحجارة الكبيرة من الداخل والخارج وأن هذا المبنى تحفة يتمثل فيها كل الإبداع مثلما يقول الناس: إنه لا يمكن للرائى أن يلاحظ الجس بين حجارتها، كذلك تحدث (قوز) عن قلاع أخرى مشابهة فى أماكن ثانية بالمملكة، وأضاف قائلا: إن ملك (بينا ميتابا) يقوم على دولة عظيمة تؤدى فيها الخدمات باحترام كبير، وأن العمارة الرئيسية طبقًا لقول (باروس) عرضها خمسة وعشرون شبرًا وهى التى تسمى الآن (زامبابوى الكبرى) والتى تقع مباشرة على طريق (جوهانزبرج ساليزبورى) فى روديسيا، وأن عمر زامبابوى الكبرى ربما أكثر من ألف سنة ماضية، وقد جددت خلال فترة قصيرة وأقيمت فيها توسعة، وتاريخ أغلب آثارها الحديثة من القرن الثامن عشر الميلادى، وأن مبانيها عالية ومزينة بالحجارة البيضاء وطرقاتها مزخرفة، ولذلك فإن طراز المبانى بالكامل إفريقى بلا أى تأثير خارجى على الرغم من أن الرخام الشرقى من الواضح أنه يباع على الشاطئ، وتقع ضمن ذلك الخراب روديسيا الحديثة وزامبيا، وفيهما مشاهد من نفس النوع، وإن كانت أقل أهمية، والناس الذين عاشوا فى هذا

العمران تعاملوا بأنواع من النحاس مثل ذلك الذى يوجد فى (كاتانقا)، أو بنوع من سبائك النحاس، وربما يكون الفينيقيون الذين أبحروا طوافًا بإفريقيا حسب قول (هيرودوتس) خلال القرن السابع الميلادى قد قدموا نوع السبيكة النحاسية التى وجدت فى إنجلاند (المملكة المتحدة) وبالتالى يمكن أن تكون هذه قد وصلت إفريقيا الشرقية من فينيسيا عبر مصر ونهر النيل، وعلى أى حال فإن هذه القطعة المميزة تشير إلى حجم التعامل التجارى المبكر عبر القارات، أو من خلال الشواطئ أو كلاهما،وهناك آثار ثقافات كثيرة تبين أنها اتصلت ببعضها فى المقاطعات (الزيمبابوية) كتلك التى جاءت من (ماشونا) طبقًا لأحد المصادر خلال القرن الثانى عشر الميلادى، ومن الواضح أنها انتقلت جنوبا من (زامبيزى) سنة ١٤٠٠م ثم مرة أخرى من سنة ١٥٠٠-١٧٠٠م وحوالى هذا الوقت كان (الراوزى) تحت قيادة مليكهم (مامبو) قد انتصروا على مملكة (مونوموتابا)، وبالتالى قام (الراوزى) بتحديث وتوسعة (زيمبابوى الكبرى) وبعد ذلك حل محلهم شعب (الناقونى) الذى جاء من الجنوب، وفى سنة ١٨٣٥م سلخ حيًا آخر (مامبو) من شعب (الراوزى) بواسطة شعب (السوازى) الذين تقع بلاد قبيلتهم الصغيرة حاليًا فى منطقة محاطة تمامًا بجنوب إفريقيا، ولقد قام شعب (السوازى) بحرق قصر (المامبو) ويدعى (تاباس كامامبو) وبعد ثلاث سنوات قام (زولو أيمبى) وهو من قبيلة (مزيليكازى) وكان قد انفصل عن حكم (أشاكا الباطش) باحتلال (السوازى) وهم من نسل (روزوى ونقونى) وفى هذا الوقت اكتشف جزء هام من مملكة (مونوموتابا) فى سنة ١٩٣٢م عندما تسلق مزارع وابنه وبعض أصدقائه أشجاراً عالية فى مرتفع (بمابونقو بوى) وهى قرية بجنوب إفريقيا بالقرب من نهر (ليمبوبو) المحاذى لروديسيا، وفى الربوة وجدوا قبراً ملكيًا به قطع ذهبية وبقايا أثرية ترجع إلى ما قبل العمران الأوربى، كذلك وجدت أشياء أقل أهمية فى مناطق أخرى من (ترانسفال) مع نماذج لقلاع ومساكن من الحجارة، ولهذا فإن اكتشاف هذا المزارع المدعو (فان قران) وغيره أظهر أن أولئك الناس يدفنون أجساد ملوكهم وقوفًا، وكذلك فإن الميت عند الدفن يحظى بنوع التراتيل المراسمية والهياكل توحى بأن هؤلاء الناس كانوا من (البوشمين أو الهوتينتوس) أو

آخرين أو خليط منهما، وأخيراً صار النوع المسيطر فى المنطقة غالبًا من الزنوج ولكن به أصول من الهوتينتوس وجنس آخر، ولقد وجد الدارسون أن التراث الأصلى ربما كان يشمل طبقة حاكمة من غير الزنوج، أما عمال الصياغة فيعتقد أنهم من الزنوج الذين جاءوا من الشمال، وامتلاك الماشية يمثل نوعًا من الغناء والتميز لدى عامة الأفارقة الجنوبيين والشرقيين، ولقد بدأ العصر الحديدى مبكراً تقريبا فى هذا الجزء من إفريقيا، وكان الرحّالة الدارس العربى (الإدريسى) قد كتب سنة ١١٥٤م عن تجارة تصدير الحديد من مقاطعات الساحل الواقعة على مدخل (ليمبوبو)، وخلال القرن الحادى عشر أسس البرتغاليون مراكز فى منطقة المحيط الهندى، وكان سوفالا وهو ميناء مملكة (مونوموتابا) أغنى المواقع قد ترأسه فى بداية القرن السابع عشر السيد (لويز دى فيجيريدو فالكو) الذى كان كاتبًا لدى (فيليبى الثانى)، وهو الذى منحه ذلك الميناء سنة ١٦٠٧م وخلال عمله لثلاث سنوات وهى مدة تلك الوظيفة كسب (لويز دى فيجيريدو) ما يقدر بألفى (كروزادوس)، وهذا المبلغ يعادل تقريبًا مليون دولار حسب قيمة النقد الحديث، وهذا بالطبع يعطينا فكرة عن تطور التجارة فى مملكة (مونوموتابا) كما سيلاحظ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، وفى إفريقيا ما قبل الاحتلال كانت محاولات البرتغاليين لضم أنجولا إلى موزمبيق تعود إلى هذا التاريخ المبكر، ولا يعرف الكثير عن حكومات القبائل خلال ذلك الوقت ولكن كان معروفا بوضوح أن (المونوموتابا) على الرغم من أنها قوية لم تكن أبدا مملكة خالصة ولقد أدت التقاليد القبلية وقانونها الشفوى غير المكتوب إلى نوع من الديموقراطية مصحوبة ببعض الفوضى؛ إذ كانت أغلب شعوب الجانب الشرقى من القارة لم تصل بعد إلى أى تطور حتى يمكن أن يقال: إنها مستقلة، وما يعرف بالنظام القانونى البسيط متبعًا، وكانت ممالك غرب إفريقيا بالنظر إلى هذا الوضع متقدمة عن أولئك الذين فى شرق إفريقيا وبلا أدنى شك فإن مملكة (مونوموتابا) حققت بعض النجاح فى الصناعة والفلاحة وباستيراد الخزف الصينى والمنسوجات الهندية، وكانت هذه المملكة قد حققت الاكتفاء الذاتى من محصول الغلّة وكما هى فى أوربا العصور الوسطى، فإن الحياة مريحة لبعض المحظوظين على أن الأمية

الشاملة قللت من إمكان خلق حضارة حقيقية، وأن أغلب الرحّالة كانوا قد أثنوا على النشاط الاجتماعى النسبى ومحاولات الناس اتباع أفكار جديدة بتقليد البرتغاليين خلال القرن التاسع عشر عندما توسع هؤلاء فى القارة لأول مرة بعد عقود من المحاولات، وهنا تبددت آمال المستكشفين البرتغاليين الأوائل عن فترة ما بعد الحضارة، فقد كانت الحروب المهلكة والصراعات الدائمة سائدة، مما أجبر البرتغاليين غالبًا على التدخل لصالح هذا الطرف أو الآخر وهذا الشيء الذى أدى إلى تدمير الإعمار السابق، وفى سنة ١٨٥٦م كتب الدكتور البرتغالى (ديفيد ليفينجستون) رئيس البعثة الاستكشافية وهو فى طريقه من (زامبيزى) إلى الساحل قائلاً: إن المظهر الوحيد للقوة الذى حققه وريث (المونوموتابا) يتمثل فقط فى حيازته قرابة مائة زوجة مما سيحدث بعد وفاته الكثير من التخاصم والتقاتل بين ورثته، ومن بين الناس المسالمين أو المحاربين على حد سواء لا يختلفون على أن السيد (ليفينجستون) ذكر أنه وجد أن أغلب تلك القبائل تقدم المساعدة للأجنبى، أما السيد (هينرى ستانلى) المستكشف المعاصر للسيد (ليفينجستون) فقد قال: إنه كان عليه أن يقاتل من أجل حياته غالبًا خلال كل ميل فى طريقه عبر نهر الكونغو، بينما فى إفريقيا الجنوبية الخطر الحقيقى بالنسبة للرحّالة كان استثنائيا وبشكل نسبى، حيث إنه فى بعض الأحيان كان الغذاء والدواء يقدم للزائر أبيض البشرة، ويحصل على المساعدة من المواطنين دون أى مقابل، أما غرب إفريقيا فقد حققت تقدمًا على شرقها، ومن الملاحظ أن سكان غرب إفريقيا لهم جذور فى شرق القارة وشمالها، وطبقًا للروايات المتواترة فإن (كوش) هو ابن (حام) حفيد (نوح) وذرية (كوش) هم (الزغاوا) و(الهابيشار) الإثيوبيون والقبط والبربر الذين ينتمون إلى قبيلة استقرت قبل المسيح فى شمال وغرب الصحراء، ونجد أن الأسطورة الحامية تذكر أن آخرين كثر يعود أصلهم إلى وادى النيل وأن أغلب أهل غرب إفريقيا، إما أنهم جاءوا أو يعتقد أنهم جاءوا من الشرق أو الشمال ويظهر أن هذا يتفق مع الروايات القبلية فى حين أن عمران غرب إفريقيا يتمثل فى أدوات العصر الحجرى التى وجدت قرب (جوس) فى شمال نيجيريا، وهذه عمرها قرابة أربعين ألف سنة، وفى سنة ١٩٣١م اكتشفت رؤوس فخارية بمنطقة (بنوك) فى مقاطعة (زاريا) وهذا ما أكد إضافة إلى ما بعده من حفريات أن هناك وجودًا

أوليًا ما قبل الحضارة فى هضبة نيجيريا، وأن تاريخ ذلك يرجع إلى ألف سنة قبل الميلاد، وأن تلك المخلوقات كانت تقيم فى قرى وتستعمل أدوات حجرية وتصنع أدوات الزينة، أما العرب، كل البلاد الواقعة جنوب الصحراء الشمالية هى بلاد السودان وهكذا فإن لغة المنطقة المعروفة الآن هى أم سودانية أو غرب سودانية[(١)] وأن الصحراء (السافانا) والمناطق المعشبة فى غرب إفريقيا تسمى السودان الغربى، بل العرب ويطلق البربر على الأرض الواقعة جنوب الصحراء اسم (أقويناوين)، ومن هذه التسمية أخذ البرتغاليون والأوربيون عمومًا اسم (غينيا)، وهى التى تشير الآن إلى حزام الغابات غرب ساحل غرب إفريقيا، أى المنطقة الواقعة جنوب السودان الغربى، وليس حقيقة أن (غينيا) مستقاة من (غانا)، أو هى ترجمة خاطئة من كلمة (غينى) وهذه كلمة من لغة (سوسو) وتعنى (امرأة) وهناك ادعاء أو نظرية تقول: إن تلك أول كلمة تعلمها البحّارة البرتغاليون من لغة محلية، ولقد كان عالم البحر الأبيض المتوسط والسودان الغربى على اتصال منذ قديم الزمان، وكانت (لبدة الكبرى) الرومانية الواقعة قرب طرابلس تمثل طرف فزان التجارى على طريق الصحراء، وفى القرن الخامس قبل الميلاد قال (هيرودوتس) أن الجرمانتيين (بربر فزان)[(٢)] فى الصحراء جنوب ليبيا الحالية هاجموا الإثيوبيين (السود)

(١) لا يوجد ما يمكن أن يسمى لغة سودانية، فالعرب هم العرب ولغتهم عربية، قبل الإسلام وبعده، وربما يقصد المؤلف اللهجة السودانية، وإذا كان ذلك هو المقصود فإن اللهجات السودانية تزيد على الثلاثمائة، وبالرجوع إلى المجلد الأول من كتاب تاريخ إفريقيا العام ويطلع على تصنيف اللغات أو اللهجات الإفريقية سيتأكد له ما نقول، علمًا بأن كتاب تاريخ إفريقيا قد صدر عن (اليونسكو) .

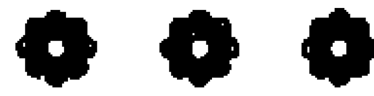
(٢) ليس صحيحًا هذا القول لأن الجرمانتيين غزوا المنطقة فعلاً من الجنوب أى أبعد من فزان، وليسوا منها ولا نعرف معنى لتعبير (بربر فزان)، وربما كلمة بربر يعنى بها المؤلف أنهم فعلا متوحشون دمروا ما وقع أمامهم من عمران، ومن المعلوم أن بطليموس قال: إن الجرمانتيين سود نوعًا ما أو أنهم شديدو السواد، وعلى الأرجح أنهم جاءوا من إثيوبيا، وما يؤكد أنهم جاءوا وهم قبائل متوحشة من جنوب ليبيا حسب ما ذكر (كامبس فايرير) عندما قال: «مع هذا يجب أن يلاحظ أن عادة استخدام وتزيين بيض النعام التى كانت إحدى خصائص الحياة القفصية استمر خلال العصر الحجرى الحديث، حتى الوقت الذى ذكرت فيه الشعوب الليبية فى السجلات التاريخية مثل الجرمانتيين، ولقد تأكد هذا بالحفائر التى جرت فى (أبونجيم) بإقليم طرابلس» - جاء هذا فى الجزء الثانى من كتاب تاريخ إفريقيا العام - إصدار هيئة اليونسكو، المترجم .

مستخدمين مركبات خفيفة تجرها الخيول، ومما يحمل على تأكيد قول هيرودوتس الرسومات العديدة التى وجدت على الصخور، وكانت تلك الرسومات قد وجدت فى طريقين متوازيين من فزان ومن مراكش إلى (تومبوكتو)، وهى فرع من نهر النيجر، وربما كان لبربر الصحراء اتصال مع الزنوج منذ حدوث الجفاف خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد عندما كانت الصحراء تكتسح الأراضى الخضراء، ومن المحتمل أن يكون الطرفان قد التقيا مرارا عندما تحولا إلى الجنوب والشمال فى الأماكن ذات الكلأ، وأخيراً فرّق جفاف الصحراء هاتين الفئتين بحيث صار الاتصال بينهما مسألة تجارة أو حرب وتلك محاولات من أجل الحياة لكل منهما (المحاربون والتجار) وما يبرر التنقل عبر محيط الرمال غالبًا وبالضرورة المتاجرة فى البضائع الفخمة التى تجلب عادة أثمانًا مجزية، والاستثناء الوحيد كان (مادة الملح) الذى ينقل فى اتجاه الجنوب من الصحراء وفى اتجاه الشرق من الأطلنطى، ومن غوينيا يأتى الذهب وتحديداً من (وانقارا) ومن المناجم التى عرفت فيما بعد باسم (شاطئ الذهب) ثم كانت الصادرات الأخرى الغوينية تتمثل فى حبوب شجرة (الكولا) وهى أحد الأشياء المنشطة التى سمح بها الإسلام، وناب العاج والملح والخيول والماشية وخرز الحلى ومصنوعات أخرى والنحاس والأقمشة، وكانت العملة المستخدمة تسمى (كورزى) وهى هندية كما هناك عملات تبادلية أخرى بجانب الكورزى كبودرة الذهب وقطع الملح الحجرى وقطع من الحديد أو النحاس، وكل هذه الأشياء لها قيمة محددة متناسبة بينها وبين الكورزى، وإضافة إلى استيراد الأقمشة والخرز الملون فإن بلدان السودان لها صناعتها المحلية كالصوف وإبر النسيج المصنوعة من العظام والحرز المصنوعة من الزجاج المذوب وهذه مازال تصنع فى منطقة (بيدا) الواقعة فى نيجيريا الجنوبية، ويظهر أن تجارة الرقيق لم تكن واحدة من أدوات التجارة السودانية حتى ظهور الإسلام فى الصحراء الغربية[1] ومن الملاحظ أن

---

(١) ليس حقيقة أن الإسلام كان سببًا فى تجارة الرقيق، بل العكس تمامًا أن الدين الإسلامى يحرم تجارة الرقيق، ويكفى دليلاً قول خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)، بل إنه يمكن الجزم أن تلك التجارة كانت أوربية أمريكية غربية . المترجم .

التغيير من الحياة القبلية إلى نوع من النظام البدائى للدولة قد أخذت به الثقافة الغوينية من شمال إفريقيا، وكان أهل شمال إفريقيا يقتنون الخيول والجمال قبل الزنوج، ولذلك فإن هذا أحد أسباب الهجرة من الشمال إلى الجنوب، وقد تكونت الدولة الإقليمية عندما قام الغزاة بتعيين حكام على المستوى الإقليمى عكس ما كان علية الحال فى تعيين الموظفين على مستوى القبيلة أو المجموعة العرقية، هذا بعد أن اندمج المحتلون فى ذلك المجتمع وورث أولئك الذين كانوا فى وقت ما مزارعي الحكم، وهكذا فإن الاستعمار الحديث عندما أعطى دولا قابلة للنمو نسبيًا لكل جزء فى إفريقيا يكون قد تقدم بهذا الأسلوب إلى الأمام .



الفصل الثالث

عرب وبربر وزنوج

الفصل الثالث

عرب وبربر وزنوج

المرابطون

من أجل أن تتّبع تقلب إمبـراطوريات إفريقيا السوداء فى غـرب السودان فإنه من الضـرورى أولاً أن تنظر بعناية إلى الشـمال، إلى عـرب وبربر شـاطئ البحـر الأبيض المتوسط موضع الحضارة الجديدة، ولقـد قيل: إن التاريخ الإفريقى ينبع إلى حد ما من الصحراء، الصحـراء التى تزهر وتخضر من الوضع الطبيعى المتـصل بسقوط الأمطار، وبحديث جـغرافى نقول: إن تغيـر الصحراء حـدث تدريجيًا ذلك أن التصـور المبدئى يقول: إن ساحل البحر الأبيض المتوسط الإفـريقى كان أخضر، ولكن يظهر أن سقوط الأمطار على الساحل قد تغير قليلاً خلال الألفين وخمسمائة سنة الماضية على الأقل، ومع ذلك فـإن (لبـدة الكبـرى) ماتزال فى ذلك الـوقت بها سـتـون ألفًـا من السكان، وتتزود بمائها الكافى لحوضهـا وحماماتها العامة بحسب مستـوى سقوط الأمطار كما هى الآن أى سبعة أو ثمانية أنشئت سنويًا وأحيانًا أقل، ولقد كانت المنطقة تمثل مخزن حبوب رومـا أو حتى أكثر فى زمن قـرطاج ـ كانت الفيلة مألوفة فى المـنطقة، وكذلك أعداد كبيـرة من الحيوانات وكما أثبت (بوفيل) أن كل الإنجازات الإنسـانية والزراعية كانت نتـيجة الاستـخدام الحازم للرى،وكـانت بعض البلدات تحصل على ميـاهها من مسافات تصل إلى عشـرين ميلاً، بل إن قرطاج يأتيها الماء من مسافـة تبلغ تسعين ميلاً بواسطة قنوات عـديدة، واليوم فـإن احتيـاج المزارع العربى فى مـنطقة البحـر الأبيض المتوسط محدود بجالون ونصف الجالون يومـياً وهو ما يوازى خمس استهلاك المزارع الإفريقى فى إفريقيا الاستوائية، ونظراً لاحـتمال أن هذه الاحتياجات المائية فى الأزمنة القديمة لم تكن كـثيرة يمكننا القـول: إن نسبة ثمـانية جالونات من سـقوط الأمطار فى

طرابلس الغرب يكون كافيًا لمحصول جيد، ويذكر أنه عندما وصل (هارديان) إلى إفريقيا علمنا أن هطول الأمطار كان وافراً لأول مرة منذ خمس سنوات في حين كانت الأرض كانت قاحلة وبذلك فإن شاطئ الصحراء قد اخضر والشكر ليس للطبيعة، وإنما لله، ثم للمهندسين الرومان، وفي سرت وهي الآن الشاطئ الأوسط الليبي، فإن الجفاف قد وصل أعلى درجة بلا إمكانية للنمو ، ولهذا فإنه أينما توقف الحرث مع انهيار السدود الرومانية والأحواض الكثيرة، فإن الرمال تنتشر بسرعة وخلال عقود قليلة تختفي المدن تحتها وبجانب الطبيعة كان هناك من أحدث الخراب إنهم (الهلالية) قبيلة الهلالية عرب مصر[1] وهم عكس الغزاة العرب خلال القرنين السابع والثامن الميلادي ذلك أن بني هلال دمروا ولم يحفظوا أو يقدموا شيئا في المقابل.

إن الوديان الجافة التي هي من مظاهر الصحراء هي في الواقع من صنع الطبيعة ولقد كانت أنهاراً قبل زمن الإنسان عندما كان هطول الأمطار وافراً بعضها تبقى مياهها متدفقة كل السنة، والحيوانات الكبيرة عاشت إلى وقت قريب مثل السباع والنعام والوعول، والآن لم نعد نراها في وقتنا الحاضر إلا في الأطالس، وربما تكون النمور باقية في المعاقل المراكشية إلا أن الفيل وهو أصغر من ذلك الذي يوجد في إفريقيا الاستوائية كان قد انقرض بسبب الصيد في بداية العصر المسيحي، وكان كذلك قد استعمل في الحروب، وطبقا للملاحظات (بوفيل) فإن عدداً كبيراً من الحيوانات كانت تقتل أثناء الألعاب الرومانية، وفي واحدة من تلك المناسبات التذكارية حدث خلال ظهيرة يوم واحد أن مات ستمائة سبع في تقاتل مع المصارعين، وقد احتفل (تيتوس) بالتمثال العظيم خلال تلك الألعاب مما كلفه تسعة آلاف بهيمة وعدة آلاف من المصارعين، على أن المدمر الرئيسي للحيوانات كان الجفاف وتعدي الإنسان الذي يؤدي إلى تدمير الغابات، أما حيوانات الصحراء المقيمة فهي الزرافة

(١) هذا قول مغلوط، فالهلالية ليسوا أصلاً من مصر، نعم هم عرب جاءوا من الجزيرة العربية؛ حيث أقاموا لبعض الوقت بصعيد مصر على عهد الدولة الفاطمية، ثم لأسباب سياسية شجعهم الحاكم الفاطمي بالزحف على الشمال الإفريقي. المترجم.

والظبى وقرد الرمال والفهد وثعلب الصحراء وبعض الغزلان وربما بعض السباع والنمور، والعديد من هذه الحيوانات تبقى بدون شرب مياه لشهور أو سنوات، وبعض النعاج وماعز الصحراء والجحوش لا تشرب من الولادة إلى الموت، أما (١) الجمال فهى تشرب فقط عندما تكون فى الخدمة وبعض جمال منطقة البحر الأحمر تشرب مياه البحر، ونعلم أن حياة الصحراء التى كانت صعبة أو هى مستحيلة للحيوان هى كذلك صعبة على الإنسان، وكان الراعى البدوى الذى يعتاد عليها، وشدته كانت دائمًا من الحياة والقتال للاحتفاظ بالآبار أو احتلال آبار الآخرين عند الاحتياج، ولذلك فإن بدو الصحراء يعيشون كما كانوا دائمًا بتحولهم وتنقلاتهم إلى المناطق الخضراء عند اللزوم، وفى هذه الظروف يعيش الإنسان حياة قصيرة، وتاريخيًا عندما لا توفر الصحراء المرعى على مدار السنة وتجف الآبار، فإن البدوى يمكن أن يستولى أو حتى يحتل المناطق الخضراء، ولذلك فإن الشجاعة وسرعة الحركة واحتمال شدة الصحراء دائمًا تجعله عدوانيًا جاهزًا وقت الحراثة، ومن هنا فإن المعارك أو الحروب تمثل جزءًا من تاريخ غرب السودان، وبسبب هكذا حال فإنه لم يكن هناك موقع دفاع حقيقى ثابت حتى إن الحاكم الفرعونى الحادى عشر أقام حائطًا يمتد من (هيليوبوليس إلى بيلسيوم) للدفاع ضد البدو، كما أقام الأشوريون حاجزًا على الفرات ضد الغزاة، وأقام الفرس حائطًا لمنع غزوات قبائل الهون الهمج، وكان حائط الصين العظيم من أجل مراقبة المنغوليين، ولم يكن هناك مثل هذا الدفاع المثالى، ولا حتى صارت محاولة لإقامة هكذا حاجز دفاع على الجانب الغربى من الصحراء، والدفاع الأمثل والمناسب تقيمه حكومة قوية وإدارة جيدة قادرة على أن تستدعى قوة معدة للدفاع، ومثل هذه الحكومة فى النهاية ظهرت، وبذلك لم تتكرر هجمات البدو خلال القرون الأخيرة ولا توجد حاليا، ولكن هذه الحكومة القوية عندما تواجه

(١) لا نعرف من أين جاء أو استقى هذا المؤلف معلوماته تلك عن حياة الحيوانات فى الصحراء والقول: إن بعضها لا يشرب الماء مدى الحياة، وهذا قول مجاف للحقيقة تمامًا، ولسنا نعرف أو نعلم بشيء من هذا؛ لأن الكثير منها يشرب الماء ربما يوميًا ولا يعيش لفترة طويلة بدون ماء باستثناء الجمل. المترجم .

الهجمات أحيانًا تذهب بعيدًا بحيث تضع حدًا لتلك الهجمات حتى السلمية منها التى يقوم بها الرعاة الذين تبعًا لذلك يرغمون على الدفاع عن أنفسهم وعن تلك الأرض الصحراوية المقيمين بها، وتلك واحدة من نماذج الصراع فى المناطق العالية بغرب إفريقيا، ومعروف أن مصادر الصحراء الفقيرة أصلاً قد استهلكت مما زاد فى الجفاف وقلل عدد الواحات، وفى الزمن القريب حدث أن حملات الرقيق فى غرب إفريقيا أثر على الواحات ذلك أن الصحراويين الرعاة يكرهون الزراعة ويكلفون زنوجهم الأرقاء بزراعة تلك الواحات، ويحدث أنه خلال الفصول الجافة فى الجانب الصحراوى المعشب تقوم الشعوب المسلمة بالهجوم على زنوج غينيا لاسترقاقهم، وعندما يزيد عدد الرقيق يبيعون الزائد منه فى الصحراء ذاتها[1] وعندما قامت الإدارة البريطانية ثم الفرنسية بمنع تجارة الرقيق أهمل (لوردات) الصحراء تلك الواحات بحيث غطت الرمال بعضها، ويلاحظ أن القبائل الصحراوية من أجل سرعة الحركة قللت من الاعتماد على الحيوانات فى تنقلاتها فمثلاً الثور بحمله يحتاج الماء مرتين فى الأسبوع، أما الجمل فيحتاج الماء ثلاث مرات فى الشهر وكلاهما يقطع حوالى عشرين ميلاً فى اليوم ويحملان نفس الوزن، وإن كان الثور يحتاج وقتًا أطول ليقطع نفس المسافة فى حين أن جمل الركوب (المهرى) أسرع كثيرًا من جمل الحمولة، وربما يكون حيوان الصحراء الأساسى هو الحمار الذى يقطع هو الآخر حوالى عشرين ميلاً فى اليوم ويحمل حوالى نفس الوزن الذى يحمله الجمل أو الثور ولا يحتاج للماء[2] وكان الجمل قد جاء به الفرس إلى مصر فى القرن السادس قبل الميلاد، ولكن ذلك

---

(١) هذه مغالطة تاريخية أخرى لا يمكن أن نعتبرها خطأ فى المعلومات، وإنما هى قصد الإساءة إلى المسلمين ذلك أن تجارة الرقيق كانت قبل الإسلام، والأوربيون أنفسهم فعلوا ذلك فى وقت ما وعندما جاء الإسلام حرم استعباد الناس ويكفى أن نردد ما قاله خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)، ومع ذلك فإن ما يحدث الآن من بعض الكتاب الأوربيين وكذلك بعض المنظمات الأوربية يقصد الإساءة إلى الإسلام كما حدث مع المرتد (سلمان رشدى)، والمنافقة البنجلاديشية (نسرين).

(٢) معلومات هذا المؤلف مع الأسف رغم قيمة كتابه التاريخية عن الحيوانات ضئيلة جدًا، فالحيوان الوحيد الذى لا يحتاج كثيرًا للماء هو الجمل، وليس الحمار ولا الثور . المترجم .

الجمل لم يكن داجنًا، ولم يستمر طويلاً عبر ذلك التاريخ، وكان أوائل الناس الذين عبروا الصحراء بدون بهائم محملة، وفى وقت هيرودوتس الذى سمع رواية تقول خمسة من الرجال اتجهوا غربًا ومعهم الماء والغذاء وبعد أسابيع من السفر وصلوا مكانًا به أشجار مليئة بالفاكهة وعندما كانوا يجمعون تلك الفاكهة فوجئوا بأناس يقبضون عليهم قالوا عنهم فيما بعد إنهم أقزام سود وقد نقلوهم عبر مستنقعات إلى بلد يقع على نهر يجرى من الشرق إلى الغرب، وكان مليئًا بالتماسيح ولكنهم فى النهاية أفرجوا عنهم ليعودوا عبر الصحراء إلى بلادهم، ولقد اعتقد هيرودوتس مثل الذين ذكروا له الرواية أن أولئك الناس كانوا قد وصلوا الجزء الأعلى من مرتفعات النيل، ولكن من المتوقع أن ذلك الذى شاهدوه كان نهر النيجر، ولقد كانت أعظم التأثيرات الحضارية فى إفريقيا آتية من قرطاج أثناء احتلالهم الذى امتد ألف سنة لإفريقيا البحر الأبيض المتوسط، وكان الأعمام القرطاجنّى أساسًا تجاريًا حيث إنهم خاضوا فى البحر الأبيض المتوسط الغربى وتجاوزوه فيما بعد إلى (أعمدة هيروكليس) جبل طارق حاليًا، وأخيراً فإن الاهتمام التجارى والسياسى أجبر القرطاجيين على خلق إمبراطورية فى إفريقيا حيث الموانئ الطبيعية التى كانت صالحة كقاعدة مثالية لشعب تجارى، وكانت كذلك قرطاج نفسها ميناء ممتازاً يقع على رأس بحرى يمكن الدفاع عنه بيسر وهو قريب من طرق التجارة الكبيرة، ومدينتهم الثانية قادس (قاديز) تمثل مكانًا مناسبًا لمراقبة الممرات فى جبل طارق من الجانب الآخر ولم تكن هناك اتفاقية تجارية بين الإمبراطورية القرطاجنية والرومان، وحدث أن باخرة رومانية أجبرتها الأحوال الجوية على اللجوء إلى أحد الموانئ القرطاجنية، وكان عليها أن تبحر فوراً بعد مجرد انتهاء الإصلاح ولم يكن من حق أحد النفاذ من خلال تلك الممرات غير القرطاجيين، وذكر كاتب رومانى كيف أن ربانًا من قاديس كان متجهًا إلى (كورنوول) وجد نفسه محاصراً بواسطة سفن رومانية وكان كل الساحل الإفريقى غرب برقة (ليبيا الحديثة) منطقة قرطاجية، وكان المنتج الرئيسى فى تجارة القرطاجيين هو الياقوت والذهب والرقيق الأبيض والعاج وريش النعام، الأخيران يأتيان من شمال

إفريقيا نفسها، بينما طريق فزان أساسًا كانت طريق نقل الذهب، وكانوا يصدرون الرقيق إلى الشمال ويحتفظون بالبعض لأنفسهم والبعض الآخر يبيعونه، وكان المصدر الرئيس لهذه البضاعة جزراً تبيع أربعة رجال بامرأة واحدة، ولم يكن الرقيق الزنجي مظهراً بارزاً فى ملك القرطاجيين على الرغم من أنه كان هناك زنوج قرطاجيون (أحرار وأرقاء)، وكذلك زنوج يخدمون فى الجيش القرطاجنى الذى قام بغزو (سيسيليا) خلال القرن الخامس قبل الميلاد كما عرف فيما بعد من جماجم موتى المقابر القرطاجية، ويذكر (فرونتينوس) أن أسرى الحرب القرطاجيين كانوا يستعرضون عرايا أمام اليونانيين كإهانة لقرطاج أمام المشاهدين،وكان رقيق القرطاجيين يتم إما بالشراء أو بالأسر فى الحرب وهم يقومون أحيانًا بحملات صغيرة من أجل ذلك، وقرطاج كان لديها مزارعون بربر من الصحراء المجاورة الذين تقوم باسترقاقهم عند الطلب، ولابد أن بعض الرقيق من الزنوج كان يأتى من فزان فى صحراء ليبيا الجنوبية، وأن الجرمانتيين هم الذين كانوا يصطادون الزنوج ليبيعونهم، وكانت قرطاج تمثل الزبون الجيد للجرمانتيين كما أن الذهب أيضًا وصل قرطاج بواسطة الجرمانتيين من فزان إلى لبده الكبرى، وكان الطريق الآخر للذهب هو ممر (تاغار) من النيجر فى (تمبوكتو) إلى سيلجيماسة بمراكش، بينما بقى مكان الذهب الأصلى سراً تمت المحافظة عليه بشدة لمدة ألفى سنة، وفى تقديرات (هيرودوتس) أنه كان له مصدران معروفان منطقة فى ليبيا وأخرى خلف أعمدة هيروكليس(1) وفيما يظهر أن هيرودوتس لم يكن يعرف أين (وانقار) والبلد المنتج للذهب أو الذى فى أرضه الذهب خلف أعمدة هيركليس عندما شرح كيف ومتى جاء التجار إلى البلد الساحلى (غانا الحديثة) حيث كان يوضع المنتج القادم من بعيد من السفن على الشاطئ ويعود التجار إلى سفنهم ليعلنوا بواسطة إشارة دخان، حيث يخرج السكان

(1) ممر جبل طارق ويظهر أن تلك التسمية - أعمدة هيروكليس - كانت قبل الإسلام أو قل الأقل قبل عبور المسلمين إلى أوربا فى تلك الحملة الشهيرة بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد، والعالم يعرفه الآن باسم (قفرلتار) أى: جبل طارق محرفًا . المترجم.

من الغابة المختفين فيها ليضعوا الذهب بجانب البضاعة، ثم ينسحبوا إلى الغابة مرة أخرى وهنا يعود التجار القرطاجيون إلى الشاطئ ليعرفوا كم من الذهب وضع بجانب البضاعة فإذا ما وجدوا أنه كاف أخذوه وذهبوا وإذا لم يكن كافيًا يعودون إلى سفنهم ليطلقوا إشارة دخان أخرى وينتظروا فيخرج السكان ليضعوا مزيدا من الذهب، وهكذا يستمر الحال إلى أن يكتفى الطرفان، وكان السبب فى هذه الطريقة وهذا التعامل ربما هو الخوف بالنسبة للسكان من الاسترقاق، ومن المحتمل أن القرطاجيين قد أرسلوا حملتهم الشهيرة خلال القرن الخامس قبل الميلاد تلك الحملة المكونة من ستين سفينة وعدة آلاف من الرجال والنساء بغرض إنشاء مستعمرات على ساحل إفريقيا الغربى، كانت الحملة بقيادة (سوفيت كانو) وعلى مسافة يومين من جبل طارق أنشأ (هانو ثسمياتيريو) مستعمرة تعرف الآن باسم المهدية على مدخل وادى سيبو، ثم أبعد إلى الأسفل أقام الرواد معبداً، ثم استمروا فى اتجاه الجنوب ليقيموا خمسة مستعمرات أخرى وبعدها واصلوا الرحلة وكانت المستعمرة الأخرى ربما (أرقوين الحديثة) على الشاطئ الأطلسى وبعدها وجدوا نهراً مليئًا بالتماسيح وأفراس الماء، وكانت تلك هى (سانت لويس الحديثة) بالسنغال، وهذا النهر لو أمكنهم أن يعرفوا كان يقود إلى حقول الذهب فى (وانقارا) ونهر آخر وصلوه بعد الأول هو الآن (غابيا) وكانت الرحلة جنوبًا من هناك قد أظهرت لهم ما يمكن أن يكون انفجاراً بركانيًا هو غالبًا جبال الكاميرون ولقد عثروا على خليج أسموه (القرن الجنوبى) وهو الذى يمكن أن يكون (وقوو)، وهنا وصلوا جزيرة مليئة بالهمج وهم ناس ذوو شعور أغلبهم من النساء، واعتقدوا أن هؤلاء (غوريلات) فحاولوا القبض على رجل منهم إلا أنهم فشلوا فى الوصول إليه فقبضوا على ثلاث نساء أخذوهن وقاموا بضربهن حتى الموت، ثم أخذوا جلودهن إلى قرطاج (وفى نظر العلم الحديث أن الضحايا كن من نسل أقزام)، ثم عندما بدأت المواد الغذائية تنفد من الحملة توجهت شمالا، وأخيراً وجدت سفنهم طريقها إلى قرطاج، ومن الواضح أن الرحلة إلى الجنوب كانت من أجل البحث عن الذهب، وعدم الإشارة إلى تفاصيل تلك

الرحلة يؤكد أن ذلك هو الغرض أى البحث عن الذهب ليبقى كل شيء سراً، وكان أوائل الأوربيين الذين اكتشفوا الساحل هم البرتغاليون فى عهد الأمير (هنرى دى نيفيقاتور) وهم أيضًا كانوا فى طلب معرفة أماكن وتجارة الذهب، وربما كان هؤلاء قد تشجعوا للذهاب أبعد فى الجنوب أى إلى الرأس نفسه، معتمدين على خرافة غير حقيقية تقول: إن الأشوريين بقيادة الفرعون (نيخو فى سنوات ٦٠٩-٥٨٨) قبل الميلاد قد طافوا حول القارة بحراً، وعندما هزمت روما قرطاج ورثت مسئولياتها الإمبراطورية، ومن غير مناطق إفريقيا حول قرطاج قرر الرومان أن يتركوا البقية للحكام المحليين وهكذا يكونون قد وضعوا سابقة للحكم غير المباشر وأعطوا اسما للقارة بحيث اقترن اسمها مع مدينة قرطاج وأشير إليه فى الاتفاقية بين باى تونس حسين باشا وفرنسا سنة ١٨٣٠م، وقد سميت مملكته باسم (مملكة إفريقيا) علمًا بأنه أثناء زمن الأباطرة كانت سواحل المغرب من لبده إلى أعمدة هيروكليس جزءاً من الإقليم وكأى مستعمر آخر وجد الرومان أن مسئولياتهم تزداد سنة بعد سنة وأن انتفاضات البدو جعلت الطرف الساحلى من إفريقيا أصعب من أن يحافظ عليه، وربما لعدم تقدير تنقلات البدو الفصلية وضروراتهم الاقتصادية خلال الفصول الجافة وبحثهم عن المرعى لماشيتهم فى المناطق الرعوية عجز الرومان عن إبقاء البدو مسالمين أو جعل المحاربين منهم دومًا فى الصحراء، ومحاولات الرومان إبقاء البربر دومًا فى الخليج جعلت كل البدو أعداء أشداء لروما وبذلك تحولت خيمهم وواحاتهم مأوى جيداً للمتمردين على الإمبراطورية ولهذا حاول الرومان وضع قواعد فى الواحات، ومن خلال المدن الثلاثة (لبده - اويا - سبراتا) هذه المدن التى استقت منها طرابلس اسمها الحالى استأنف الرومان التجارة التى كانت تقوم بها قرطاج مع المحاربين الجرمانتيين، ولكن تلك العداوة بين الصحراء وروما سرعان ما ظهرت فى هذه المناطق كذلك، وكان هيرودوتس قد وصف الجرمانتيين بأنهم أقوياء جداً، أما (تاسيتوس) فقد قال: إنهم لا يغلبون، وهؤلاء عاشوا فى واحات متناثرة بفزان التى كان يطلق عليها اسم (فزانيا) فى حين كانت عاصمتهم هى (جاراما) أى (جرمه الحديثة) أما

أراضيهم فقد امتدت شرقا إلى النيل وشمالا إلى شاطئ سرت على البحر الأبيض المتوسط وهم أصلا من القوقاز واندمجوا مع عبيدهم الأرقاء، واعتنقوا الديانة المصرية ويظهر أنهم مثل بقية البدو فضّلوا التجارة مع قرطاج كشريك تجارى ساحلى، فضلوها على العسكرية الرومانية حيث كان التماس مع روما دائمًا، وخلال عدة عقود قبل الميلاد أخذ الرومان قرارًا هامًا بخصوص إرسال جيش إلى فزان للتخلص من مشاكل القبيلة التى تتكلم اللغة البربرية؛ لأنها ساعدت المتمرد (قايتولى) ضد المستعمرين وبالنظر إلى هذا القرار المتعسف بوضع قوات فى الصحراء يمكننا أن نتصور أن الرومان قد أخذوه بعد العديد من الاختراقات والتجاوزات، ولقد وضعت قوات الصحراء تلك تحت قيادة الإسبانى (لوشيوس كارنيلوس بالبوس)، وكانت حملته ناجحة، ولهذا فإن (بالبوس) صار أول أجنبى يكرم كبطل منتصر عند عودته إلى روما، وبقى هذا الاحتلال دون أن يتحداه أحد على مدى قرنين من الزمان تقريبًا، ثم فى سنة ٦٩ دخلت (لبدة) فى حرب مع (أويا) بعد أن طلبت مساعدة من الجرمانتيين فأسرع نائب (نوميديا) بمساعدة لبده وهزم (أويا) وحلفاءها، وكان يمكن للجرمانتيين أن يدفعوا بالأخيرة بعيدًا إلى الصحراء لو لم تكن هناك أسباب أخرى، وعند هذا الحد توصل الرومان والجرمانتيين إلى سلام المحاربين خلال السنوات اللاحقة، وقد ساعدت واحدة من قبائل الصحراء الرومان بحيث قاموا برحلتين طويلتين على ظهور الجمال عبر الصحراء حتى وصلوا (تيبيستى) وكان الجمل فى هذا الوقت مظهرًا جديدًا فى مواصلات الصحراء، حيث إن الرومان قد شاهدوا الجمل المدجن لأول مرة فى سنة ٤٦ قبل الميلاد عندما استولوا على اثنين وعشرين جملاً من البربر غير النظاميين، وربما يكون الجمل وصل الصحراء الغربية بواسطة بربر (زناتا) وهؤلاء هم الذين أسسوا حكم المريدين بفاس وتلمسان، ويظهر أن أصل زناتا من شرق برقة (غرب مصر الحديثة) وعلى ظهور جمالهم وصلوا واستقروا عند الأطلسى فى جبال مراكش، أما استخدام الرومان للجمل وسيلة نقل فربما جاء بعد فترة من ذلك، ولهذا صار الجمل وسيلة الحرب فى الصحراء لأكثر من ألفى سنة، ربما مثل

دور القوة الجوية فى الجيوش الحديثة؛ لأنه يتمتع بالسرعة وقوة الحركة والمسافات الطويلة فى العمل التى لم يكن يحلم بها أحد وذلك أدى إلى نهاية عصر حروب العشيرة (فى المناطق القريبة) إلى عصر الحروب الإفريقية الواسعة (البعيدة) كذلك مكّن من تقريب الموانئ البعيدة مثل لبده ككل جماعة تجارية فى الصحراء، وبقيادة (سيبتوس سيفيروس) الذى أصبح إمبراطوراً سنة ١٩٣م وصلت لبده قمة مجدها، هذا القرطاجى الذى ولد ببلده ومات سنة ٢١١م[1] جعل موانئ البحر الأبيض المتوسط هامة بسبب تجارة الذهب والياقوت، وبذلك تمكن من تعزيز دفاعات طرابلس الغرب، وعمومًا عمل على بناء دولته الوطنية حيث أنشأ معاصر الزيتون، واستنبت عشرات الآلاف من هذه الأشجار التى مازال البعض منها باقيًا إلى يومنا هذا، ومن المعروف أن الكثير من تاريخ الصحراء مازال غير كامل وسيبقى، وفى هقار البعيدة فى وسط الصحراء بالقرب من (عباليسا) تقف آثار قلعة خضمة فى شكل مازال يستعمله الأهالى (التيبو) فى تيبيستى ولكن ليس بواسطو التوارق الحاليين، وتذكر الروايات الشعبية دائمًا أنه كان بيت الملكة (تين هانان) التى جاءت من (تافلت) فى جنوب مراكش على جمل أبيض ومنها تكونت قبيلة التوارق المحليين، ولقد كشف البحث عن قبر وكان يحوى عظام امرأة من نوع الأسرة الفرعونية وعلى ذراعى جثتها أسورة من الفضة والذهب، وعلى صدرها أقراط من الحجر الكريم وحبوب أخرى كما حوى القبر أيضًا حبوب تمر وبقل وإناء حليب رومانى وعملة حديدية قسطانطينية وهدايا أخرى، أما من أين جاءت (تين هنان) ولماذا وكيف؟ ثم كيف أصبحت حاكمة لمنطقة متوحشة بعيدة فلم يوجد له تفسيراً أبداً، ومن كل أولئك الناس البيض فى الصحراء والذين أطلق عليهم الرومان اسم (الليبيين) وقال عنهم العرب إنهم بربر فإن الأهم فى الأزمنة القديمة ما لا خلاف عليه أنهم توارق (فرد تارقى) وكان هؤلاء الناس منذ ما قبل ألف سنة بعد

(١) سيفيروس (١٤٦-٢١١) أصبح إمبراطوراً (١٩٣-٢١١) ولد بلبده (إفريقيا - ليبيا الآن)، ارتقى العرش بالقوة، وقضى على خصومه، ونشر السلام فى الإمبراطورية بإخضاع الثورات التى نشبت فى بلاد ما بين النهرين وبلاد الغال وبريطانيا، أقام أجمل المنشآت فى روما . المترجم

الميلاد يضعـون اللثام على وجوههم، ومن المحـتمل أنه لأسباب دينية قـديمة انتهت الآن، ولذلك فى العربيـة الحديثة يسمون (الملثـمين) وهـم مقسّمـون بين قبائل، والقبـيلة المهمة تاريخيًا هى قبـيلة (سانهـاجا) وهناك نوعـان من الأمازيغ (الأمـازيغ والأمغـاد) ولسان لغتهم يكتب بحروف (التيفيناغ) وهو جـزئيًا آت من اللغة العربية القديمة على الرغم من أن التـوارق المسلمين كمـا ذكر (بوفـيل) يظهـر أنهم كانوا من أتبـاع (ميـثراس) لبـعض الوقت من تاريخهم الماضى، وكانت هناك تقـاليد مسيحية كذلك فهـم مثلاً لا يتزوجون إلا امرأة واحـدة ويتزينون بالصليب ويستـخدمونه فى الجـواهر وفى دروعهم وسيـوفهم مقابضها فى شكل صليب، وكذلك فـإن مرافد سروج جمالهم تصنع فى شكل صليب، وهناك أشياء كثيرة فى حلية التارقى اليومية فـيها صلبان وأدلة أخرى على تأثير المسيحية فى تاريخـهم الماضى مثل إشـراك الملائكة فى تصورهم لله وإطلاق أسـماء (صـمويل - داوود - شاؤول) على أنفسـهم، أن التوارق الذين يركبون الجمـال يسيطرون على طريق غدامس غات (فى اتجـاه بلاد الهوسا) كذلك على طريق (لبـده أو طرابلس فزان وطريق كـاوار) طريق الجرمـانتـيين إلى بورنو ومملكة نهـر تشاد، وطـريق برقة الكفـرة واداى، ويشتركون مع (سيـجيلماسة)[1] فى طريق (والاتا) مع العـرب البربر وبكلام واضح، فإن التـوارق يشتركـون فى كل الصحـراء وفى الجانب الشمـالى مما نسمـيه نحن الآن غـرب السودان مع المهـاجريـن العرب واليـهود، على أن العـرب واليـهود يحـافظون بدرجة كبيـرة على هوياتهم المتميزة عن البربر فى الصحـراء وإن كانوا قد اختلطوا مع السكان فى المناطق الكثيفـة بأراضى الزنوج فى السـودان، أما الهـجرتان اليـهوديتـان فيظهر أنـهما التقتـا عند سلسلة (فوتا) بمنطقة الوسط والشـمال فى غينيا الحـديثة، أما الفولانى الـذين توزعوا من هناك عـبر المناطق العـالية فى غرب إفـريقيـا وتحديداً عـبر شمال نيجيريا فقد دخلوا فى المجتمع اليهودى على الرغم من أنهم مثل كل الناس فى

(١) سيجيلماسة بلدة قديمة فى المغرب كانت تسمى (تافيلالت)، وهى اليوم إطلاق تقع على الشاطئ الأيسر لوادى (زيز) قيل: إنها شيدت عام ٧٢٨م وقد بناها بربر مكناس وحكمها (بنو مدرار) سنة ٧٧١- ٧٧٢م واستولى عليها جوهر القائد، ثم وقعت فى قبضة عبدالله بن ياسين (١٠٥٥- ١٠٥٦) زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥١م، وقال: إنها من أجمل البلدان. المترجم .

غرب السودان اليوم مسلمون، ومن القرن الرابع إلى القرن السابع فإن شمال إفريقيا ضربت بانتفاضات دينية ونزاعات حربية حيث بدأ التقدم العربى من غرب مصر فى سنة ٦٤٢م، وكان التيار الدينى فى ذلك الوقت يدعو إلى كثير من الاحتلال فى المناطق الجديدة، وكان المغرب هو الهدف الحقيقى، ولقد تكررت الحملة فى سنة ٦٧٨م بقيادة عقبة بن نافع حيث تقدم منتصراً إلى الأطلنطى، واقتحم بحصانه المحيط تأكيداً لانتصاره، على أن انتصاراته العسكرية توحى بأنها لن تطول ذلك أن البربر فى كل مكان انتفضوا بقيادة أحد ملوكهم ويدعى (كسيلة) وذلك بمساعدة اليونانيين الذين أزعجهم الانتشار العربى[1] لكن المحاربين الصحراويين (يقصد البربر) قتلوا (عقبة) وقضوا على قواته قرب (بيسكرا) سنة ٦٨٣م وهدموا القيروان[2] كما دفعوا الباقى من المهاجمين إلى أرض مصر، وأخيراً وخلال سنوات قليلة قام حاكم مصر بإعداد حملة جديدة لاحتلال المغرب، وقد أعاد بناء القيروان وهدم مقر التجارة الكبير فى قرطاج، وفى هذا الوقت اتحد البربر تحت قيادة امرأة من (زناتا) ذات صوت جهورى متنبئة تدعى (الكاهنة)، وقد أوقفت العرب عند الخليج سنة ٧٠٣م، ثم هزمتهم لكن نصرها كان قصير العمر ولم تمر خمس سنوات حتى قام العرب بقيادة موسى بن نصير بهجمة جديدة أوصلتهم شواطئ الأطلنطى وهكذا تحول آلاف من البربر إلى دين الإسلام وبمساعدة هؤلاء المحاربين تقدم فرسان العرب ليقتحموا إسبانيا سنة ٧١١م، وعلى الرغم من سجلهم السالب فى الثقافة

(١) هكذا هى الحال دائمًا فإن الغازى والطامع الأجنبى يبحث عن الأقليات لاستخدامها فى أغراضه ومطامعه الخاصة، وليس رغبة فى مساعدتها حتى لو كانت فعلا مضطهدة وهو الشيء الذى لم يحدث من المسلمين؛ لأن دعوة الإسلام هى التسامح والحسنى. المترجم .

(٢) هذه مغالطة أتى بها المؤلف ولا نعرف لماذا ؟ وما نعرفه نحن أن القيروان مدينة بتونس، وقد أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠م، وصارت مقراً للحكام العرب المسلمين بغرب إفريقيا إلى سنة ٨٠٠م، ثم صارت عاصمة للفاطميين سنة ٩٠٩م، وأقام بها المسلمون جامعًا شهيراً هو (جامع القيروان) . المترجم .

والسياسة فى إفريقيا، فقد قدّم العرب فى إسبانيا أعمالاً جليلة فى الثقافة والسياسة، وأن الثقافة الإسبانية والبرتغالية تدين لهم بالكثير، أما احتلالهم للمغرب فقد كان يواجه التحدى دائمًا ذلك أنه خلال الثلاثة قرون كانت الحروب فيها أكثر من السلام، وأخيراً خلال القرن الحادى عشر الميلادى طرد البربر العرب مرة أخرى شرقا إلى النيل[١] ثم خلال عقود قليلة قام العرب البدو من بنى هلال وبنى سليم بعد أن تركوا أرضهم العربية بتحدى مواقع البربر الحصينة، بعد أن قام الخليفة الفاطمى الحاكم فى القاهرة بتشجيعهم على ذلك رغبة فى التخلص منهم، وكان هؤلاء المائتا ألف بدوى محاربين لا يهزمون مثلهم مثل بقية التوارق، وقد استقرت قبيلة بنى سليم فى برقة أما قبيلة بنى هلال فقد اندفعت غربًا زارعة عملاً مريراً من الدماء، وهكذا فإن المؤرخ العظيم (ابن خلدون) قد وصفهم على أنهم مثل الجراد فى انتشارهم حيث إنهم جففوا الواحات، وسرعان ما قضوا على الباقى من الغابات، وفرضوا ثقافة لم تنهض عمليًا أبعد من حد السيف[٢] أما البربر وهم من الناس الغيورين على نقاء جنسهم المعروف فى التاريخ فقد انسحبوا إلى المناطق الجبلية جنوب مراكش والصحراء الوسطى، حتى إن (بوفيل) كتب يقول: إن التصميم الذى على أساسه حافظ البربر على نقاء جنسهم أثار إعجاب علماء الأجناس باستمرار وبالرغم من دخول الفينيقيين إلى بلادهم، وكذلك الرومان

(١) لم تذكر لنا كل المصادر التاريخية شيئًا كهذا؛ إذ إن إسلام البربر وحّد بينهم وبين بقية العرب المسلمين، وهنا نجد المؤلف يخالف أحداث التاريخ عندما يتحدث عن حملة بنى هلال وبنى سليم . المترجم .

(٢) الواقع أن المؤلف ليس فقط يخالف أحداث التاريخ، وإنما يتجنى على الحقائق، فمثلاً قال: إن البربر طردوا العرب خلال القرن الحادى عشر شرقًا إلى النيل، وأنه بعد عدة قرون جاء الهلالية وسليم، وهذا غير صحيح تاريخيًا لأن بنى هلال وبنى سليم هم الذين جاءوا خلال القرن الحادى عشر وليس بعده، وكان فعلاً الحاكم الفاطمى قد شجعهم على ذلك؛ لأسباب سياسية وخلافات بينه وبين أمراء الشمال الإفريقى، ونقرر هنا وفقًا للتاريخ أن البربر لم يطردوا العرب، وأن مجيء بنى هلال وسليم كان خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر، وأن تجفيف الواحات وغيره لم يحدث كما قال المؤلف. المترجم .

والوندال والدم العربى، فإنه قد لوحظ ندرة فى الدم الأجنبى بينهم، وبشكل خاص كيف أن العرب والبربر فشلوا تمامًا فى مسألة الاندماج برغم أنهم عاشوا متقاربين على مدى أكثر من ألف سنة تلك التى فرض فيها العربى دينه ولغته[1] وطريقة عيشه ولبسه وعاداته على أوسع مدى وأكبر جزء من البربر، لكن هؤلاء البربر حافظوا على نوع جنسهم فى جبال الأوراس، فمثلاً هناك فقط نسبة ٣٥٪ من البربر لون عيونهم أسود أو عسلى، ولقد بقى العرب غالبًا رعاة يعيشون فى الخيام متعصبين كثيري الشكوك بتنظيمات قبلية إقطاعية، أما البربر فى الجانب الآخر فيعيشون فى المدن والقرى وهم عادة ديموقراطيون على أن البربرى أحيانًا يثور متعصبًا، وقلما يتأثر بالحماس الدينى، وهم مثل اليهود يتزاوجون عندما يجدون أنفسهم بين الشعوب الزنجية، ولكن يحاولون إبعاد أنفسهم عن جيرانهم العرب[2]، وهناك نتيجة واحدة من احتلال العرب للصحراء الغربية وهى أنهم أتوا بالعلماء العرب إلى هذا الجزء من العالم، أولئك العلماء الذين يصحبون عادة رحلات التجار بالإبل أو البواخر، وعلمنا بذلك الذى جاء فى تاريخ غرب السودان، فإننا مدينون بكل شيء اليوم لأولئك الكتاب مثل: (البكرى والإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون وابن حوقل والعمرى وياقوت وبشكل غير مباشر المسعودى)، فالمسعودى أحد علماء بغداد خلال القرن العاشر الميلادى كان الأستاذ للكثير منهم على الرغم من أن مجال سفرياته كان

(١) وجب علينا أن نشير دائما إلى أن المؤلف يحاول الإيحاء بأمور كالقول (فرض العرب) والسيطرة العربية، والواقع أن الإسلام لم يكن قد فرض فى أى مكان من العالم، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون)، وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر)، قال: إذا رأيت ولم يقل: افرض، ولهذا فإن المسلمين كانوا يخيرون الناس بين الإسلام أو الجزية، والبربر كغيرهم دخلوا الإسلام طوعًا ومازالوا مسلمين، وإذا كانوا قد قاوموا فى البداية فذلك شيء طبيعى نحترمه . المترجم.

(٢) نعتقد أن المؤلف وهو يكتب التاريخ قد فاته أن يدرس ما هو عليه الحال فى وقتنا الحاضر ذلك أن الإقامة فى منطقة محددة لا يعنى الابتعاد، وإنما يعنى الارتباط الأسرى فقط - المترجم .

فى المحيط الهندى والصين ومدغشقر، ولقد تأثر به العديد من الدارسين فى السودان حيث إنه زار (أودوغاست) عاصمة التوارق، وكذلك عاصمة غانا التى لم تكن معروفة، وعندما شاهد نهر النيجر يتدفق إلى الشرق اعتقد أنه نهر النيل، أما أبوعبيد البكرى المولود فى إسبانيا خلال القرن الحادى عشر وهو من عائلة شريفة فقد كان أول أعظم جغرافى فى شمال إفريقيا بما فى ذلك جزء من غرب السودان، كذلك فإن الإدريسى الذى ينتمى للقرون اللاحقة هو أيضًا عربى إسبانى على الرغم من أن جده كان أميرا على (مالقا) فقد عمل فى بلاط الكافر (روجر الثانى)(1) وكان الإدريسى قد ولد فى سبته وهى الآن جزء إسبانى فى مراكش، وفى قرابة سنة ١١٠٠ فإن ياقوت كان فى القرن الحادى عشر يونانيًا وقد اختطف وهو طفل وبيع لأعرابى الذى علمه وشجعه على دراساته فى الجغرافيا، أما العمرى فقد كان خلال القرن الرابع عشر دمشقيا وعمل فى البلاط السلطانى بمصر، وابن بطوطة خلال القرن الرابع عشر كان فى طنجة وهو من عائلة بربرية أو مدنية، وتربى فى جو دينى وقد حج إلى مكة وعمره إحدى وعشرون سنة، ولقد عشق السفر حيث غادر مكة إلى الهند وكان سلطان دلهى معروفًا بحبه للعلماء، ولهذا أعجب بابن بطوطة وعينه قاضيًا ملكيًا فى المدينة وبعد سبع سنوات مع السلطان أرسل ابن بطوطة إلى الصين فى مهمة كلفه بها السلطان، فقبض عليه فى الطريق، وجرد مما لديه، فهرب متجهًا إلى الجنوب ووصل ساحل (مالابار) حيث كان المالديفيين يحكمونها فجعلوه قاضيًا، إلا أنه كان فى أحكامه قاسيًا، وبسبب ذلك اضطر إلى الإبحار بعيدًا خوفا من انتقام ضحاياه، ووصل سيلان وأسام مسافرا عبر آسيا إلى بكين، حيث رفض إمبراطور المغول أن يتيح له فرصة

---

(1) روجر الثانى أول ملك على صقلية (١١٣٠ - ١١٥٤) ابن روجر وخليفته فتح أبوليا وسالرمو (١١٢٧)، ورغم معارضة البابا أخذ جانب البابا المضاد (أناكليتوس الثانى) الذى توجه ملكًا (١١٣٠) ضد البابا (أنوسنت الثانى)، فجمع أنوسنت الإمبراطور (لوثر الثانى)، وحلفاء آخرين ضد روجر، وأجبر أنوسنت على أن يقطعه جميع الأراضى التى كوّنت إلى سبعة قرون تالية مملكتى (نابلى وصقلية) وفتح روجر الثانى هذا عدة مدن على الساحل الإفريقى، كما شجع اندماج الجماعات البشرية فى مملكته، وأقام إدارة مركزية قوية استعادت لصقلية رخاءها، وكان بلاطه فى (باليرمو) مركزًا للفنون والآداب . المترجم .

مقابلته وهو زائر غير معروف، وعن طريق سومطرا وسوريا عاد أخيراً إلى بلاده، إلى إفريقيا، وقد وصل طنجة فى سنة ١٣٤٩م بعد ثلاث وعشرين سنة من الترحال، وفى وقت قصير منذ وضع رجليه على أرض بلد مسلم ذى أهمية لم يغادره ولم يعد إلى بلاد السودان أبداً، وكانت كتاباته عن تلك الرحلات من أثمن ما سطر كاتب إفريقى أسود خلال زمن القرون الوسطى، ومات ابن بطوطة فى مارس سنة ١٣٦٨ أو ١٣٦٩م بعد أن أبحر أو مشى أو ركب قرابة خمسة وسبعين ألف ميل فى حياة إنسان هى فوق العادة، أما ابن خلدون وهو المعاصر لابن بطوطة فقد كان عربيًا إسبانيًا هربت عائلته من إسبانيا فى عهد المرابطين، وكان قد ولد فى تونس سنة ١٣٣٢م وعمل فى بلاط السلطان هناك، ثم أخيراً فى بلاط سلطان فاس، إلا أنه سجن بسبب مخالفة سياسية، ثم أجبر على مغادرة السلطنة وعاش لبعض الوقت على طلاقة لسانه فى محاكم (قرينادا وبرقى وبيسكرا وتيلمسان) وربما كان خلال عودته إلى تونس قد بدأ كتابة تاريخه عن العرب والبربر، ثم انتقل إلى القاهرة المكان الذى يجد فيه العلماء الاحترام وهناك عيّن مفتيًا مالكيًا، وفى سنة ١٣٧٨م تقاعد ليعيش فى قرية جانبية وبدأ يجمع ملاحظاته ويتم عمله الشيء الذى أخذ منه أربع عشرة سنة، ثم طلب مرة أخرى إلى القاهرة فعيّن مفتيًا، وهنا وبسبب الغيرة والحرص اللذين طبق بهما العقاب القرآنى مثله مثل ابن بطوطة فى المالديف جعلاه لا يطاق، وفى سنة ١٤٠٠م صحب السلطان فى محاولته غير الموفقة من أجل إنقاذ دمشق من تتار تيمورلنك، ثم عاد إلى القاهرة ليموت سنة ١٤٠٦م، واعتُرف به كأعظم عالم فى وقته، وكان عبدالرحمن الساعدى أحد العلماء العرب السود فى (تومبوكتو) خلال القرن السابع عشر وهو الذى كتب تاريخ السودان إلى سنة ١٦٥٥م ولقد اكتشفت نسخة من كتابه (تاريخ السودان) بواسطة المستكشف الألمانى العظيم (بارت) فى منطقة (قواندو) بشمال نيجيريا سنة ١٨٥٨م ومنذئذ تم اكتشاف نسختين أخريين، ويذكر أنه عند طرف السودان الغربى ظهرت مملكة أو ممالك أسمتها الأدبيات العربية والبربرية (غانا) وتحدث عنها البكرى بشكل جيد قائلاً: إن مبانيها الجميلة وشعبها التارقى وطقسها

الرطب وغناها المتحصل من تجارة الذهب مع (وانقارا) وتجارة الملح مع (تاغازا) يجعلها بلداً مهماً، وخلال منتصف القرن الثامن الميلادى أرسل العرب الذين كانوا يحكمون المغرب وقتئذ حملة عن طريق (سيجيلماسة) لمهاجمة غانا، وعندما رجعت الحملة كانت محملة بكمية وافرة من الذهب، ودمر ذلك الجيش تلك العاصمة التى لم تكن قد عرفت أبداً فى المصطلحات الحديثة، ويظهر أن الإشارة إلى تلك المدينة أو الدولة التى تسمى غانا ذكرت فقط فى كتابات البكرى وابن حوقل، وفى تاريخ الفتح خلال دراسات القرون الوسطى، أما الساعدى فقد ذكر دولة ثم أشار إلى دولة لم تعرف حتى الآن للمؤرخين اسمها غانا ولها اثنان وعشرون ملكًا منذ بداية العهد الإسلامى إلى نهايته، وفى إشارات أخرى يظهر من الواضح، ومن خلال كثير من الروايات إنه كان يعنى البلد، كذلك يظهر أن الكلمة استخدمت بواسطة العرب والبربر فقط، أما القبيلة الحاكمة فى غانا بحسب رأى الساعدى الذى يكتب اعتمادا على ما سمعه فى سفرياته أن تلك القبيلة هى من البيض، فى حين أن أغلبية الشعب من السود أى (المانديقوز)، ولكن فرع (السونينكى) من (المانديقوز) على رأى الساعدى أمكنهم أخيراً أن يدخلوا عضواً منهم على العرش، وفى ظل حكم السود وصلت المملكة إلى قمة مجدها خلال القرن التاسع الميلادى، وربما كانت حدود هذه المملكة أو الممالك هى النيجر من الشرق والسنغال وماولى من الغرب وجنوب الصحراء من الشمال، وكان اتحاد التوارق فى ظل حكم (تيلوتانا) رئيس قبيلة (ليموتانا) قد دخلوا غانا غرب السودان بحملة تتكون من مائة ألف جمل خلال القرن الثامن الميلادى ولم تكن المسافة طويلة بحسب السفر فى الصحراء حيث إن (أودوغاست تيقداوست حاليًا) لم تكن تبعد عن عاصمة غانا لأكثر من رحلة أسبوعين وهى التى كانت أقرب إليها من ساحل موريتانيا[1] وكانت (أودوغوست) مدينة بربرية فيها مبان عالية وبها نخيل وجالية عربية تجارية، وعدد كبير من الزنوج

---

(١) نعتقد أن الرقم (مائة ألف جمل) رقم مبالغ فيه كثيراً، أو أنه جاء غلطًا فى الكتاب أو نقل عن معلومة خاطئة فى الأصل. المترجم.

الأرقاء وهى غنية بسبب التجارة وكانت (أودوغوست) شهيرة عبر تلك الصحراء بما فيها من علماء وبجمال نسائها البيض، مما جعل البكرى يتحدث عنها باستفاضة، وخلال القرن الحادى عشر الميلادى توقف الرئيس الأكبر لقبيلة صنهاجة البربرية (يحيى بن إبراهيم) فى القيروان وهو فى طريقه من ملكة، فأعجب كثيراً بالعالم المسلم الناسك (أبوعمران) الذى هو أيضًا أعجب كثيراً بجهل الرئيس الصحراوى (يحيى) وبخجل سأل هذا الرئيس الصحراوى أبوعمران أن يساعده فيبعث إلى شعبه فقيهًا يعلمه، وحدث أخيراً أن الأمن فى هذه البلاد قد توتر بسبب رجال قبيلة هذا المتعصب الصارم المدعو (يحيى) عندما تبين لهم أن المدعو (عبدالله) يدعو لأشياء لا يريدونها فحرقوا بيته وطردوه إلى الصحراء الغربية، ولكنه مع اثنين من مريديه من قبيلة (ليموتانا) اتجه إلى السنغال، واستقر فى جزيرة على النهر أو ربما جعل مقامه فى الرأس الأخضر (داكار الحديثة)، ولقد انعزل عن العالم فى كثير من التنسك والعبادة مما جذب انتباه الناس إليه، حيث نظمهم على اعتبار أنهم أتباعه، وعندما بلغ عدد هؤلاء الأتباع قرابة ألف رجل جمعهم (عبدالله) وطلب منهم التوزع والقيام بالدعوة للدين الحنيف (الإسلام)، ودعى (المرابطون) هذا التعبير الذى أخذ عنه أغلب الأوربيين كلمة (مرافيدس) وأخذ عنه (الفرنسيون تعبير مرابوت) أما الكلمة المستخدمة محليًا الآن فهى (مرابتى) وفى سنة ١٠٤٢م، قاد عبدالله المرابطين ضد قبيلتى (جيدالا وليموتانا) اللتين حرقتا بيته وطردتاه إلى الصحراء، وسرعان ما هزم هؤلاء المرابطون أولئك المرفهين الذين يملكون الزنوج ويسيطرون على التجارة ولقد خيرهم عبدالله بين الموت أو اعتناق الإسلام عقيدة المرابطين الذين يزداد عددهم باضطراد، ولكن عبدالله فيما بعد فرض عقوبات صارمة على جماعته وأتباعه المتزايدين، منها: منع السرقة والاغتصاب، وهذه كانت تمثل مغانم تقليدية للانتصار العسكرى حتى بالنسبة للمتدينين، وهو الشيء الذى أغضب المرابطين فأنكروا على زعيمهم فعلته، لكن عبدالله لم يرضخ ورجع إلى أصله فى (سيجيلماسة) وإلى أستاذه (واقاقا) الذى بارك انتصارات تلميذه السابق وساعده على تقوية عساكره،

وفى سنة ١٠٤٨م أرسل تلك القوات عبر الصحراء قائلاً: إن كل من لا يطيع دعوة عبدالله سيخرج من جماعة الإسلام، وكل من يخالف مسيرة عبدالله سيقتل، ولذلك خلال سنوات قليلة انضمت الصحراء الغربية إلى المرابطين، ونجد البروفيسور (فينيسنت مونتيل) يقدم تفسيراً اقتصادياً عن حملة عبدالله الثانية قائلاً :

إن جمال صنهاجة ورجال الترحال وجدوا أنفسهم محاصرين من كل الجهات، فالمرتفعات من الشمال قفلت بواسطة زناتا الذين سيطروا على وادى درعا، وبالتالى منعوا طريق الخروج إلى أطلس الأوسط، والمعابر الغربية المؤدية إلى أطلس الأعلى أقفلت بواسطة بربر قبيلة مصمودة، وفى نفس الوقت إلى الجنوب كانت طريق المرتفعات الحاليه قد سدت بواسطة الزنوج، وهكذا صارت الصحراء صغيرة جداً، ويضيف البروفيسور (مونتيل) قائلاً : كان هناك عنصران أضيفا إلى ما يحيط بهم وبظروفهم سنة ١٠٤٨م، أولهما: أن طريق قوافل المصريين هجر بسبب انعدام الأمن والعواصف الرملية، وثانيهما: كان هناك قيظ استثنائى، وبحلول سنة ١٠٥١م كان عبدالله بن ياسين يقود جيشًا من ثلاثين ألف رجل، جميعهم على استعداد أن يموتوا فى سبيل معتقدهم، وبعد أن قضى على بعض محاولات المقاومة اتجه بذلك الجيش المنظم جداً إلى الشمال، وقد استولى أولاً على مدينته (سيجيلماسة) سنة ١٠٥٣م، ثم استولى على (أودوقوست) التى وقعت تحت حماية (غانا)، وكانت قد انقسمت على نفسها فى وقت كانت فيه القبائل العربية والبربرية تكره بعضها البعض والاثنتان تكرهان حكم قادة (السونينكى) الطغاة، وبحلول سنة ١٠٥٤م كانت المنطقة فيما بين السودان والمغرب أغلب أجزائها عمليًا تحت سيطرة المرابطين، وتحول عبدالله للقتال فى مراكش نفسها، وهذه تسمى المغرب الأقصى من العالم العربى، ولكنه بعد حروب طويلة وحملات عديدة قتل فى معركة بعد ثلاث سنوات من حملته تلك ومات خليفته بعده بوقت قصير، وهكذا تولى أمير المرابطين المدعو (أبوبكر) كلاً من القيادة الروحية والقيادة الزمنية وحاول أن يحافظ على قبائل البربر متضامنة (وهى المريبة تقليديًا) وهذا واجب صعب؛ إذ إن عبدالله لم يكن موجوداً وهو الرجل الذى يحب

ويخشى، ولقد حدثت ثورة كبيرة فى جنوب الصحراء، وكان على أبو بكر وقد أوكل لابن عمه (يوسف بن تاشفين) قيادة بعض قواته، وسار بالقوات الأخرى إلى الصحراء لضرب الثورة، وقد تمكن من السيطرة على القبائل المتمردة، كما هزم المحاربين من قبيلة (سونينكى) كذلك، وعندما عاد إلى المغرب وجد ابن عمه يوسف يتمتع بشهرة بسبب العديد من الانتصارات العسكرية وعلى غير استعداد أن يعيد للأمير قواته وسيثبت يوسف أنه خليفة قوى لعبدالله نفسه، يوسف هذا الرجل الضعيف جسديًا ذو البشرة التى لفحتها الشمس واللحية الخفيفة والشعر المجّعد والحواجب الكثة والأنف الأقنى(١) الرجل الذى يعيش غالبًا على أكل دقيق الشعير وحليب الإبل، صوته خافت لكن كلماته واضحة، وهو متعصب متدين شق طريقه داخل المغرب، ولقد أسس مراكش سنة ١٠٦٢م (الاسم الذى جاءت منه الكلمة الحديثة - مراكش) ثم دخل فاس السنة التالية ثم تلمسان ثم الجزائر، وعلى الفور أصبح حاكمًا لإفريقيا كلها لصالح المرابطين البربر، فيما عدا الموانئ قوية الدفاع فى سبتة وطنجة، وقد حاول المعتمد أن يصل إلى تحالف مع ابن تاشفين، وكان قد طلب منه نجدة المسلمين الإسبان ضد هجمات الممالك المسيحية، ولقد اشتم يوسف فوراً عندما تلقى الطلب بالخطر على المسلمين، فأمر قواته بالإبحار عبر المضايق، وأقام أول قاعدة للحرب ضد المسيحيين، ورحب به ترحيبًا حارًا فى أول قرية مسلمة، وما لبث أن وحد قواته مع المعتمد وتوجها فوراً لملاقاة القوات المسيحية، وعلى الرغم من العدد العظيم فى جانب قوات الأوربيين فإن يوسف هزم تلك القوات الكافرة فى منطقة (الزلاقا)(٢) وكان ألفونس قد جرح فى تلك المعركة التى انتصر فيها المسلمون،

(١) الأقنى: هو ذلك الذى يشبه منقار العقاب - المترجم

(٢) موضع فى إسبانيا بالقرب من بطليوس (بداجور الآن) هزمت فيه قوات السلطان يوسف بن تاشفين قوات ملك قشتالة المدعو (ألفونسو السادس) فى يوم الجمعة ٢٢ أكتوبر سنة ١٠٨٦م، وتعرف تلك الساحة الآن باسم (سجرجاس) على ضفاف نهر (ريو) (جريرى)، ومن المعلوم أن ملك قشتالة حاول أن يخادع المسلمين بالحرب يوم الجمعة وقيل لابن تاشفين: إن الحرب لن تقع فى هذا اليوم لكنه أكد قائلاً: إن الحرب خدعة ولابد من الاستعداد وهكذا حدث. المترجم .

ولقـــد تزوج الغازى بامرأة مسيحية من سبتة، ومن الواضح أنه متأثر بدوافع دينيـــة جديـدة، وقد ترك يوسف بن تاشـفين الحرب الإسـبانيـة بنفس السرعـة التى جاء بـها إليـها[1] مبقيًا ثلاثة آلاف مقاتل من البربر كـحراس بتصرف المعتمد وقاد أغلب قواته راجعًا إلى إفريقيـا، وفى هذا الوقت عاد (الكوستاليان)[2] إلى الهجـوم على مسلمى إسبانيـا، ولهذا عاد يوسف بن تاشفين أدراجه الشيء الذى جـعل هذا المتدين المرابطى فى مواجهة أمير فاسد خليع[3] وقوبل يوسف بن تاشفين فى عودته بترحاب كبير من قـبل المواطنين العـاديين فى جنوب إسبـانيـا وعومل كـما لـو أنه (مسـيح) وهو رجل استقامة وبساطة يفرض انضـباطًا صارمًا على قواته ولم يكن فاسدًا، وهنا منع يوسـف بن تاشفين جميع أنواع الضرائب التى لا يسمح بها القرآن، وسرعان ما كان كل رجل وامـرأة وطفل على استـعداد للـقتـال من أجله، وبدأ باحتـلال مناطق حليـفه السـابق وطبقته العربية الفاسدة الحاكمـة واستولى على (قرانادا وسيفيلى) منهم ثم اتجه شمالاً وبحلول سنة ١١٠٢م كان يوسف والمرابطون يسيطرون على مـساحة من السنغال إلى أربو فى إسبانيا، وكانت حيـاته قصيرة خلال هذه المرحلة إذ لم يعش إلا أربع سنوات

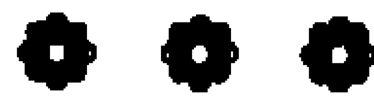
---

(١) لم نجد فى سـيرة حياة هذا القـائد العظيم المسلم شيئًا من هذا الذى أورده المؤلف، وما نعـرفه أنه فعلاً متدين ملتزم وغيور على نصرة دين الله فى كل مكان، أما تعبير (مـتعصب) فهو ما يقوله عادة هؤلاء الأوربيون عن أى مسـلم فى ذلك الوقت، وحتى فى أيامنا هـذه، وبالتالى فـإننا نرى أنهم هم المتعـصبون رغم حضـارتهم وتقدمهم. المترجم .

(٢) يقصد القـشتاليون الذين هزمـهم ابن تاشفين فى معركتـه الأولى معهم، ونذكر أن مـثل هذا قد حدث مع أول فـاتح مسلم وهو (مـعاوية بن أبي سفـيان) عندمـا فـتح جزيرة قـبرص، وعلـى الرغم من أن قواته تلك قـد سيطرت على كامل الجزيرة، إلا أنه وقع معاهدة مع المواطنين القبارصـة مشترطًا عليهم، ألا يسمـحوا لأحد باستـخدام جـزيرتهم ضد العـرب، لكنهم مثل أهل قـشتالة خـالفوا نصـوص الاتفاق، وسـمحوا لليـونانيين باستـخدام الجزيـرة ضد العرب؛ مما اضطر مـعاوية أن يعـود ويحتلها مـرة أخرى، وهذا مما يؤكـد أن أحداث التاريخ تتكرر فى أزمـان مختلفة- ولمن يريد الاطلاع على حـملة معاوية (ملك العرب) أن يعـود إلى كتابى المعنون (قبرص من معاوية إلى أجاويد الصادر سنة ١٩٩٤م) . المترجم .

(٣) لا نعـرف شيئًا من هذا عن الأميـر المعتـمد بن عـباد، ومـا نعلمه أنه قـوي فى الحق، وعندمـا شعر بمـؤامرات المسيحيين ضده، وعلى المسلمين، طلب مساعدة يوسف بن تاشفين، ويذكر لنا التاريخ أن أعوان المعتمد قالوا له: إنك تستـعين بمن قد لا يخـرج من بلادنا الغنية إذا مـا دخلها، فقـال قولته الشـهيـرة: (إنى والله لأقبل أن أرعى الجمال بدلا من أن أرعى الخنازير)، بمعنى أن سيطرة المسلمين أفضل من المسيحيين الأجانب. المترجم.

وقبره البسيط فى مراكش يقول عنه معاصروه: إنه فى البساطة يرمز إلى حياة هذا الرجل، ولقد ماتت منجزات يوسف بن تاشفين معه وكان ابنه وخليفته يبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، ويدعى على بن يوسف بن تاشفين لم يعرف حياة التدين والتقشف الصحراوية، وكان زعيم البربر الكبير فى السن لا يحترم هذا الشاب بنفس الطريقة التى كان يحترم بها والده العظيم، وعلى كان يعتمد فى قوته على ميليشيات من المرتزقة المسيحيين الأرقاء وفى عهده كانت أريحية وقوة يوسف بن تاشفين فى القيادة قد صارت من الماضى، وسار الشاب على طريق الظلم وكان جبانًا وأخيراً ثار عرب الأندلس ضد لوردات البربر، وفى المغرب قام فصيل من البربر الأتقياء يسمى (الموحدون) بإسقاط دولة المرابطين وعلى الرغم من أن الموحدين فى الأصل من سكان الأطلس، وأول زعيم لهم كان متعصبًا يدعى (ابن تونمارت)[1] ويكنيه أتباعه (المشعل) وقد أمر بترجمة القرآن إلى اللغة البربرية التى كان يكتبها هو نفسه بحروف عربية، وقد منع لثام الرجال والمشروبات الكحولية واحتفالات الزواج وأشياء أخرى كثيرة، وفى حربه مع المرابطين أنشأ دولة بربرية برلمانية وكان يقوم بتغيير رجالها من وقت لوقت على أن احتلال مواقع المرابطين فى مراكش أكمله خليفته المدعو عبدالعال مؤمن الذى بنى الكتوفية فى مراكش (هناك خلاف فى الاسم بين عبدالمؤمن حسب التاريخ وعبدالعال حسب ما ورد هنا) وبقيادة عبدالعال مؤمن تأسست مملكة الموحدين التى تمتد من الأطلسى إلى شاطئ سرت، وبعد انتهاء دولة الموحدين بعد قرن من الزمان ظهرت دولة زناتا وهم من الحفصيين فى تونس وقتئذ وتونس الحديثة .



(١) هو ابن تومرت محمد وليس كما ذكر المؤلف (ابن تونمارت) وهو مصلح دينى مراكشى (١٠٨٣-١١٣٠) يسمى مهدى الموحدين، ولد فى جبال السوس، وكان يتردد على المساجد للدراسة الدينية، سافر إلى الأندلس ومصر والحجاز، واتصل عن قرب بآراء ابن حزم والغزالى وتأثر بها، ثم أخذ بعد عودته إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى تشدد ملحوظ، ولاقى فى سبيل ذلك عنتًا، وكانت له محاجات طويلة فى تأييد دعوته، ولقد دعا أولاً إلى مكارم الأخلاق، ثم استنكر المعتقدات وطريقة الحكم، وكوّن لنفسه أتباعًا علمهم ونظمهم وسماهم المؤمنين أو الموحدين، وبدأ يحمل على دولة المرابطين ويضع أساس دولته التى تسمت (دولة الموحدين فيما بعد)، والتى أقامها تلميذه عبد المؤمن، كانت دعوته سياسية دينية سفكت فيها دماء كثيرة، وتتمثل آراؤه فى مزيج من تعاليم الشيعة وأهل السنّة. المترجم.

الفصل الرابع

ممالك غرب السودان القديمة

الفصل الرابع
ممالك غرب السودان القديمة

نظرة إلى الخلفية التاريخية لتلك القرون التى دارت فيها الحروب والآلام والعذابات فى شمال إفريقيا خلال فترة ظهور الممالك بين الشركاء الجنوبيين فى التجارة مع العرب والبربر لابد أن تلاحظ أن جزءاً كبيراً من تجارة إفريقيا السوداء إنما هو تاريخ (بلاد السودان) الذى يبدأ فى شمال إفريقيا الأبيض، فهذه المنطقة نادراً ما تتحد إلا أنها اتحدت لعدة قرون فى عداوتها لرفاه الزنوج العظيم فى ظل مملكة أو ممالك (غانا)، وكذلك بسبب الطمع فى ذلك الرفاه، وكان موقف العرب والبربر يتكيف بناء على المعاملة التى يلاقيها العرب والبربر الواقعون تحت سلطة العديد من الملوك الزنوج، وهم يرون أن ثروة كبيرة تقع تحت تصرف الوثنيين، وكان البربر تجار الساحل يملكون أهم مصدّر لصناعة غانا أو قل أحسن معرفة لغانا وقتئذ، وعند البكرى فإن موقعًا قد اكتشف سنة ١٩١٤م فى كومبى بواسطة الفرنسى (بوفيل دى ميزيديس) ولكن التمويل لاستمرار البحث لم يكن متيسراً إلى سنة ١٩٣٩م وعند بدايته توقف بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم بوشر فيه سنة ١٩٤٩م وكومبى هى فى مالى الحديثة، وأظهر التنقيب أن هناك مدينتين على مسافة ستة أميال تقريبًا، فى المدينة الأساسية (غانا) كما وصفها البكرى (التى ربما تكون أو لا تكون هى كومبى)، وأنها مدينة المسلمين وبها حوالى عشرة مساجد، ولذلك اجتذبت العديد من الدارسين المسلمين، أما مدينة الوثنيين التى كانت فى ذلك الوقت مقر الحكم تسمى (الغابة) إذ كانت المساكن تتكون من عشش وطوب مع قليل جدا من مبانى حجرية، ولقد جاء اسم الغابة من الأدغال المقدسة، وربما من الأشواك التى تحيط بمنطقة الوثنيين حيث يقوم القساوسة بتلاوة تراتيلهم، وقد سجل البكرى قائلا: فى مناسبات الاحتفال

يضع الملك على رأسه غطاء من ذهب ويعلق الجواهر على ملابسه وخلفه طبقا لروايات المؤرخ العربى الإسبانى يقف أتباعه وعلى يمينه أبناء أتباعه من المسئولين بزخارف على رؤوسهم، أما الوزراء فيجلسون أمام الملك ومحافظ البلد يقبع عند قدمى الملك، وحول المنصة تقف عشرة من الأحصنة مطهمة بالذهب، أما الحراس فحول رقابهم وعلى جنوبهم أشرطة من ذهب وفضة، وبالقرب من الملك كلب من النوع النادر، على أن قلة من الأمم الإفريقية التى لا تربى كلابًا تستخدم مثل الصقور والنسور للصيد، ومن المعروف أن تربية الحيوانات فى البيوت وكذا الطيور عادة تمثل نموذجا لحضارة عظيمة فى الغرب والشرق وعدم فعل ذلك فى إفريقيا السوداء، ربما يعود إلى تأثير الإسلام، وفى أيام البكرى كان هناك الكثير من المسئولين فى البلاط الملكى كصاحب الخزانة والوزراء والمترجمين عادة ما يختارون من الجماعة الإسلامية، مثلما يحدث الآن حيث ينتقى الرجال للمراكز الهامة فى المجالات المختلفة من المجتمع الأوربى، وفى بلاط الملك فإن الاحتفالات تبدأ بالدق على الطبول ويسمونها (الديبا) على أن طبول البلاط السونينكى مازالت تسمى (تابا) وعند سماعها يركع الحضور، أما المسلمون فيصفقون فقط فيتقدم الملك وهنا يقوم الوثنيون بصب القذارة على رؤوسهم المطأطأة، ولقد ذكر الإدريسى أن خزانة الملك تشتمل على سبائك الذهب التى تزن الواحدة منها خمسة عشر كيلو (ثلاثين رطلاً) وهى تمثل كمية احتياط للملك، ووجدت سبيكة خلال الزمن الحالى تزن ثلاثين رطلاً، وهذا ما يدل على أن تقدير الإدريسى كان دقيقًا وصائبًا، وأشيع فى مركز التجارة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أن هناك سبيكة ذات حجم عظيم وعندما بيعت بعد فترة من الزمان بواسطة ملك من سونينكى لتاجر مصرى ذكر ابن خلدون أنها كانت تزن طنًا، وعندما مات ملك غانا حسب قول البكرى تطلب طقس دفنه ترتيبات تمثلت فى وضع جسده ممدداً على فراش وثير ووضع فى صندوق خشبى عظيم، وقد أعدت موائد الطعام والشراب بجانبه وأقيم ضريح فخم حيث تجمع الأهالى ليقيموا حوله خندقًا كبيراً وتنتهى المراسم، وكان التجار الرحالة يهتمون أساسًا بالتجارة والثروة، ونجد البكرى

عندما عاد إلى إسبانيا يتحدث عن أولئك الناس فيقول: هم يزرعون نوعًا من الذرة الحمراء ويصطادون سمك نهر النيجر، ويهاجمون القبائل المجاورة من أجل الرقيق، ويقول البكرى: إن ملك غانا فى وقته يمكنه أن يجهز جيشًا من مائتى ألف لهذا الغرض بما فيه عدد أربعين ألفًا من رماة الأقواس، أما الإدريسى فيصف عاصمة الملك غانا على أنها تمثل السوق الرئيسى فى غرب السودان، وأن تجارتها فى الذهب عظيمة حتى إن أهلها يفرضون رقابة على الكمية التى تعرض؛ إذ إن الذهب السبائك يعد من ممتلكات التاج، وأما الذى يباع أو يصدر إلى الشمال فى سبتة فهو فقط الذهب الرقيق (البودرة) وكان الخرز يصنع خصيصًا لتجارة الزنوج، وهكذا لأن التجار ينطلقون من (سيجيلماسة ودراعا) وأماكن مماثلة بذلك الخرز وأشياء أخرى مثل الجواهر، وعند مرورهم عبر (تاغار) يحصلون على الملح وفى مدينة غانا يبيعون الخرز والملح ويستأجرون وكلاء محليين يرافقونهم عبر أراضى السودان فى رحلة مدتها لا تقل عن عشرين يومًا إلى أسفل عند السنغال حيث يتوقف التجار القرطاجيون ويضعون بضاعتهم للمبادلة بالذهب، وقد وصف هيرودوتس تلك المعاملات على الوجه التالى :

عندما تصل قافلة التجار جانب النهر يبدأون بالدق على الطبول من أجل تشجيع السكان العراة على الخروج من الحفر التى يجعلونها فى الأرض ويعيشون فيها وذلك الدق على الطبول يعد إعلانًا عن وجود البضاعة وأولئك العراة لا يخرجون إلى أن يغادر التجار مكان تكديس البضاعة على جانب النهر، فيخرج العراة إلى مكان البضاعة ويضعون رقيق الذهب (البودرة) بجانب البضاعة فى شكل أكداس ويعودون إلى حفرهم، وبعد مجيء وعودة وزيادة فى الذهب يقوم التجار بأخذ الثمن (الذهب) ويغادرون تاركين البضاعة، وقبل المغادرة يدقون مرة ثانية على الطبول مما يعنى أن المبادلة قد تمت، ومن الطبيعى أن هؤلاء التجار يأتون للذهب ولكن إذا ما قبضوا على أى زنجى يحاولون معرفة مكان الذهب فيضربونه حتى الموت من أجل ذلك فلا يعطى سر قبيلته، وفى هذه الحالة يوقف الزنوج عملية التجارة تلك لسنوات أحيانًا ثم يعيدونها فقط عندما يحتاجون للملح، ولقد كتب (سادا موستو) خلال القرن الخامس

عشر يقول: إن التجار العرب وبربر صنهاجة فى سيجيلماسة يقولون: إن التبادل الصامت مازال هو القاعدة فى التعامل مع بعض القبائل الغربية السودانية، وهناك دليل على تجارة الدق على الطبول فى مناطق مختلفة فى (وانقارا) إلى وقت متأخر، ويقول المؤرخون: إن هناك تعاملاً مشابهًا، فمثلا كان الرومان يشترون الحرير من الصينيين بنفس الطريقة، ولقد لاحظ رحالة القرن الخامس الصينى السيد (فا هين) التعامل بطريقة الطبول فى سيلان، وفى إثيوبيا قبل المسيحية كان الذهب يباع بنفس هذه الطريقة، أما الأقزام الكونغوليون فقد مارسوا هذه العادة فى بداية عهد الاستعمار أى فى أقل من قرن ماض، وليس من المستحيل أن نعرف أن بعض جماعات الأقزام ماتزال تمارس هذه الطريقة .

ويقول مؤرخو القرن العشرين عن غانا إن أساس الإمبراطورية قد أقيم خلال القرن الثالث أو الرابع الميلادى فى منطقة (أووكار) وكانت فى ذلك الوقت مسكونة بالزنوج الذين يتكلمون اللغة الماندية من قبائل السونينكى، وهم جماعات هاجرت من شمال إفريقيا، وإن كانت هوية هؤلاء المستوطنين غير مؤكدة إذ ربما يكونون مزارعين بربر، وإن كانت هناك بعض أسباب للاعتقاد أنهم إن لم يكونوا يهوداً فهم لابد أنهم من البربر الذين وقعوا تحت تأثير اليهودية، وربما يكون بهم خليط يهودى، ولقد حدث فى فترة قرب القرن الرابع الميلادى أن أسس هؤلاء المهاجرون نوعًا من السيطرة (الحكم) على الزنوج الذين يعيشون بينهم، ثم أقاموا نظامًا تقليديًا يتكون من (أربعة وأربعين ملكًا) وهم الذين حكموا (أووكان وهود) حتى نهاية القرن الثامن الميلادى، وفى سنة سبعمائة وسبعين أطاح الزنوج السونينكى بهذا النظام واستمر حكمهم فى غانا إلى عهد سيطرة المرابطين تقريبًا، ولقد حدث أن المسيطرين السابقين صاروا جزءاً من قبيلة (الفولانى) الآن بسبب الاختلاط والتزاوج، الفولانى الذين لغتهم تتصل (بالتوكولور والولف والسير السنغالى) ويذكر مؤرخون آخرون أنه لابد أن يكون هناك أكثر من غانا ذلك أن الاسم من الواضح أنه يطلق على غير مكان فى غير عصر، والمصطلح كما يظهر إنما يعنى أحيانًا (كلا) من البلد أو المدينة أو الملك،

والكلمة ربما جاءت من المصطلح البربرى (قان) وهذه تعنى الـغابة فى اللهجة الحديثة وفى الصيغـة العربية الموريتانية (آقان) تكون (قـانا)، وهى التى ربما تعنى لغويًا المملكة أو الممالك، وغـانا كانت أسطورة بالـنسبة للعـرب والبربر وهى كـذلك كانت سـوقًا للرقيق فى المملكة أو (الممالك) وفى روايات عـربية يذكر أن غانا كانت سوقًـا شهيرة للرقـيق أثناء كـل الفـصـول، وتقع غـرب غـانا مملكة (تيـكرور) التى أسـسـهـا (التوكولورز)، وهى كـذلك سوق للرقيق والذهب، والتوكـولورز موجودون الآن فى السنغال الحديثة ومنهم العـدد الأكبر فى (فوتا) الواقعة شرق غـينيا حيث يطلق عليهم اسم (تيكارير) وكـان مطلب الإطاحة بنظام غـانا والمجاورين لهـا ضروريًا من وجـهة نظر دينية وتجارية وسيـاسية فى المغرب الإسلامى، على أن تقاسم الامـتيازات فى غانا القديمة صوّره البكرى، كما أنه مماثل لذلك الـنظام الأبيض فى جنوب إفريقيا اليوم[1] حيث كان للإنجليز احتكار المناجم والصناعة والثروة والاستثمار فى حين أن المجموعة الأقل تطوراً وإتقانًا هـم الإفريقيـون الذين لهم الغلبة من حيث الـعدد السكانى، وفى غانـا كثيـر من الـسـونينكى وخـصـوصًا طبـقة (المونيبيـد) الذين كانوا مـسلمين، لكن التقـديرات المعاصرة تشـير إلى أنه عندما تولى الزنـوج العرش كانت السلطة وأغلبـية الناس وثنيين وكان لدى الـتجار المغاربة وحـركة المرابطين المتـدينين فكرة واحدة وهى ضرورة احـتلال غـانا الوثنيـة، وربما كانت هزيمة أبوبكـر للسونينكى فى مـعركـة سنة ١٠٦٢م جزءاً من خطة التـغلب على غانا التى نعرفـها اليوم، ولقـد أصر يوسف على إبقـاء طليعـة من جيـش المرابطين فى حين رجع الأميـر عـبر الصـحراء وصـار يرتب لتأسيس إمـبراطورية المرابطين الخاصة به فى منطقـة الزنوج أو على الأقل فى جزء من الجنوب الزنجى، وفى سنة ١٠٧٦م اسـتولى فى النهاية علـى ما وصف آنذاك بعاصـمة غانـا وعمل الـسـيف فى الوثنيين حيث جـعل البلاد ومـا فيـها من ذهب تحت سـيطرة المرابطين، وهنا أيضًا كـان حكم المرابطين قصـير الحيـاة، وبعد النصر تنازعت القـبائل البربرية، وفى أقل من عقد من الزمان استطاع السونينكى استعادة استقلالهم من الغزاة

(١) المقصود النظام العنصرى السابق الذى أقامه البيض هناك ذلك أن المؤلف يتحدث عن فترات سابقة. المترجم.

ثم إن السونينكى أنفسهم اختلفوا بحيث أضعف الاختلاف والحروب سلطة الدولة وباستمرار تلك الخلافات أوشكت الدولة على الانهيار، وفى سنة ١٢٠٣م قام السوسو (وهم وقتذاك أغلبية الناس فى غينيا الغربية بما فى ذلك كوناكرى) بالاستيلاء على عاصمة غانا نفسها بعد أن قام زعيم السوسو المدعو (سومانقورا) بضم القلعة الاستراتيجية (جارا) وإذ رفض العرب والبربر سيطرة حكم السوسو وانضم إليهم أغنياء السونينكى التجار هجروا العاصمة التى يمكن أن تكون (كومبى) واتجهوا شمالاً فى الصحراء إلى مسافة مائة ميل تقريبًا، وهناك أنشأوا مدينة جديدة فى واحة (كارافنسيرى) عند (والاتا) ولم يمر وقت طويل حتى قفز ثراؤها بحيث تجاوز مدينتهم السابقة التى تحولت إلى مدينة أشباح ولكن استمرار الحديث عن غانا حتى خلال القرن الثامن عشر يعنى إما أن الإمبراطورية قد غيرت موقعها أو أكثر احتمالا أن هناك فى التاريخ أكثر من غانا واحدة، أو ربما أن بعض الغانات موجودة بجانبها، على أن بعض المؤرخين يشيرون إلى غانا على أنها (والاتا) لأن اسم غانا مثل اسم مالى يطلق غالبًا على أى مملكة فى غرب السودان، ولقد استمر استعمالها فى قصص الرحالة، وفى القرن الرابع عشر بعد سقوط السونينكى وظهور مالى ذكر ابن خلدون أنه سمع حديثًا فى القاهرة من الشيخ عثمان الذى قال عنه: إنه فقيه فى غانا ما معناه، إن أعضاء عشيرة السوسو هم جزء من قبيلة الفولانى فى تيكرور، وهؤلاء يسمون إمبراطوريتهم (كانياقا)، وهذه تكونت عند احتلالهم لسونينكى غانا، وقد تحولوا مع زعيمهم (سومانقورو) إلى الجنوب ليتحدوا قبائل مع (المانديقو)، وكانقابا تعرف على أنها مالى وبتقدير لوردات الحروب فى السوسو أن المانديقو كقبيلة مسلحة تمثل تهديداً لقوتهم فى غرب السودان، ومن أجل إضعاف مالى دبر السوسو عملية قتل أحد عشر أخًا ممن يمكن أن يكونوا ورثة المملكة، وأبقوا على الأخ الثانى عشر لأنه صغير ومريض وهذا يدعى (سون جاتا)، وكلمة سون تعنى جزءاً من اسم أمه وأما جاتا فتعنى أنه ابن أمه، ومن خلال الاسم الذى أخذه (مارى جاتا) برز كزعيم وبطل لأمة (المانديقو)، ولذلك فإن قصائد تمجيده ماتزال تردد حتى اليوم، وفى سنة ١٢٣٥م

(بعض المصادر تقول سنة ١٢٤٠م) تمكن (ماري جاتا) الذى تحول إلى الدين الإسلامى من تدمير جيش سوسو فى منطقة (كيسيرنا)، واندفع بجيشه فى اتجاه الشمال داخل الصحراء وحول عاصمته إلى (نيانى)، وهى أيضًا تعرف على أنها مالى أو ماندى، وفى السنوات اللاحقة وجه قادة جيوشه إلى أبعد من نهر جامبيا وتيكرور، وهى المناطق التى لجأت إليها قبيلة السوسو المهزومة حيث استطاعوا تنظيم بعض المقاومة واستعادوا عرش تيكرور لمدة قرن من الزمان، وأخيراً هزموا من طرف (الوولوف) سنة ١٣٥٠م، ولقد قاومت قبائل الونقارا فى حقول الذهب محاولات (مارى جاتا) الذى أراد تحويلهم إلى الدين الإسلامى، مع أنهم أخيراً قبلوا رئاسته، وكانت شهرة الغنى الكبير فى مالى قد انتشرت فى أوربا كما كان حفيد (مارى جاتا) المدعو (منساموس - الملك) عندما تولى العرش قد ضاعف من شهرة الإمبراطورية، حيث حج إلى مكة عندما تولى العرش سنة ١٣٠٧م وحج سنة ١٣٢٤م، وعزز التجارة الداخلية والخارجية مع (والاتا ومع ليبيا ومصر) باستخدام ثروته التى لا تقاس، وبناء على ذلك فقد استبق الزيارة بعدد خمسمائة من العبيد كل واحد منهم يحمل كمية من الذهب تزن أربعين رطلاً، وفى القاهرة طارت شهرته بما له من كرم وعطاء وغطرسة، حيث رفض أن يقّبل الأرض فى حضور السلطان المملوكى الذى يظهر أنه لم يقابله بالاحترام الذى تستحقه رتبته الملكية، ولقد أحضر الملك السودانى معه مائة جمل يحمل كل منها حوالى ثلاثمائة رطل من الذهب للبيع والإهداء[1] ولقد وجد العمرى الذى زار القاهرة بعد مرور اثنتى عشرة سنة بعد زيارة الملك[2] أن

(١) لابد أن هذه الأرقام مبالغ فيها؛ لأن العبيد وهم خمسمائة، وكل منهم يحمل أربعين رطلاً من الذهب، هذا يعنى أن الذهب مع العبيد يصل إلى عشرة آلاف كيلو تقريبًا، أما الجمال وهى مائة ويحمل كل منها ثلاثمائة رطل من الذهب أى مائة وخمسين كيلو من الذهب على كل جمل، وهذا يعنى أن الذهب على الجمال يصل إلى خمسة عشر ألف كيلو تقريبًا، وعلى أى حال فإن الروايات القديمة يمكن أن تكون المبالغة فيها أكثر من الصواب، والمؤلف ينقل عن آخرين وربما لم يتحقق مما ينقل. المترجم .

(٢) العمرى بن فضل الله أحمد (١٣٠٠-١٣٨٠) ولد بدمشق وخدم السلطان الناصر بن قلاوون، ألف فى الجغرافيا كتاب (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار). المترجم.

الناس مـاتزال تتذكـر تلك الزيارة وأهميـتهـا من حيث تدعـيم التـجارة، وكان أتـباع مانساموس قد دفـعوا مبالغ طائلة مقابل مشترواتهـم وخصوصًا فى الملابس الحريرية، وفى الأراضى المقدسة كان كرم مـانساموس عظيمًا جـدًّا حتى إن ثمـن تجارة الذهب الرقـيق (الغـبـار) فى السـوق ارتفـع كـثيـرا، وفـى طريق عـودته إلى بلاده اسـتـقـبل مانساموس مبعوثًا أتاه بأخبار سقوط عاصمة مالى (قاو) فى يد السنغاى مما جعله يغير سيـره ويأخذ طـريقه إلى (قـاو)، حيث قـابل بعثـة الملك المهزوم، وأخـذ أبناءه الاثنين رهائن ثم استدعى مانساموس المهندس الشاعر الأندلسى الذى أخذه من مكة، وطلب منه أن يقـوم ببناء مـسجـد جديد فى (قـاو) بحـيث يكون هذا المسـجد أول مـبنى فى السـودان الغربى مـقـامًا من الطوب المـشوى ومـاتزال أساسـاته مـوجودة حـتى الآن، وسقـوط (قاو) قرّب تومـبوكتـو لمالى وهى التى ورثت الحيـاة الثقافـية والتـجارية من (والاتا)، واجتذبت إليـها قبيلة (جـادالا) التى كانت بدائية وهى الآن قبـيلة الصحراء التجـارية الثقافيـة، ولقد عمل مانسـاموس على تقدم تومبـوكتو فى أن مهندسـه عمل على تزيينهـا بمسجد جـديد ومبان أخـرى، وكان الدارسـون من (جادالا) فى مسـجد (سانكورى الجديد) قد اجتـذبوا بدورهم أولئك (الجادالا) الذين يعتقد أن أصلهم من نتاج زواج مـشترك بين البرتغـاليين واليهود والعـرب وهم يعيشون الآن فى مـا يسمى (جيدالا أو جـويدالا البرتغالية) وإذا كـانت صور مانسامـوس التى وردت فى خريطة (كاتالان) صحـيحة فإن هذا الزعـيم يظهر فى طول متوسـط بلحية كثيـفة وبطن بارز وهو يرتدى تقليـديًا اللباس الأبيض ويضع على رأسـه تاجًا مذهبًـا دقيقًـا على شكل وطراز أولئك الذين فى أوربا الغـربية، وكان مـعاصروه وقت الحج قـد فوجـئوا بلونه الأسمر حيث إنهم يتوقعـون أن الناس فى بلاد السودان زنوج سود، توفى مانساموس سنة ١٣٣٢م بعد أن أنشأ أكبـر إمبراطورية إفريقية فى شبـه الصحراء، وربما كانت من أحـسن النظم حيث اجـتـذبت العديد مـن المصريين والمغـاربة والمسـتوطنين الآخـرين المعروفين باسم (تور) أى الغربـاء، وفى الخرائط الأوربية عن إفريقيـا كانت تبرز تلك الإمبراطوريـة بوصفها من أغنى البلدان وقـتذاك، واسم مالى وقتـئذ يعنى المكان الذى

يعيش فيه الملك، وهكذا فإن الاسم يمكن أن يعطى لأى عاصمة (ماندوقية) علمًا أن مانقى تعنى مختلف الناس فى مالى، وكذلك مقعد مانسا يعنى مقعد الملك (ماندينكا)، أما مانيلكا فقد بقى اسم القبيلة التى ينتمى إليها أول رئيس لغينيا الحديثة الرئيس (سيكوتورى) وماندينقو الحديثة هى جامبيا واسم الهاوسا للماندينقو أو المانيلكو هو (وانقارا) وبعد وفاة مانساموس حدثت نفس القصة المعتادة فقد أضاع ابنه المدعو (ماغان) الكثير من ممتلكات الإمبراطورية خلال أربع سنوات فقط فأولاً مفرزة حرسه في تومبوكتو هزمت بواسطة المحاربين من (ياتينخا)، ثم إن الرهائن أبناء ملك شنغاى (على كولين وسليمان نوح) فرا إلى (جاو) وهنالك أججا التمرد حيث منح (على كولين) التاج هناك وكان (ماغان) قد استبدل بخاله (سليمان) وهذا استطاع أن يستعيد ما فقد من الإمبراطورية عدا (جاوا وتومبوكتو) وحدث أنه فى عهد سليمان أن قام الرحالة (ابن بطوطة) بزيارة مالى وربما كان هناك فى ذلك الوقت أكثر من مالى ولكن واحدة كانت أكثر أهمية من غيرها، لقد سافر الكاتب البربرى من مراكش سنة ١٣٥٢م عبر سيجيلماسة وسوق الملح فى (تاغارا)[١] ومن هناك أرسل من يقوم بالاستكشاف فى (والاتا) للتأكد من أن المياه قد أعدت للقافلة القادمة؛ إذ إنه إذا لم يصل هو شخصيًا، فإن القافلة يمكن أن تهلك وكان المبعوثون عمى أو على وشك العمى، وإن كانوا من ذوى السمعة والشعبية الكبيرة حيث إنهم يجدون طريقهم عبر الصحراء بقدرة أكبر من أغلب الناس؛ لأنهم يعتمدون بقوة على حاسة الشم ومعرفة الأرض باللمس، وقد وصل ابن بطوطة (والاتا) بعد مسيرة شهرين من سيجيلماسة وكانت المدينة فى هذا الوقت تابعة لمالى، وقد فوجئ الكاتب بجمال النساء وباستقلالهن فى المظهر على غير التقليد الإسلامى، كما فوجئ أيضًا بعادة خروجهن وكانت عائلة نساء القصر (كيتا وكوتانا وكوليبالى - إلخ) يتمتعن بقوة هائلة فى الحكم، كما كانت البلاد فى حالة سلام واستقرار، ومن هناك واصل ابن بطوطة سفره

(١) يذكر أن مدينة بنغازى الليبية فى وقت ما كانت تسمى مدينة سوق الملح، وكان ذلك السوق يقع فى الجانب الغربى من المدينة، وتحديدًا فى المكان الذى أقيم فيه قصر كبير استخدمه الحاكم الإيطالى أثناء الاستعمار، ثم استعمله الملك الليبى إدريس السنوسى، وعندما تقرر إنشاء الجامعة الليبية سنة ١٩٥٦م، أهداه الملك ليكون مقرًا لتلك الجامعة، هذا فقط لإعلام من لا يعلم بذلك من الليبيين. المترجم.

إلى (نيانى) العاصمة مع ثلاثة فقط من صحبه، ولم يكن معهم طعام لرحلة مدتها أربعة وعشرين يومًا، وإنما كانوا يبادلون بالملح احتياجاتهم اليومية، واجتاز ابن بطوطة نهر النيجر الذى اعتبره (خطأً) على أنه النيل، وبعد أن شفى ابن بطوطة من مرض ألم به فى (نيانى) قام بزيارة للبلاط الملكى، وكانت التقاليد تشبه ما ذكره البكرى عن غانا حيث يقوم طالبو المقابلة الملكية بارتداء خرق ويقذفون التراب على رءوسهم الحليقة ويقوم الرجال بالركوع كعلامة للتقدير ويوجد عادة اثنان من الماعز مذبوحان كمظهر لإبعاد الحسد، وقد رأى ابن بطوطة الملك يقدم للزوار امرأة ليقتلوها ويأكلوا لحمها ومن ثم يلطخون جباههم وآذانهم بدمها، كما وجد أشياء تثير الإعجاب والاستغراب، ومن هنا فإن رواية ابن بطوطة تعكس ترفع العرب والبربر عن الأفارقة السود لكنه فى نفس الوقت يعترف قائلاً: إن السودانيين يتعاطون التجارة ويطيعون القوانين وأعجب بمستوى تلك التجارة، وذكر أن سلسلة من الجمال عددها ثلاثة عشر تصل (والاتا) بانتظام وهى محملة بمختلف أنواع البضاعة، لكنه مع ذلك فجع بسبب عادة أكل لحوم البشر والكلاب والحمير، وكذلك بتعرى النساء وتلك عادة رآها حتى فى نساء البلاط الملكى، وقال: إنه قلما يلاحظ المرء لبسا على امرأة[1] كما قال: إن

(١) وهذا ما ذكره ابن بطوطة، قال: إذا سافر أحد ملوكهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التى يأكل ويشرب فيها، والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادًا ولا إدامًا ولا دينارًا ولا درهمًا، وإنما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج والدقيق والنبق والأرز والفونى وهو كالخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبياء، فيشترى منهن ما أحب من ذلك، ويضيف ابن بطوطة: ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا باديات العورات، ولقد كنت أرى منهن فى رمضان كثيرًا على تلك الصورة، وأخبرنى فارنا ماغا أن منسامس لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاضى من البيضان يكنى أبى عباس ويعرف بالداكالى فأحسن السيد إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته، فلما وصلوا إلى ميما شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطام أمير ميما وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدًا ولا سارق يطئون بتلك البلاد، فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء، وإنما دفنها بيده فى ذلك الموقع، وأشارت له إلى الموضع، فأخرجها الأمير وأتى بها إلى السلطان، وعرفه بالخبر، فغضب على القاضى ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم فأقام عندهم أربع سنوات، ثم ردوه إلى بلده، ولم يأكله الكفار لبياضه؛ لأنهم يقولون : إن أكل الأبيض مضر؛ لأنه لم ينضج والأسود هو النضوج بزعمهم . المترجم .

الناس على الرغم من تدينهم مازالوا يحفرون علامات على وجوههم تبين قبائلهم وتقاليدها، ووجد بشكل خاص أن صناع الذهب من الوثنيين، ولقد قضى الكاتب ابن بطوطة ثمانية أشهر فى (نيانى) وعاد على ظهر جمل عبر تومبوكتو وانحدر أسفل إلى النيجر عبر سنغاى حيث منح هناك طفل (رقيق) من سنغاى وقضى شهرا فى (قاو)، ثم رافق مرحولا متجهًا إلى (تاكيد) ومعه ستمائة امرأة (رقيق) إلى سيجيلماسة وفاس وخلال عبوره للصحراء الكبرى كانت ملاحظاته تعكس حجم التجارة عبر الصحراء وقتئذ، وكذا تلك الصلات بين المغرب والتجار السودانيين ورأى مالى ليس فى وقت رفعتها فى وقت حكم مانساموس، ولكن بشيء من السعادة وبعد هذا الوقت بخمسين سنة صارت مملكة صغيرة مهدمة، أما سنغاى وقد استعادت بعضا من مجدها السابق فى ظل حكم (على كولين) فقد كانت أسعد حظًا ذلك أن العاصمة فى (قاو) مثلها مثل غانا بها وثنيون ومسلمون على الرغم من أن أغلبية الناس مازالوا وثنيين، وفى سنة ١٤٦٨م فى عهد حكم (سونى على) تحرك جيش سنغاى شمالاً فى اتجاه المدينة العظيمة الأخرى الواقعة على نهر النيجر فى السودان وهى تومبوكتو وقد احتلها، ويذكر السعدى[1] أن عهد (سونى على) كان صعبًا ودمويًا، وأن سكان تومبوكتو أجسادهم سوداء وفيهم أصل بربرى وهم يحقّرون السنغائيون بالرغم من أن البيت الحاكم فى (قاو) يتكون من أصل بربرى وتحديداً هؤلاء يكرهون (سونى على) الذى ينعته السعدى بأنه طاغية وخليع وسارق وأنه يمرح بموت المثقفين والمتدينين كما أنه سادى ومجنون وكان ذات مرة قد أجبر امرأة على أن تضع طفلها وهو على قيد الحياة فى فوهة مدفع بحيث يقذف به لتأكله الكلاب، وفى كثير من المناسبات كان يأمر بحرق ضحاياه حتى الموت أمامه، وآخرون يوضعون عرض الحائط لبعض الوقت ثم يقتلون، وتقدم ملك سنغاى إلى (جينى) التى حسب الأسطورة المتواترة قد قاومت تسعة وتسعين حملة عسكرية قام بها ملوك مالى، وفى هذا الوقت

(١) السعدى عبدالرحمن بن عبدالله (١٥٩٦ - ١٦٥٥) مؤرخ سودانى اشتهر بكتابه (تاريخ السودان) الذى أرخ فيه لدولة سنغاى الكبرى ومالى والطوارق، نشره المستشرق الفرنسى (مرداس) سنة ١٩٠٠م . المترجم .

سقطت المدينة بسوق ملحها الكبير في يد (سوني علي) بعد أن حاصرها لعدة سنوات، وربما يكون سقوطها والنصر النهائي عليها حدث سنة ١٤٧٣م، وإذا كان موسى قد أزعجه تقدم ونجاح سوني علي فقد أمر بالتقدم ناحية الشمال واستولى على (والاتا)، ثم انسحب بعد أن نهب المدينة وقرر سوني علي أن يأخذ موقع سوق (ماليان) لنفسه، حتى إنه أقام ما قصد به أن يكون قناة تمتد مائتي ميل من بحيرة (فاقبيان) إلى (والاتا) بحيث توفر له مواصلات متحركة بالقوارب لكن هجمات جديدة من طرف موسى أجبرت الطاغية على التخلي عن هذا المشروع الطموح، ومن حظ الناس الكبير في تومبوكتو إنه مات سنة ١٤٩٢م وكان خلال ست وعشرين سنة قد حول المملكة الصغيرة إلى أكبر إمبراطورية في المنطقة، وفي هذا الوقت بعد أن توفي خلفه ابنه، ولكن العرش سرعان ما استولى عليه أحد قادة جيش والده وهو (محمد توري) وأخذ لنفسه لقب (أسكيا) وبالتالي أصبح اسمه (أسكيا محمد الأول) وكان في قوته مثل (سوني علي) ولقد أعطى كثيرا من الاحترام للدين والعلماء، وحقق انتعاشًا إسلاميًا كبيرًا، ولذلك حدث أن العلماء الذين اضطهدوا في عهد (سوني علي) صاروا الرجال المفضلين في هذا العهد أي في ظل (أول أسكيا) وكانت (قاو وتومبوكتو) قد تقدمتا اقتصاديًا واجتماعيا، وقام (أسكيا محمد)، بأداء فريضة الحج حالما تولى الحكم مصحوبًا بعدد خمسمائة فارس وألف من المشاة وحمل ثلاثمائة قطعة من الذهب الثلث منها لعمل الخير في المدن المقدسة، وكان أسكيا الأول قد وحّد الحكم في سنغاي ووسعه، وتوسعته الكبرى ربما كانت في دولة الهاوسا وهي بلاد غنية تقع بين النيجر وبحيرة تشاد، والهاوسا معروفون كمزارعين يمتهنون الحياكة والصباغة والدباغة والحدادة وهم يقيمون في المدن المقامة من الحجر مثل (قوبركاتسينا وزاريا وكانو)، وهذه المدن اجتذبت التجار العرب ولم يكن الهاوسا على أي حال مقاتلين فيما عدا مقاومة بسيطة حدثت في (كانو)، ولقد امتدت سلطة (أسكيا محمد) إلى حدود سنغاي وحدود الأعداء التقليديين (التوارق) الذين أزعجهم احتلال بلاد الهاوسا وهي المرعى الموسمي للبدو، ومن أجل أن يؤمن (أسكيا محمد)

حدوده الواسعة احتل بلاد التوارق ليدفعهم بعيداً إلى الصحراء، ولقد ذكر (بوفيل) قائلاً: مثلما فعل الفرنسيون خلال بداية القرن العشرين كان على (أسكيا محمد) أن يتعلم أنه من أجل أن ينهى مشاكل قد تحدث فى المستقبل حرم البدو من أراضى مراعيهم وإضافة إلى ذلك بعد أن تخلص (أسكيا محمد) من إزعاج التوارق واجه تمرداً على باب الدار ذلك أن ملك (كابى) الذى كان قد حارب مع أسكيا فى حرب الهاوسا والتوارق فجأة ثار وأعلن استقلال منطقة (كيبى)، وتقول الأساطير: إنه لم يكن راضيًا على نصيبه من غنائم انتصارات (أسكيا محمد) وقد حصل كانتا على تأييد المحيطين به المحميين بالمستنقعات والغابة، ولذلك استطاع أن يحافظ على عاصمته (سوراما) ضد هجمات (أسكيا محمد) وكانت المشاكل الأساسية التى تواجه (كانتا) لبعض الوقت هى أقل من مشاكل سنغاى الذين كان عليهم أن يعبروا المستنقعات فى طريقهم من الغرب بدلا من شرق (كيبى) حيث يوجد (ماى على) حاكم (بورنو) الذى صار ينظر باهتمام إلى بروز جار قادر على تحدى السنغاى ذلك أن الكيباويين الذين صدوا بشتى الطرق هجمات (ماى على) وجيشه القوى، وبعد أن احتل الإنجليز (سوكوتو وقواندو) وجدوا (ساركين كيبى ساما إسماعيل) فى (أرقونقو) على بعد عدة أميال مازال بنجاح يقف ضد الهجمات من العاصمتين القويتين الفولانيتين منذ عقود، واليوم فإن الشعب الفولانى تشتت ولم يبق إلا القليل من ذلك المجد الذى حققه (أسكيا) ومن الجدير بالاهتمام أن المدينة التارقية السابقة المسماة (أغاديس) مازالت مسكونة بناس أغلبهم من أصل (سنغايوى) وهم يتكلمون لغة السنغاى، وهناك كذلك التوارق لكنهم مع ذلك لم يستعيدوا السيطرة السياسية على المدينة، وكان أول انتصار (لأسكيا) قد تحول إلى هباء حتى قبل أن يموت ذلك أن أبناءه الثلاثة بقيادة أكبرهم موسى قد تمردوا عليه وطلب (أسكيا) من أخيه (يحيى) العون لكن الأبناء قتلوا عمهم وزحفوا على (قاو) حيث أجبروا أسكيا على التخلى عن الحكم لصالح موسى وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨م لكن موسى المتجبر هو الآخر اغتيل فيما بعد وخلفه (أسكيا بينقان كورى) قائد الحملة غير الموفقة على (كيبى) وهو

الذى عاقب (أسكيا الكبير) بالنفى إلى جزيرة فى النيجر حيث مات وهو فى حالة سيئة، وخلال القرن السادس عشر تعززت كثيراً المعرفة بالسودان بسبب كتابات (ليو أفريكانو) وهو شاب مغربى ولد فى (جرينادا)، وتعلم على يد فقيه فى فاس، وهذا الشاب كان ضمن الأسرى الذين أخذوا عندما سيطرت وحدة قراصنة مسيحية على سفينة عربية عند جزيرة جربا التونسية سنة ١٥١٨م ونظراً لعلمه الغزير قام القراصنة بتقديمه إلى البابا (ليو العاشر) ليعمل طبيبًا وفنيًا لديه لكن البابا حرره وحوّله دينيًا وغير اسمه من (الحسن بن وزاز) إلى (جوفانى ليونى) وهذا اسم البابا نفسه كما شجعه على إتمام علومه فى إيطاليا، وفى المجال الذى كان الشاب قد بدأه بالعربية المبنى على ملاحظات سفرياته وعنوانه (تاريخ ووصف إفريقيا والأشياء التى تحتويها)، ولقد ظهرت هذه الملاحظات بعد ثلاث سنوات من وفاة البابا، وكان (ليو أفريكانو) قد شدد على أهمية السودان للتجارة المغربية، ولذلك اثنى سلطان فاس على مواطنه المراكشى، وقدم له هدية كانت قد وصفت على أنها تتكون من خمسين زنجيًا عبداً واثنى عشر جملاً وزرافة وست عشرة من قطط الزباد، ورطل من الزباد، ورطل من العنبر، وستمائة جلد غزال، وفى سنة ١٥٦٠م كان ليو أفريكانو أحد أعضاء بعثة أرسلت إلى سنغاى من طرف شريف فاس مولاى (محمد القيم) مؤسس ملك السعديين وكان الكاتب الشاب فى عمر أقل من العشرين سنة عندما سافر مع جيش (أسكيا) المنتصر، وفى تومبوكتو بيّن وجود قناة المياه خلال فصل الفيضانات، وكان قد أعجب بوفرة القصب والبقر والحليب والزبدة والملح الذى كان يجلب من مسافة خمسمائة ميل من (تاغارا)، وكان حمل الجمل من الملح يساوى أكثر من ثمن الجمل نفسه، ووجد (ليو أفريكانو) سكان المدينة على أنهم شعب طيب ومضياف وهم يقضون أغلب أوقات الليل يرقصون ويغنون فى كل شوارع المدينة، ويحتفظون بعدد كبير من الرقيق الرجالى والنسائى، وإن كانت مدينتهم تواجه خطراً شديداً من الحرائق، وفى الزيارة الثانية كان نصفها قد احترق خلال خمس ساعات ولم يكن هناك فى أطراف المدينة حدائق أو بساتين على الإطلاق وهو يصف حكم (أسكيا)

قائلا: إن ملك تومبوكتو الغنى لديه العديد من الصحون والصولجانات وهى جميعًا من الذهب والبعض منها تزن ألفًا وثلاثمائة رطل وهو يحافظ على عرش منظم وجميل مزود بالأثاث الرائع، وعندما يسافر هذا الملك إلى أى مكان يمتطى جملاً يتقدمه بعض رجاله المهمين وهو كذلك يفعل نفس الشيء عندما يسير إلى ميدان الحرب بينما جميع جنوده يمتطون ظهور الخيل وإذا ما أراد أحد أن يتحدث إلى الملك فهو لابد أولاً أن يركع عند قدميه ثم يأخذ من التراب كمية يرشها على رأسه وكتفيه، وهذه عادة يحافظ عليها الجميع وهى تمثل تحية الملك وكذا الحال بالنسبة لسفراء الإمارات الأخرى، ولدى الملك دائمًا ثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة الذين يحملون الحراب والسهام المسممة وهم يتبعونه وتحدث بينهم وبين بعض الناس مناوشات عندما يرفض البعض دفع الإتاوات المقررة وكل الأشياء التى يأخذونها يقومون ببيعها لتجار سوق تومبوكتو، وأولئك التجار يستخدمون هم ومرافقوهم أحصنة صغيرة فى حالات السفر، أما الخيول الممتازة فيأتون بها للبيع وعندما يسمع الملك بأن أى تاجر أتى للبلاد ببعض الأحصنة يأمر بإحضار عدد معين أمامه ويختار أحسنها لنفسه ويدفع الثمن المعقول، ولدى بلاط الملك عدد كبير من الرهبان والقضاة والعلماء والأطباء وهؤلاء يقيمون فى البلاط الملكى وعلى حسابه، وفى السوق تباع الكتب ومختلف المخطوطات بأثمان أغلى من أى بضاعة أخرى، وكانت عملة تومبوكتو ذهبية وبلا أى ختم أو كتابة وإن كانوا يستعملون فى حالة الأشياء ذات القيمة القليلة عملة صغيرة جاءت من مملكة فارس، أما ليو أفريكانو فقد جعل (شلن كوورى) يساوى أربعمائة من (الدوكات) واسمه على العملة المحلية الذهبية، وكان (ستة وثلاثين) من هذه العملة تزن أوقية من الذهب، ويظهر أن الكاتب المغربى قد زار تومبوكتو وهى فى قمة مجدها، ويعود الفضل فى ذلك إلى (أسكيا) وبلاطه الميمون، كذلك زار هذا الكاتب (جينى ونيانى) فى مالى وقال: إن (جينى) غنية بالأغذية والقطن، وهذه يبادلونها بالأسلحة والمعدات الأخرى، وفى مالى حيث كانوا يعانون من هجمات (أسكيا) وجد أيضًا الأبقار والحنطة ووفرة القطن، ووجد كذلك الناس

مضيافين، وهناك عدد من الدارسين الإسلاميين فى مسجد المدينة، ويضيف (ليو أفريكانو) قائلاً: إن الناس فى هذه المنطقة يتقدمون على جميع السود فى الذكاء وفى التحضر وفى الصناعة، وقال إن عاصمة (أسكيا هى قاو) وهى غير مسوّرة ويوجد هناك البلاط الملكى وبيوت التابعين وبيوت التجار الأغنياء، وعن سوق الرقيق قال: العبد الذى لا يزيد عمره على خمس عشرة سنة يباع بمبلغ ست دوكات، وكذلك يباع الأطفال فى هذا السوق، أما الملك فله فى هذه المنطقة قصور خاصة وهى التى يبقى فيها عدد كبير من السريات والعبيد والخصيان وله حراس يتحركون على الخيول وحراس مشاة، وكان سوق المدينة نشطًا تباع فيه الخيول بثمن أربعين وأحيانًا خمسين دوكة، ولا يوجد نوع من الأقمشة فى أوربا لا يعرض فى هذا السوق منه ما يباع بأربعة دوكات للمتر، ومنه النوع الممتاز الذى يصل ثمنه إلى خمسين دوكة ذهبية، أما السيوف والسروج ومختلف أنواع التوابل فأثمانها عالية ولقد وجد ليو أفريكانو، الملح غاليًا جداً وهناك الكثير من الذهب، وذهب إلى الهاوسا وهى منطقة محتلة حديثًا من طرف (أسكيا) وهناك أعجب بوفرة صناع الأحذية والحديد ومواد أخرى، ومملكة الهاوسا الأخرى وهى التى قال: إن اسمها (زانفارا) وتتكون من (كاتسينا وكانو وزاريا) وكلها مدمرة بسبب الحرب مع سنغاى وترهق أهلها الإتاوة التى فرضت عليها، واندفع أكثر فى اتجاه الخروج من نطاق إمبراطورية (أسكيا) إلى بورنو حيث يوجد الذهب بكثرة، حتى إن كلاب الصيد توضع على رقابها حلقات من ذهب، والانتصارات فى الحروب توفر لبورنو العديد من الرقيق، ووجد أن هذا الرقيق يستعمل للتبادل التجارى، وقال: إنهم يقدمون عشرين من الرقيق مقابل حصان جيد، وعندما اتجه ليو أفريكانو شمالاً إلى بلاده ربما عبر (أغادير)، وعندما كان فى الهاوسا لاحظ أن الأرز يزرع فى شكل دوائر بالماء المتدفق من نهر النيجر، وهذا جعل صناع الخرائط يضعون اسم البحيرة سنة ١٥٦٤م ويحددون موقعها فى أعلى تومبوكتو خالطين بين نهر النيجر ونهر السنغال الذى يتدفق غربًا وهكذا بقى وضع البحيرة على الخرائط إلى نهاية القرن الثامن عشر، وكانت عمليات الاحتلال التى قام بها (أسكيا)

قد جعلت سنغاى إمبراطورية غنية خلال القرون الوسطى، ومن الطبيعى أن يثير ذلك طمع برباري وهو الشريك التجاري، وقد امتدت سنغاى فى أيام مجدها من الصحراء إلى الغابات المطيرة، ومن الأطلنطى إلى بحيرة تشاد تقريبا وكانت هذه الإمبراطورية غنية، وأرضها خصبة بالمياه وكثيرة الحيوانات والأسماك والبذور وكان صناعها وعمال المناجم فيها يوفرون الذهب والحديد والنحاس والجلود ومختلف المنتجات من أجل مواجهة احتياجات الاستيراد، وكان دائمًا هناك الفائض من الذهب والرقيق وكانت مشكلة سنغاى الاقتصادية الأساسية تتمثل فى كيفية مواجهة توفير مطالب منطقة البحر الأبيض المتوسط من صادرات هذين المنتجين من إفريقيا، ومن يمكن أن يتحدى هذه الإمبراطورية لابد أن يكون قوة كبرى، وفى سنة ١٥٧٨م كان المغاربة قد هزموا البرتغاليين فى معركة القصر الكبير حيث قتلوا منهم ستة وعشرين ألفًا فى الميدان وبعد جهد بقى منهم مائة ألف أحياء ومن بين الذين قتلوا كان ملك البرتغال الذى خلفه شقيقه البالغ من العمر تسعًا وعشرين سنة وهو ابن سرية زنجية وفى هذا الوقت أضاف الحاكم الجديد إلى اسمه لقب (المنصور) وكان فى هذا الوقت قد انتقل الحكم فى مراكش من بلاط الموحّدين إلى المريدين أى إلى أسرة سعدى التى تدعى أنها آتية من الحجاز، وتنتمى إلى النبى محمد ﷺ، ومدفوعين بانتصارهم على البرتغاليين بدأ المغاربة ينظرون إلى أبعد وكان هنالك أمرًا يمنع بيع المعدات الحربية للمسلمين من البابا لكن الملكة البريطانية (اليزبث) زودت المنصور بقنابل المدفعية وخشب البواخر والمجاديف وتسهيلات فى خدمة أحواض السفن البريطانية مقابل ملح البارود المغربى الذى كانت تحتاجه لصنع دقيق البارود، واحتج على ذلك ملك إسبانيا (فيليب)، ولكن الهدف الحقيقى لطموح الجيش المغربى لم يكن فى أوربا ؛ إذ كانت خطط المنصور السرية جدًا تتمثل فى احتلال سنغاى والاستيلاء على حقول ذهبها، وفى ذلك يكون الهدف الأول أساسًا (تاغازا) حيث يوجد عبيد (موسيغا) التوارق يخدمون الملح الذى كان يبادله بالذهب فى السودان الغربى بالطريقة التقليدية (ملح بذهب) ولقد وصف ابن بطوطة (تاغازا) على أنها قرية قبيحة بها بيوت

ومساجد مقامة بطوب التراب ومغطاة بجلود الإبل وليس بها أشجار، والباحثون عن الرقيق يعيشون على التمر الذى يأتى من (درعا وسيجيلماسة) ولحم الإبل وأشياء تأتى من الجنوب، ويقول ابن بطوطة إنه فى أثناء زيارته وجد أن حمل الجمل من الملح يساوى أوقية من الذهب فى (والاتا) وفى مالى يساوى أكثر من ثمنه فى (والاتا) أربع مرات، ويضيف هناك قطع صغيرة من الملح تستعمل كعملة بواسطة الأرقاء، ووصف ليو أفريكانو الملح قائلاً: إنه أكثر بياضًا من أى رخام وكان مصدر غذاء عمال المعادن يبعد مسيرة عشرين يومًا، وكذلك فإن الحياة تعتمد على استمرار التجارة وغالبا ما يكون الطعام قليلاً، ولذلك تحدث حالات مجاعة، ويضيف: إنهم يشربون مياهًا مالحة من آبار واقعة بالقرب من حفر الملح عندما لا تصل المياه الصالحة من الواحات فى الوقت المناسب، وقبل أن يباشر المنصور حملته قرر عدم احتلال (تاغازا) ربما خشية ردود فعل انتقامية على مراكش قد يقوم بها التوارق، وبدلاً من ذلك اختار السير فى طريق دورى (غير مستقيم) إلى سنغاى وكانت القوة المصاحبة كما ذكر تبلغ عشرين ألفًا من الرجال، ولكن يتوقع أن تكون أقل من ذلك، وقد هلكت فى الصحراء وبالتالى اضطر المنصور لأن يحتل (تاغازا) بقوة جديدة تبلغ مائة ألف مقاتل حيث هرب منها الزنوج ومنع عودتهم (أسكيا داود) من العودة ولذلك فإن المناجم توقفت ولم تعد تعمل بدون أولئك الزنوج الرقيق، ولهذا ترك المغاربة (تاغازا) وبدأوا أكبر حملة قتال عسكرية فى إفريقيا حتى الزمن الحاضر وهى التى ماتزال أصداؤها تذكر فى مراكش خلال القرن العشرين تلك كانت حملة موريتانيا، ونحن الآن فى سنة ١٥٨٩م والمنصور فى فاس عندما جاءه مبعوث من مراكش يحمل رسالة من زنجى يدعى (ولد كيرينفيل) وهو الذى نفاه (أسكيا الجديد - إسحاق الثانى) إلى (تاغازا)، لكنه هرب وجاء إلى مراكش وكاتب الرسالة يدّعى أنه شقيق (إسحاق الأكبر) مغتصب السلطة. والواقع أن (ولد كيرنفيل) كان مخادعًا لكن موقفه أعطى المنصور المبرر الذى كان يريده من أجل أن يغزو الصحراء (بعض المصادر تقول: إن المنصور فى بادئ الأمر أراد أن يفاوض أسكيا الذى رد بأن أرسل للسلطان حرابًا ورماحًا)، وكان المغاربة قد اعتمدوا على العدد لتحقيق النصر ولكن حملة سنغاى احتاجت

لتكتيك مختلف؛ إذ إنه بغير عدد محدود لن يكون هناك أمل فى عبور جيش كبير صحراء جافة، وكان لدى المغاربة أسلحة نارية وهذه تعطيهم مميزات واضحة على العدد الكبير فى قوات سنغاى، ولكنهم أيضًا احتاجوا إلى وسائل لنقل العساكر ولقائد جيد، وهكذا اختار المنصور إسبانيًا ذا عيون زرقاء مستعبداً يدعى (جافاس) من (لاس كيفاس فى جرينادا) وهذا الجافاس كان قد رقى ليكون باشا وتحت قيادة هذا الخصى عشرة قواد منهم أوربيون مرتدّون [1] وكان يجب أن يكون الجيش عدده أربعة آلاف مقاتل قوى نصفهم من أوربا والنصف الآخر إسبان مغاربة، أما الفرسان الذين يكوّنون نصف تلك القوة فكان ثلاثة أرباعهم مغاربة، والربع الرابع من الأوربيين، والأوربيون فقط هم الذين يحملون أسلحة نارية، وكان فرسان الخيول المغاربة يقاتلون طعنًا بالرماح، كما أن بعض الأوربيين فى تلك القوة لا هم مستعبدون ولا هم مرتدّون وإنما خونة مسيحيون أكثرهم فرنسيون، أما المرتدّون والمرتزقة وهم نخبة تعمل على سلاح المدفعية منها ستة مدافع ثقيلة كذلك فإن بعض القناصة البرتغاليين من الذين نجوا فى معركة القصر الكبير، ولغة هذا الجيش كانت الإسبانية، أما فرسان الخيول المائة وثمانية آلاف والذين يركبون الجمال فكانوا جميعًا مختارين بعناية يصحبهم ألف سائق جمال ملحقين بالحملة ومن الواضح أن هذه القوة الكبيرة مع نقليات الإبل كانت من أجل قطع مسافة فى الصحراء تبلغ ألف ميل سيراً، ولذلك فإن الجيش وخيوله سوف يعتمد فى تموينه من الماء والغذاء على ما تحمله الإبل فى المؤخرة والذى تتكون كميته من احتياطى (مائة وثمانين خيمة وواحد وثلاثين ألف رطل من البارود ومئات من جلود الثيران المملوءة بماء الشرب إضافة إلى الرصاص والإطلاقات والحبال والأقمشة والحراب وأشياء حربية أخرى)، ومواد الغذاء تلك تتكون من الحبوب والتمر، ولقد غادرت الحملة مراكش فى ١٦ أكتوبر سنة ١٥٩٠م

(١) فقط للتذكير، كنا قد أوردنا أن الكاتب يقول عن أى أوربى يعمل أو عمل مع العرب أو المسلمين: إنه مرتد، وهذا ربما يعنى مرتدًا عن الدين المسيحى، ونحن نقول: إنهم مرتزقة يعملون نظير أجر يتفق عليه كما هى الحالة حتى خلال القرن العشرين، وتأجير المرتزقة البيض للقتال فى بعض بلدان إفريقيا كأنجولا وموزامبيق والكونغو وغير هذه البلدان. المترجم .

(بعض المصادر تقول سنة ١٥٩١م) وقد مضت شهور قبل أن تصل مراكش أى أخبار عن هذا الجيش الجرار وعندما جاءت الأخبار كانت غالبًا غير مباشرة حيث كان راكب جمل من منطقة (عاراوان) بعد مسيرة عدة أيام من تومبوكتو تقدم لدى بلاط الشريف شاكيًا أنه فى ذات يوم كان يرعى حيواناته فى سلام إذ بجيش (جادار) يأتى من بين المرتفعات ليستولى على بعض أغنامه، وهكذا بينت شكوى هذا الراعى أن القوات قد عبرت الصحراء وربما يكون (جادار) القائد أراد بتلك الوسيلة أن يبعث الأخبار إلى مراكش، وطبقًا لرواية (محمود قاتى) فى كتابه طريق الفتح أن ربع تلك القوة التى تتكون من أربعة آلاف رجل لم تتمكن من الوصول لمواجهة السنغاى، ولعل المعين لتلك القوة كان أساسًا ماء الشرب، ويذكر ليو أفريكانو قصة عن تلك الصحراء فيقول: كان فى صحراء (أزاوود) يوجد نصبان من الرخام واحد لتاجر من الأغنياء جداً والثانى لتاجر آخر متوسط الحال، وكان الأول على شفا الموت من العطش وعندما التقيا باع الثانى للأول كوبًا من الماء بمبلغ عشرة آلاف دوكات، وليس لديه إلا ذلك الكوب من ماء الشرب، ولكن الاثنان بهذه المبادلة الباطلة ماتا من العطش فلا الكوب سد عطش الأول ولا بقى للثانى، وعندما سمع إسحاق فى سنغاى بمقدم جيش الصحراء أرسل عدداً من الناس إلى المناطق الواقعة فى طريق الجيش بأوامر سد الآبار لكن أولئك الرسل قبض عليهم التوارق وهؤلاء وقعوا فيما بعد فى أيدى المحاربين التابعين (لجودار)، بينما كانوا فى طريقهم إلى (جاو) وأمر إسحاق رجالة المقاتلين أن يتجمعوا لمواجهة قوات (جادار) لكن الناس فى البلدة رأوا أنه لا أحد يمكن أن يعمل أى شيء فى الوقت الضيق إلا البدو غير النظاميين الموجودين فى الشمال، وهكذا ففى وقت متأخر تجمعت قوات سنغاى وحدث أول صدام مع الجيش الزاحف فى منطقة (تونديبى) على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلاً من (جاو)، وكان (قاتى) قد قدر قوات سنغاى بثمانية عشر ألف فارس وتسعة آلاف وسبعمائة من المشاة وكانوا مصحوبين بعدد من المسلمين (أطباء ومخططين)، ويضيف (كاتى) قائلاً: إن الأحياء من المراكشين كانوا جميعًا من الفرسان نصفهم أوربيون

والنصف الآخر مغاربة، وبدأ الزنوج هجومهم بأن دفعوا قطيعًا من البقر على العدو، لكن المغاربة أفسحوا الطريق لذلك القطيع بحيث يتجه نحو قوات (جودار) ثم فتحوا النار من الجانبين وبذلك تفرقت القوة المدافعة ما عدا رجال الحرس الملكى وهم يسمون (رماة الأقواس الانتحاريون)، وقد ربطوا سيقانهم على أفخاذهم بحيث لا يهربون فى حالة الخوف وصاروا يرمون العدو بأقواسهم ونبالهم إلى أن تم اقتحامهم والتنكيل بهم، وهكذا استولى المغاربة على كميات من الذهب فى ميدان المعركة، ولكن عندما دخل (جودار) ورجاله مدينة (قاو) نفسها صدموا بمنظر قذارتها فى حين هرب منها السكان حاملين معهم كل ما يملكون ولم يبق لا ذهب ولا أى شيء آخر، وعند هذا الحد انتهت رغبة (أسكيا إسحاق) فى المقاومة بحيث تقدم بطلب السلام للباشا الشاب الإسبانى قائد الحملة مؤكدًا على ولاء التحالف مع شريف فاس، وإنه بذلك يسمح للمغاربة بحرية استيراد الملح إلى سنغاى إضافة إلى أنه سيدفع جزية تبلغ مائة ألف مثقال أى (اثنى عشر الفًا وخمسمائة أوقية من الذهب) مع مائة من العبيد الأرقاء، وبذلك لابد أنه أراد تحاشى الاحتلال العسكرى الذى قد يؤدى إلى حق مغربى فى استعمار دائم، وكان (جودار) راغبًا فى قبول العرض بالرغم من أنه صدم بما شاهد من سوء فى حالة البلاد لكنه ليس مخولاً صلاحيات أكثر، وبالتالى كان عليه أن يوفد مبعوثين إلى شريف فاس طلبًا للتعليمات، وذكر فى رسالته إلى شريف فاس ضعف حالة الجيش وحالة حكومة تلك البلاد حتى إن أربعمائة من رجاله ماتوا خلال الأسبوعين الأولين فيها، وإنه بناء على نصيحة إسحاق انتقل إلى تومبوكتو وهى الأنسب صحيًا، وعلى مسافة تسعة وعشرين يومًا من السفر وتقع على جانب النهر، واستلم رد شريف فاس الذى كان غير مقتنع بما ذكر (جودار) وقال: إن على قائده أن يبقى مفرزة من الجيش فى (قاو) وعليه أن يأخذ رهائن معه من أهل (قاو) وأعلن السلطان أخبار الانتصارات العظيمة فى (توندينى) هذه الانتصارات التى تأتى بالثروات الكبيرة، ويذكر (بوفيل) إنه لم تصدر تعليمات عن إرسال قوات أخرى، وإنما إرسال جنرال آخر يكون أكثر وحشية ورأى المنصور أن يعطى شعبه

وزواره فى البلاد انطباعًا عن ذلك الانتصار بحيث يظهر أنه شامل وقدم للسفير العثمانى يدًا مقطوعة مدعيًا أنها يد إسحاق، وقبل ذلك كان التجار البربر أقل تحمسًا من الشريف ورغبة فى احتلال حقول الذهب السودانية إذ كانوا فى العموم مقتنعين بالطريقة التقليدية فى نظام التبادل خوفا من أن يرفض الزنوج عمليات ترسيب مياه الأحواض[1] إذا ما حدث الظلم فى سنغاى بسبب الاحتلال، وكذلك كانوا على علم بأن حقول الذهب أبعد جنويًا من (قاو) على الرغم من أنهم لا يعرفون تحديدًا أين موقعها، وبالتالى فإنهم يشكّون ما إذا كان باستطاعة الجيش المغربى أن يصل اليها، أما خليفة (جودار) فقد كان خصيًا أوربيًا يدعى (محمود بن زقون) ربما يكون إسبانيًا أو برتغاليًا وهذا كان قائد كل المرتدين فى مملكة المنصور، وعلى الرغم من أن رياح الصحراء كانت عاتية وكان الوقت من أسوأ الأوقات لعبور الصحراء فقد أمر بالسفر فورًا مع أربعين أوربيًا آخرين على أن يكون السير ليلاً حيث يكون الطقس باردًا فقط، وهكذا وصلت مجموعته بسلام إلى تومبوكتو فى أقصر وقت أى خلال سبعة أسابيع، وهناك أمر محمود بقطع كل الأشجار ونزع أبواب الخشب من كل البيوت التى يوجد بها هذا الترف البرجوازى وبتلك الأخشاب صنع قاربين وأبقى وحدة عسكرية صغيرة فى تومبوكتو، ثم غادر فى اتجاه أسفل النيجر ليدمر جيش سنغاى فى منطقة البومبا وحاول أن ينصف بعض الأفراد والرتب الذين عزلهم إسحاق من جيشه والذين قتلهم المرابطون (ربما التوارق)، وفى هذا الوقت هرب آلاف من السنغاى إلى المغاربة بينما استسلم (أسكيا الجديد) لكن المشاكل الإقليمية بقيت؛ إذ كانت هناك مجاعة حتى إن المغاربة أكلوا إبلهم وأحصنتهم، ثم طلبوا من المهزوم (إسكيا الجديد) أن يبعث لهم ما أمكن من الطعام وبرغم أن سنغاى كانت تعانى أيضًا ألا أن (أسكيا الجديد) كان سعيدًا بأن يظهر نوعًا من الإخلاص والطاعة فأرسل بعض الأغذية وبعد

(١) هذه العملية رأيناها مستعملة فى بعض بلدان آسيا فى هذا الوقت، أى خلال نهاية القرن العشرين، وتسمى فعلاً (الترسيب) أى أن يجمع الواحد كمية فى مياه النهر فى شيء مثل الغربال يصير يحركه حتى تسقط المياه ويبقى الحصى الذى ربما يشتمل على بعض الذهب. المترجم .

ذاك طلب منه المجئ إلى معسكر المغاربة ليؤدى يمين الولاء للمنصور لكنه عندما جاء ومعه رجال بلاطه غدر بهم وقتلوا جميعًا، ومن ثم قام محمود بتعيين (أسكيا عميل) فى تومبوكتو إلا أن هذا الخير لم يجد إلا القليل من الطاعة بين السكان، وقام فى هذا الوقت السنغاى غير المهزومين فى الجنوب بتعيين (أسكيا) آخر من بينهم على أن هذا استبدل سريعًا بزعيم أكثر قدرة وقوة يسمى (أسكيا نوح) وهو الذى شكل جيشًا سيربك المغاربة لمدة سنوات أربع أخرى تقريبًا على الرغم من أن المغاربة يتمثل تميزهم فى الاعتماد على قوة النيران، بينما يتميز السنغاى بعدد المقاتلين، ولذلك عرف نوح كيف يتحاشى الالتحام المباشر وفعل ما نسميه نحن الآن بتكتيك حرب العصابات، ولهذا انسحب إلى (بورقو) وهى أرض غابات ومستنقعات ساحبًا خلفه المغاربة إلى ذلك الفخ الطبيعى الذى يجد فيه مساعدة الأهالى المحليين، وبذلك جعل الجنود البيض يغرقون فى المنطقة الحارة والغريبة ومياه النهر الملوثة، وهكذا سرعان ما سقطت حيواناتهم بسبب لسعات ذبابة (تسى تسى) القاتلة، وهنا أرسل محمود خبرًا إلى شريف فاس يعلنه أن الاحتلال الدائم مستحيل، وعلى هذا الأساس أدرك المنصور أن (جادار) القائد السابق كان على صواب فى تقديره للمشكلة، ومن أجل أن يساعد محمود فى عملية الانسحاب والتفاوض مع السنغاى أرسل إليه ألفًا وخمسمائة فارس ومثلهم من الجنود المشاة وخمسمائة حصان احتياطى، وبعد ذلك أرسل أيضًا أربعمائة فارس فى حملة صحراوية بطريق مختلف ومع الوقت الذى وصلت فيه حملة الإمدادات تلك خلال سنة ١٥٩٤م تمكن محمود بذكاء من الانسحاب عبر النيجر إلى تومبوكتو تاركًا مفرزة عسكرية صغيرة فى (قاو) ومن الملاحظ أن المغاربة فى حملتهم بغرب السودان لم يتمكنوا من استخدام تلك المميزات التى يوفرها لهم سلاحهم النارى كما أنهم فشلوا فى تسخير المنافسات القبلية غير المحدودة لصالحهم، بل إنهم على العكس جعلوا كل مجموعة من الناس ضدهم بسبب تعنتهم وخياناتهم، وتاريخيًا فإن حملتهم كانت سببًا فى الفوضى بكل المنطقة حيث صارت هجومات التوارق أقوى وأكثر والحروب من كل الأنواع كانت سمة كل يوم، فبينما

كان محمـود عند النهر كان التوارق قد هاجـموا تومبوكتو ونجت تلك المفـرزة المغربية الصغيـرة فقط عندما وصلتـها قوة إمداد تتكون من ثلاثمـائة رجل أرسلت على عجل من النيجر، وكانت تلك القوة المسعفة بـقيادة الضابط الوحيد فى الجيش المغربى الذى سجل لنفسه موقفًا شجاعًا وهو أوربى اسمه (قائد مامى بن مارون)، وعلى الرغم من أنه تسلم أوامر بذبـح الناس الذين فى المدينة أى أولئك الذين تآمروا ضـد المغاربة، إلا أنه أظهر نوعًا من الاعتـدال، بل قتل بيده عسكريًا مغربيًـا كان قد سلب أحد الزنوج، ولقد اعـتذر هذا الضابط لمفتى المدينة الـطاعن فى السن واسمه (أبوحفص عـمر) عن تجاوزات المفرزة المغربية، وبذلك تمكن من استعادة الأمن والطمأنينة حيث قام السكان بقسم الولاء لشريف فاس، كما عاد الهاربـون من الصحراء، وأعيد فتح طرق التجارة وصارت الحـياة فى المدينة عادية، وسارع الدارسـون والتجار بالعـودة من (جينى) إلى المدينة معـتمـدين على موقف (مـامى الشريف)، ليعـلنوا خضوعـهم ويدفعـوا الجزية ومقدارها ستون ألف مثقال، وكان مامى يمارس الشدة عندما يقتضى الحال ذلك، وقد وقف ضد أولئك الذين يخلقـون المشاكل (التوارق) ليـقتل كل رجل يجده يقـوم ببيع النساء والأطفال فى سوق الرقيق، مما أغنى سوق الرقيق، لكن توارق صنهاجة انتقموا حيث نكلوا بوحـدة الحراسة المغربيـة، أما قائد ميـامى محمود بعـد عودته من الجنوب فقـد استـخدم جنوده إضافـة إلى قوة مسـاندة تتكون من ألفين من الرجـال جاءوا من المغرب منتـقمًا من السنهـاجيين، وبعد ذلـك وضع خطة ذكية لنهب مـدينة تومبوكـتو فأرسل مناديا عـبر الشوارع يقـول: إنه فى يوم الغد سيكون هناك تفـتيش من بيت إلى بيت عن الأسلحة، وأكد المنادى أن أتبـاع الولى (سيدى محمـود) القاضى السابق لن تفـتش بيوتهم، ولـذلك سعى الأغنيـاء لوضع أمـوالهم وأسلحـتهم فى بيـوت أولئك المحظوظين الأتباع ؛لأنهم يعلمون أن المغاربة سـوف يستولون على كل شيء يجدونه فى البـيـوت الأخـرى عند التـفـتـيش، وبعـد ذلـك النداء جـمع الناس فى مـسـجـد (سـانكورى) من أجل أن يؤدوا قـسم الولاء للمنصـور ثم يسرّحـون، وتم اسـتدعـاء الرجل الولى وقفلت أبواب المسجد عليهم جميعًا وتولى الجنود أمر تلك البيوت التى

جمع فيها مال الأغنياء ونهبوها بعد أن فتشت من السقف إلى الأرض، كما قتل بعض أولئك الذين حبسوا فى المسجد، ومن ذلك النهب جمع مائة ألف مثقال أرسلت لشريف فاس، بينما تقاسم القائد وأتباعه المبالغ والأشياء الباقية وحتى إنه قبل النهب قام أولئك المواطنون المساكين فى تومبوكتو بإرسال وفد عن طريق أبوحفص عمر إلى مراكش سنة ١٥٩٢م يرجون من شريف فاس المعاملة الحسنة، وعند ذلك أظهر المنصور تألمه وأسفه على وضعهم الصعب ووعدهم بالإصلاح، حيث أرسل مع الوفد حراسًا من المقاتلين تحت قيادة (أبو اختيار) وهذا ابن أحد الأمراء المسيحيين غير المعروفين ، وقد كلف بمعاملة المواطنين فى تومبوكتو معاملة حسنة وإنسانية، وعندما وصلت تلك القافلة (تاغازا) علمت بأنها خدعت حيث إن مبعوثًا صحراويًا سبقهم بأوامر مختلفة، وكان أبوحفص عمر الذى أرسل الوفد عن طريقه وبقية العلماء قد ربطوا فى سلاسل وبعد عدة شهور ورغم وهنهم فى السجن أمروا بالسفر عن طريق الصحراء إلى مراكش وكان بين أولئك الذين وصلوا أحياء بعد تلك الكارثة أبوحفص عمر الطاعن فى السن ومعه المؤرخ المحلى (أحمد بابا) وعندما اعتقل أبو حفص وبقية العلماء كان القائد الأوربى الذى كلف بمساعدة محمود ويدعى (أحمد بن الحداد) قد تسلل عبر الصحراء ليبلغ شريف فاس عن المعاملة التى يلاقيها الناس فى تومبوكتو، وفى هذه المرة كان شريف فاس قد تأثر حقيقة بما يقوم به مندوبه هناك، ولذلك عندما وصل أبوحفص عمر والعلماء الآخرون إلى بلاطه تأكد منهم أن الأموال التى سلبها محمود بعث منها للبلاط فقط مائة ألف مثقال أى من كل ما نهب من تومبوكتو، وهذا الشيء الذى أغضبه كما لم يغضبه شيء آخر من قبل، ولهذا أمر قائد أوربى آخر ويدعى منصور بن عبدالرحمن أن يسافر إلى تومبوكتو ويتولى القيادة من محمود على أن يضع جنرال الصحراء ذاك فى مخزن إلى أن يموت[1] وفى هذه

---

(١) يلاحظ أن كل هؤلاء القادة الأوربيين يسميهم المؤلف خونة ومرتدين، والحقيقة أنهم مرتزقة، وإن حملوا أسماء إسلامية، ولقد شهدنا جماعات المرتزقة الأوربيين يبيعون جهودهم وقدراتهم القتالية حتى خلال القرن العشرين، وأذكر أنه خلال حرب الكونغو كانت قد افتتحت مكاتب فى لندن لتسجيل المرتزقة، وإرسالهم للقتال هناك، وكذلك الحال فى حرب بيافرا وليبيريا إلخ . المترجم .

الأثناء كان محمود مازال يدير الحرب الصعبة ضد نوح وقد أنشأ وحدة رقابة عسكرية مغربية على النهر من (جينى) إلى (قاو) حيث تتولى مفرزة قيادة (قودار) الصحراوية المسئولية، أما فى الميدان فقد استلم محمود تحذيرًا وديًا أرسله ابن شريف فاس المدعو (مولاى أبوفارس) يتعلق بالمصير الذى ينتظره، وهكذا وعلى الفور باشر هجومًا على قوات نوح حيث مات فى الميدان على أن نوحًا نفسه قتل فى مواجهة مع الباشا الجديد منصور بعد ذاك مباشرة، واتضح للقائد الجديد أن الوضع فى غاية السوء ذلك أن المغاربة يسيطرون على النهر ولكن ليس على بقية المنطقة؛ إذ لم يقيموا إدارة ولا أسسوا نظامًا ولا وجدوا حقول الذهب؛ لأنهم كانوا دائمًا فى حالة حرب وفى (قاو) كان المقاتل (جودار) غير راغب فى تسليم القيادة للقادم الجديد من مراكش، وفى هذا الوقت مات منصور ويعتقد أن (جودار) دس له سما، وتم تعيين قائد جديد أرسل من مراكش لكن (جودار) دس له هو الآخر السم فمات، ولم يبق من يمكن أن يتحدى سلطة القائد الإسبانى المخصى (جودار) غير القائد مصطفى محافظ تومبوكتو الفاسد العاجز، ولم يكن من (جودار) إلا أن يخنقه بيديه ليموت على الفور، وعند هذا الحد أدرك المنصور فى مراكش أنه إذا كان هناك من يقود جيشه فلابد أن يكون (جودار) نفسه، وخوفًا من أن يقوم جنرال الصحراء ذاك بإعلان نفسه حاكمًا مستقلاً فى سنغاى عمل شريف فاس على إشعار (جودار) بأنه القائد المفضل لديه، وبالتالى طلب منه أن يعود إلى مراكش من أجل أن يقمع الانتفاضة المحلية، لكن (جودار) رد قائلاً: إنه لا يمكنه أن يعود إلى مراكش قبل أن يعيّن محافظًا قديرًا ليحل محله وعلى ذلك قام شريف فاس بإرسال اثنين من المدنيين أحدهما برتغالى، إلا أن (جودار) قال: إن قبيلة (ماندينيقوس) فى مالى تعد للهجوم، وأن المدنيين لن يكونوا قادرين على الدفاع ضد تلك القبيلة ولهذا قرر شريف فاس إرسال عمر باشا الذى كان سابقًا قد قاد القوات المساندة إلى السودان، وقام هذا الخصى البرتغالى عمر باشا بتقسيم الألف رجل من مقاتليه إلى قسمين أحدهما وصل بينما هلك القسم الثانى فى الصحراء ووافق (جودار) على تسليم القيادة لعمر باشا وعن عودة هذا الجنرال البطل الصحراوى كتب التاجر الإنجليزى الذى يعيش فى مراكش

ويدعى (جاسبير توماس) بتاريخ ٤ يوليو ١٥٩٩م رسالة إلى أحد أصدقائه فى لندن يصف فيها عودة هذا البطل قائلاً:

منذ ستة أيام ماضية وصل إلى هنا رجل نبيل من (قار) يدعى (جودار باشا) الذى كان قد أرسل من طرف هذا الملك منذ عشر سنوات ماضية ليحتل البلاد المذكورة حيث فقد الكثير من رجال هذا البلد أرواحهم ولقد أحضر معه ثلاثين جملاً محملاً بالتبر، وهذا التبر إنما هو الذهب الذى لم يصف بعد وكذلك كمية كبيرة من النحاس ومن قرون وحيد القرن وكمية أخرى من الخشب للصباغة تمثل حمولة مائة وعشرين جملاً وهذه جميعها قدمها للملك مع خمسين حصانًا، وكذلك عدد كبير من الأقزام ورجال ونساء أرقاء بجانب خمس عشرة فتاة عذراء وكانت ابنة ملك (قاو) واحدة منهن وهى التى ستكون سرّية الملك، وعليك أن تلاحظ أن كل هؤلاء النسوة ذوات شعور سوداء كالفحم، ولقد قدر كاتب الرسالة تلك ثمن حمولة الثلاثين جملاً بمبلغ ستمائة ألف جنيه إسترلينى أى حوالى ثمانية ملايين دولار بالعملة الحالية، وعندما غادر (جودار) توقع أن تحدث ثورة (الماندیقوس) على إثر سفره، وفعلاً حدثت انتفاضات قبلية صغيرة قمعها عمر باشا ببعض الصعوبة لكن هذا استبدل على الفور بسليمان باشا الذى صار جنرالاً جيدًا ورجلاً كفئًا يتمتع بفكر إدارى ممتاز، وقد نقل مفرزة الجيش التى كانت فى تومبوكتو تثير المشاكل إلى خارج المدينة ونظم الجيش وبدأ عهد جديد فى عملية احتلال سنغاى بموت المنصور سنة ١٦٠٣م، وبموته حدث الصراع بين أبنائه الثلاثة على خلافته وكان كل منهم يشغل منصبًا قويًا، وقد استولى أصغرهم على مراكش وهو المدعو (زيدان)، ولذلك سيطر على أخويه الكبيرين المنافسين له فى حين أن القائد سليمان كان قد استدعى على إثر موت المنصور الكبير وكان السودان قد تأثر بانتفاضات نسبية تقع بين وقت وآخر يقوم بها التوارق والفولانى والسنغاى، وحالما عزز مولاى زيدان أخيراً موقفه فى البلاد أعاد عمر باشا إلى الصحراء لإقرار النظام فى تلك المناطق، وبعودة عمر وتوفر النية والقدرة على إرساء قواعد الاحتلال ولكن بعد ثماني وعشرين سنة من الموت والخراب أمر المغاربة من طرف الشريف الشاب بالانسحاب، إلا أن الجيش فى النيجر صار له قانونه الخاص ابتداء من سنة ١٦١٢م وما بعدها، حيث انتخب الباشا

الخاص به الذى يقوده ويذكر (مونتيل) أنه كان هناك مائتا باشا بين سنوات (١٦١٢-١٧٥٠م)، وصار هذا الجيش يرقى ويخفض رتب ضباطه، وبرغم قرار الشريف الجديد بشأن سنغاى فإن تومبوكتو بقيت مدينة مغربية، وكانت عمليًا تحت حكم (أسكيا) الذى عينه الجيش وهو الذى رفض أن يعود إلى الوطن على الإطلاق، وكانت تلك المفرزة العسكرية الصغيرة تسيطر على (قاو وجينى وبامبا) وبذلك وعلى ضوء تلك الأحداث صار المغاربة فى النيجر مستقلين، وإن كانت صلاة الجمعة ماتزال يدعى فيها للشريف، وعندما مات المنصور قرر مغاربة النيجر على الفور الاعتراف بزيدان، وفى سنة ١٦٦٠م فإن باشا تومبوكتو أو (أسكيا) محمد الشيتوكى رفض أن يستمر دعاء الجمعة باسم الشريف، وأمر أن يدعى له شخصيًا، وبعد مرور عقود ضعف الوضع فى تومبوكتو بحيث أمكن أن يحدث الاختلاط فى مدن سنغاى ولم يبق السكان مغاربة خلص، ولذلك فإن قبضتهم على تومبوكتو ضعفت وأمكن للوثنيين من بامبارا أن يسيطروا وحدث فى هذا الوقت أن انتهى عهد السعديين فى مراكش وتولى الحسنيون أو ما عرف ببنى فلال الذين ووجهوا بمقاومة من جانب أولئك الذين يؤيدون البيت الحاكم السابق، وقام واحد منهم بتكوين جيش من الزنوج فى تومبوكتو من أجل تدعيم مطلبه بحيث حصل على اتفاق مع الشريف الجديد، ومن ثم صار قائدًا لجيشه مستخدمًا عناصر التمرد كحرس ملكى، وكان هؤلاء النخبة من الجنود السود مخلصين جدًا ولا يهتمون بالأمور السياسية، وسرعان ما أصبحوا جنودًا طيعين لأى شريف يتولى ولذلك طلب من المراكشيين السود المنحدرين من أصل الأسرى فى حملة السودان أو حتى الأرقاء أن يلتحقوا بالجيش كذلك تقرر تربية أطفال الزنوج منذ الولادة بحيث يكبرون جنودًا محترفين، وحدثت حملات على السودان للقبض على الزنوج أو حتى شرائهم لتقوية الجيش، وبحلول القرن الثامن عشر وطبقًا لرواية (مونتيل) كان هناك مائة وخمسون ألفًا من الزنوج فى مراكش، وفى هذه الأثناء كان الجيش الأبيض فى النيجر قد اختفى مع مرور السنوات بالاندماج فى شعوب البامبارا والسنغاى، وإن كان المرء يلاحظ فى شوارع جينى وتومبوكتو بين طبقة التجار بقايا طبيعية وراثية فى أشكال الناس مما يؤكد أن الرواد الأوائل فى تلك الغزوة الكبرى لغرب السودان كانوا

فى الغالب جنوداً أوربيين، وعلى الرغم من الكارثة التى واجهتها تلك الحملة إلا انها أتت بمال وفير للبلاط السلطانى، ولقد ذكر (لاورينس مادوك) وهو تاجر إنجليزى آخر مقيم فى مراكش قائلاً: إنه راى ثلاثين بغلاً محملاً بالذهب من الصحراء مما يقدر بثمن أكثر من مليونين من الدولارات بالسعر الحديث، وكانت الجزية السنوية التى تأتى من تومبوكتو تقارب هذا التقدير على أن جزية (قاو) أكثر من تومبوكتو وبرغم انتهاء الاحتلال كانت التجارة إلى مراكش تزيد على ما قيمته ثلاثة ملايين من الذهب غير المنقى فإن المملكة الشريفية يمكنها أن توفر الكثير من الترف، ويذكر القبطان (جون سميث) وهو من ولاية فيرجينيا فى ملاحظات رحلاته ما يلى:

إن كثيرين من الفنيين الإنجليز يعملون فى مراكش مثل صناع الساعات والسمكرة وبعض الصناعات الدقيقة الأخرى، ويحصلون على مرتبات جيدة أى مبلغ سبعة دولارات فى اليوم الواحد مع الأكل المجانى، وكذلك اللباس المجانى وهو عادة إما من الصوف أو الحرير أو القطن والإعفاء من الضرائب، ويذكر بعض المؤرخين أن صناع الساعات ربما كانوا كذلك يعملون فى صيانة المعدات البحرية والإرشادية التابعة للشريف والتى تستخدم فى الصحراء، والحروب كما يرى التجار تضر بأعمالهم بدلاً من أن تساعدهم (كما كانوا يتوقعون) ذلك أن مصادر الذهب السودانية التى تحدث من أجلها الحروب لم تكتشف أبداً ولكن رغبة البلاط الملكى فى الاحتلال لم تتلاش أو حتى تؤجل، وكان لمراكش حليف واحد هو (إنجلترا) التى تزوّده بالأسلحة وبذلك ارتفع تقدير إنجلترا فى عهد الملكة (إليزبث) لدى شريف فاس وذلك عندما هزمت عدوه القديم (فيليب ملك إسبانيا) سنة ١٦٠٠م، وكان الملك المغربى قد أرسل وفداً ليقابل الملكة إليزبث فى (نونستيشن بارك) من أجل أن يعرض عليها القيام بحرب مشتركة ضد الملك الإسبانى هذه الحرب التى يمكن بعدها أن يتقاسم المغرب وإنجلترا الإمبراطورية الإسبانية فى العالمين القديم والجديد، والملكة إليزبث التى كانت تحتاج من المغرب ملح البارود لم تقل بشكل مباشر (لا) على أنها موّهت الأمر إلى أن مات المنصور بعد ثلاث سنوات من ذلك العرض، وحتى وقت

قريب فى العالم المتقدم نسبيًا لم يجدوا المكان الذى يأتيهم منه الذهب ويظهر أنه مما لا يصدق أن يمر ألف سنة دون أن يكشف هذا السر المعضلة، ولقد ذكر الإدريسى(١) بدقة اسم المصادر عندما قال: إنه (وانقارا) ولكن أين هذه (الونقارا) فالاسم الذى يماثل كلمة الهاوسا فى (الماندينقو) يعنى أحدًا ما أو مكانًا ما يستولى عليه ملك، والكلمة كما هى تستعمل بواسطة الزنوج أنفسهم وتعنى ترسيب الماء فى أحواض (أشانتى ولوبى وبامبوك وبورى)، وبرأى الإدريسى يمكن أن تكون الأخيرة (بورى) حيث مازال التعامل بطريقة الدق على الطبول مستعملاً خلال القرن الثامن عشر الميلادى، ولقد كانت إفريقيا دائمًا أرض الهجرات العظيمة وكانت (وانقارا) الغنية بالتأكيد هى (أشانتى) وقد شهد القرن السابع عشر الكثير من الأنشطة الأوربية على ساحل غينيا وهى صغيرة ولكنها مملكة غنية متطورة وربما يمكن أن توصف إفريقيا قبل مجىء الأوربيين بأنها مجهولة أى الأجزاء التى لم يرها الأوربيون باستثناء أولئك المسيحيين المستعبدين أو الضباط المخصيين المرتدين فى الجيش المراكشى (أوربيون أيضًا) وكان هناك عصر من التّدين عبر أغلب المناطق العليا والتى تعرف باسم غرب السودان، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت قبائل الهاوسا وحدها التى لها مطالب حقيقية تهتم بها، فالهاوسا الحامية الأصل لغتها تتكون من العربية والتيمازيغية (لغة بربر الصحراء) وهى التى تكتب بالخط العربى، وهؤلاء بربر صاروا زنوجًا وهم يسيطرون على ما يعرف اليوم بنيجيريا الشمالية، وتقول الأسطورة: إن القبيلة بدأت تتكون عندما جاء بطل بربرى يدعى (أبو يزيد) إلى ما يعرف الآن

(١) الإدريسى أبو عبدالله بن محمد (١١٠٠ – ١١٦٦م) يلقب بالشريف ولد فى سبتة لأسرة علوية تعلم فى قرطبة وساح فى أوربا وآسيا ومناطق البحر الأبيض المتوسط، ثم استقر فى بلاط (روجر الثانى) فى بلرمة بصقلية، وهناك صنع كرة فلكية من الفضة وخريطة للعالم حفرت أيضًا على اسطوانة فضية، وفى بلرمة صنف كتابه المعنون: (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق سنة ١١٥٤م) وهو وصف للأرض اعتمد فيه على مشاهداته الشخصية، وكان كتابه ذاك من أهم الأعمال الجغرافية فى عصره، وفيه قسم العالم إلى عشرة أقسام (أقاليم)، ثم قسم كل منها إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق، ووضع لكل قسم منها خريطة، بالإضافة إلى الخريطة العامة، له كتاب آخر فى الصيدلة بعنوان: (الجامع لصفات أشتات النباتات). المترجم.

(بالداورا من بورنو) خلال القرن التاسع أو العاشر الميلادى حيث قتل الثعبان وتزوج الملكة، وهذه أسطورة مشابهة لأسطورة الحكم الإثيوبى المعروفة جيدًا بحيث لا يمكن تجاهلها، وكذلك تقول الأسطورة: إن بطل (سنغاى) المدعو (زا اليمين) وهو نظريًا من أبو يزيد جاء خلال القرن الرابع عشر بتسعة أشقاء وهم ذريته وقد أسسوا كل من (داورا - كانو - زازاو - جوبير - كاتسينا - بيرام - ورانو) وبلغة الهاوسا هى (بوكووى) أى الأخوات السبع، وما هو مؤكد وحقيقى أن الهاوسا قد وجدت بسبب غزو (الزغاوى) أو التوارق البربر فى المنطقة ذلك أن هؤلاء الغزاة قد أتوا ومعهم أشياء نادرة يقومون بها كحفر الآبار فى الصخر واستخدام الخيول، واليوم فإن ذرية (زغاوى) يسمون (هابى) ومنهم أول رئيس لوزراء نيجيريا ويدعى (السير أبوبكر تفاوى باليو) ويظهر أن عاصمتهم كانت (جوبير) ومن أجل ذلك فإن أشرافهم هم (الأمازيغ) ويذكر (بوفيل) أنه ربما من الدلالة أن (ساراكونا) وهى العائلة المالكة فى (جوبير) بها تحت العينين نفس علامة القبيلة التى وجدت تحت عيون بعض الفراعنة فى مصر القديمة، والمسلمون من (وانقارا ومالى) ومناطق أخرى فى الشمال قد حولوا الهاوسا إلى الإسلام ربما خلال القرن الرابع عشر الميلادى ويعرف الهاوسا الآن أنهم من أحسن التجار وصارت لغتهم فرنسية فى غرب السودان، كذلك هم مشهورون كحدادين وصباغين ودباغين وحياكين وبصورة عامة صناع، كذلك لم يشغلوا أنفسهم بالحروب على الرغم من أنه خلال القرن الخامس عشر اكتسبت الملكة (أمينة) صيتًا سيئًا فى ساحة القتال بسبب علاقاتها الرجالية حيث كانت تتنقل بين رجل وآخر آخذة عشيقًا كل ليلة من المكان الذى تتواجد به، ثم تأمر بشنقه فى الصباح، وكانت دويلات الهاوسا دائمًا صغيرة نسبيًا وكانوا يتقاتلون فيما بينهم ويحاربون أحيانًا ضد (قاو) فى سنغاى وضد بورنو ومالى وكانت حكوماتهم بملوكها ووزرائها وقضاتها وبقية موظفيها جيدة بمقاييس السودان، وهناك أمة أخرى عظيمة فى المنطقة تلك هى (الفولانى) التى جاءت من (فوتاجالوه) خلال القرن الثالث عشر الميلادى وهؤلاء الفولانى ينقسمون إلى (كاتل فولانى بورورجى) و(فولانى جيدا) الأولى بدوية وثنية

زراعية وملامح أفرادها بربرية ويهودية ومن هؤلاء صارت هذه القبيلة وحتى الآن فإنهم قلما يتزاوجون مع قبائل الزنوج المجاورة، أما (الفولانى جيدا) فهم مسلمون ويتزاوجون بكامل الحرية، ويذكر أن (كاتل فولانى) هى واحدة من قبائل إسرائيل المفقودة وربما هى فى الأصل غجرية وهم لا يلعبون أى دور فى السياسة ومازالوا متأخرين، أما الفولانى السود فى المدينة فهم أقوى قبيلة سياسية فى نيجيريا، وكان البطل الفولانى من الهاوسا (عثمان دان فوديو ديم) قد جاء من (قوبير) حيث ولد هناك سنة ١٧٥٤م وهو فى أرض الفولانى يدعى (عثمان فودى ديم) وديم هى اسم أسرة توكور، وهذا الأخير مسلم ملتزم وداعية مؤثر أصدر مائة كتاب تقريبًا ومئات الكتابات الأخرى، وبذلك نال كراهية ملك (جوبير) المدعو (نافاتا) لأن عثمان كان ينتقده بسبب تشجيعه للوثنية فى المدينة، وهكذا أصدر الملك (نافاتا) قرارًا ينص على أن من يسمح له بممارسة شعائر الإسلام لابد أن يكون قد ولد مسلمًا فقط، ثم حرّم ارتداء الحجاب والعمامة، وحدث أن هدوءًا غير يسير بين الملك والعالم استمر فقط إلى أن مات الملك وقد خلفه ابنه (يونفا) وهو تلميذ سابق لدى عثمان ومع ذلك قرر هذا التلميذ الوريث أن الزعيم المتدين (عثمان) يمثل خطرًا كبيرًا إذا بقى حيًا، وهكذا جرت محاولة لقتله، ولكنها فشلت الشيء الذى أكسب الشيخ العالم شعبية أكبر ومن هنا تصرف (يانفا) بحزم حيث ذهب بنفسه إلى قرية الشيخ عثمان وأجبره على الهرب، وكانت هجرة عثمان أو هربه فى ٢١ فبراير ١٨٠٤م وهذا التاريخ مازالت تحتفل به قبيلة (الفولانى جيدًا) باعتباره يومًا مقدسًا، وفى (جودو) تمكن عثمان من جمع جيش المؤمنين الملتزمين الذين وافقوا عثمان على ترجمة القرآن من لغته المقدسة (العربية) إلى (الفلانى) وبعد أربعة أشهر فقط استطاعت هذه القوة التى جمعها عثمان أن تهزم (يانفا) وبالتالى أقسمت على الجهاد ضد الكفار، وبعد ذلك الانتصار أعلن الجيش أن عثمان (سيركين موسولمى) أى عثمان قائد المؤمنين، وهذا اللقب مازال معمولا به لدى السلطان (سوكوتو) وكان حاكم (كوتسينا وداورا وكانو وآدار وزازاو) قد انزعج بما حدث (ليانفا) ولذلك قرر أن يحرض أتباع عثمان فى مملكتهم،

وبذلك ثار الفولانيون ضد سيطرة الهاوسا على الرغم من أن عدداً من الفولانيين قاتلوا بجانب النظام الوثنى، فإن كثيرين من الهاوسا الزنوج حاربوا مع المسلمين الإصلاحيين، وقد عمل عثمان على منح كل واحد من أتباعه المخلصين علمًا مزودا ببركاته آمراً إياهم بمحو الكفار من الأرض، وبعد ذلك أعطى هؤلاء المخلين إمارات كل من (كاتسينا - كانو - زاريا - بورنو - هاديجا - آدماوا - كومبى - كاتاقوم - نوبى - داورا - بيساو - كازاورى) حيث يقيم ذريتهم اليوم، وفى كانو مازال جيش الهاوسا المكون من عشرة آلاف يظهرون فى أيام الاحتفالات بمعداتهم، وكانت دويلات الهاوسا قد وقعت تحت سيطرة الفولانى، ولم تبق تقاوم إلا بورنو وحدها وبمساعدة اللاجئين من الهاوسا جنود وقادة إضافة إلى مساعدة زعيم كانيمى القوى حال هؤلاء دون سيطرة الفلانى على بلاد البورنو غرب تشاد، وزعيم كانيمى اسمه الحقيقى (محمد الأمين) وكان مسلمًا ملتزمًا مثل عثمان، ولكنه كان يرتاب من انتشار قوة الفولانى، وكان أحد أتباع عثمان يدعى (أحمادو لابوسيكو) وهو رجل متدين جداً وخشوع قد أسس إمبراطورية خاصة به فى غرب الهاوسا بادئًا من قرية تسمى (حمد الله) أى (الحلالية بالعربية الفولانية) وتقع بالقرب من (موبتى) حيث هزم البامبارا فى ماسينا وهزم الأرما فى جينى باسطًا السيطرة على مناطق من فولتا السوداء إلى تومبوكتو وهكذا بارك عثمان تابعه ذاك وقد حصل على الاسم الشرفى (سيسى) ثم سمى نفسه أمير المؤمنين[1] ولقد أقام نظامًا دينيًا خالصًا يتكون من قبائل (جادو وباسيدى وسانقارى) وطبقة من الزنوج الأرقاء استمرت إلى أن مات سنة ١٨٤٥م حيث تحول اللقب الإمبراطورى إلى الحاج عمر سنة ١٨٦٢م، وفى سنة ١٨١٠م وصل تقدم الفولانى أبعد نقطة برغم أنها ليست من كل مطامحهم، وكان التقدم

---

(١) هذا ليس غريبًا على الحكام فى إفريقيا؛ إذ يسمون أنفسهم بهكذا اسم (أمير المؤمنين) دون أن يكون فعلاً الحاكم من المؤمنين، فلقد شاهدت خلال الربع الأخير من القرن العشرين حاكمًا إفريقيا ، سمى نفسه بهذا الاسم (أمير المؤمنين)، وصار اسمه الكامل (أمير المؤمنين المشير محمد جعفر نميرى رئيس جمهورية السودان الديمقراطية) وما كان بالفعل مؤمنًا، ولا كانت جمهوريته ديمقراطية، ولا حتى شرعية !! المترجم.

المأمول قد أوقف بسبب غابات الجنوب والقوة العسكرية التى تتمتع بها القبائل الوثنية مثل (يوروبا) وشعب الجبال فى الشرق، ولقد وصل الفولانى سوق (يولا) فى الغرب ودخلوا (بيرنين وكيبى) لكنهم عجزوا عن هزيمة كل (الكيباويين) وهنا أسس الفولانيون حكومة ضعيفة تعتمد قوانين الشريعة الإسلامية بحيث فرضوا الجزية على الإمارات المجاورة، وكان عثمان نفسه قد توقف عن النضال حالما وضع التاريخ حدود سيطرته، وقد كرّس نفسة للدراسات الدينية بداية فى (سيفاوا)، ثم فى (سوكوتو) التى مات ودفن بها سنة ١٨١٧م، وبعد موت عثمان الذى كان يمثل الرمز الدينى للإمبراطورية صار الاهتمام بالحصول على الرقيق من خلال الحملات على قرى الهاوسا بدلاً من التبشير بدين الرسول (محمد) أما الإمبراطورية الأخرى التى دامت إلى عهد الاستعمار فهى إمبراطورية (موسّى)، وكانت هناك فى الأساس خمس دول بين فولتا السوداء، وموقع الانحراف الكبير لنهر النيجر وهى (واقادوقو - ياتينقا - فادا - أنقورما - داقومبا) وحسب الروايات الشفوية، فإن هذه الدول ذات أصل مشترك، وخلال القرن الثالث عشر أو الرابع عشر فإن سكان منطقة بحيرة تشاد الذين يوصفون بتعبير (الرجل الأحمر) بسبب لونهم الفاتح وهم ربما من ذرية بربرية احتلوا (قور) والسكان الأصليين الذين يتكلمون لغة الباندى فى المنطقة وأسسوا نظام شبيه فى إدارته وأسلوبه بذلك المنسوب للهاوسا (بوكووى) ذلك لأنهم دجّنوا الخيول واستخدموا العربات فى الحرب،وكانت العائلة المالكة تفضل تجار قبيلة (الماندى) فى تعاملاتها وعاملت أغلبية (القور) كعبيد أرقاء، ومع ذلك فإن لغة القور تغلبت على ما عداها وكذلك معتقدات القور فى حين جاء الإسلام متأخراً ولم يسد إلى زمن قريب، ومن الواضح أن أول دولة كانت (المامبوسى) حيث إنه فى القرن الرابع عشر والخامس عشر انتشرت إمبراطوريتهم شمالا وسيطرت على تومبوكتو سنة ١٣٣٨م .

وأعدت حملة أخرى خلال سنة ١٤٧٧م حيث وصلت (والاتا) ولكنها هناك دحرت بواسطة (سونى على)، وفى هذا الوقت كانت القوة التى تتمتع بها (أسكياس) فى الشمال تضم دولة (موسى)، وهى التى بالتالى توحدت مع (واقادوقو وفادا

وأنقورمـا وباتينقا) وبعد ذلك وحـيث اقتضى الأمـر التقدم جنوبًا فـقد أدى ذلك إلى تأسيس دولة (الداقومبا)، وهكذا فإن دويلات (مـوسى) صارت في جمهورية (فولتا) ما عدا (داقومبا) التى يقع أغلبها في غانا الحديثة، وعلى الرغم من ضغوط (السنغاى) من الشمال والأشـانتى من الجنوب فإنها لم تفلح في هدم دويلات (موسى داقـومبا)، وعندما وصل الأوربيون خلال نهاية القرن التاسع عشر وجدوها سليمة ومازالت تدار مباشرة بواسطة أولئك المنحدرين من صلب مؤسسيها، والواقع أن الحدود قد تغيرت بينهـا على أن (موسى) و(مـوغـويلنا) مازالا يمثلان عناصـر هامة في سـياسـة فولتـا الوطنية، أما (كانيم) التى ساعدت الهـاوسا في الحرب ضد الفولانى فهى دولة أخرى قديمة وتشابه إلى حد ما في مـساحتها منطقة (بورنو) في نيجيريا الحـديثة وتمتد أرضها عبر بحيرة تشاد وتاريخها يعـود إلى القرن الثامن ودامت إلى القرن الثالث عشر، وقد توسعت حدودها خـلال عهد (دوناما ديباليمى- ١٢١٠ - ١٢٢٤)م، واسـتمر النظام الفووى من الـقرن التاسع حـتى القرن التـاسع عشر، أمـا المرابطون فقـد تأثروا بثقـافة البحر الأبيض المتـوسط في صنع الفخار وصب النحاس، ولديهم تمتعت المرأة بحـقها في الحكم، أما الشعب (الكانيمى) فقد زاول التجارة بإتقان وأظهر تقاليد وعادات في الاستخفاف بالمعتقـدات الدينية وهى باقية حتى يومنا هذا، ولذلك رفض هذا الشعب السلطة الروحية التى كـان يمارسها سلطان (سوكوتو) وتسمى (سـاركين موسوليمى) أى الإيمان الإسلامى، ويذكر (ليو أفريكانو) أنه وجد جـمهرة (الكانيمى) ماتزال وثنية وذلك خلال سنة ١٥٢٦م وعندما وصل إلى كل من (دينهام وكلاييرتون) كانيمى بعد ذلك بأربعـة عـقود وجـد أن الملك مـازال يخـاطب الناس من وراء حـجاب مـحـاطًا بإجـراءات أمنيـة بالغة، وفى سنـة ١٨٧٠م كان المسـتكشف الألمانى (قـوسـتاف فـون ناختيـغال) قد وجد أن السلطة سلبت بواسطة عـبيد القصـر والأرقاء، وذكر أن هناك واحدة من المدن الغربية المدمرة في دارفور تقع فـى وسط الصحـراء تسمى مدينة (جبل أورى) ربما كانت عاصمة (كانيمى) خلال القرن الثالث عشر حيث إن هناك مبانى من الحجـر باقيـة بأسوارها التى ترتفع إلى مـسـتـوى اثنى عشر قـدمًا تقـريبًا، ويقـول أحد

المؤرخين: حقيقة إن (كانيمى) كانت خلال القرون الوسطى مدينة للسودان الأوسط وهى بالضبط مثل مالى التى كانت مدينة لغرب السودان، وهما كانا المراكز التى شهدت تطور الحضارة السودانية كما نعرفها نحن الآن والتى كانت مختلفة تمامًا عن الحضارة الغربية وعن حضارة قبائل الزنوج فى الجنوب، ونجد مؤرخين يقولان فى هذا الشأن: إن الدولة التقليدية السودانية لم تكن إقطاعية على الرغم من أنها مؤسسة على النظام الوراثى وسلطة العائلات الكبيرة فى الحكم، ولذلك فهى بشكل ما قريبة جدًا من النظام البيروقراطى أى أنها بيروقراطية بدون ورق وحبر وأرفف وهواتف وفيها تدار الأعمال بواسطة موظفين تحت سلطة الملك، وهؤلاء يمكن أن ينقلوا من وظيفة إلى أخرى فى النظام الإدارى، وهم يرقّون أو يخفّضون أو يفصلون بقرارات من مسئوليهم، وحول شخص الملك هناك حلقة من المسئولين الذين يشغلون وظائف كبيرة، وهى كذلك كثيرة بحسب الاحتياجات الاقتصادية للدولة، والإدارات الهامة غالبًا هى تلك التى تتبع الملكة الأم أى أخت الملكة، وللملك عدد من الزوجات، وعلى الإدارة هناك عدد قليل من المسئولين الكبار أى أربعة أو خمسة، ومن خلال هذا التسلسل يحدث نظام المناطق والمراكز، وفى الغالب يكون هؤلاء من الأحفاد والأصهار الذين يتربون فى البلاط الملكى، والعمل الأساسى لمثل هذه الإدارات يتركز على الارتفاع بمستوى التأييد للملك وخدمة السكان المقيمين فى عاصمته والأعمال المحلية، أما أمور التجارة الكبيرة مثل تجارة العاج والجلود والذهب والنحاس والملح، فهى للتصدير ومحتكرة للقصر، ويقيم الفنانون والصناع والاختصاصيون الآخرون فى العاصمة الملكية، وكلما توافرت فوائد التجارة الهامة للبلاد كان هناك كذلك فوائد لحكام المناطق، ولقد ذكر أحد المسئولين أنه كلما استدامت إمبراطورية طويلاً، كلما صارت إدارتها فاسدة وغير فاعلة، وكذلك صار حكامها يسعون إلى زيادة ثرواتهم وشهواتهم[1] وبالتالى فإن حكام المناطق والناس المحكومين يحدث لديهم المزيد من

(١) لعله يمكن القول: إن هذا ينطبق تمامًا حتى الآن على حكام العالم الثالث فى وقتنا الحالى، وبشكل خاص فى وطننا العربى مع الأسف، وشكل أخص لدى البلاد البترولية . المترجم.

الحساس بالغبن والفرص للثورة أو على الأقل التعاون مع أى غاز جديد، إن الدولة السودانية قلما اندفعت أكثر إلى غابات الجنوب بحيث لا تكون خيولها تحت رحمة ذبابة (تسى تسى) القاتلة وتكون فرص المدافعين ضدهم أكثر فاعلية، ومع هذا فإن تقاليد غرب إفريقيا مثل أساطير (آكان) فى ساحل العاج وغانا الحديثة، تلك الأساطير التى تقول: إن السكان فى هذه المناطق جاءوا من الشمال أو من الشرق وإلى درجة ما يرجع ذلك إلى الهجرات أو الغزوات، ولقد تطور الجنوب المدغل فى طريق مختلف، فإذا كانت نواحي مالي والنيجر تحمل ملامح من تأثير الصحراء والبحر الأبيض المتوسط فإن ساحل غرب إفريقيا يتأثر بالأطلسى الأوربى، وهنا يظهر التأثير مستمراً وعلى ضوء المقاييس السودانية فهو مسالم جداً، ولقد بدأ فى القرن الخامس عشر وكان بيع الرقيق فيما يسمى الآن (ساينت لويس السنغال) قد وصل لشبونة فى سنة ١٤٤٤م وبحلول سنة ١٤٧٥م وصل البرتغاليون خليج بيافرا وشواطئ نيجيريا الحديثة، وخلال نفس القرن وصل التجار البرتغاليون عن طريق البر مملكة بينين، وعندما عاد الأوربيون إلى بينين سنة ١٨٩٧م، وجدوا التأثير البرتغالى واضحًا وباقيًا بما فى ذلك صلب أعداء الملك، وفى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت بينين مترادفة مع الرعب والبربرية أى أنها بلد الدماء، ولكن عندما وصل البرتغاليون فى السابق كانت فى أوج نهضتها مثلما يحدث مع الإمبراطوريات السودانية؛ إذ إن حركة النهوض والسقوط غالبًا ما تحدث على نفس المنوال فى إفريقيا كما فى أوربا وكما فى آسيا خلال الدورة الهمجية كحالة عصر التجديد الأوربى؛ إذ إنه فى أقرب وقت تكون جاهزة للبروز مع أول إشارة للفوضى، ولقد نسب بعض الكتاب المعاصرين عاطفيًا إرجاع الفترة اللاحقة من التاريخ والتى سبقت الاستعمار فى غرب إفريقيا إلى تجارة الرقيق وتبعًا لذلك فهم يضعون اللوم على القوى الخارجية، لكن القرينة تؤكد أن الثقافة السودانية والغينية النامية رزحت تحت ثقل الفساد والفوضى وعدم الأهلية وماتت كما هى قصة ذلك فى مصر وأثينا وروما ولشبونة، أما قصة تجارة الرقيق التى يقولون إنها نتيجة لقوى خارجية لابد أن ترفض أيضًا على ضوء حقائق التاريخ إذ

كانت تجارة الرقيق أولاً وبعد كل شيء هى صناعة إفريقية كبرى، إن الثقافة الغينية فيها تماثل مع السودانية مما يظهر تأثير الشمال حيث النماذج البديعة منذ ألفى سنة وهذه فيها طابع من الحضارة الكوشية أو المصرية؛ لأنها تتضمن فكرة القدسية الملكية واستخدام رءوس الكباش فى الزخارف الدينية، ولقد وجد عالم حديث متميز هو الدكتور (سابورى بيوباكو) فى قبيلة (يوروبا) أتروری مصری وتأثير يهودی[1] وهناك الناس الذين يقيمون قرب الشاطئ يكونون نحاف الأجساد بسبب تأثير الغابة، ولذلك فإن اختيار (ليبيريا) كمكان للإقامة بواسطة جمعية المستوطنين الأمريكيين، وكذلك اختيار منطقة (فرى تاون) بواسطة الجمعية الملكية البريطانية قد فرضته ظروف قلة السكان فى هذه المناطق الغابية المطيرة، حيث إن ذبابة (تسى تسى) قد قضت على البغال والخيول، ولم تكن هناك من وسيلة للنقل إلا على رؤوس الناس، وهكذا فقد أعاق هذا الحال أى تطور فى اتجاه الشاطئ الكبير بما فيه من أنهار عظيمة، أما النيجر فهو صالح لإبحار السفن؛ لأن أغلب امتداده البالغ ألفين وستمائة ميل والسفن التجارية يمكن أن تستخدم فيه لمسافات معقولة، وفى الفصل الرطب (الشتاء) فإن مياه السنغال صالحة لاستخدام السفن لما لا يقل عن خمسمائة وستين ميلا إلى كينيا وقابيا يمكن استخدام مياهها إلى مسافة تبلغ ثلاثمائة ميل، وهناك مميزات أخرى تتمثل فى الموانئ الطبيعية فى (لاجوس - فرى تاون - دوالا -باتورست - سانت لويس - بوث هاركوت - وداكار) وكان مجيء الأوربيين إلى الشواطئ الغرض منه توجيه التجارة السودانية وجهة بعيدة عن الصحراء وخصوصًا عندما جاءت فترة الاستعمار بالطرق ومواصلات الأنهار وخطوط السكك الحديدية وكان هذا وقتذاك فى كل اتجاه، ولكن مع مرور الوقت فإن هذا كله لم يجعل عبور الصحراء أكثر سهولة، حيث إنه خلال سنة ١٨٥٠م حدث أن طابورًا من ألف وخمسمائة جمل وألفين من الرجال هلكوا جميعا وهم فى الطريق من (تاغازا) إلى تومبوكتو على أن الرغبة فى

(١) الأترورى: هو ذلك الذى ينتمى إلى مقاطعة أتروريا فى إيطاليا، ولست أعرف على وجه التحديد ما علاقة الأترورى بمصر، وكذلك قصة التأثير اليهودى، إلا إذا كان لغرض فى نفس يعقوب . المترجم.

الذهب الثمين والملح المطلوب يجعلان هذه الرحلات المثيرة ذات قيمة وفائدة، وبعد مدة طويلة من تلك الحادثة صارت قافلة تعرف باسم (آزالامى) أو (تاغالام) تتنقل من (اير فى بيلما) إلى عاصمة (كاوار) تنقل الملح من بلاد الهاوسا واستمرت فى ذلك إلى سنة ١٩٠٨م، وتوقفت فى هذا الوقت، وقال (بوفيل): إن هذه القوافل تتكون من عشرين ألف جمل تجمع من القبائل فى متسع من الوقت وتجهز من أجل تلك الرحلات[1] وكانت الرحلات فى الذهاب والعودة تستغرق ثلاثة أسابيع عادة، ولقد استمر استعمال الجمال فى النقل الصحراوى يقودها فى الغالب التوارق، والرحلة تبدأ فى شهر أكتوبر بقيادة المدعو (ساركين توراوا) من (أغاديس) وهو وزير السلطان (أمينوكال)، وفى الرحلة عادة ما يأخذون الذرة والأقمشة من الهاوسا فى مبادلة بالملح وكمية كبيرة من علف الحيوانات، ويظهر أنهم لا يأكلون لحم الجمال، وإنما يعيشون على أكل التمر الذى يحصلون عليه من (كاوار) التى يصلون إليها خلال خمسة أيام، وهناك تنضم إلى قافلة (آزالاى) قافلة أخرى قادمة من (داماقارام)، وتصل القافلتان (بيلما) بعد ثلاثة أيام ويعودون من نفس الطريق إلى (أغاديس)، ومن ثم وبعد استراحة لا تطول يقود (ساراكين تاوارا) وزير السلطان القافلة إلى (سوكوتو كانو) وأسواق الهاوسا الأخرى، ومنها تعود الجمال محملة إلى (اير) بالحبوب والأقمشة المصبوغة وهى مرغوبة جداً، وهكذا فهى ترسل من غدامس فى طريق طويل إلى فزان عبر صحراء ليبيا إلى (كانو) بحيث تصبغ وترسل مرة أخرى إلى طرابلس على البحر الأبيض المتوسط لتباع فى الأسواق ولذلك فإن صناعة الجلود فى الهاوسا مطلوبة، واليوم ماتزال ملابس (كانوا) تظهر فى أماكن بعيدة مثل موريتانيا، وتنقل أحيانًا عبر البحر، وكذلك الأماك والسكر والشاى من فرنسا ومواد التجارة الأخرى مثل الحرير من طرابلس الغرب، ومن فينسيا خرز الزجاج، ومن سوريا المرايا وإبر الخياطة، وعلى الرغم من أن اسطبلات الجمال لم تعد توجد فى الطريق، فإن القوافل ماتزال تنقل

---

(١) نرى أن هذه الأعداد من الجمال أمر مبالغ فيه، حيث إن المؤلف يذكر دائمًا أعدادها بالآلاف، على الرغم من أنه يشير إلى مصادر الخبر غالبًا، فليس من المعقول تسيير عشرين ألف جمل فى وقت واحد. المترجم .

المواد إلى أماكن بعيدة حتى منطقة (كانو) التى تقع على الخط الموازى الثانى عشر الذى يفصل بين سافانا الصحراء وحزام المنطقة الحارة فى إفريقيا الوسطى، وعلى الرغم من أن طريق (فزان كاوار) ينقل كميات كبيرة من الملح جنوبًا من (بيلما) فهو كذلك طريق نقل الرقيق، ويقول (بوفيل): إن أى أوربى يسافر عبر الطريق الملطخ بالدماء يحس بالرعب من وجود آلاف الجماجم البشرية التى تملأ الطريق وهذه الجماجم هى غالبًا لأولئك الشباب والشابات والتى توجد بشكل خاص بالقرب من الآبار مبرزة كم كانت معاناة أولئك البشر التى أدت إلى الموت من الإعياء بحثًا عن شربة ماء، ولقد كان هناك إلحاح فى طلب الزنوج المستعبدين عند ساحل شمال إفريقيا بعضهم للاستخدام المحلى وأغلبهم من أجل التصدير إلى مصر وتركيا وبلدان أخرى، وكان ثمن زنوج الهاوسا أغلى وأكثر من غيرهم ذلك أن الذكور منهم يرتفع ثمنهم بسبب أنهم أذكياء ولهم خبرة فى بعض الأعمال، أما الإناث فبسبب جمالهن المتمثل فى استقامة أجسادهن ورقة أطرافهن، وهكذا كان الطلب على الرقيق كبيراً، وكان العرب يستفيدون من الرحلات العابرة والجمال التى تحمل كل شيء آخر، ونجد الباحث (دينهام) يقول: إن التجار الذين يأتون من منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى بورنو لا يقبلون ثمنًا لبضائعهم غير الزنوج المستعبدين، وتلك يسميها (بوفيل) العملة الرئيسية فى بورنو، ويستمر (بوفيل) قائلاً: من أجل مصالحهم فإن تجار الرقيق لابد أن يتأكدوا من أن عبيدهم فى حالة صحية جيدة قبل أن يعبروا بهم الصحراء، وأن الذكور الشباب الأقوياء عادة ما توضع فى أرجلهم سلاسل حديد تكون موصولة برقابهم، أما النساء والبنات عادة ما يتركن بلا قيود، وغالبًا لا يصل من هؤلاء غير الأصحاء خلال تلك الرحلة الطويلة إلى فزان وهناك يجعلونهم يستريحون ويقدمون لهم غذاء جيداً، ثم ينقلونهم إلى أسواق البيع حيث يحصل التاجر على فوائد تصل إلى خمسمائة فى المائة، وكان هناك شيء مهم فى عمليات النقل هذه وهو أن الطلب على الزنجى المخصى الذى يستعمل فى حراسة وخدمة الحريم أكثر من غيره، وكان من المعتاد فى السودان أن يخصى الزنجى القوى سواء أكان طفلا أو شابًا خلال

حملات صيد الزنوج، وفى بعض القبائل وتحديداً قبيلة (موسى) التى يعاقب فيها المجرم بالخصى بحيث يكون بيعه بعدذاك مفيداً، وفى حالات الخصى هذه يحدث أن يعيش فقط ما لا يزيد على العشرة فى المائة من الضحايا بسبب المعاملة الهمجية التى يواجهونها، ويقول (بوفيل) نقلاً عن مصدر فى (كانو) إنه خلال سنة ١٩١٩م حدث فى عملية خصى مائة من الزنوج أن عاش منهم عشرة فقط، أما (بارث) فيعطى نسبة أقل فى هكذا حالة ويقول: إن الذين يعيشون أقل من العشرة فى المائة، كما يذكر أن قبيلة (موسى) لديها خبرة أكثر من القبائل الأخرى فى إجراء هذه العمليات، ومن أجل أن يبقوا طريقة عملياتهم تلك سرية يقول (بوفيل): إنهم ومعهم (البورنيون) لهم شهرة عالمية فى هذه التجارة الخارجية وزبائنهم من تركيا ومصر وبلدان أخرى ذلك أن الطلب على الخصيان رغبة محلية وخارجية؛ إذ إن الأسعار عالية، وأن عملية الخصى تتم فى إفريقيا وفى الشرق الأوسط وكذلك فى أوربا وتحديداً فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وقد استمر ذلك إلى آخر القرن التاسع عشر، وتجارة الرقيق ككل كانت تمثل نشاطًا مربحًا فى الداخل والخارج وكثير من القبائل الكبيرة كانت تقوم بهجمات على الأضعف منها للقبض على الزنوج وبيعهم، ويقول (بوفيل) عن تلك الحملات: إن المهاجمين يحيطون بالقرية فجأة خلال الليل ويقبضون على كل من يريدون قبل طلوع الفجر وغالباً يأخذون الشباب والشابات، أما كبار السن والضعفاء من الجنسين فإنهم يذبحونهم، وقد شاهد (بارث) فى بورنو كما يقول (بوفيل): إن مائة وسبعين رجلاً تركوا ينزفون حتى الموت، وحدث أنه بعد تلك الهجمات والعمليات البشعة أن قام الإصلاحيون الأوربيون بالمساعدة غير المباشرة، وذلك بأن خرّبوا طرق قوافل الإبل فى الصحراء، ليس فقط من أجل إنهاء تلك التجارة الإفريقية المربحة، وإنما أيضًا تخريب زراعة الواحات التى تعتمد عليها قوافل الإبل لأكلها، وهكذا عمل كان من أجل إنهاء العبودية، ولقد أدى تخريب زراعة الواحات إلى موت قوافل الإبل، تلك القوافل التى كانت مستمرة ومعروفة لعدة قرون على أن ذلك فى الواقع كان له عدة عيوب، فقد كتب أحد المؤرخين يقول: إن الاحتياج للملح أجبر الناس الذين فى

الصحـراء على أن يفترسـوا بعضهم البـعض فى فوضى، حتى إن البـدو فى تاريخهم الطويل والمضطرب لم يعرفـوا ذلك من قبل فقد اشـتعلت الصحراء كـما حدث أثناء قيـام الرومان بمنع الصـحراويين من اسـتغلال أراضى مـواشيـهم المعتـادة، وإن كانت الأحداث هذه المرة بشكل أوسع، أن الاعتداء على الزراعة الدائمة فى المناطق الهامشية وصل نسبـة لا يمكن أن يحتملهـا أحد، ذلك أن واحات الصـحراء استمـرت تتقلص والآبار تنضب والأحواض تجف، وبسبب التخريب البـشرى صارت الصحراء أجدب من أى وقت مضى، كذلك فإن الروابط التى كانت تشد البربر لقرون عديدة فى غرب السـودان انقطعت إلى الأبد، ولقـد حـدث أنه قـبل القـضاء علـى تجارة الرقـيق كـان الاهتمام العالمى بتجارة إفريقيا قـد اضمحل وربما كان ذلك جيداً؛ لأنه حدث قبل مدة ليست بعـيدة سـبقت العهـد الاستـعمارى، وكـانت رحلة الصحـراء باعتـمادها على الواحات تتجه مباشرة إلى (والاتا) لإحضار ما تحتاجه الرحلة من المياه وتستغرق أربعة أيام، ومع ذلك فـهى معـرّضة للضـياع، وبحلول القـرن السادس عـشر لم تعـد رحلة إفريقيا تستحق تلك المخاطر، وكـان المدعو (دريك بيليكا) فى سنة ١٥٨٠م قد استثمر خمسـة آلاف جنيه فحصل على عـائد قدره مليون ونصف المليون، ولهـذا السبب قال عن الرحلة: إنها ذهبـية فى الدنيا الجـديدة التى تم اكتشـافها، وهكذا صارت التـجارة الأوربية تتـجه إلى آسـيا وخصـوصا تلك الأمريكيـة فلا الرقيـق ولا زيت النخيل ولا الراند[1] أو الوجود الاستعمارى أعاد تجارة إفريقيا إلى الواجهة مقارنة بأهمية التجارة العالمية، ولكن بمساحتها وثرواتها .. إفريقيا السوداء لا يمكن أبدا إهمالها .



(١) الراند: وحدة نقدية مستعمل فى إفريقيا الجنوبية ، والراند: يساوى مائة سنت . المترجم .

الفصل الخامس

عصر التجارة والاستكشاف سفينة وشاطئ

الفصل الخامس
عصر التجارة والاستكشاف سفينة وشاطئ

التجارة والحرب جمعت البحر الأبيض المتوسط وبربر البحر والمستأجرين والبعثات المسيحية (الإفرنج) معًا فى كل جيش مسلم (مرتدّين وخونة، أحراراً أو مستعبدين)[1] فى أغلب السفن الأوربية التى تزور الموانئ العربية والإفريقية بانتظام تحمل الأسلحة والملابس والحلى والمعدات والمنتجات الأخرى للبيع وتشترى الرقيق والمخصيين والذهب والأبنوس والعاج وريش النعام، على أن الأوربيين نادراً ما اخترقوا الدواخل والاستثناء الوحيد كان مدينة مراكش التى استقر بها خمسة من الرهبان المبشرين الفرنسيين خلال سنة ١٢١٩م، وبعد فترة قام البابا جريجورى التاسع بجعلها أسقفية استمرت إلى سنة ١٦٣٦م، ومع ذلك فإن المسيحيين كان محرمًا عليهم الإقامة فى مكان آخر، على أنه كانت توجد فى بعض الأماكن البربرية مجموعات صغيرة من اليهود، وكان هذا التسامح مفيداً عند نهاية القرن الرابع عشر حيث كانت هناك مجموعة يهودية فى جزيرة (مايوركا بإسبانيا) يصنعون بعض المعدات خدمة للملاحين، وكانت الخرائط الإفريقية تصنع بناء على معلومات من رجال الدين وملاحظات البحارة، وقد عمل هؤلاء نماذج مهمة على الرغم من أنها ليست دقيقة بقياس الوقت الحالى، ولكنها بينّت ساحل غرب إفريقيا وأجزاء من الدواخل، والأكثر أهمية من تلك الخرائط ورد فى أطلس (كاتالان) لإبراهام كريستوفر على عهد شارل الخامس، وكانت التجارة الخارجية فى أوربا قد تطورت كثيراً؛ إذ إن الحروب أنضبت

(١) هكذا اعتاد الكاتب أن يصف هؤلاء المرتزقة الذين استأجرتهم بعض الجيوش العربية أو الإسلامية، وسبقت الإشارة إلى هذا فيما تقدم، ولقد عرف العالم جيوش المرتزقة الأوربيين الذين تم استئجارهم فى حرب أو حروب إفريقيا خلال القرن العشرين . المترجم.

الاحتياطي الوطني من الذهب، ولذلك فقد أصبح من الضروري الحصول على هذه المادة بشكل عاجل، وكانت منتجات التجارة الأوربية كبيرة بحيث لا يمكن نقلها إلى الشرق من أجل التبادل مع بضائع أخرى، كذلك كان من الواضح للتجار إذا ما أرادوا المبادلة بالذهب في الأسواق الإفريقية القريبة، فإنهم لابد أن يحصلوا على هذه المادة الثمينة باعتبارها الأصلح للتجارة الشرقية التي صارت متاحة على الرغم من أن خرائط مايوركا لم تكن مفيدة، وهي كذلك ليست دقيقة حتى إن الاعتماد عليها بالكامل يمثل بعض الخطر بدلاً من أن تكون مفيدة للرحالة الرواد وتشجعهم على السير في طرق الصحراء والوصول إلى مناطق الذهب في إفريقيا السوداء، ولكن الخوف من تلك الرحلات حل جزئيًا بوصول (أنسيلمي دي أسلاقوير) سنة ١٤١٣م إلى مرسيليا وهو الذي كان قد غادر منذ إحدى عشرة سنة ولم يسمع عنه شيء منذئذ، وتوقع المؤرخون أن يكون قد انضم إلى قافلة الفورماندي (جين دي بيثينكورت) التي غادرت سنة ١٤٠٢م لاحتلال جزر الكناري، وقد أقام أنسلاقوير عدة سنوات في (قاو)، حيث أشار صاحب كتاب (طريق الفتح) إلى وجود مسيحي رقيق في (قاو) خلال تلك الفترة وقال: إن هذا المسيحي الرقيق قد اكتسب حظوة لدى البلاط الملكي حتى إنه تزوج أميرة من سنغاي تدعى (كسايس)، وكان أنسلاقوير وزوجته الأميرة الغنية بما لديها من الذهب والجواهر وابنتهما وثلاث من الخادمات من سنغاي وثلاثة من المخصيين قد وصلوا طولوس بحيث أحدث مجيئهم كثيراً من اللغط حول ثروتهم، وهكذا فإن تجربة (انسلاقوير) شجعت أحد الرجال ليشد الرحال إلى دواخل إفريقيا، وكان ذلك هو الثري الشجاع الجينوي (أنطونيو مالفانتي) الذي اخترق الصحراء وحصل على معلومات مفيدة عن الطريق، لكنه لم يكتشف الذهب، وقيل: إن آخرين تبعوا طريقه وحققوا بعض النجاح في التجارة وعلم أن ممثل بيت مال (بورتيناري) ويدعى (بينديتو داي) قد وصل تومبوكتو في وقت متأخر من سنة ١٤٧٠م، ووفق في بيع منتجات أقمشة (لومبارد)، ثم عاد بعد ذلك إلى (فلورينسا) لكن مذكراته اختفت، وإذا كان هناك ما يمكن أن يقال عنه: إنه فتح طريق إفريقيا للعالم الخارجي أكثر من أي

شخص آخر فهو الأمير (هنرى الملاح)، وهو بطل وطنى برتغالى، اشتهر عندما استولى على (سبتة) وهى الآن إسبانية فى مراكش، وكان ذلك خلال سنة ١٤١٥م وكان عمره واحداً وعشرين عامًا، وتبعًا لذلك منح منصب (الحاكم الملكى) لتلك المدينة وكانت هذه التجربة الإفريقية قد دعّمت التطلعات لاستكشاف تلك القارة المجهولة، بحيث يتم احتكار الذهب فيها وتغيير معتقد الوثنيين هناك، وفى هذا الوقت كانت الرحلات البحرية تحمل من الأساطير ما يرعب إنسان العصور الوسطى مثلما تحمل الصحراء من خوف؛ إذ إنه وراء رأس (بوجادور) تقول الأسطورة: إن هناك ضبابًا لا يمكن اختراقه، وأن ذلك الضباب مسكون بالشياطين الذين يدفعون السفن إلى بحيرات تغلى بنار سائلة، لكن الأمير هنرى الملاح أصر على أن كل ذلك غير حقيقى، مما شجع ودفع الملاح (جيل أنيسى) لأن يغامر من أجل ذلك وبالتالى إثبات حقه السيادى وعاد إلى لشبونة سنة ١٤٣٤م بغصن عسلوج من المكان الذى يعرف الآن باسم (السنغال)، وكان يرغب بحمله وردة غصن العسلوج الميتة أن يثبت أنه ذهب إلى ما وراء الصحراء، ووصل الساحل حيث الأرض الخضراء فى الجنوب، وأن الشياطين لم يكونوا هناك، وبعد هذا الحدث أبحرت سفن أغلبها من النوع الكبير ذات حمولة خمسين طنًا (وهذا يساوى مائة طن بحسب التقديرات الحديثة)، ولقد جعلت الرغبة فى فتح حدود جديدة الدماء تجرى سريعة فى عروق مئات الشباب البرتغالى فى هذا العصر، وحدث أن العديد من المتطوعين للإبحار إلى إفريقيا استعدوا فى أسرع وقت البعض منهم التحقوا بسفن القراصنة، وكان هدف الأمير هنرى الملاح الأساسى يتمثل فى تحويل الأفارقة إلى اعتناق الدين المسيحى، وهم وثنيون على الرغم من أن ذلك لم يكن بذات الأهمية كما هى التجارة، وإنما جعله الأمير لتحقيق هدف سياسى مستخدمًا إياه من أجل ضمان موافقة البابا على أن يكون أى بلد يكتشفه فى المناطق من (بوجادور إلى الهند) برتغاليًا، وهكذا فقد كانت أول الاكتشافات هى تلك التى عرفت فى عصر (قرطاج) وكان مدخل السنغال فى (ساينت لويس) الحديثة قد أشار إليه (هيرودوتس) على أنه الفرع الغربى من النيل، وفى رحلة الأمير هنرى الملاح حدث أن

أول بلد شاهده كان أغلب سكانه من السود، وتطلق عليه تسمية بربرية أى (أكال ايقويناو) ومعناها أرض العبيد وتعبير (ايقويناو) تعنى العبيد، وهكذا سموا المنطقة باسم غينيا والاسم الحديث ينطق (غوينيا) وبعد ذلك كلف الأمير هنرى الملاح الفينيسى المدعو (ألفيس دا موستو) ليستكشف نهر غابيا الذى يعتقد أنه يؤدى إلى أرض الذهب فى (وانقارا) وصعد (دا موستو) مع النهر لكنه فشل فى الوصول إلى المناجم وبعدئذ حصل البرتغاليون على إذن من (سونى على) من أجل إرسال بعثة بطريق البر من منطقة رأس (أرقوين) أى موريتانيا الحالية إلى تومبوكتو وحدث أن رجلاً واحداً من تلك الرحلة الرهيبة بقى حيًا خلال مسيرة الذهاب والعودة، واتضح أن الرحلة غير مفيدة تجاريًا، ومع نهاية القرن الخامس عشر أقامت البرتغال عدداً من المحطات التجارية على طول الساحل بين غامبيا وخليج بينين الصغير لكنها أيضًا فشلت فى أن تتقدم إلى الدواخل حيث كانت الغابات والمستنقعات والقبائل المعادية تقفل الطريق، وفى سنة ١٤٨١م وقبل إن يصل كولومبس[(١)] كوبا بإحدى عشرة سنة أقام البرتغاليون قلعة (جورقى دا مينا) على ساحل الذهب وهى ماتزال قائمة وتستخدم كمركز للبوليس الآن خارج قريه تسمى (المينا) أى (غانا الحديثة) وهى صرح غير عادى كمكان للإدارة البرتغالية فى إفريقيا، وذلك لأهميتها فى ذلك التاريخ المبكر

---

(١) كريستوفر كولومبس (١٤٥١ - ١٥٠٦) مكتشف أمريكا ولد فى جنوة بإيطاليا وانتقل إلى لشبونة، حيث تزوج من ابنة فلاح برتغالى، التقى ببعض الملاحين الذين كانوا يعتقدون فى وجود جزر بأقصى الغرب، كان أخوه الصغير المدعو بارثيلميو خبيراً بصناعة الخرائط فى لشبونة الذى اشترك فى رحلة إلى رأس الرجاء الصالح ويظن البعض أن تأثيره على أخيه الأكبر كان عظيمًا كما كان أيضًا تأثير مارتن بنزون، وهو الذى قاد فيما بعد سفينة بينتا فى رحلة كولومبس الأولى، وقصة فشل كولومبس فى الحصول على مساعدة ملك البرتغال (جون الثانى) والثمانى سنوات التى قضاها فى التوسل إلى البلاط الإسبانى لتقديم العون له قصة معروفة، وعندما أجيب إلى طلبه رحل من ثغر (بالوس) فى إسبانيا على رأس ثلاث سفن (سانتا ماريا وبينتات ونبتا)، وقد رسا فى جزيرة (سان سالفادور) فى أكتوبر ١٤٩٢م، وقد استقبل فى إسبانيا بعد عودته استقبالاً حماسيًا، وفى رحلته الثالثة سنة ١٤٩٨م اكتشف مصب نهر (الأورينكو) بفنزويلا، وأسفر حكمه لمستعمرة (هايتى) عن عودته إلى إسبانيا مصفداً فى الأغلال، قاد حملة رابعة سنة ١٥٠٢م لاستعادة مركزه فوصل إلى ساحل (هندوراس)، ولكن مشقة الرحلة أرغمته على العودة، ومات مغموراً . المترجم .

لتجارة ساحل الذهب، وحدث فى ذلك الوقت أن أعطى البابا الإذن للملك البرتغالى (جائون الثانى) بحيث يطلق على نفسه لقب (أمير غينيا) هذا اللقب الذى لم يمت إلا بعد ظهور الجمهورية فى هذا البلد، وبالتالى فإن استعمال كلمة غينيا فى المنطقة صارت عامة خلال نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وكانت العملة الإنجليزية التى تحمل هذا الاسم قد خرجت فى سنة ١٦٦٢م، وأطلق عليها هذا الاسم فقط؛ لأنها صنعت من ذهب غرب إفريقيا الخالص النقى، وكانت تساوى خمسة فى المائة أكثر من العملات الرسمية المصنوعة من مواد أخرى، ومع نهاية القرن الخامس عشر كانت معلومات البرتغاليين عن الساحل جيدة، ولكن الدواخل بقيت مجهولة، ويمكن القول: كم كانت ستستمر على ذلك الحال لو أن إفريقيا لم يطأ أرضها المغامرون، وكما حدث بداية فإن اكتشاف أمريكا جعل الاهتمام بإفريقيا يعود إلى الوراء .

وفى النهاية حدث أن اكتشاف أمريكا أعاد سير التجارة الأساسية مع إفريقيا أى تجارة الرقيق الإفريقى، حيث إن البرتغاليين وهم أول قوة احتلال فى إفريقيا صاروا يرسلون عشرات الآلاف من العبيد الأرقاء إلى البرازيل بعد مائة سنة من رحلة كولومبس، وهذا التنظيم استمر من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٦٨٠م، وفى العموم، فإن حوالى مليون إفريقى أغلبهم من أنجولا عبروا جنوب الأطلنطى إلى (باهيا) خلال القرن السابع عشر الميلادى، وكانت هناك قصة ربما تكون باطلة، ولكن من المحتمل أنها صادقة تقول: إن قسيسا من (لواندا) أقنع الفاتيكان بأن يفوض البلاط الملكى البرتغالى بحيث يضع مسئولاً على جانب ميناء لواندا ليبارك جموع العبيد الأرقاء الذين يمرون أمامه فى الطريق إلى السفن والسياط تحرق أجسادهم، كما أن الميناء البريطانى العظيم فى (ليفربول) قد تم بناؤه من فوائد بيع الرقيق، هذه الفوائد التى بلغت القمة خلال القرن الثامن عشر الميلادى، ذلك أنه فى أثناء عقد واحد (١٧٨٣-١٧٩٣) نقلت سفن ليفربول ثلاثمائة ألف عبد رقيق فى المتوسط، وهذا ربما وفّر فائدة أكثر من ثلاثة ملايين دولار فى السنة، أما البرتغال فقد كانت أول قوة رئيسية أوربية شريكا لإفريقيا فى تجارة الرقيق ونقله من خلال الطريق البرى فى بينين،

وهذا الآن جزء من نيجيريا الحديثة، وفي أواخر القرن الخامس عشر حيث كانت أمريكا قد اكتشفت حديثًا وكانت التجارة الإفريقية ماتزال موجهة لاحتياجات البرتغال المحلية، فقد رحبت مملكة بينين بقرار تعيين وكيل ملكى مقيم من لشبونة وهو المدعو (دوارتى بيريز)، وكذلك قبلت بإرسال بعثات من بينين والموانئ المجاورة من شباب العائلات المهمة إلى لشبونة للدراسة بحيث يعودون متعلمين وكاثوليك، وحدث أنه عندما وصل الكابتن (ريتشارد وايندهام) بينين سنة ١٥٥٤م وقام بشراء ثمانين طنًا من الفلفل، وجد أن العديد من الناس يتكلمون اللغة البرتغالية، كذلك خلال القرن الخامس عشر استكشف ملاحون إسبان وبرتغال ساحل غرب إفريقيا، حيث وصلوا إلى عمق الجنوب عند مصب نهر الكونغو وما بعده، ومع النمو الذى انفتح بواسطة تجارة السفن، فإن ساحل مملكة إفريقيا الأطلنطية الذى مازال مختلفًا فقد أهميته مع دول (السافانا) الغنية والتى كانت لعدة قرون تمارس التجارة مع عالم البحر الأبيض المتوسط عبر طرق الصحراء، وكان العنصر الجاذب فى تجارة إفريقيا غير الاحتياج الدائم والكبير للذهب، وقبل تطور تجارة أمريكا الناهضة تلك المرتبطة بالنقل التقليدى للتوابل مع آسيا تجارة إفريقيا عبر الطرق الأرضية بواسطة وكلاء متخصصين فى بعض المواد مثل: الحرير والأحجار الكريمة والسكر والعاج وبعض التوابل، ولذلك عملت البرتغال وإسبانيا وبريطانيا وفرنسا على تحطيم احتكار تجارة التوابل التى كانت تقوم بها فينيسيا وجينوا وتريستى وهى حكومات المدن البحرية العظيمة، حيث كانت تبادل تلك التجارة بالخشب والحديد والرقيق المسيحى (الأبيض)، وأحيانًا الذهب والفضة، مبكرًا قبل ذلك حاربت الحملات الصليبية من أجل أن تجعل طريق تجارة التوابل إلى الشرق أكثر انفتاحًا كما بحثت الممالك الغربية عن أرخص وأقرب طرق تجارة التوابل، وكان كذلك ساحل غينيا مكان جذب ممتاز للقراصنة الجنوبيين وهؤلاء حددوا حجم تجارتهم بأنفسهم ذلك أنه خلال سنة ١٢٦٠م كانوا قد أرسلوا بعثة إلى جزر الكنارى، وفى سنة ١٢٩١م كانت بعض سفن جينوا تطوف بحر إفريقيا، ولكن تلك القافلة لم ترجع أبدًا، على أن بعض

المصادر خلال السنوات القريبة تذكر أن قوافلهم وصلت شرق إفريقيا، وإذ ضعفت قوة جينوا فإن ملاحيها بما فى ذلك كولومبس الذى أبحر إلى إسبانيا صاروا يعرضون خدماتهم على القوى الخارجية الثرية ، وكان الأمير البرتغالى هنرى الملاح أحد أهم مستخدم لهم ومنذ قرنين قبل أن تضعف إسبانيا بالاحتلال العربى لجزيرة (ايبيريا) بحيث لا تبقى إلا إمارة (جرينادا) متيحة الفرصة للممالك المسيحية فى (كاستايل) و(اراقون) والبرتغال، وهذه الممالك قررت ثلاثة أشياء :

١- احتكار تجارة غرب إفريقيا وتجاوز الاعتماد على طرق التجارة مع الشرق .

٢- إيجاد معبر إلى المحيط الهندى وشراء تلك المنتجات التى مازال الاحتياج إليها قائمًا .

٣- جعل معتنقى المسيحية حلفاء ضد التهديد الدائم من جانب الإمبريالية الإسلامية[(١)] ولقد كان الأمير هنرى الملاح إلى درجة ما موفقا فى كل تلك الأهداف ذلك أنه فى سنة ١٤٤٨م كانت البرتغال قد تمكنت من إنشاء موقع فى (دار قوين) حيث الصيد البحرى ممتاز كما هو الآن ومنذ هذا الوقت صارت الاستكشافات البرتغالية فى هذا الساحل منظمة، وعندما مات الأمير هنرى الفلاح سنة ١٤٦٠م كانت السنغال ونهر (روكيل) صالحة للإبحار وأول مجموعة من العبيد وصلت لشبونة من أجل تعليمهم وتحويلهم إلى الدين المسيحى، وفى سنة ١٤٦٩م منح البلاط البرتغالى حق احتكار تجارة غينيا لمدة خمس سنوات للمدعو (فيرنانود قوميس) بشرط أن يتعمق سير سفنه أربعمائة ميل سنويًا فى اتجاه جنوب الأطلنطى، ومع اتفاق تمديد سنة لذلك الاحتكار يعطى (قوميس) فرصة إلى سنة ١٤٩٥م، بحيث يمكنه أن يؤسس

---

(١) من المؤكد أن أحداث التاريخ تتكرر فى زمن مختلف وأماكن مختلفة، ومطامع الناس وعدوانهم لا ينتهى، فهذا السيد بوش الابن رئيس أمريكا ينادى بنفس ما نادت به، وعملته تلك الممالك المسيحية منذ أكثر من ثمانية قرون، وإذا كان بوش الآن يصف الإسلام بالإرهاب فأولئك وصفوه بالإمبريالية، وهذا شيء مردود ذلك أن الإسلام لم يكن إمبرياليًا فى ذلك الزمان، ولا هو إرهابي الآن، ولن يكون فى وقت من الأوقات عبر كل مراحل التاريخ . المترجم.

قاعدة (فيرناندو) ويكتشف (المينا) التى تعطى فرصة جانبية لمراقبة تجار الذهب المسلمين، وعند هذا الحد استأنف البرتغاليون السيطرة على تجارة الساحل، وفى سنة ١٤٨٢م تم الوصول إلى الكونغو وبعد ست سنوات من هذا التاريخ تمكن (برتولوميو دياسى) من الدوران على الرأس بحيث دخل المحيط الهندى وهذه خطوة تماثل أول طيران لرائد فضاء فى العصر الحالى من حيث الأهمية التاريخية، وفى سنة ١٤٩٧م دار أيضًا (فاسكو دا جاما)[1] حول الرأس واستمر ليزور الهند وفى هذا الوقت كانت تجارة غرب إفريقيا فيما عدا تجارة الذهب قد انخفضت ذلك أن غرب إفريقيا من حيث الموارد لا تقارن بالهند، ولا يمكنها أن تنافس أمريكا، وكانت مشاكل غرب إفريقيا التى عرفت فى هذا الوقت جميعها من نفس النوع، وأن سكانها غير قادرين على توفير العاج وغيره بالكميات التى يتفقون عليها مع التجار فى الوقت المناسب، ولذلك فإن تجارة فلفل غرب إفريقيا كانت أقل نجاحًا فى السوق الأوربى قياسًا بالفلفل الهندى، وفى هذا الوقت وصلت شحنة من الرقيق الإفريقى إلى أوربا الغربية، ولكنها أعيدت إلى المصدرين الأفارقة لقلة الطلب عليها، وكانت البلدان الأوربية وتركيا التى ينقل إليها الرقيق قد وجدت مصدراً آخر، ولهذا بقى الذهب وحده الذى يستحق تلك الرحلات المثيرة والمتعبة إلى غرب إفريقيا، وفى تلك المرحلة المبكرة، ومن أجل تخزين الذهب وحماية التجار والملاحين، ومنع التهريب أقيمت قلعة (المينا) سنة ١٤٨١م وعين بها حاكم ملكى ووحدة حراسة عسكرية، على أن تجارة المنافسة قد ازدادت رغم قرار البابا الصادر بالتتالى فى سنوات (١٤٥١ - ١٤٥٥ - ١٤٥٦) بتحريم استكشافات غينيا والتجارة مع البرتغال، وحسب معاهدة سنة ١٤٩٤م قسمت المناطق وأعطيت إفريقيا وآسيا للبرتغال، ولكن تلك البلدان الأقل قوة بحرية آنئذ مثل بريطانيا وفرنسا والدنمارك استمرت فضوليًا تتسلل بواسطة ربابنة سفن صغيرة إلى غرب إفريقيا خلال القرن التالى أى (السادس عشر)، وكان

(٢) فاسكو دا جاما (١٤٦٠ - ١٥٢٤) ملاح برتغالى أول أوربى يصل إلى الهند بالبحر (١٤٩٧- ١٤٩٩)، وبذلك جعلت رحلته حول إفريقيا ثروة الهند فى متناول أوربا، وساعدت على نمو ثروة البرتغال وإمبراطوريتها، وفى رحلة فاسكو الثانية دعم قوة البرتغال فى مياه الهند، وساحل إفريقيا بالوسائل العنيفة - المترجم .

هناك ثلاث شخصيات معروفة الأسماء من إنجلترا وهم (جين أنقو ووليام وجون هاوكيز) هؤلاء الرجال كانوا يمثلون عصابة بحرية مسلحة تعمل في هذا الحقل، أما الجهود البريطانية والفرنسية فقد كرست لا لتجارة غرب إفريقيا، وإنما لسلب السفن الإسبانية في منطقة الكاريبي، وكان الاهتمام الأوربي مركزاً أساساً على غينيا العليا أي من سيراليون الحديثة إلى موريتانيا، وكان أقل بالنسبة لساحل الحنطة أي (ليبيريا الحديثة وساحل العاج) بسبب وجود المخاطر وعدم وجود موانئ صالحة أو أماكن رسو طبيعية، وفي الشرق كان ما يعرف بساحل الذهب وتسمى في هذا الوقت باسم ساحل الرقيق أي (داهومي)، وهذا اجتذب إلى حد ما بعض الاهتمام، وكان البرتغاليون هم القوة المسيطرة لأكثر من قرن على هذا الساحل كما على قلعة (المينا) وهناك أنشأوا بعض محطات تجارية صغيرة محصنة ومحطات مراقبة في جزيرة الرأس الأخضر، والبرتغاليون الذين جاءوا إلى إفريقيا (أفرقوا أنفسهم) بدلاً من أن يحوّلوا الأفارقة إلى دينهم وعاداتهم، وعلى الرغم من منع الاحتكار الذى وضع على التجارة بواسطة أمر البابا فإن البرتغاليين صاروا يعملون كوكلاء لمصالح غير برتغالية وبهذه الطريقة أو غيرها عبروا الشواطئ مبتعدين عن البلد الأم بحيث يكونون مستقلين عن مراقبة لشبونة، ونتيجة لهذا ولأسباب أخرى فشلت خطط ومشاريع طموحة لتطوير إفريقيا، ولكن كانت هناك فرص جمع بعض الأموال من المنطقة، وما لبث ساحل الذهب حتى تحول إلى مركز تجارى ناجح فى كل المنطقة الساحلية، وبحلول القرن السادس عشر فإن قلاع (المينا وشاما وأكسيم) كانت تورّد عشر الذهب العالمى وكان الذهب (الدقيق) يشترى تبادلاً بالقماش الملون والخرز والقدور والحلى، وحدث أن البرتغاليين قد منعوا من المتاجرة مباشرة مع الدواخل فى منطقة ساحل الذهب، على أن اختراقهم لبينين فى دواخل نيجيريا سنة ١٤٨٣م ساعدهم عليه عنصران حيث كان الوصول إلى هناك بالسفن ووجود فائض من الرقيق فى بينين يتمثل فى سجناء احتلالهم لدلتا النيجر، وكان المشترون الأساسيون هم (الفانتى) فى ساحل الذهب، وفى سنة ١٤٨٦م أسس البرتغاليون قلاعهم الخاصة فى (قواتو) قرب بينين، وفى سنة ١٤٩٣م أقاموا مستعمرة على (فيرناندو بو) وهذه ولاية إسبانية الآن وبدأوا واحدة أخرى فى (ساوتومى) وزرعوا حقول السكر على هذه الجزر وعلى

الجزيرة الأطلنطية الصغيرة المجاورة المسماة (برينسيب)، وهذه ماتزال برتغالية، وكذا (النوبون) وهى إسبانية الآن، ولابد أن هذه المساعى قد تطورت ويمكن أن تكون أدت إلى الزراعة فى البلاد نفسها لو لم تظهر البرازيل فى هذه المرحلة التاريخية كأكبر وأصلح وهى أرض واعدة للمستعمرات الزراعية البرتغالية، وفى النصف الأخير من القرن التالى تمكنت هولندا من القضاء على الحكم الإسبانى فى إفريقيا، وصارت تهتم أيضًا بغرب إفريقيا، وحدث فى هذا الوقت الاحتلال الإسبانى لكثير من جنوب ووسط أمريكا والكاريبى، ولذلك زاد الاحتياج للأيدى العاملة فى المناجم، وفى الزراعة فى هذا العالم الجديد، ذلك أن السكان المحليين الذين وجدوهم كانوا قلة وعمليًا غير صالحين للعمل المكثف، وكذلك فإن العمال الأرقاء الأفارقة وجد أنهم الحل المناسب لمشاريع قوة أوربية إمبريالية تواجدت فى ساحل غرب إفريقيا، وتواصلت مع شعوب تحس بأن الرقيق بضاعة تجارية مفيدة، وتدرك هذه القوة أن الرقيق الإفريقى يناسب الطقس الحار فى أمريكا الجنوبية، وكان الزعماء الغينيون يبحثون منذ سنوات على وسيلة لرفع مستوى تلك التجارة، وهكذا فإن الرقيق وفر حلاً مثاليًا لمشكلة اقتصادية ما كان يمكن أن يجدوا لها حلاً وقتئذ، ولقد ارتاح الزعماء الأفارقة وشركاؤهم الأوربيون بتلك التجارة، وبدأت الرحلات المرعبة فى تجارة لحوم البشر[1] وهنا أعطت الحكومة الإسبانية حصة محددة فى الرقيق للتجار البرتغاليين

(١) هذا الوضع يتكرر الآن خلال نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين مع فارق واحد وهو أن الأفارقة صاروا يهربون من بلادهم إلى أوربا عبر الصحارى والبحار بحثًا عن لقمة العيش، ويموتون غالبًا فى البر أو البحر قبل الوصول إلى أوربا، ومن يصل منهم توكل إليه أقذر الأعمال إذا كان مرغوبًا، وإن لم يكن أعيد ذليلاً إلى البلاد التى جاء منها، ومن هنا يمكن القول: إن حال هؤلاء فى بلادهم وفى ظل حكم ما يسمى وطنى صار أسوأ من حالهم أثناء الاستعمار، ولم يفعل الحكم الوطنى شيئًا غير الاضطهاد وسرقة أموال الناس، ومثال على ذلك ما حصل من أحد الجنرالات الذين حكموا نيجيريا فى وقت ما ويدعى (اباشا) استمر حكمه خمس سنوات، ثم أطيح به وهرب إلى أوربا ومات هناك، وقد اكتشف بعد موته أنه هرب خمسة مليارات من الدولارات إلى بنوك أوربا، أى أنه كان يهرب بمعدل مليار كل سنة أثناء حكمه، بينما الناس يموتون من الجوع حتى إن نيجيريا فى ظل الحكام العسكريين الذين تتالوا على حكمها أطلق عليها اسم (أغنى بلد وأفقر شعب).المترجم.

خلال أغلب فترة القرن السادس عشر، وكانت حكومة البرتغال لها نظريًا احتكار النقل على الرغم من أن القرصنة قد بدأت، وكان البحار البريطانى الشهير (جون هاوكينز) قد احترف ذلك سنة ١٥٦٨م، وشهد هذا القرن بداية التجارة بالعربون، وخلال القرن السابع عشر صارت هولندا منافسًا حقيقيًا فى تجارة الرقيق والاستعمار فى مواجهة البرتغاليين والإسبان والإنجليز بعد أن احتلت جزءا من البرازيل، بينما شارك الإنجليز والفرنسيين فى لصوصية البحر الكاريبى من أجل أن تفقد إسبانيا التوازن فى القوة البحرية، وفى مرحلة ما كاد الهولنديون أن يحتلوا كل مراكز التجارة البرتغالية فى غرب إفريقيا عندما سيطروا على أغلب مراكز التجارة بحلول سنة ١٦٤٢م من (أرقوين) إلى (لواندا) وصاروا فى وضع يمكنهم من السيطرة على رحلات نقل الرقيق إلى البرازيل، وكان البحار الهولندى العظيم فى عملية لصوصية البحر تلك يدعى (ماورس أوف ناساو) وعند حلول سنة ١٦٤٨م استعاد البرتغاليون أجزاء من المناطق التى فقدوها، وبحلول سنة ١٦٥٤م تمكنوا من إخراج الهولنديين من البرازيل، ومع ذلك ظل الهولنديون هم القوة المسيطرة على تجارة غرب إفريقيا لمدة عقد تال، كما أنهم حصلوا على احتكار جزئى فى أمريكا الإسبانية وكذلك الحال مع الفرنسيِّين والإنجليز فى حيازة الهند الغربية حيث الحاجة ماسة للعمالة فى مزارع السكر والتبغ والخروب، وفى آخر هذا القرن صار الفرنسيون والإنجليز يعتمدون بالكامل على سفنهم التجارية فى نقل وتجارة الرقيق إلى ممتلكاتهم فى الكاريبى، أما هولندا فقد أدخلت سفنها بأعلامها فى المحيط الهندى، وذكر تشارشل فى كتابه قائلاً: إن الأسطول الهولندى العظيم بحمولته ضاعف دورانه حول رأس الرجاء الصالح عدة مرات فى السنة، وإنجلترا التى صارت تسمى باستعادتها أسكتلندا (المتحدة) وهى تولى اهتمامها مثلها مثل البرتغال لهذا النهوض المفاجئ فى القوة البحرية، علمًا بأن طنجة وهى جزء من مهر (كاثرين)[1] صارت إقطاعية إنجليزية مما اقتضى اهتمامًا

---

(١) هى أميرة براجنترا (١٦٣٨ - ١٧٠٥) وزوجة شارل الثانى ملك إنجلترا وابنة جون الرابع ملك البرتغال، شمل مهر زواجها مدينتى بومباى وطنجة، لكنها عاشت منعزلة عن البلاط، بسبب خيانات شارل الزوجية، لم تنجب أطفالاً، اتهمت بالتآمر على الملك بدس السم له سنة ١٦٧٨، ولكن الملك نفسه حماها، ولم يقتنع بالتهمة. المترجم .

جديداً بتوازن القوى فى غرب إفريقيا، وهكذا فإن بريطانيا بقوة مائة وخمسين سفينة دمرت الأسطول الهولندى فى (لوديستوفت) ستة ١٦٦٥م، ولكن فى السنة التالية كان الهولنديون بقيادة الأدميرال العظيم المدعو (دى روثير) قاموا بهجمتين كبيرتين وطردوا السفن الإنجليزية إلى (نهر التايمز)، وعاد البريطانيون لينتصروا بعد شهرين أى فى أغسطس ١٦٦٦م إلا أن هذا الانتصار البريطانى انقلب فيما بعد، بحيث وقع فى أيدى الهولنديين والفرنسيين سنة ١٦٦٧م عندما أبحر الهولنديون عبر ميناء (قشاثام) وأحرقوا سفن الحماية، إلا أنه عندما حل السلام خلال سنة ١٦٦٨م، وعندما أرهقت الحروب الجانبين حدث أن فقدت هولندا بالتقصير بعض سيطرتها التجارية فى غينيا، وكان هذا العصر أيضًا واحداً من عصور الاكتشافات الكثيرة فيما لم يعرف عن إفريقيا الأطلنطية، ففى سنة ١٦١٨م أبحرت سفينة بقيادة القبطان (جورج تومسون) إلى مسافة أربعمائة ميل صعوداً فى نهر (جامبيا) حيث قتل تومسون فى معركة على جانب النهر، وبعد ذلك بسنتين عاود الرحلة القبطان (ريتشارد جيبسون) واستطاع أن يصعد عبر النهر، وأبلغ أن السكان يعيشون فى هدوء وحياة مطمئنة وأن هناك موسيقى ورقصًا وحياة ليلية صاخبة، ومن المحتمل أن يكون جيبسون قد وصل خلال أواخر الفصل المطير بعد أن يكون الحصاد قد تم، وأن الرجال فى استجمام والمناسبات الدينية كالختان والزواج وغيره قد بدأت بعد الإجهاد، حيث كان الإسلام قد اخترق المنطقة منذ مدة، وكان السيد جيبسون يعبر عن إعجابه بالمرابطين على أن أهم رائد خلال تلك الفترة قد ترك معلومات قيمة هو السيد (وليام بوسمان) المنحدر من أصل إفريقى، وأسرته الآن شهيرة فى المجتمع الغانى، وعندما كان عمره أربع عشرة سنة كان يعمل مع شركة غرب الهند الهولندية، وبعدها أعد كتابًا فى وصف ساحل غينيا نشر فى لندن سنة ١٧٠٥م، وقد اشتمل على تفاصيل عن قلاع (المينا وساحل الرأس وآنومابو) كما كانت فى تلك الفترة، ولقد قال بوسمان: إن قبيلة (فانتى) كانت تحتكر نصف تجارة ساحل الذهب مع الأوربيين، ثم أشار إلى كيف كان الناس فى ساحل الرقيق (داهومى الآن)، يبدون الكثير من الاحترام للسلطة وللكبير وللوالدين، وأن

النساء يظهرن الاحترام والخشية أمام أزواجهن، كما تحدث بوسمان عن تجارة الرقيق فقال: إن سوق بيع الرجال هنا مثل سوق الحيوانات عندنا وأن الرقيق الذين يتم اختيارهم توضع أختام على صدورهم بحيث لا يستبدل الوسيط الأقوياء منهم بآخرين ضعفاء أو كبار السن، أما المرأة الرقيق فإن ثمنها أرخص بالربع أو الخمس من الرجل، وأن إطعام هؤلاء الأرقاء بالخبز والماء يكلف سنتين فى اليوم للفرد الواحد، وعندما يصعد هؤلاء الرقيق إلى السفن فإن الباعة ينزعون كل ملابسهم، وأن مستوى كل حمولة بين ستمائة وسبعمائة فرد، ويذكر بوسمان ربما منحازاً أن السفن الهولندية أنظف من غيرها، وفى البحر يتم إطعامهم ثلاث مرات فى اليوم، ويوضع الرجال فى مكان والنساء فى مكان آخر، وإضرابات هؤلاء الأرقاء كانت معتادة، ويلاحظ أن تطور شمال إفريقيا قد أحدث زيادة فى تجارة الرقيق وفى ذلك الوقت شملت التجارة الأبنوس والتجار كانوا من هولندا وإنجلترا والبرتغال وفرنسا والدنمارك وبراندربورج والسويد، وكانت حكومات هذه البلدان تساند أولئك التجار، وكانت شركات النقل فى البداية تواجه بعض الخسائر؛ إذ إن ثلاث شركات إنجليزية وأربع شركات فرنسية أعلنت فشلها ثم فى سنة ١٦٦٠م نجحت شركة التاج البريطانية حيث حققت مكاسب جيدة لعدة سنوات قبل أن تواجه بعض المشاكل، ولذلك استبدلت سنة ١٦٧٢م بالشركة الملكية الإفريقية، كما تأسست شركة غرب الهند الفرنسية سنة ١٦٦٤م من أجل أن تحاول احتكار نقل الرقيق بين الساحل والمناطق الفرنسية، وعملت هذه الشركات فى نظام ثلاث رحلات حيث تنقل المواد التجارية من أوربا إلى الساحل، ويتم شراء أشياء قليلة والعدد المتوفر من الرقيق عندما يكون هناك احتياج كبير، وينقل من الساحل إلى العالم الجديد (أمريكا)، كما ينقل إنتاج العالم الجديد إلى أوربا أى (رحلات الساحل وأوربا وأمريكا)، وقبل ذلك يوضع رقيق منطقة الساحل فى سفن قديمة تكون راسية أو فى حظائر معدة للعبيد، ثم ينقلون إلى قلاع مقامة على الأرض، وكل هذه التنقلات والتحويلات نتيجة للخلافات الأوربية على الساحل وكذلك بسبب القرصنة، ولقد اتضح لصناع السياسة الإمبريالية الإسبانية والإنجليزية

والهولندية والبرتغالية والفرنسية وحتى لتلك الأقل قوة أن غرب إفريقيا لم تكن صالحة للاستعمار، ذلك أن كل تجارة غرب إفريقيا وبشكل خاص التجارة فى الرقيق تعتمد على الشراء والنقل، وليس للعمل فى مكانها، ويكون النقل إلى العالم الجديد الأمريكى الكوليونالى، والبرتغال وحدها التى بدأت فى فرض إرادتها فى هذه البلاد، وخلال القرن الثامن عشر أخيراً استولت إنجلترا على القيادة من هولندا فى تجارة الرقيق، وأخذت الشركات الإنجليزية حصص إسبانيا من سنة ١٧١٣م إلى سنة ١٧٥٠م، أما الفرنسيون فقد جعلوا نهر السنغال قاعدة لهم سنة ١٦٣٠م وأنشأوا قلعة فى (ساينت لويس) سنة ١٦٥٩م وفى سنة ١٦٧٧ استولوا على (أرقوين وغورى) من الهولنديين، وصارت الغابة الصغيرة فى جزيرة غورى وقرية صيد السمك فى داكار المرفأ الرئيسى للفرنسيين، ولكنهم كانوا أقل نجاحًا من القوى الأوربية الكبرى، فيما عدا خلال فترة قصيرة فى نهاية القرن الثامن عشر، إذ لم يحصلوا على أكثر من ثمانية آلاف من الرقيق فى السنة، ولم يحدث أن تمكن التجار الفرنسيون من الوفاء بطلب الأيدى العاملة فى (ويست أندى) وتحديدا فى هاييتى، وكانت أكثر منطقة إفادة هى ساحل الذهب، حيث استولى الهولنديون على إحدى عشرة قلعة بما فى ذلك (المينا) من البرتغاليين، أما البريطانيون فقد استولوا على ساحل الرأس من الهولنديين وهو ما سيكون بعد سنوات قلعة للحاكم، وأقاموا هناك تسعة مراكز تجارية حصينة، وعلى الرغم من أن تجارة الرقيق كانت المبرر لوجود هذه المراكز المسلحة الكثيرة، فإن تجارة الذهب من ساحل الذهب ماتزال تعطى أكثر من ستة ملايين دولار فى السنة حسب المقاييس الحديثة، وفى سنة ١٧٠٠م، وعند هذا سيطرت هولندا على نصف تجارة الذهب فى ساحل الذهب تقريبًا وبريطانيا حوالى ثلثه سنة ١٧٨٥م، عندما زاد أهل ساحل الذهب تحصيل الرقيق إلى عشرة آلاف فى السنة، وكانت بريطانيا تسيطر على نصف سوق الشراء وارتفاع حصة بريطانيا هذا فى غرب إفريقيا راجع إلى ارتفاع أهمية بريطانيا فى التجارة الأوربية، وكانت مواقع تجميع الرقيق الكبيرة فى حظائر أو سفن قديمة أقيمت أو هى رست فى غينيا العليا، إلى أبعد فى الجنوب بأرض (أيوى) ولا يمكن عمل مثلها فى شرق أو جنوب (كيتا)، على أن الزعماء الداهوميين والنيجيريين أرادوا تجميع الرقيق مؤقتًا فى مبانى طينية بالقرب من قصورهم ومنعوا

جعل مراكز دائمة للبلدان الأوربية، سواء أكانت شركات أو أفراد ممن يتعاملون معهم فى تجارتهم تلك، وكانت بداية البرتغاليين الواعدة فى بينين قد تحولت إلى تجارة مشبوهة، وفى سنة ١٧٥٠م استبدلت شركة التاج الإفريقية بشركة تجارة غرب إفريقيا، وهذه جمعت كل التجار الأفراد فى المنطقة الراغبين فى الانضمام إليها ولم تكن الشركة تقوم بالتجارة هى نفسها؛ إذ تركت ذلك للنشاط الفردى الخاص وتولت النشاط فى كل الموانئ والقلاع بموافقة البرلمان فى لندن وعونه، وهكذا تركت هذه الشركة تجارة الشاطئ لتجار أفراد بدلاً من المشاريع التى كانت تشرف عليها الحكومة التى تكون فى التحليل النهائى قابلة للخسارة، وهكذا صارت بريطانيا فى وضع ممتاز وفوق كل الأمم الأوربية فى الساحل، ثم خلال حرب السبع سنوات سيطرت بريطانيا على كل المراكز الفرنسية فى غرب إفريقيا على الرغم من أن (غورى) أعيدت لفرنسا طبقًا لاتفاقية باريس سنة ١٧٦٣م وخلال السنة التالية فإن السيطرة البريطانية على كل المناطق قد تأكدت بتأسيس مستعمرة التاج التى أطلق عليها اسم (سينيجامبيا)، أى السنغال وجامبيا، وفى هذا الوقت كان هناك فقط مستعمرات للبرتغال فى إفريقيا فى الجزء الجنوبى من القارة، وليس من الصدق أن يقال: إن هناك استعماراً فى غرب إفريقيا خلال ذلك الزمن المتقدم، وإنما الموجود كان يمثل محطات تجارية، بينما كان الوجود العسكرى للدفاع المجرد عن مصالح تجارية خارجية، ومع ذلك فإن (سينيجامبيا) كان بها حاكم ملكي ومجلس معين ونظام قضائى، وفى الفترة من سنة ١٧٧٨ إلى ١٧٨٣م، وهى الفترة التى انشغلت فيها بريطانيا بالثورة الأمريكية تمكنت فرنسا من إعادة احتلال (ساينت لويس) وكذلك أغلب المراكز الفرنسية السابقة الواقعة على الساحل كما هو الحال بالنسبة للمراكز التقليدية البريطانية بما فى ذلك مدخل نهر جامبيا ولكن حسب اتفاقية سلام ميرسيليا سنة ١٧٨٣م استعادت بريطانيا حقها فى نهر جامبيا ومنحت شركة التجار السيطرة على المنطقة، وكانت المميزات التى حصلت عليها فرنسا من بريطانيا بشأن النقل العابر فى مناطق ما قبل الاحتلال اتضح أنها مسألة مؤقتة[1] وبسبب كساد العمل فى داخل بريطانيا والرغبة فى الأيدى

(١) هذا يؤكد أن الخداع فى عقول الإنجليز والخبث فى سياستهم ليس جديداً مع الصديق والعدو على حد سواء - المترجم.

العاملة سنة ١٧٨٥م سيطرت بريطانيا على المزيد من تجارة غرب إفريقيا بحيث زاد على ما حصلت عليه عن كل البلدان الأخرى، أى ما عدده ثمانية وثلاثون ألفًا من الرقيق، فى حين كان العدد الإجمالى السنوى يبلغ خمسة وسبعين ألفًا حصلت منها فرنسا على عشرين ألفًا، وكانت فكرة الحلول الاستعمارية فى تطوير تجارة غرب إفريقيا فى أذهان الكثيرين ولكن بما أن الازدهار فى بريطانيا يتجه إلى الازدياد بذلك العدد من الأيدى العاملة الرخيصة بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية الثلاثة عشر صارت فلسفتها ضد المزيد من تحمل المسئوليات فى الخارج، وبذلك فإن التجارة وحدها هى الهدف وليس السيطرة والحكم، ولكن الوضع حتى بالنسبة للتجارة لم يكن ثابتًا، ففى سنة ١٨٠٧م ألغت بريطانيا بالقانون عملية تجارة الرقيق، وذلك جزئيًا لأسباب إنسانية وغالبا لأسباب أملاها وضع بريطانيا الاقتصادى، وهنا ربما تكون هذه هى اللحظة المناسبة للتمعن فى أسباب هذه الدورة أو التحول الذى كشف حالة (كما فى حالات أخرى من تاريخ العالم) لعبت دورًا هامًا فى حل مشكلة الأيدى العاملة والتطور، ولقد كان الرقيق مظهرًا عامًا فى مجتمع إفريقيا كما هو فى أغلب المجتمعات خلال مراحلها ما قبل التعليم، ويحدث أن أطفال المستعبدين يواجهون العبودية، وكذلك فإن هناك من يستعبدون كعقاب على الجرائم أو تسديد الديون وغالبًا ما كان الأطفال يؤخذون لضمان الوفاء بدين الوالدين، ومن ذلك أن سجناء الحروب لا يتمتعون بالحقوق، ولهذا فهم عمليًا مستعبدون مدى الحياة، والعمل الإجبارى أيضًا استعباد حتى فى عمل الخير، ولولا هذا ما أهرامات قد بنيت ويحدث أن يعتق المستعبد لإثبات أن هناك نوعًا من الرأفة، على الرغم من أن العقاب عن جرم كالسرقة كان مرعبًا، وأغلب الرقيق الذى نقل إلى شمال أمريكا واجه أسلوبًا مماثلاً عدا حالات قليلة مثل بعض الأماكن فى فيرجينيا حيث إن أغلب ملاك الحقول كانوا معتدلين، وهم يستخدمون قلة من العمال، وهنا يجد الإفريقى المهّجر نفسه بين مجموعة صغيرة تعمل لدى سيد مالك، وهذا السيد المالك وأبناؤه عادة ما يختلطون مع المرأة المستعبدة كما فى إفريقيا، غير أن الأطفال من هذا الاختلاط يكونون أحرارًا،

وفى أمريكا فإن الأطفال من هذا النوع لابد أن ينتموا إلى الطبقة العليا من المستعبدين، أى عبيد البيوت وهم خدم محليون فقط، ولا يستخدمون فى الحقول، وطالما أن كل تاريخ الاستعباد يهيّج الكثير من مشاعرنا ويثير غضبنا اليوم، فإننا يجب أن نكون موضوعيين فى دراستنا له، ولقد كتب الكثير عن هذا الموضوع بحيث أعطى الانطباع أن الإفريقيين الذين استعبدوا وباعوا مواطنيهم بآلاف إنما عملوا ذلك بشيء من الغباء دون أن يدركوا ما كانوا يفعلون، وفى الحقيقة أن الدليل الأكثر وضوحًا عن هذه التجارة، إنما هو بدايتها التى مارسها تجار رقيق أفارقة، ومن المؤكد أن هناك دائمًا مستعبدين كثر يعرضون للبيع، بل كان البائع لديه أكثر مما يريد المشترى فيما عدا فى مناطق محددة فى فولتا العليا حيث كان الفرنسيون يلاقون صعوبة فى الوفاء بالاحتياج المطلوب حسب الكوته، أما الأوربيون إلا فى حالات نادرة فى السنوات الأولى لم يكونوا يقبضون على الرقيق بأنفسهم وإنما يشترون ناتج ما يحصل عليه الأفارقة فى اصطياد الناس (العبيد) ولكن بتشجيع تلك التجارة وتقديم الأسلحة النارية للقبائل المتخصصة فى بيع الرقيق مثل (أفيك - ويوروبا - وفون - وأشانتى) بذلك ساعد التجار والملاحون الأوربيون على جعل تلك التجارة تكبر وتنمو حيث صارت أسوأ مما كانت عليه فى السابق، ويأتى الرقيق من المناطق العليا عبر طريق (مانكليد)، والمقارنة بالضرورة مع طريقة نقل الحيوانات تكون هذه مقبولة، وعلى الساحل يفرض الوسطاء بين تلك القبائل الكبيرة المتخصصة فى صيد العبيد والمشترين الأوربيين طريقة التعامل، كما هناك سماسرة صغار لبيع العبيد يتعاملون فى بيع أعداد قليلة، وفى أحسن الأحوال أقل من أصابع اليدين، وكانت تلك تجارة فوضوية فى الحالتين أى تغيير الأسعار وطرق التعامل فى البيع، وكان زعماء القبائل يحصلون على ضريبة لتصدير الرقيق، كما أن ملك (داهومى) يفرض بيع الرقيق الخاص به أولاً وبأسعار مبالغ فيها وكان هنال (فرض يدفع) وفساد وكثير من البلبلة بحيث لا يمكن قياس حدود العامل التجارى، وكانت المصانع الأوربية قد أقامت منشآتها على سواحل الذهب والفضة منذ القرن السابع عشر، على الرغم من أنها لم تعط هذه

الحقوق المحدودة فى مناطق أخرى إلا بعد مرور قرن تال، كما أن تجارة الرقيق عادة لا تتم بدفع النقد، وإنما تتم مقابل مقايضات بالحديد والنحّاس المصنّع والملابس والخرز والخناجر والبنادق والمواد الكحولية، وتختلف القيمة تبعًا للندرة أو الكثرة فى الرقيق، وكذلك فى المواد الأوربية، وكان الذكور الرقيق الذين يؤخذون تكون أعمارهم بين العاشرة والخامسة والثلاثين سنة، أما الإناث ففى الغالب تكون أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين سنة، والمشترون يتفحصون جيداً الذكور والإناث ولا يأخذون إلا الصالح منهم، والرحلة فى الغالب صعبة ذلك أن عمل الرقيق من الرجال يكون يدويًا، أما النساء فلا يمكن اعتبارهن صالحات إن لم تكن الواحدة قادرة على إنجاب أطفال أصحاء، حيث إن الأطفال أيضًا فى المستقبل يكونون رقيقًا، وكان فى نهر الدلتا خلال بداية القرن الثامن عشر يختلف ثمن الرقيق من ثمانين دولارًا للذكر العادى ومائة وسبعين دولارًا للذكر القوى متوسط العمر أو القدرة المناسبة، وعلى الرغم من أن أى إحصاءات كاملة لم تتوفر، ولكن جمع معلومات قليلة يعطينا فكرة مبدئية عن تجارة تلك المرحلة، مثلاً فى القرن السادس عشر تم تصدير حوالى مليون من الرقيق، وكانت الوفيات فى هكذا حالات تختلف بين عدد قليل إلى حوالى خمسة أسداس (فى حال النقل داخل السفن ويحدث الوباء) ويقابل فى بعض المصادر أن الوفيات فى الرحلة الواحدة تصل إلى نسبة عشرين فى المائة، بينما يموت آخرون خلال النقل سيرًا على الأقدام إلى الساحل، وكذلك يحدث الموت داخل السفن القديمة أو مخابئ التجميع أو القلاع، ولهذا فإن كل شعب غرب إفريقيا كان ضحية حيث إنه فى تجارة الرقيق هذه يكون قد فقد حوالى عشرين مليونًا عبر أربعة عقود استمرت فيها تلك التجارة، وكانت فيها أيضًا الحرب دائرة من أجل القبض على الرقيق، وخلالها يموت كثيرون غير الذين تقطع أطرافهم، فإذا قدّرنا أن الرقم حوالى ثلاثين مليون ضحية ، وإذا حسبنا مدة تجارة الرقيق من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أى ثلاثمائة سنة، وإذا نظرنا إلى هلاك الأطفال فإن العدد يصل إلى سبعين فى المائة (وهذا يعنى أن متوسط حياة الفرد قد هبط إلى حوالى ثلاثين سنة)، مما

يؤدى بنا إلى الاعتقاد أن ثلاثين مليون ضحية خلال عشر سنوات، يعنى حوالى ثلاثة ملايين ضحية فى كل جيل، والسكان الآن فى بلدان غرب إفريقيا الساحلية (دول الساحل باستثناء الجزء الشمالى من نيجيريا) يبلغ عددهم ستين مليون نسمة، فإنهم لم يكونوا أكثر من عشرين مليونًا خلال تلك الأيام، وهذا يعنى أنه فى المتوسط قد بقى رجل واحد من كل خمسة وامرأة واحدة من كل عشر، ولذلك فلابد أن تكون نسبة السكان أقل خلال القرن السادس عشر ويكون العدد فى تجارة الرقيق بعد هذا القرن حينما كانت حركة المواصلات فى قمتها مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر فى (ويدا)، وهى أشهر ميناء لتصدير الرقيق من بقية المناطق تكون المصانع الإنجليزية تحصل على ما بين أربعة عشر ألفًا إلى خمسة عشر ألف سنويًا من الرقيق، وخلال سنة ١٦٨٠م طبقًا لرواية المؤرخ (أمدرى دوكاس)، فإن تجارة الرقيق عبر الطريق الشرقى كانت فى غاية الخطورة وخصوصًا خلال الفصل الرطيب (الشتاء) كما ذكر (بسمان) أن حوادث الظلام كانت كثيرة بحيث تضيع كميات كبيرة من المعدات وكثير من الرجال يغرقون إذ تكون أمواج البحر عالية ووضع السفن مضطربًا فتسقط القوارب المليئة بالناس وتتفتت إلى أجزاء خلال دقيقة، ومن أجل تعويض هؤلاء الذين يموتون يكون الوسطاء فى (الويدا) على استعداد لأن يوفروا ألفًا من الرقيق خلال كل شهر، فإذا لم تكن هناك سفن فإن (الويدا) ربما يتكدس لديها أعداد هائلة من الرقيق، وفى هذه السنة ١٧١٦م كانت للفرنسيين سنة استثنائية فقد اشتروا ستة آلاف عبد رقيق، أما الإنجليز والبرتغاليون فقد اشتروا حوالى سبعة آلاف والهولنديون حوالى ألف وخمسمائة، وحدث أنه فى هذا الوقت صار (الداهميون) يطلبون أسعارًا عالية لبضاعتهم من الرقيق، وكانت البضائع التى تستعمل فى شراء الرقيق تتمثل فى أشياء مثل قضبان الحديد والنحاس والبارود، أى أن هذه هى عملة الشراء، وكان سعر الرجل فى (ويدا) أربعين دولارًا خلال منتصف القرن السابع عشر، لكن السعر ارتفع سنة ١٦٦٩م بسبب ارتفاع ثمن البارود فى أوربا، وكذلك بسبب التنافس مع القراصنة حتى وصل إلى مائة وعشرين دولارًا للذكر البالغ،

وحدث أن تطور التجارة أدى إلى استخدام شركات تجارية شرعية تقوم بهذه المهام على حسابها مع السماسرة الأفارقة، وكان لفرنسا فى قلعة (ويدا) ثلاثة وعشرون مديراً خلال السنوات (١٧٠٤ - ١٧٧٩) وبالمقابل فإنه بين سنوات (١٧٠٠ - ١٨٠٧) عندما تخلى الإنجليز عن قلعتهم فى (ويدا) كان بها أربعة عشر مديراً أحدهم هو (ليونيل أبسون) الذى قضى ثلاثًا وعشرين سنة فى خدمة هذه المحطة، ونجد تفاصيل حياة وعادات هؤلاء الرجال المثيرة فى مذكرات القبطان (جون أدامس) وهو من (فيرجينيا) قال: إن أعداد هؤلاء الناس الذين عاشوا على هذه التجارة ببيع مواطنيهم البؤساء كانوا كثر حيث شبع العمال الأفارقة على هذه التجارة، فعندما تغادر ثلاث شحنات من الرقيق ميناء (ويدا)، فإن الشارى عليه أن يدفع مبلغًا يساوى ثمن اثنى عشر عبداً أى حوالى ألف وخمسمائة دولار للمدعو (يوفوقاه) أى ممثل ملك داهومى، هذا خلال القرن السابع عشر أما إذا كانت الشحنات اثنتين، فإن الشارى سيدفع ما يساوى ثمن تسعة من العبيد، وبعد الدفع يقوم (اليوفوقاه) أى ممثل ملك داهومى بإعطاء الإذن لسفينة المعدات التجارية لترسو على الشاطئ، وبذلك يكون التاجر قد أثقل كاهله بالدفع لجمع غفير أغلبهم غير صالح وغير ضرورى من العمال والحمالين والخدم الذين يفرضهم ممثل الملك، كذلك فإن المشترى عليه أن يدفع مبالغ محددة أخرى لممثلى القبائل وللحراس الذين يقفون ليحرسوا معداته التى يقايض بها، وإنه يجب أن يدفع لكل من يقوم بأى عمل بما فى ذلك المتطفلون والأطفال والنساء اللواتى يغسلن وهؤلاء من الصعب منعهن ويقوم (اليوفوقاه) باستخدام جواسيس للتأكد من أن كل الطلبات قد تم الوفاء بها، وبعد قرن كامل لم تتغير الأمور ففى سنة ١٧٩١م ذكر تاجر الرقيق الإنجليزى (جونسون) فى مجلته يقول: إن المبالغ التى دفعها بشأن الرقيق فى (ويدا) بحساب الدولار فى الوقت الحاضر كانت مبالغ طائله وقبل أن يبدأ تجارة المبادلة يشترط (اليوفوقاه) ممثل الملك الداهومى قماشًا ومشروبات كحولية وسلاحًا لعبدين وكان علىّ أن أبعث اثنين من الرقيق الأبيض للملك مع أقمشة زائد خمسة وعشرين بندقية مع البارود وأشياء

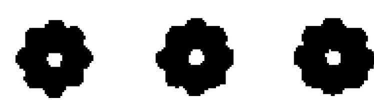
أخرى قيمتها تساوى ثمانية وثلاثين أوقية من الذهب، ويذكر جونسون أنه اشترى رقيقًا من ستة من السماسرة، وهؤلاء لا يمكن مبادلتهم بالسلاح؛ لأن السلاح والذخيرة لا يعطى إلا للملك وممثله المدعو (يوفوقاه)، وذكر تاجر فرنسى أنه إذا ما وجد لدى أى أسود ما يزيد على قبضة اليد الواحدة من البارود بالكشك الذى يقيم فيه يعد ثائرًا ويباع كرقيق حيث يذهب ثمنه للملك، والأسعار مهينة للرقيق فى بعض المناطق على أن سوق (ويدا) يمكن أن تكون هى الحالة البارزة فعلى الرغم من أن فوائد الأوربيين فى النقل كبيرة، لكنها لم تكن كبيرة جدًا كما يزعم بعض الكتاب فى الحالتين حيث يحسبون الأرقام على أساس ثمن الرقيق وهو على الساحل وثمن بيعه فى سوق المزاد العلنى (بالمسيسيبى) فى أمريكا، ولهذا فإن هذه الأرقام تتجاهل ما يدفع على كل رأس فى النقل وما يدفع للبحارة، وأن بعض الكتاب يتجاهلون هذه التكاليف، ولهذا فإن أرباح تجار الرقيق الأوربيين نسبية (باستثناء السنوات السابقة فى هذه التجارة)، ومع ذلك فهى أقل من أرباح أولئك الأفارقة الذين يصدرون الرقيق على أن الموانئ الأخرى هى أقل تعقيدًا من (ويدا) فيما يتصل بالمدفوعات، ولكن التجارة فى كل مكان فى إفريقيا لها تقاليد غريبة تظهر للعقل الحديث ثورة على ذلك الذى يتاجر فى لحم البشر، وهذه ملاحظات كتبها الملازم (إدوارد بولد) من البحرية الملكية عن التجارة فى (قواند بوبو)، وهذا ميناء غير بعيد من (ويدا) والملاحظات جاءت فى كتاب هذا البحار بعنوان (دليل إفريقيا للتجارة والملاحة) يقول: يجب أن يتذكر القارئ أن الأسعار التى تذكر عادة إنما تعنى العديد من الرقيق (أى بالجملة) والتعامل فى هذه التجارة والأسعار عند الوصول على أنه من المحتمل أن يكون على الشاطئ؛ لأن المواطنين قد لا يأتون ببضاعتهم إلى السفن، وأنت عندما تصل الشاطئ بعينات من بضاعتك وتعلن الأسعار أمام تجمع من الوسطاء تلك الأسعار التى يجب أن تكون عالية (رغم أنك تكون مرغمًا فى بعض الأحيان إلى أن تخفض) وعندما يتم الاتفاق على الأسعار بين الشريكين فإن قطعة من قماش وزجاجات قليلة من الكحول لابد أن تعطى لكل واحد من الوسطاء، وتلك عادة تفتح بها تعاملات التجارة،

ويصف (بولد) كذلك طريقة بيع ناب الفيل الذى من الواضح أنه أيضًا يخضع لضرائب معينة فيقول: إن صاحب سن العاج يقوم بعرضها للبيع بواسطة سمسار، وهذا السمسار يحدد ثمنها على ضوء حجمها الذى لا يمكن إلا أن يكون باهظًا، ومع ذلك فأنت لابد أن تساوم بصبر حتى يقبل السمسار المبلغ الذى يمكنك أن تدفعه، وهنا فإن هذا السمسار يطلب منك أن تبقى بعضًا من الثمن لديك بحيث تدفعه له فيما بعد من العملة المستعملة وهى قطع حديدية تسمى (أكييز) وبين ساحل داهومى ودلتا النيجير هناك القليل من الرقيق رغم أن القبطان (آدامز) وهو من فيرجينيا بأمريكا لاحظ أن البيع التقليدى للرقيق (الذى لم يكن مقبوضًا عليه فى حرب) فى (بورتو نوفو) و(بادامرى) و(ايجيبو) فى بداية القرن التاسع عشر أعطى أهمية خاصة (للاجوس) فى تجارة هذا النوع من الرقيق كما هى الحالة فى (بورتو نوفو) عندما وصل إليها تجار الرقيق البرازيليون الذين استقروا بشكل دائم على الشاطئ، ولهذا فإن الطلب الزائد على الرقيق جعل حرب (يوروبا) فى أوجها وكنتيجة لوجودهم صار لكثير من العائلات الإفريقية أسماء برتغالية فى كل من توجو وداهومى، وفى جزء من نيجيريا (حول لاجوس)، وكان بعض المقيمين من الملونين الذين يطلق عليهم اسم (مولاتو) أى: (المختلط) ولكل تجارة مباشرة، وأحيانًا تجارة العلاقات العائلية مع المشترين فى (باهيا) وفى الموانئ البرازيلية الأخرى وبشكل خاص، ومثال على ذلك البرازيلى المدعو (فرانسيسكو فيليكس دا سوزا) الذى ترجع أصوله إلى عائلات (توجولية وداهومية) ماتزال تطرق ذاكرته فى كل وقت، وكذلك ذلك الرجل الذى يقال: إنه أنيق وتزين وجهه لحية قصيرة (سوا شولكير) المدفون تحت أرض الحجرة الرئيسية فى بيت العائلة فى (ويدا) قد مارس تجارة الرقيق لحسابه الخاص وكسمسار فى (باداقرى) نيجيريا الحديثة وكذلك فى (أنيكسو) التوقو الحديثة، وكان صانعًا لدى ملك (أبومى) المدعو (أداندوزاه) ولقد كتب أحد المؤرخين يقول: إنه بينما كان يحاول تسديد ديونه سجن فى (أبومى)، ولكنه استطاع أن يدخل فى نوع من التحالف مع الأمير (قانقبى) الذى صار فيما بعد ملكًا، وكان التحالف (معززًا بالدم)، ولهذا أفرج عنه هذا

الأمير الملك فيما بعد حيث كان هذا يؤيد أنصار الأمير بحيث مكّنه من أن يستولى على الحكم فى (أبومى) خلال سنة ١٨٨١م ورد الأمير على ذلك بأن عين (دا سوزا) فى (واهيدا) موظف جمارك بلقب (شاشا) وبمهمة الإشراف على تجارة الملك مع السفن الزائرة، وكان هناك فرص واضحة للغنى من خلال هذه المهام بعدها حصل على الموافقة باحتكار صناعة زيت النخيل هذه الصناعة التى كانت حائلا بين داهومى والإفلاس بعد قرن ونصف عندما استقلت، وتحدث عدد من الكتاب تفصيلا عن هرب (دا سوزا) المثير من (أبومى) حيث إنه قطع كل المسافة إلى الساحل وهو قابع فى برميل مغلق، وفى ذلك الوقت كان الرقيق ينقل بالجملة وهم ناس خليط فيهم الغليظ والشرس العدوانى، وكان أكبر موزع للرقيق فى (بورتو نوفو) أثناء زيارة القبطان (أدامس) لميناء (لاجوس) وهو رقيق من قبيلة الهاوسا كان فى فرنسا، أما التاجر الأساسي فهو (جورج لاوسون) من قبيلة (فانتى) وكان قد أبحر من (أكرا) كوكيل على سفينة نقل الرقيق وعاد إلى غرب إفريقيا من لندن سنة ١٨١٢م، وحدث أن عائلة (لاوسون) الآن هى من علية القوم هناك وهى جزء من النخبة الحاكمة فى (أنيكسو) المدينة الحديثة التى ساعد كثيرا (لارسون) من أجل أن تظهر على الخريطة واشتغل (لارسون) بتجارة الرقيق وصناعة زيت النخيل وخدم كل النظم حيث قدم كثيرا من المعلومات الكاذبة لضباط البحرية، ولقد ذكر أحد المؤرخين أن مدينة (أنيكسو) كانت كما هى الآن مقسمة إلى جزءين (مدينتين) واحدة بحرية وهى غنية بالسمك والأخرى أرضية يحكمها برازيلى أخذ اسم برتغالى مختلط (بيدرو كوجو) وكلمة (كوجو) تعنى الطفل الذى ولد فى يوم الاثنين، وبيدرو هذا تعامل فى تجارة الرقيق واشترى أقطان (مانشيستر) من شركة فى ساحل الذهب، أما (تمامًا) فقد نجح فى أن يكون أكبر تاجر رقيق فى (بورتو نوفو) بواسطة (دومينقو مارتينو المولاتو) الذى تمكن أيضًا من تجارة وصناعة زيت النخيل وحصل على عقد من شركة (فوستر وسميث) بساحل الذهب، حيث إن تجارة الزيت والرقيق صارت ضرورة بالغة (كما هى تجارة مفيدة جداً) وسابقًا خلال القرن التاسع عشر عندما ألغت بريطانيا تجارة الرقيق بالقانون وأصبح التاجر لابد له أن يحصل على غطاء حدث أن المستكشف (ريتشارد لاندر) فى مذكراته قد أشار إلى أن تجار الرقيق كانوا يتحايلون ويتحاشون الكشف حتى إن أى سفينة حينما تصل يقوم بحارتها بإفراغ الحمولة الخفيفة والقبطان الذى يتفاوض مع الراغبين فى البيع والشراء ثم

تبحر على طول الساحل إلى أن يتم الاتفاق على التبادل وتكون السفينة فى إبحار مأمونة فإذا ما قرب منها رجال البحرية البريطانية لا يلاحظون ما يستجوب التفتيش ثم تعود السفينة إلى المكان الذى أنزلت فيه البضاعة والقبطان الموجود على الشاطئ فإذا لم تكن البضاعة جاهزة أبحروا مرة أخرى عبر الشاطئ حتى يحين الموعد المحدد فتعود السفينة لتحمل ما تم تجهيزه من الرقيق، كما أن سرعة كل شيء أصبحت مهمة، ولذلك ظهرت السفن السريعة الإسبانية والبرتغالية والأمريكية وبسبب المنع القانونى ارتفعت أسعار العبيد حيث وصل ثمن الواحد بين مائتين وعشرين دولاراً إلى ثلاثمائة دولار فى (ويدا) وفى (لاجوس) سنة ١٨٣٠م، وفى سنة ١٨٤٠ زاد الثمن فوصل مستوى سبعمائة وخمسين دولاراً وأكثر إلى ألف ومائتى دولار للفرد الواحد فى (باهيا) ثم وصل أعلى من ذلك خلال فترة المزاد العلنى، وفى سنة ١٨٤٤م ذكر أحد الكتاب أن ضريبة الاستيراد يتوجب أن تدفع فى البرازيل لكنه مع ذلك لم يعط أى تقدير ولا إشارة إلى مقدار الكسب، ومن أجل أن نعرف ذلك فإن تكاليف الرحلة فى المسافة الطويلة لابد أن يتحدد مقدمًا للفرد الواحد من جملة الرقيق بين الوسيط أو السمسار الإفريقى فى البيع ومحصل الضرائب الرسمى ذلك أن عدد الذين يموتون فى رحلة البحر يصل إلى عشرين فى المائة، وعندئذ فإن هذا يجب أن يعد من الخسارة، وهنالك بطبيعة الحال مستوى معروف عن البيع القانونى فى أوربا إذ يصل غالبًا إلى مائة فى المائة للفرد الواحد إذا ما تم تجاهل ما يمكن أن يحدث من أخطار احتجاز السفينة مثلاً وضياع الحمولة كلها أو دفع الغرامات والاعتقال والسجن إلخ، وأحيانًا تكون الفوائد أقل من مائة فى المائة فى بعض الحالات الصعبة، وأحيانًا أخرى تختلف تمامًا، ويذكر أحد المؤرخين أن سعر البيع فى البرازيل وصل مبلغًا يساوى ألفًا وثمانمائة دولار للرأس الواحد سنة ١٨٤٦م، لكن هذا السعر هبط إلى ألف ومائتى دولار فى السنة التالية، ويظهر تاريخ تجارة الرقيق أساسًا فى الإحصائيات التى تعتمد على تكاليف نقل وتجارة والقبض على العبيد لكن هذا الموضوع يحتاج إلى كثير من البحث والتدقيق فى تاريخ تلك المراحل وحدوث التغيرات والوفيات وتأثيراتها، ويمكن علميًا اعتبار تلك الفكرة القائلة بأن تجارة الرقيق هذه قد أثرت على غرب إفريقيا، وأنها كليًا غير عادلة إذ فى ذلك الوقت كانت أساليب زراعة

إفريقيا بدائية، وبالكاد تسد حاجة السكان المحدودة فى المنطقة، وهؤلاء السكان يتناقصون بسبب الأمراض أو بسبب الحروب من جانب أناس لا يعرفون أين ستقع، والانخفاض الشديد فى عدد السكان المتسبب من تجارة الرقيق التى ارتفعت فجأة خلال القرن التاسع عشر، وفى الحقيقة أن إفريقيا اليوم نسبيًا أقل سكانًا إما بسبب الهجرة أو بسبب آخر يتعلق بالتجارة تلك، حيث إن رقم ثلاثين مليونا خلال مدة تزيد على ثلاثة قرون إذا ما قورنت بفقدان أوربا الذى وصل خمسين مليون مهاجر خلال السنوات ١٨٨٠-١٩٣٠ وفى فترة التجارة ربما أكثر من الآن كان اعتماد إفريقيا على أوربا فى واردات الأدوية والعلوم الأخرى بما فى ذلك الأساليب المتقدمة فى الزراعة والتجارة وفرص الثروة فى بعض البلدان ذلك أن تجارة الرقيق أدت إلى الحصول على أشياء مثل المعدات والمصنوعات الأخرى التى تساعد على التطور بما فى ذلك تعليم أبناء الأفارقة المسترقين قياسًا بتكاليف المعيشة ومتطلبات الناس بالطبع التى تغيرت كثيراً منذ عهد الرقيق قد زادت حالة الحرب خالقة نوعًا من الفوضى الإقطاعية، فإذا كان مسرح أشقياء الناس واسعًا، فإنه لابد قد حدث بسبب تلك التجارة، وانعدام الأمن فى حرب الرقيق لابد أن فيه تأثيراً على حياة إفريقيا الحديثة وهكذا فذلك يستحق الدراسة، ويظهر أن تجارة الرقيق شجعت على الاعتقاد بشكل واسع أنك لكى تكون غنيًا فهى أسهل من أى عمل آخر، على أن الحال فى المجتمعات المتقدمة يجعل الغنى السريع موجبًا للاشتباه وعدم القبول حتى لو كان قد حصل بطريقة آمنة ومعقولة، وليس هناك ما يشابه هذا الوضع فى الساحل مع الاعتقاد بأنه قد يكون على تقاليد بيع الرقيق قليل من التعب، ومرة ثانية فإن تجارة الرقيق قد أحدثت بعض التقدم فى ممالك الزنوج بغرب إفريقيا مع استثناء الممالك البربرية الكبيرة الواقعة على هدوب الصحراء مثل (أشانتى ويوروبا وداهومى وبينين) ذلك أن هذه الممالك نهضت وتقدمت تحديداً على تجارة الرقيق، وكانت حصة الطبيخ التى من أجلها باع الأفارقة أخوتهم للرواد من الدنيا الجديدة قد وفرت بعض الخير النسبى.



الفصل السادس

الممالك الغينية

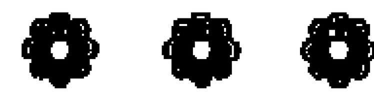
الفصل السادس
الممالك الغينية

ممالك ساحل إفريقيا أو (غينيا) لها ظروف مختلفة، فقصة (يوروبا) بدأت في وقت ما بين سنة ٦٠٠ و ١٠٠٠ طبقًا للأسطورة فقد جاء المهاجرون من الشمال والشرق وهم نسبيًا من أصل (حامى) وأسسوا قبيلة (أيفى) وبعد سنوات حدث أن فرعا من (أيفى) يسمى (أونى) حاز على سيطرة روحية على القبيلة، وفى الوقت المعاصر كان هذا هو السبب فى أن سيدا من (أونى) وهو السير (أديسوجى ديريمى) صار أول حاكم لنيجيريا الغربية بعد الاستقلال، وخلال منتصف القرن الثامن عشر تعززت القوة السياسية لفرع من (أونى) يسمى (آلافين) بحيث صار من الناحية الروحية مساويًا لقوة (أونى) نفسها، وبالتالى سيطرت قبيلة (آلافين) على (أقبالاند) أى الجزء الجنوبى من غرب نيجيريا الحديثة إضافة إلى جزء من (داهومى) الحديثة وجزء من التوقو إلى منطقة (أنيكسو) وهذا التاثير أعطى القبيلة حقوقًا تجارية فى (باداقرى وبورتو نوفو وبينين) وعبدان الآن هى المدينة الرئيسية (ليوروبا)، وكانت فى السابق معسكراً للمرتزقة من الرجال الذين احترفوا حياة الحروب حيث كانت هناك حروب فى كل فصل جاف (غير مطير) وكل قوة خاصة تعطى مهمة تؤديها، وكان من المعتاد بالنسبة للقادة الذين يهزمون أو يفشلون فى الحروب أن ينتحروا عقابًا لأنفسهم، ومع بداية القرن التاسع عشر صار زعماء المقاطعات فى الأطراف يتخلصون من سلطة قبيلة (آلافين) بالامتناع عن دفع الجزية، وبسبب هذه الخلافات والانقسامات أصبحت المملكة عرضة للاعتداءات حيث سقط جزء منها فى يد (الفولانى) وقد ذكر أحد المؤرخين قائلاً: إن الزعماء الجنوبيين تمردوا وقاموا بعدد من الحروب المهلكة والتى استمرت حوالى قرن من الزمان وهكذا وقع الخراب والجفاف

فى إمبراطورية كانت قوية، كما أن موانئ (لاجوس وباداقرى) امتلأتا بغنائم الحرب البشرية حتى إنها صارت لبعض الوقت موانئ الرقيق الرئيسية فى كل غرب إفريقيا، كما أن زعماء المقاطعات المستفيدين من تجارة الرقيق صاروا أكثر رغبة فى مشاركة المكاسب مع قبيلة (آلافين) مما زاد فى دائرة التفكك فى المملكة، ولم يتوقف التهديد الدائم من الشمال إلا بمجيء البريطانيين حيث أنقذوا ما تبقى فى الإمبراطورية من الانهيار، ولقد تكونت (بينين) عندما حدث أن مجموعة من الزعماء الذين كانوا فرضوا سيطرتهم على الشرق حدث الخلاف بينهم وطلبوا من المملكة تعيين ملك عليهم، على أن (بينين) كانت خلال القرن الخامس عشر قد انفصلت عن الإمبراطورية، وكان أهل بينين كما عرف عنهم قد أتقنوا معرفة سبك النحاس والبرنز وهو الفن الذى طاول القمة فى شهرته بهذا البلد، ومع وصول البرتغاليين خلال سنة ١٤٨٥م كانت بينين تمثل مركزًا تجاريًا، ومع وجود المال والمعدات والأسلحة النارية توسعت حكومة المدينة، وفى القرن السابع عشر احتلت (بونى) وحتى (لاجوس)، وحدث أن حالة الحرب بما فى ذلك حملات الرقيق أضعفت الدولة، ولذلك انهارت المملكة ومع نهاية القرن التاسع عشر صارت أقل من مدينة مشهورة بالدماء فى كتب المغامرين أو المستكشفين، ولقد أسس (الفونس) مملكة (داهومى) وعاصمتها (آبومى) خلال سنة ١٦٢٥م عندما انتقل (داكو) ابن ملك (آلادا) إلى الشمال فى (أهواوا) مع مؤيديه مستوليًا على سلطات الحاكم المحلى المدعو (أويسو) ثم صار يتقدم إلى أراضى الزعيم (دانه) المجاورة وقد انزعج هذا من تقدم (داكو) فقال فى ذلك الوقت: إن (داكو) قريبًا سيدق على بطنى، وهكذا فقد احتل (داكو) أراضى (دانه) وأطلق على قصره اسم (بطن دانه) كما أطلق هذا الاسم على الإمبراطورية الحديثة عندما انضم إليه ابنه الذى سيخلفه فى توسيع ممتلكات الأمة (كما أعلن)، وليشجع بذلك خلفاءه؛ لأن يفعلوا نفس الشيء فى وقتهم، وطلب من أولئك الخلفاء أن يؤدوا اليمين ملتزمين بهذه الرغبة، وهكذا حدث فقد أدى اليمين الخلفاء التسعة، ومن الملاحظ أن جميع مقاعد هؤلاء الملوك الداهوميين ماتزال موجودة فى القصر الملكى الذى جعل

الآن متحفًا، وفى القرن الثامن عشر فى ظل حكم الملك (أقاجا) احتلت المملكة الساحل، وذلك من أجل أن تكون قادرة على بيع الرقيق مباشرة للأوربيين، احتلت (ويدا) وأرغمت (بورتو نوفو) على دفع الجزية وقد وقف الأوربيون بالضرورة فى الحرب مع زعماء الساحل الذين كانت لهم مع هؤلاء الزعماء معاهدات، وتحالف (أقاجا) مع شعوب الساحل وهم (الساحبيون ويوروبا) هؤلاء الذين حاربوا (أبومى) ثم عقدوا معه اتفاقًا، وفى سنة ١٧٤٧م كان (تيقابيسو) الذى خلف الملك (أقاجا) قد وقع اتفاقًا مع الأوربيين ليبيع لهم مباشرة عن طريق وكيله (يوفوقاه) الرقيق ووافقت (أبومى) على دفع الجزية وبالتالى سحب (آلافين) قواته وواصل (تيقابيسو) اصطياد الرقيق بنشاط ملحوظ حيث كان يبعث جيوشا إلى الشمال المتخلف والى الغرب حيث تحالف مع (اكاييم) و (الكواهو) ضد مملكة (أشانتى) لكن هذه انتصرت ودخلت أراضى (الفون) من أجل الانتقام طاردة (تيقابيسو) إلى الخلف حتى حدود (اتاكايام) أى توجو الحديثة، وفى القرن التاسع عشر حدث أن منطقة (يوروبا) دخلت فى وضع فوضوى ولهذا أنكرت عليها (أبومى) حقها فى الجزية، بل إنها تدخلت فى أراضيها وكذلك احتلالها المؤقت (لباداقرى) على أن (داهومى) لم تستعد أهميتها السابقة أبدا على الرغم من إنها أبدت مقاومة لمدة سنتين ضد الاحتلال الاستعمارى تحت قيادة ملكها (بيهانزين) ولابد أن (شانتى) صارت تبرز خلال القرن الحادى عشر أو الثانى عشر عندما جاء مؤسسها المدعو (أكان) من الشمال، وقد اعتمدت لغة (تسيوى) التى كانت سائدة فى البلاد وأخذت ببعض العادات المحلية ولأن (الأشانتى) شعب مقاتل فقد تقدم هابطًا عبر وادى الفولتا وخلال معبر (أكواييم) ليصل إلى الساحل حيث انعطف غربًا، وفى خلال القرن السادس عشر انضم إليه شعب (جا) من (كالابار) وهو الذى زحف سيراً أو بقوارب هندية مسافة ثمانمائة ميل عبر الشاطئ بعد حدوث شغب وصراع قبلى، أما الأشانتى الذين وصلوا الساحل فقد أسسوا دولة (فانتى) شمال أكرا الحديثة ومملكة (الدينيكرا) القوية جدا، وحدث أن كل دول (أكان) هذه قد دخلت فى حروب مستمرة بينها، وأخيراً توحدت تلك الدول

الصغيرة القبلية معا تحت زعامة رئيس يدعى (كوماسى) من أجل أن تقاوم (دينيكرا) وحوالى سنة ١٧٠٠م قام بنجاح الزعيم (أوسى توتو) الذى تقول الأسطورة: إنه ولد من السحاب بقيادة التحالف ضد (دوما) بتوجيه من (كاهنه الأكبر) المدعو (أنوكى) عندما أعلن (أوسى توتو) أنه سيجعل التحالف متماسكا قويا حتى يهزم (دينيكرا) العظمى، كذلك وطبقًا لرواية أسطورة (أشانتى) فإن مقعداً ينزل من السماء ليكوّن نموذج التضامن الأخوى الأشانتى، وإلى هذا اليوم لم يجلس أى ملك على هذا المقعد، وإنما يجلس فقط بجانبه، ومنذ هذه الفترة البطولية صار زعيم (الكوماس) معروفًا على أنه زعيم (الأشانتى) ولقد هزم (الدينكيرا) ومن الطبيعى أن يتقدم الأشانتى) لاحتلال العديد من الدويلات الصغيرة القبلية، وأن يقيم نظامًا قويًا يقبض على المنطقة، وبذلك يمكن استمرار بيع الرقيق وإرساله، ومن ثم الحصول على الأسلحة المناسبة من أوربا، وحدث أنه خلال واحدة من الحروب المحلية قتل (أوسى توتو) وكان خلفه (أبوكو وار) قد وسع الإمبراطورية فى اتجاه الجنوب والشمال، ثم زاد إليها فيما بعد الزعيم الآخر المدعو (أوسى كوجو) مناطق أخرى فى الشمال البعيد إلى حدود غانا الحديثة، حيث فرض جزية تتمثل فى أعداد من الرقيق والبقر، ومن كل هذه الدول الساحلية لم تبق واحدة ذات أهمية غير (الأشانتى) عندما بدأ عصر الاستعمار، وقد احتلت (كوماس) أخيراً بواسطة قوات نيجيرية يقودها ضباط بريطانيون، أما (الأشانتى) فقد حصلت على اعتراف خاص بإدارتها فى ساحل الذهب، ولهذا بقيت كمملكة إلى أن استقلت غانا وعندما حصل الجنوب أخيراً على قدرته أجبر المملكة على الانكماش بالتهديد وبالقانون .



الفصل السابع

صُنّاع الخرائط وتحديد الأهداف

الفصل السابع
صناع الخرائط وتحديد الأهداف

لقد كان العائق الكبير أمام كل الأوربيين للعمل خلال الفترة المبكرة في إفريقيا غياب الخرائط المناسبة والصحيحة ذلك أن الإفريقيين أنفسهم لم يعملوا خرائط لبلادهم، ولذلك فإن الاعتماد على الخطوط التي وضعت على ما جاء في تسجيلات رحلات (ليو أفريكانو)، ومختلف الأطالس الأخرى هي التي كانت مستعملة مع تغييرات بسيطة خلال القرن الثامن عشر الميلادي وكانت في غاية السوء ذلك أنه حتى خطوط الشواطئ لم تكن صحيحة المتصلة بامتداد المناطق الساحلية كذلك، فإن خريطة (دي أنفيلس) المعدة في القرن الثامن عشر عن إفريقيا كانت أكثر قليلاً في التفاصيل من خريطة (أوتيليوس)، وهي أيضًا عن إفريقيا وقد مضى عليها قرنان من الزمان وما زال نهر النيجر يظهر على أنه يجري من مصادر مرتفعاته المختلفة في اتجاه الغرب وفي خريطة (أرتيلوس) يظهر على أنه يتدفق عند قرب خط الاستواء ليصب في متسع يسمى (بحيرة النيجر) غير أنه كان متفقًا على أن جريانه يقع على بعد ستين ميلاً شمال بحيرة تشاد، وقد أطلق عليه اسم (بحيرة بورنو) وكان يمر عبر بحيرة تسمى (فوبير) قبل أن يتفرع إلى فرعين واحد في السنغال والآخر في جامبيا، أما (دي أنفيل) فقد جعله يتدفق من بحيرة تشاد ويجري غربًا تقريبًا فيما يعرف الآن بحدود النيجر ونيجيريا إلى تومبوكتو، ثم يدخل بحيرة متخيلة تسمى (مابيريا) وتسمت فيما بعد باسم السنغال، ويعتقد وقتئذ أن تومبوكتو كانت مدينة عظيمة ولقد قال البعض: إنها تقع على النيل والبعض الآخر قال: إنها تقع عند السنغال ولا أحد كانت لدية أبسط فكرة عن أين يوجد الكونغو وعندما وجد (ليفينجستون) نهر (لوا لابا) في

الكونغو الأعلى اعتقد أنه النيل، وفى الشمال فإن نهر السنغال اعتبر لعدة قرون أكثر أهمية مما هو عليه فى الواقع وكانت سيطرة المسلمين على بربرة يعود اللوم فيها إلى جهل الأوربيين بالداخل الإفريقى ذلك أن المغاربة المطرودين من إسبانيا أسسوا عدداً من الإمارات على طول ساحل البحر الأبيض فى إفريقيا، وكان القراصنة يهاجمون ممرات جبل طارق وخلجان مالطا ليقبضوا على المسيحيين ويستعبدوهم[1] وكذلك هاجموا سواحل إسبانيا نفسها، ومن الواضح أن القراصنة المغاربة غالبًا كانوا بقيادة البربر ومعهم الزنوج والعرب وقد نهبوا شواطئ أيرلندا وأيسلندة وسكوتلندة وإنجلترا وفرنسا والدنمارك، وكانوا قد استقروا فى بعض الأماكن حيث تركوا عشائر من أصل إفريقى وهؤلاء فى اسكتلندا يسمون الآن (المغاربة أى مور أو موريسوت أو موريسان)، وفى فرنسا هذه الذكريات المتصلة بأولئك القراصنة تعيش الآن فى أسماء من أصل إفريقى مثل (موريسوت أو موريكود) وفى اسكتلندا اوجد البربر المزمار، وربما نوعًا من الفضة وجواهر الحجارة المستديرة التى تعود إلى المناطق العليا فى العصور الوسطى، وحدث أن مغامرين من بلدة (سالى) وهى الآن بلدة محاذية لمدينة الرباط فى المغرب على المحيط الأطلنطى احتلوا جزيرة (لوندى) فى إنجلترا وقناة (بريستول) وهاجموا بسفنهم الميناء الكبير المسمى (كورك) فى أيرلندا، ومن المؤكد أن القوى الكبرى كان يمكنها أن تكسر قبضة القراصنة على السواحل، ولكن كانت دواخل إفريقيا لعدة قرون غير معروفة بما فيه الكفاية بحيث تقوم تلك القوى بتحدى العرب والبربر، وكانت الدواخل منيعة من جهة الأطلنطى، كما كانت تجارة الرقيق مربحة جدًا ولذلك فإن القبائل الكبيرة التى كانت تمارس تجارة الرقيق تخشى أن يصل الرجل الأبيض، ويضع قدميه فى أرض إفريقيا ويباشر تلك التجارة من مصادرها مما

---

(١) من الواضح أن الهجمة على الإسلام لم تكن جديدة، وهى التى يقودها السيد بوش الابن الذى يصف الإسلام بالفاشية، ومعه كل الأوربيين بما فى ذلك رجال الدين، وهذا بابا الفاتيكان المدعو (بينيدكتوس الرابع عشر) يرجع فى استدلالاته إلى القرن الرابع عشر ليقول: «إن النبى محمد لم يأت إلا بالشر للإنسانية» وهذا كله يؤكد أن العداء المصطنع مستحكم فى عقول هؤلاء القوم. المترجم.

يؤدى إلى التأثير على مكاسبهم، وبالتالى يعطل حصولهم على المعدات والمواد اللازمة للحروب، وكان الوسطاء قد جعلوا المناطق البعيدة نسبيًا عن الشواطئ خطراً على الرجل الأبيض الغريب مع وجود خطر آخر متعلق بالسفر عبر الصحراء ذلك هو الأمراض التى كانت منتشرة، وفى أواخر سنة ١٨٤١م أشرفت الحكومة الإنجليزية على بعثة طبية مزودة بالمعدات الكافية اتجهت إلى النيجر لكن تلك البعثة فقدت ثمانية وأربعين من مجموعها البالغ مائة وخمسة وأربعين رجلاً خلال شهرين، وكذلك فإن بعثة (ماك قريقورى) خلال سنة ١٨٣٢م فقدت تسعة وثلاثين رجلاً من مجموعها البالغ ثمانية وأربعين رجلاً بسبب الأمراض، وبتأسيس الجمعية الإفريقية لاستكشاف الدواخل فى إفريقيا خلال ٩ يونيو ١٧٨٨ ميلاية وباجتماعها الأول الذى ربما كان يمثل الخطوة الأولى فى عملية وضع السواحل الإفريقية على الخريطة، وكانت واجبات الجمعية الأولى أن تجد نهر النيجر، وأن تبين مساره فى اتجاه المحيط، وبعد بعثتين إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط اللتين فشلتا تقرر القيام بمحاولة أخرى من الساحل الغربى، وهكذا سافر الميجر (هوتسون) متجها إلى (جامبيا) لكنه فقد حياته عند المصب الأعلى للنهر، وهذا بالتأكيد كان له مفعول سيئ على جماعة المستكشفين، ولذلك فإنه فى سنة ١٧٩٥م عندما قدم الدكتور (مانجو بارك) عرضًا للخدمة بواسطة سفينته التى كان عمرها عشرين سنة تم قبول العرض فوراً وطلب منه أن يتجه إلى جامبيا صعوداً من أجل أن يجد نهر النيجر ويسير معه إلى أن يصل مدخله (فمه) وهكذا غادر (الدكتور مانجو بارك) إنجلترا فى مايو سنة ١٧٩٥م وغادر الساحل فى شهر أكتوبر وبعد تسعة أشهر مضنية عبر مناطق وبلاد الفولانى حيث قابل أخيراً نهر النيجر فى منطقة (سيقو) يوم ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٦م، وكان وصفه لتلك الرحلة جزءاً هامًا ومثيراً جاء بعنوان (السفر عبر المراكز الداخلية فى إفريقيا) قال: لقد شاهدت بسعادة بالغة نهر النيجر يلمع تحت شمس الصباح واسعًا مثلما يكون عليه نهر التايمس فى (ويستمينتسر) وهو يتدفق فى اتجاه الشرق، وكان (بارك) فى سفره مع (فريدمان) ومعهما صديق كان رقيقًا وقد حصل على حريته عند العودة، ولم يكن لديهم ما

يكفي من الطعام لأكثر من يومين وقليل من التبغ للمبادلة، ولقد استمر (بارك) في رحلته خلال شهور من الرعب والتعب، وكان على وشك الموت لولا مساعدة زنجي رقيق كان في طريقه للبيع مع الأوربيين في جامبيا، ولقد رجع (بارك) إلى أوربا بعد غياب دام ثلاث سنوات ونصف السنة ليعلم عند عودته أنه كان قد اعتبر ميتًا، ورغم التعب والحرمان والمرض خلال سفره فقد تمكن لحسن الحظ من إنجاز وحفظ مذكراته التي وردت في كتاب تفاصيله جعلت معظم مغامرات القرن العشرين محتشمة الشيء الذي أظهر (بارك) بأنه رجل قوي الأعصاب يسيطر على نفسه في الملمات كما حدث عندما قابل في (كارتا) الملك كوراباري الذي أنذره بألاَّ يستمر عبر منطقة (بامبارا)؛ إذ إن الحرب كانت مستعرة هناك ومجيئه من بلاد الأعداء ربما يعرضه للموت، لكن (بارك) لم يصر فقط وإنما أقنع الملك بأن يزوده بالمرشدين بما في ذلك ثلاثة من الأمراء، وككل أولئك الرحالة الأوائل واجه (بارك) الكثير من الصعاب والمشاكل والأخطار، لكنه كان يقنع مرافقيه على التقدم وهؤلاء كانوا يخشون الاستعباد لمجرد أنهم بعيدون عن حدود قبائلهم ولو قبض عليهم العدو فسوف يباعون كرقيق، وكان شكل (بارك) الأبيض وشكل جسمه يسبب التخوف أو الاستغراب أينما حل، ففي (بينوان) كان الناس الذين يردون الماء من الآبار يرمون دلاهم، وأولئك الذين في الخيام يستعدون بخيولهم، بينما الرجال والنساء والأطفال يركضون إليه، وعندما قبض عليه وحقق معه وهدد كانوا يخلعون ثيابه للتأكد من بياض جسمه كما أنهم يعدّون أصابع رجليه، وذات مرة أراد الحاكم المحلي أن يختبر مقدار احترامه للإسلام، فقدم له لحم خنزير بري مشوي، ولو كان قد أكله فإن ذلك كان ربما سيؤدي إلى قتله، ولقد كان في الواقع سجينًا يتعرض للتعذيب وكان أغلب الذين يعذبونه من المغاربة وقد واجه أبلغ عمل همجي يمكن أن يقع على وجه الأرض، وحدث أنهم سلبوا منه كل شيء غير شيء واحد وهو (البوصلة) التي كانت معه حيث خافوا من أنها قد تكون شيئًا سحريًا، وفي محاكمته أمام زعيم القبيلة استشار الزعيم رجاله الكبار في السن ما إذا يستحق الموت أو أن تقطع يمناه أو أن

تسمل عيناه، وحتى عندما كان مريضًا فإن أولئك الذين كانوا يعذبونه استمروا فى ذلك بانتظام، لكنه على أى حال فى النهاية أفرج عنه بعفو من الملكة المحلية، ومن هناك باشر رحلته عبر أراض تجوب فيها السباع، ومن هناك وصل النيجر وهنا فى (سيقو) لم يجد (بارك) ترحيبًا من الحكام المحليين، ولذلك قرر أن يعود إلى الساحل، وقد لاحظ أن زعيم القبيلة عندما سمع الحديث عن النهر أى هدف رحلة (بارك) استفهم قائلاً: ألا توجد فى بلادكم أنهار؟ أوليس الأنهار مثل بعضها؟ وفى عودته أتعبته المستنقعات والحيوانات المتوحشة والمرض الذى أعاق كثيرًا مسيرته، وأخيرًا وصل الساحل فى ملابس ممزقة، أما كتابه فقد نشر سنة ١٧٩٩م، وكتب مقدمته الميجر (جيمس ريفيل) الجغرافى المشهور خلال تلك الفترة، كتب يقول: فى العموم إنه من النادر الشك فى أن نهر النيجر ينتهى فى بحيرات بالقسم الشرقى من إفريقيا، وهكذا فإن البحيرات يظهر أنها تقع فى (واقارا) وغانا، ولقد كانت ترجمة (رينيل) الخاطئة نتيجة لتراجم أخرى خاطئة؛ إذ لم يكن معروفًا وقتذاك من أى بلد يأتى الذهب لا من (وانقارا) ولا من مملكة الممالك (غانا) التى اختفت منذ زمان، ولكن فصل نهر النيجر عن السنغال وجامبيا بسبب قوة اندفاعه فى مراحله السابقة كان خطوة فى الاتجاه الصحيح، وكان (رينيل) يرى أن (وانقارا) و(غانا) تمثلان حوض شمال إفريقيا فى حين أن مياه نهر النيجر تتوسع كثيرًا فى بحيرات أرضية تتبخر منها، ولم تكن هذه النظرية فى كليتها جديدة على أنها كانت مقبولة فى نطاق واسع وكان (ليو أفريكانو) بقوله: إن (وانقارا) كلمة من لغة الهاوسا وقد حدد لها مكانا مخصصًا شوش به على الجغرافيين لعدة قرون، وكان قد عرف أن نهر النيجر يصب من أو عبر (وانقارا)، وفى مذكرات (رينيل) أن أحد المؤرخين -يعتقد أنه الإدريسى- قال: إن (وانقارا وليو) هما مكان واحد وأنه وافق على الاعتقاد السائد أن مدينة الهاوسا فى (كانو) هى غانا القديمة، وكتب (رينيل) مؤكدًا أن غانا فى القرن الخامس عشر كانت الأعظم فى وسط إفريقيا، وأصبحت الآن مقاطعة فى (كاسينا)، وبينما كان (بارك) يواجه الصعوبات عند الساحل غادر شاب ألمانى يدعى (فريدريك هونيمان) القاهرة فى أبريل ١٨٠٠م،

جاءت منه معلومات بعد المغادرة أنه وصل مرزق فى منطقة فزان، وعلم فيما بعد أنه وصل النيجر فى بلاد النوبى حيث مات، وأما مذكراته فلم تر النور، وقامت الحكومة البريطانية على خجل بعد كثير من محاولات المؤسسات الخاصة بتمويل رحلة تقوم بالإبحار عبر نهر النيجر إلى البحيرات المتبخرة، وقرر (بارك) أن يقود الرحلة بحيث يسير إلى (سيقو) وهناك يقوم بصنع قارب يبحر به نازلاً مع النهر عبر (كاتسينا) فى أرض الهاوسا والنوبى إلى مملكة (الوانقارا)، وإذا ما انتهى النهر هناك فإنه إما سيعود صعوداً مع النهر وعبر جامبيا أو أن يعود عبر الصحراء أو عبر النيل، أو أن يبحث عن طريق جديد يؤدى به إلى خليج بينين، والحقيقة أن (بارك) نفسه لم يتوقع أن يقوم بأى من هذه الأشياء؛ لأنه كان مقتنعًا بأن النيجر والكونغو هما واحد ونهرهما واحد، وهذا خطأ لكنه تخمين أكثر ذكاء من فكرة (رينيل) كما كان يعتقد أنه سيصل الأطلنطى بقاربه ذاك، ولقد أمرت الحكومة (بارك) بأن يستوضح حالة التجارة وأن يعمل ما نسميه الآن (بحث سوقى)، وكان (بارك) مصحوبًا بزميلين آخرين وخمسة من صناع القوارب الذين يتوقع أن يصنعوا له القارب الذى يريده، وأن ينتقل من (قورى) وما بعدها مع اثنين من الملاحين وضابط من الجيش وخمسة وثلاثين جنديًا يتزود بهم من حامية (قورى) وعدا دليل واحد من قبيلة المادينقو لا أحد من المحليين يلحق بالقافلة الاستكشافية، وهكذا غادر (بارك) لندن فى يناير ١٨٠٥م مصحوبًا برفاق وبالمساعدة الحكومية، وكان سعيداً أنه سيسلك طريقًا مر بها سابقًا، ولكن الرحلة واجهت كوارث فقد حدث أن الجنود أصيبوا بمرض الحمى والدوسنتاريا وماتوا، وبذلك خيم اليأس على كل الفريق وكان (بارك) بعزيمته يدفع الجميع إلى التقدم للنجاة من الموت وأرسل أمامه أخبارا إلى (سيقو) ليبلغ (مونسونق) عن احتمال وصوله وليستفسر ما إذا كان نهر النيجر صالحًا للملاحة مؤكدا أنه فى هذه الحالة ستصل البضائع الأوربية إلى (سيقو) وتكون أكثر رخصًا مما كانت عليه بغير الوسطاء، وذكر أن الفريق يرغب فى صنع القارب بحيث يمكنه أن يصعد مع النهر، وبينما كان الرد منتظراً مات اثنان آخران من الفريق، وحينما كان يجرى الاستعداد

للتقدم فقد (بارك) اثنان آخران من رجاله أحدهما نائبه (الدكتور أندرسون)، ولقد مات كل الفنيين المرافقين الذين أوكلت اليهم مهمة صنع القارب قبل أن يصلوا إلى (بامباكو)، أما بالنسبة للجنود فقد دفن منهم فى الطريق ثلاثة أرباعهم وفى منطقة (ساسندنق) حيث انتهى عمل القارب، أخيراً أرسل (بارك) فى نوفمبر سنة ١٨٠٥م آخر رسالة وهى تقول: إنى لآسف أن أقول: إن الأربعة وأربعين أوربيًا الذين غادروا جامبيا فى صحة جيدة بقى منهم الآن خمسة رجال فقط أحياء، ولكن رغم أن بقية الأوربيين الذين معى قد يموتون وأنا شخصيا نصف ميت، فسوف أواظب على السير، وإذا لم أنجح فى الوصول إلى هدف رحلتى فإننى على الأقل سوف أموت فى النيجر، وهكذا فقد أوصله قدره إلى ما قال، فمات هناك وكانت رسالته تلك وآخر خطاب إلى زوجته قد حملهما إلى الساحل صديقه المخلص ودليله المدعو (ماندينقو) وهو الذى أرسل فيما بعد ليكمل المهمة التى بدأها (بارك)، وفى التقصى والتحقيق اللاحق وجد أن (بارك) ورفاقه الثلاثة الأحياء قد أبحروا هبوطًا فى نهر النيجر لمسافة ألف ميل حيث وصلوا شلالات (باصا) وفى موقف تاريخى عندما وجدوا جوانب النهر مزدحمة بالمواطنين الغاضبين، ولم يتمكنوا من النزول على الأرض، وربما اتضح لهم أن هذا القارب لن يصمد أمام المياه الهائجة واصلوا الإبحار هبوطًا إلى أن هلكوا، ولقد اعتقد بعض الذين كتبوا فيما بعد أن توحش المواطنين المسلحين على جوانب النهر كان يمثل حركة إيماء بإنذار للرجال البيض بشأن وجهتهم، ومن هنا فإنه لابد من النظر إلى سلوك أولئك المواطنين خلال السنوات التالية للحكم على أسباب ذلك الحدث، وفى هذه الجهود العظيمة كان (ماندينقو) الوحيد الذى عاش برغم رحلة الإبحار الطويلة ومع الأسف لم يبق أى تسجيل لهذا الجزء من الرحلة، ومازال الأمر غير معروف أى السؤال الحائر الذى يقول: أين ينتهى نهر النيجر؟ ومن أجل أن يجمع هذا الجهد المأساوى الضائع فقد اعتقد فى أوربا أن (باصا) تبعد عن تومبوكو بثمانين ميلاً، والواقع أن المسافة ثمانمائة ميل هبوطًا، ولاحقًا لم يعرف أن حظ (بارك) السيئ فى رحلته قد أوضح احتمال أن يكون النهر يصب فى البحر وليس فى البحيرات

الداخليـة، ولكن الاعتقـاد تعزز بأن (بارك) كـان على صواب عندمـا قال: إن النيـجر والكونغـو هما واحد، وفى سنة ١٨١٦م أرسلـت الحكومة البريطـانية رسميًا بعـثتين استكشافيتين لمعرفة اتصال النيـجر بالكونغو بواسطة الإبحار صعودًا فى نهر الكونغو، ومحـاولة الإبحار هبـوطًا فى نهر الـنيجر وحـدث أن البعـثتين توصلتـا لنهاية مـبكرة وسريعة، وبعد سـنتين قاد القبطان (ف.ج. ليون) بعثة من طرابلس، لكنـها لم تتجاوز فـزان ومع ذلك أثبتت أن نـهر النيـجر يـصب فى النيل من جـهة الجنوب من (دنقـلا) وكان من الصعب اجتياز ذلك الخط الطويل الذى تتضـاءل أمامه الشجاعة ومحدودية نجاح الـبطولة، وفى سنة ١٨٢١م قامت الحكومـة البريطانـية بإرسـال بعثة أخـرى من طرابلس يقودها الميجر (ديكسون دينهام) يسـاعده الضابط البحرى (هوق كلابيرتون) والدكتور (والتر أودنى)، وقد عطلت هذه البعثـة مواقف معادية فى مرزق لعدة شهور لكنهم أخـيـرًا تمكنوا من المغـادرة فى اتجاه الجنوب، حـيث وصلوا بحـيـرة تشاد وقـد استقبلوا هناك من طرف الشيخ (الكانيمى) الذى أرسل إلى الملك جورج الرابع قائلاً: إنه يقبل أربعة أو خـمسة تجار لا أكثر، وحـدث أن رجلاً يدعى (تايرويت) كان يرافق البـعثـة خـلال مايـو ١٨٢٤م ترك ليكون قنصـلاً فى (كوكـا) وهى عـاصمـة الشـيخ (الكانيمى) وكـان (ديرهام) الذى اعتقـد أن نهر النيجـر وتشاد كانا جزءًا من مـجرى واحد قد انبهر باكتشاف بحيرة عظيمة أكبر وقتئذ مما هى عليه الآن، ولكن طالما أنه لا يوجد نهـر حقيقى يتـدفق منها أو إليها، فـإن الاعتقاد كـان قد صار احتمـالاً، وكانت هناك فكرة أخـرى تقول: إن النهـر يجرى تحت الأرض، أمـا (أدنى وكلبيـرتون) فـقد اتجـها غـربا ليسـتكشفـا الهاوسـا ويبـحثـا عن النهر هناك فى حين أن (دورهام) ركـز اهتمامه على بورنو ولقد توفى (ادنى) فى (مورمـور) قرب (كاتاتوم) وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، بينمـا وصل (كلبيـرتون) إلى (كانو) حـيث قيل له: إن نهـر النيجـر الذى يعـرف باسم (كوورا) هو الآن فى دورة انـخفـاضه ويتـدفق فى اتجـاه البحـر من مكان يسمى (راكا) الذى يقع فى أرض (يوروبا) ويستعـمله أصحاب السفن الأوربيون، وأن ذلك على مسافـة شهر سيـرًا، ولكن المعلومـات من النـاس كانت قليـلـة ، إذ اعتقدوا

أن (كليبرتون) كـان يتجسس لمعرفة الأرض من أجل الغزو، وذلك مما يفسر لماذا قيل له: إن النهر يصب في بحر تستعمله سفن الأوربيين وذاك شيء يمكن أن يكون حقيقة، ويمكن أن يكون غير حقيقي، والواقع أن دلتا النيجر ليس في أرض (يوروبا) وليس هناك مكان يسمى (راكا) وتوجه (كليبرتون) غربًا إلى (سوكوتو) وهي عاصمة (محمد بيللو) الملقب (بساركين مسلم) أي المسلم المتدين الذي سمع عن البريطانيين، وقد أبلغ (كليبرتون) أنه يرغب في التجارة معهم وطلب تعيين قنصل بريطاني وإرسال طبيب إلى (سوكوتو) ووعد كليبرتون بالمساعدة بعد أن يصل (ياوري ونوبي) بحيث يمكنه دراسة النيجر، ولكن العرب المقيمين وهم الأعداء الطبيعيون للأوربيين هناك والذين يسعون لاستغلال التجارة عبر الأرض مع إفريقيا الأطلنطية استطاعوا أن يقنعوا ابن بيللو المدعو (عثمان دان فوديو) بأن يلغي ما تعهد به والده، ومن جهة أخرى كان إصرار (كليبرتون) المستمر على أن يكون ثمن اتفاق الصداقة مع بريطانيا هو الموافقة على إنهاء تجارة الرقيق لكن هذا الإصرار جعل (محمد بيللو) يقف ضد كليبرتون حيث إن تجارة الرقيق وقتئذ كانت الحرفة الأساسية لقبائل الفولاني ورغبة من كليبرتون في أن يعرف مقدار القبول أو الرفض من جانب القبائل في غرب السودان حاول أن يستمر عبر تشاد، ولكن أدرك أنه لا يستطيع التقدم وهكذا عاد إلى بورنو حيث وجد (دينهام) وتوجها معًا شمالاً عائدين عبر الصحراء إلى إنجلترا، وكان (كليبرتون) متأثرًا أكثر من (دينهام) بنتائج الرحلة على الرغم من أن (دينهام) كان قائد البعثة فقد كان رجلاً إنجليزيًا تقليديًا شجاعته واحتماله في العادة يعتمدان على التأبه حيث جاء كتابه مليئًا بعبارات غير مهذبة عن المشاكل التي وقع فيها أو واجهته فمثلاً حدث أنه رفض أن يرفع يده بالتحية العسكرية لزعيم بورنو وهي حادثة جعلت رحلته مثيرة وعدائية، لكنه مع ذلك قرر أن يصحب القوات البورنية في حملة حربية، وقد رأى الحراب السامة القاتلة أمام عينيه، والسهام المرشوقة في الوجوه أثناء القتال، وفي تلك الحملة أسر مع البورنيين وفي الأسر عذّب ونزعت ملابسه إلا أنه استطاع أن يهرب عاريًا عبر الغابات مواجهًا الموت بسبب الأفاعي لولا

أن أنقذه أحـد البورونيين الذى تصـادف مروره وهو يمتطى فـرسًا فنقله إلى (كـوكا)، وبقى هناك خلال فصل الشتاء يشارك البورونيين فى حلقات التصارع والرقص وصيد الجامـوس فى الوقت الذى كان فيه ينتظر رفـيقه (كليـبرتون)، ولقد استكشف بحـيرة تشاد بالكامل، وبعد (دينهام وكلييرتـون) صارت مشكلة نهر النيجر على وشك الحل حـيث إن تلك المشكلة الكبـيـرة والطويلة بشـأن النهـر ماتزال قـائمـة ولم يسـتكشف تفصيـلاً، وهذا النهر يطلق عليه المهتمـون بالجغرافيا كلمـة لاتينية تعنى (الأسود) وفى الواقع أن له عديد من الأسماء؛ لأنه يمر عبر أمم إفريقية مختلفة ومازال هناك كثير من الغموض حول مجرى هذا النهر، ولا توجد صورة واضحة حول ما إذا كان ينتهى فى وسط إفريقيا أو شرق إفـريقيا، أو ما إذا كان واحداً من المصبّات علـى شواطئ إفريقيا الأطلنطية، وفى سنة ١٨٢٥م كـان كليبرتون قد أرسل مـرة أخرى للبحث التفـصيلى عن نهر النيجر وجاء إرساله هذه المرة عبر الجانب الأطلنطى، وكان عليه أن يستكشف مجـرى النهر الأسـفل، ومن المأمول أن يجد فـرصة لتنفـيذ الاتفاقـية التى وقع عليـها (بيللو) الخـاصـة بتـحـريم تجارة الرقـيق، وكـان هذه المرة مع (كليـبـرتون) أربعـة من الأوربيين ولم يتمكن أحد من إقناع خـادم هذا السيد الأرستوقراطى المدعـو (ريتشارد لندر) بحـيث لا يكون أحـد هؤلاء الذين يرافـقـون كليـبـرتون والذين يغـادرون إلى المجهول، والحقيقة أن نتيجة هذا العـمل سيكون عالم العلوم والسياسة والتجارة مدينًا له بالكثير حـيث كانت تلك الموانئ التى أشار إليها كل من (بيللو وراكـا وفوندا) غير معـروفة لأهل الساحل والملاحين، ولهذا بـدأت المجموعة رحلتـها عبر الصـحـراء من (باداقرى) غيـر أن أحد أفراد المجموعـة قد اعتبر مـيتًا لأنه نزل فى (ويدا) من أجل أن يقوم بزيارة اسـتطلاعية واختـفت أخبـاره منذئذ، وكان اثنان قد مـاتا فى بداية الرحلة مبـاشرة وهكـذا لم يبق من المجمـوعة إلا (كليـبرتون ولندر) وحـدث أن الرجلين فى سفرهما وصلا النهر عند منطقة (ويسا) عبر (أويو)، وهناك عرفا حقيقة موت (بارك) المستكشف السـابق، وكانت رحلتهـما عبر الغـابات المطيرة قد أنهكتـهما وخصـوصًا بالنسبة لكيبرتون على الرغم من أن (كانو وسوكوتو) كانتا تخلوان من الأمراض لكن (كليبرتون) ظل معلولاً.

وفى (سوكوتو) استقبلا من المحليين ببرود ظاهر؛ إذ كانت أخبار قد سبقتهما تقول: إن البريطانيين يخططون لإسقاط حكم الفولانى، وحالة الريبة هذه والشك قد أدت إلى موت (كليبرتون) فى أبريل سنة ١٨٢٧م، وهو فى عمر يناهز الستة والعشرين سنة وكان رفيقه (لندر) أيضًا مريضًا وليس لديه باق من مال أو معدات، وبعد موت كليبرتون أخذ طريقه إلى (كانو) متجهًا فى طريق يمر بين (النيجر وبينو) إذ كان يأمل أن يبحر هابطًا عبر نهر النيجر إلى خليج بينين؛ لأنه يعتقد مثل رفيقه الذى مات (كليبرتون) أن النهر ينتهى هناك، ولكن حدث فى مكان يسمى (دونرورا) أن سد طريقه أناس من قبيلة معادية، وكان عليه فى هذه الحالة أن يعود من حيث أتى فوصل أخيرًا عبر الصحراء إلى (باداقرى)، وهناك فوجئ بأنه أمام أعظم اكتشاف جغرافى فى هذا الزمن وسعد بذلك؛ لأنه يكافئ ما عاناه من تعب، ومن (باداقرى) ركب سفينة متجهًا إلى إنجلترا مزمعًا أنه لابد أن يعود إلى إفريقيا من أجل أن يكمل عمله وعندما وصل لم يجد كثير اهتمام، وقد استغل بشكل سيئ من حكومة ذلك الوقت، واعتمادًا على نفسه تجهز ليغادر إلى الساحل مصحوبًا هذه المرة بأخيه (جون) بعد أن حصل على وعد بأن والدتهما ستحصل على معونة قدرها خمسة وعشرين جنيهًا كل ثلاثة أشهر طالما كانا بعيدين، ثم إن مبلغ مائة جنيه ستدفع لهما إذا ما عادا، وحدث أن الشابين اللذين تجاوزا أخيرًا سن المراهقة تمكنا من الوصول إلى (بوسا) حيث يوجد الأمير الذى مازال يعلق على ملابسه الفخمة ميدالية أعطاها لسلفه ريتشارد لندر، ومن هناك اتجها بقاربين صغيرين وفى مناطق قريبة من النهر كان هذان الشابان أول أجنبيين تمكنا من مشاهدة الطقوس الدينية التى تؤديها القبائل النهرية فى النيجر الأسفل، ولكن كلما اقتربا من البحر يزداد موقف الناس العدائى ضدهما حيث كانت المناطق فى فوضى بسبب حرب تجارة الرقيق، وهنا قبض عليهما محاربو (الآبو) إذ إنهما عندما توقفا بقاربيهما أحاط بهما المقاتلون الذين كانوا أيضًا بقواربهم، وبذلك أصبحا معتقلين وقد استولى المحاربون على كل ما لديهما وكان المهاجمون يرتدون ملابس بعضها أوربى مع قبعات ويتكلمون لغة (البيديجين)، مما

أعطى الشابين أملاً فى النجاة، وعرفا أنهما بالقرب من الأطلنطى وفى قرية بها أمير تسمى (داكتا) فى منطقة (براس) أفرج عنهما ومنحهما الأمير مبلغا قدره ثلاثمائة دولار كدين يدفعانه فيما بعد،وإذ وجد الشابان سفينة بريطانية اعتقدا أن القبطان سيوافق على دفع المبلغ للأمير وعندما طلبا منه ذلك رفض فى البداية وعندما مرض هذا القبطان ويدعى (ليك) ومات نصف بحارة السفينة بمرض الحمى غيّر موقفه من الشابين، ووعد بأن يدفع المبلغ للأمير لكنه خلف وعده وأبحر بسفينته، وكان الشابان قد نجيا من الموت وحققا نجاحًا كان له أثر طيب أثناء رحلتهما وقررا أن يعودا إلى إنجلترا.

وفى هذا الوقت كان أعقد لغز فى جغرافية إفريقيا لم يحل الشيء الذى احتاج لنصف قرن قبل أن يتمكن (هنرى ستانلى) من حله وكانت رحلته ممولة من جريدة (أخبار نيويورك) وبعد ذلك تتابعت اكتشافات أخرى، ففى سنة ١٨١٨م قام المستكشف الفرنسى (جورج موللين) بتتبع مجرى أنهار (السنغال وجامبيا وريوقراندى) حتى وصل مصادرها، ثم إن الميجر (جوردن لايتون) كان أول أوربى منذ عهد المرتدين العاملين فى قوات مراكش يصل تومبوكتو التى كان موقعها لغزًا جغرافيًا آخر حيث سافر (لايتون) من طرابلس عبر غدامس وبعدها وصل المدينة المحرمة فى أغسطس سنة ١٨٢٦م وفى طريقه أصيب بجرح خطير إثر مواجهة مع التوارق، وفى بداية طريق عودته من تلك الرحلة قتله حاملو معداته، ومع الأسف اختفت ملاحظاته معه، وخلال السنة التالية قام مواطن فرنسى من أصل متواضع يدعى (رينى سايلى) برحلة من (ريو نونيس) رغبة فى منافسة (لايتون) فى رحلته وكان متنكرًا فى شكل ولباس عربى وفى رحلته كان (جينى) يجدّف هبوطا عبر نهر النيجر إلى تومبوكتو، واستغرقت رحلته سنة كاملة، ثم عاد بطريق الصحراء عبر (آراوان وتاغازا) إلى (تافيليلت) مع قافلة تتكون من جمال تنقل العبيد والعاج والذهب والصمغ وريش النعام وأقمشة (كانو)، وكانت رحلة الصحراء عصيبة متعبة.

لكن القافلة فى النهاية وصلت فاس حيث اختفى الشاب فى بيت القنصل الفرنسى إلى أن وجد طريقا إلى فرنسا، ثم قام (ريتشارد لايتون) بثالث رحلة إلى

غرب إفريقيا سنة ١٨٣٢م، وهذه المرة إلى ما يمكن اعتباره واجبًا أقل صعوبة من رحلتيه السابقتين الماضيتين يرافقه اثنان من الأصدقاء القادرين أحدهما يدعى (ماك قريقورى ليرد) والثانى يدعى (ر. ك . أولد فيلد)، وبعثة كبيرة تتكون من أكثر من مائة شخص، وكان عليه أن يبحر صعوداً بدلا من الهبوط عبر نهر النيجر على أن الحروب والأمراض جعلت من رحلة النهر كابوسًا وكان (ليرد) مصابًا بمرض شديد وقد توقف المرافقون انتظاراً لما يحدث له فى حين تابع (أولفيلد ولاندر) تقدمهما للاستكشاف وتخطيط منطقة (بينو) وفى طريقهما واجها قبائل معادية حيث قتل (لاندر) فى (هياما) متأثراً بجراح من ضربة رمح.

وعند منتصف القرن كان غرب إفريقيا يواجه ربما أكبر تحرك، بل من المؤكد أنه جيل كامل من المستكشفين العظام مثل الألمانى (هينريخ بارث) والبعثة البريطانية الرسمية بقيادة (جيمس ريتشارسون) ويشمل مشروع (بارث) ورفيقه الدكتور (هانس أوفرويق) اتفاقيات تبحث مع الزعماء فى السودان الغربى، وفى منتصف الطريق عبر الصحراء تفرق ثلاثتهم على أمل أن يلتقوا مرة ثانية، (فبارث) اتجه مباشرة ليدرس أغاديس قبل إن يواصل جنوبًا إلى الهاوسا بحيث يلتقى مع (اوفرويق) ويزورا (كاتسينا وكانو)، وكان فى هذا الوقت قد نفد ما مع (بارث) من مال، لكن أمير (قرودجينقلى) وافق على أن يكفله ورفيقه (اوفرويق) إلى أن يصلا (بورنو) وفى الطريق علم (بارث) بموت رفيقهما الثالث (ريتشاردسون)، ولهذا صار هو المسئول عن رحلة الاستكشاف، ولم يكن سلطان بورنو غير راغب فى التجارة مع بريطانيا؛ لأنه كان فى حاجة لفوائد التعامل بحيث يمكنه شراء الأسلحة والمعدات من أجل أن يصطاد العبيد، ويبيعهم لقوى أخرى، لكنه مع ذلك كان يشك فى سياسة بريطانيا الجديدة القاضية بتحريم تجارة الرقيق، وهكذا فإن رحلة التجارة هذه لم توفق البعثة فى تحقيق شيء منها عند بورنو، أما (بارث) فقد اتجه جنوبًا ليستكشف (بينو) عبر (كوكا وآداما و وكانوم وماندارا وباقارمى) ووصلها من جهة (يولا) لكنه وجد قبيلة الفولانى هناك عدوانية فتراجع مسرعًا وخلال تراجعه عبر (بينى) فى اتجاه الشمال اكتشف بحيرة تشاد، وشاهد لأول

مرة تجارة الرقيق فأزعجه ذلك، وكان في نيته أن يتجه شرقا إلى النيل، ولكن نفاد ما لديه من مال جعله يرجع إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا.

ثم وعلى غير توقع أبلغ بأن هناك رسائل من اللورد (بالميرستون) وزير خارجية بريطانيا ومعها كمية من الدولارات، وأمر من وزير الخارجية إلى (بارث واوفريق) بأن يعودا لزيارة تومبوكتو وتلك فرصة تهيأت ذات مرة لهذا المستكشف الألماني، وفي هذه الرحلة حدث ما لم يكن متوقعًا وكان حدثًا مروعًا حيث مات (واوفريق)، ولهذا فإن (بارث) استمر بلا رفيقه ومعه دليل واحد فقط، وعبر (زيندير وكاتسينا وكانو وسوكوتو وقواندو) وفي أثناء هذه السفرة اكتشف النسخة الوحيدة الباقية من كتاب (تاريخ السودان)، وعبر النيجر من خلال منطقة (ساي) ليجد نفسه في أرض تشتعل فيها الحروب بين التوارق والعرب من جانب، ومن الجانب الآخر من أطلق عليهم (بوفيل كروسبي) اسم الفولاني المتعصبين، وهكذا سار في طريق صعب وخطر في اتجاه الشمال إلى أن وصل تومبوكتو متخفيًا بلباس عربي وكان في غاية المرض وهنا كشفت شخصيته وصار معرضًا للقصاص، ولكن من حسن حظه أن بعضًا من تقاليد تومبوكتو ماتزال باقية ذلك أنه من خلال معرفته بالإسلام بجانب دفاعه الكبير عن عقيدته أثار إعجاب المثقفين وحدث أن الشيخ البكاي زعيم عرب مدينة (الكونتا) تعهد بحمايته، وكان التوارق والعرب يسيطرون على مدينة (الكونتا) على الرغم من أن سيطرتهم كانت في ذات الوقت يتنازعها معهم الفولاني، وهكذا فإن البكاي وحده الذي أنقذ حياة (بارث) برغم الضغط الشديد الذي مارسه الفولانيون بما في ذلك إنهاء النزاع في (الكونتا) إذا ما سلم لهم (بارث)، وأثناء وجود (بارث) في تومبوكتو ورغم جراحه وحالته غير الطبيعية فقد جمع معلومات عنها أكثر مما كان فعل أي رحالة قبله أو أثناء وجوده، ثم إنه في (كونتا) قرر أن يهرب بحيث يعفي البكاي من المسئولية عليه وعلى حياته، وبعد ست سنوات من ذلك الوقت وعندما كان (التوكودور) بزعامة الحاج عمر على أبواب تومبوكتو أرسل البكاي رسائل عبر

الصحراء يطلب من الملكة فيكتوريا[1] المساعدة ولم يجد ذلك الطلب استجابة من الملكة البريطانية، ولكن بعد وقت لاحق قامت الإدارة الفرنسية فى السودان بإقامة نصب تذكارى (لبارث) تذكيراً للناس بشجاعته حيث كان (بارث) قد عاد إلى الهاوسا واستراح لبعض الوقت، ثم واصل إلى بورنو عبر الصحراء ووصل لندن فى ديسمبر سنة ١٨٥٥م بعد خمس سنوات من الترحال على القدمين أو بالقوارب والجمال، حيث غطى مساحة أكثر من أى رحالة أجنبى أو محلى فى النصف الشمالى من إفريقيا، وفى لندن فإن (بارث كما لندر) لم يلاق كثيراً من التكريم غير أن رئيس الوزراء (بالميرستون) صافحه، وكذلك اللورد (كلاريندون) ومنح ميدالية من الجمعية الجغرافية ومبلغ من مصروفات الرحلة لم تكن دفعت، لم ينتبه الرأى العام لإفريقيا فى وقت (كلابيرتون ولاندر) وبعد أن ماتا عاد (بارث) إلى لندن، ولم تذكر الصحافة

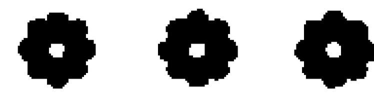
(١) فكتوريا ولدت سنة (١٨١٩- ١٩٠١) وهى ملكة إنجلترا (١٨٧٣-١٩٠١) وصارت إمبراطورة الهند سنة ١٨٧٦م، خلفت عمها (وليان الرابع) وبارتقائها انتهت العلاقة بين عرش بريطانيا هانوفر، وكان اللورد (بلبرستون) لأوب رؤساء وزاراتها وكان صديقها ومستشارها الخاص، تزوجت سنة ١٨٤٠ م ابن خالها الأمير (البرت) الذى أحبته وأنجبت منه تسعة أبناء وبنات، ربط زواجهما الأسرة المالكة البريطانية بالأسر المالكة فى روسيا وألمانيا واليونان والدنمارك ورومانيا، وفى سنة ١٨٤٠م توترت العلاقات بين إنجلترا ومحمد على الكبير زعيم مصر بسبب سياسة بلمرستون العدوانية ضد مصر عقب حرب الشام الثانية، ولقد أدت مصالح بريطانيا التجارية إلى نشوب ما عرف بحرب الأفيون مع الصين سنة ١٨٤٠ م، وأرغمت الملكة فكتوريا وزير خارجيتها بلمرستون على الاستقالة فى ديسمبر سنة ١٨٥١م؛ لأنه كان يهمل رأيها فى الشئون الخارجية الهامة، أيدت حرب القرم سنوات ١٨٥٤- ١٨٥٦م، عند وفاة زوجها الأمير ألبرت سنة ١٨٦٠م، اعتزلت الحياة الاجتماعية ثلاث سنوات، ولقد تناوب على رئاسة الوزراء فى عهدها كل من (وليم جلادستون زعيم حزب الأحرار) و(بنيامين دزرائيلى زعيم حزب المحافظين)، وإذ امتد حكمها طويلاً، فقد بلغت بريطانيا أوج رخائها وتوسعها الاستعمارى، أدت قوانين الإصلاح البرلمانى (١٨٦٧- ١٨٨٤) إلى كثير من الإصلاحات السياسية والتشريعات الاقتصادية التى أزالت المفاسد الاجتماعية التى كانت تعانيها الطبقة الكادحة، لقب إمبراطورة الهند صنعه لها (دزرائيلى) سنة ١٨٧٦م، احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م، وفى سنوات فكتوريا الأخيرة حدثت حرب البوير (١٨٩٩- ١٩٠٢) التى انتهت بضم بريطانيا للترنسفال وأورانج إلى إمبراطوريتها التى كانت لا تغرب عنها الشمس، والآن صارت تابعة للولايات المتحدة الأمريكية وتأتمر بأمرها. المترجم .

عنه شيئًا فى ذلك الوقت، ثم نشرت ثلاثة أجزاء من كتابه وعنوانه: (رحلات الاستكشاف فى شمال ووسط إفريقيا)، لكن لم يجد الكتاب أى رواج فقد طبع منه ألفان ومائتان وخمسون نسخة فقط بيع منها بصعوبة ألف نسخة، وكان هذا الكتاب بأجزائه يمثل موسوعة من التفاصيل التاريخية والجغرافية والإثنية، وكذلك التجارية والسياسية الهامة عن بلدان مقسّمة إلى أجزاء ولغات وأمم، فيها أسرع وسيلة للسفر تكون على ظهور الجمال.

وكانت حياة المؤلف فى خطر دائم بالحروب أو الأمراض أو الغرق، وكانت أجزاء الكتاب توضح بشكل دقيق ليس فقط تلك المساحة المجهولة من وسط النيجر وبينو العليا وإنما المدن والقرى والجبال والأنهار الصغيرة تلك التى لم يسمع عنها من قبل، وهنا فإن (بارث) للأفارقة المعاصرين يسبق جميع معاصريه من المستكشفين، وكتبه تشمل معلومات أكثر كثيراً من كتاب (بورتن وستانلى وبارك ولاندر معًا)، وهذا بالطبع لا يقلل من قيمة وجهود رجال ساهموا ربما أقل ومع ذلك تضمنت جهودهم شجاعة فائقة ولكن تميز (بارث) يبقى فى الأذهان.

وفى سنة ١٨٦٣م كان (ريتشارد بورتن) المعروف بعمله فى شرق إفريقيا قد كلف من طرف وزير الخارجية البريطانية اللورد (روسيل) على رأس بعثة إلى الملك (جاليلى) ملك داهومى الذى كان يحكم (كانا)، وكانت البعثة لغرض تشجيع التجارة القانونية ومنع تجارة الرقيق على أن هذه البعثة لم تحقق كل النجاح، ولكن ملاحظات (بورتن) عن رحلته كانت مفيدة، وقد وصف الملك ومحظيوه الذين يقدمون له (المبصقة الذهبية) عندما يبصق وينطرحون عندما يعطس، ويدعون له بالصحة عندما يأكل، وعندما كتب الرحالة ملاحظاته القيمة تلك كان يرافق الملك فى ذهابه إلى عاصمته (أبومى)، حيث كان يشاهد ويسجل بعض العادات الشنيعة، لكنه لم يتمكن من ولم يسمح له بمشاهدة المذابح التى تحدث مع الرجال والنساء لأبسط الأسباب، واستثناء لجميع مستكشفى غرب إفريقيا كانت هناك امرأة واحدة تدعى (مارى كينقزلى) خلال الفترة الأخيرة بدأت رحلاتها أى فى سنة ١٨٩٣م، وهى

مخلوق غريب الأطوار أرادت أن تكون لكل الرجال (جنود وبحارة وزعماء وحمّالون)، وكانت أكثر إثارة وتسلية تجاربها التي ربما حدثت في (أوقووى) وفي النهر الرئيسي في الجابون، ذلك أنها وقعت في مصيدة فيلة وواجهت غوريلات ومتمردين وعايشت ثلاثة إنجازات كبيرة في تلك المنطقة وذلك الوقت .



الفصل الثامن

إلغاء سيراليون وليبيريا

الفصل الثامن

إلغاء سيراليون وليبيريا

إن التجارة والسياسة خلال أغلب سنوات القرن التاسع عشر فى إفريقيا أصبحت فى موضع ثانوى كنتيجة لتحريم تجارة الرقيق التى فرضتها أوربا تدريجيًا فى السنوات اللاحقة لمبادرات بريطانيا العديدة، كما أن الحملة الحقيقية ضد الرقيق فى أوربا والتى كانت جزئيًا مسئولية تحريمها بكل بساطة الجوانب الإنسانية، ومن المفاجئ كون تجارة الرقيق لم تصدم مشاعر الإنسان العادى كما هى الآن، ولقد ذكر كاتب من غرب إفريقيا يقول: إن الرجال والنساء الذين تعودوا على مشاهدة زملائهم ينفذ فيهم الحكم على إثر سرقة بسيطة أو صغيرة يساقون إلى السجون نظير عدم دفع دين أو يجبرون على العمل فى البحرية وينقلون جماعات للتوطين فى المستعمرات، فإنه بالتأكيد لا يمكن أن يزعجهم ما يتعلق بالإجراء غير القانونى وغير الإنسانى وغير العادل الذى يتعلق بتجارة الرقيق والعبودية الزراعية، وفى الواقع فإن الأوربيين لم يروا أو لم يعرفوا شيئًا غير تجارة الرقيق الذى لم يعد له احتياج فى أوربا أى عمل الرقيق الإفريقى، على الرغم من أن السفن والذين يشرفون على تجارة الرقيق قد بدأوا وأنهوا حمولاتهم فى الموانئ الأوربية مثل (ليفربول وناتسى وأمستردام)، ويعبأ الرقيق فى السفن عندما يكون الرقيق موجهًا من إفريقيا إلى أمريكا، وكان العبيد الذين يبقون فى أوربا هم فقط أولئك الذين جيء بهم ليعملوا كخدم فى البيوت، وهؤلاء يعودون إلى بلدانهم فى حالات الراحة أو التقاعد، كذلك فإن بعض الرقيق يباع فى المزاد العلنى بسوق لندن وليفربول وبريستول وأماكن أخرى، ثم إن مجتمع الطبقة العليا من البيت المالك وما دونه يحتفظون بالخدم السود وهؤلاء الخدم عندما يحصلون على بعض التعليم ولو كان قليلاً لا يواجهون غالبًا أى صعاب فى الاندماج بالطبقة المتوسطة

والعائلات الإنجليزية من الطبقة الدنيا بالزواج، ولقد كانت كل القوى الأوربية الكبرى وبعض القوى الصغيرة منغمسة فى تجارة الرقيق على الرغم من أن الإسبان الذين يملكون الرقيق فى مناطق أمريكا الإسبانية لم يكونوا يمارسون كثيراً هذه التجارة، علماً بأن الكنيسة عملت بقوة ضد تجارة الرقيق، وإن قد وافقت أو قبلت تملك العبيد، وكانت قضية تحريم تجارة الرقيق قد وضعت قيد التنفيذ خلال قرب نهاية القرن الثامن عشر بإشراف كل من (قرلنفيل شارب وتومس كلارسون ووليام ويلبيرفورس) سنة ١٧٧٢م، وعلى ضوء قضية بشر كانوا رقيقًا هربوا من أمريكا أعلن قاضى القضاة (مانسفيلد) أمر تحريم تجارة الرقيق فى إنجلترا، وفى سنة ١٨٠٧م كانت حملة (ويلبيرفورس) وجماعته قد آتت أُكُلها حيث صدر قانون جعل تجارة الرقيق محرمة على المواطنين البريطانيين، وقامت الدنمارك بإصدار قانون مشابه سنة ١٨٠٤م، وتبعتهما الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٠٨م، والسويد سنة ١٨١٣م وهولندا سنة ١٨١٤م، وتأسست محكمة فى (فرى تاون) سنة ١٨١٨م، وخلال عشرين سنة من تأسيسها تمت محاكمة وإدانة مائة واثنين وثلاثين سفينة، وبعد سنة ١٨٣٨م عندما صدرت مادة قانونية تنص على المعدات إضافة إلى البشر صار ممكنًا محاكمة البحارة الذين على السفن حتى لو لم يكن هناك رقيق وتتضاعف العقوبة إذا ما وجدت معدات أو استعملت السفن كمخازن للرقيق، وكان هناك مائتان وأربعة وثمانون حكمًا خلال عشر سنوات ربعها كان فى الفترة التى أعقبت صدور مادة النص القانونى الخاص بالمعدات، وكان تنفيذ تجارة الرقيق صعبًا وبطيئًا ففى سنة ١٨٤٥م وحدها تم حجز ثلاثين سفينة، وكانت البحرية الملكية قد أقامت قاعدة بحرية لفرقة مكافحة تجارة الرقيق فى ميناء (كلارينس) أى (سانت إيزابيل الآن) وهى عاصمة (فيرناندو بول)، وذلك من أجل تنفيذ القانون الصادر فى سنة ١٨٠٧م بشدة وحزم اعتبارا من سنة ١٨٢٤م، وكذلك أعطيت محكمة (فرى تاون) صلاحيات تمكنها من إصدار الحكم بالإعدام فى تلك الحالات، ونتيجة لهذه الإجراءات قامت الدول الأوربية بتحريم هذه التجارة، ففى فرنسا حرمت تجارة الرقيق سنة ١٨١٨ م وكانت البحرية الملكية قد أنشأت قاعدة لفرقة مكافحة تجارة الرقيق فى ميناء (كلارينس)

تسمى الآن (سانتا إيزابيل) عاصمة (فيرناندو بول) وذلك من أجل تنفيذ القانون الصادر سنة ١٨٠٧م بدقة وشدة اعتباراً من سنة ١٨٢٤م، وكانت محكمة (فرى تاون) ذات صلاحية تعطيها ونتيجة لهذه الإجراءات قامت الدول الأوربية بتحريم هذه التجارة، ففى فرنسا حرمت تجارة الرقيق سنة ١٨١٨م وفى البرازيل سنة ١٨٢٥م والبرتغال سنة ١٨١٥م وإسبانيا سنة ١٨١٧م، وكانت الإجراءات شديدة، ولكن بعض الدول لم تلتزم بتنفيذها كما يجب وعمليًا بريطانيا وحدها التى اتخذت إجراءات صارمة، واستعملت سلاح البحرية لإجهاض تلك المحاولات، ولقد تم التحريم فى وقت لم يعد هناك رقيق فى جزر الهند الغربية البريطانية، ولكن كانت هناك أسواق أخرى للرقيق وتحديداً فى الولايات المتحدة الأمريكية، احتاجت إلى زيادة أو ما هو أكثر من ذى قبل فى هذه التجارة، وعلى الرغم من وجود الدوريات البحرية التى تنفذ قانون التحريم فإن أرقام تجارة الرقيق قد ارتفعت فى الواقع من خمسة وثمانين ألفًا سنة ١٨١٠م إلى مائة وخمسة وعشرين بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، وحدث أنه فى سنة ١٨١٧م خولّت إسبانيا والبرتغال البحرية الملكية البريطانية حق القيام بإيقاف سفنها وتفتيشها من أجل منع تجارة الرقيق وأعطت بريطانيا بالمقابل صلاحية لهاتين الدولتين بأن تقوما بضبط قوارب أو سفن قراصنة الرقيق البريطانيين، ثم إن فرنسا قامت أيضًا بالاتفاق مع بريطانيا على نفس الإجراءات بعد أربع عشرة سنة من بداية هذا التدبير، ولكن فى الواقع أنه برغم هذه الاتفاقات التى كانت متبادلة مع هذه الدول فإن البحرية الملكية البريطانية وحدها التى كانت تقوم بتفتيش السفن، ولولا فرقة التفتيش تلك ومقرها فى (فيرناندو بول) ما كان لأحد أن يتصور إلى أى حد كانت تجارة الرقيق ستصل بحلول سنة ١٨٤٠م، إضافة إلى حالة الوفيات فى حرب تحصيل الرقيق والضبط الذى يحدث فى الموانئ والمخازن والنقل أى أن الإفريقى الذى يولد فى منطقة تجارة الرقيق سنة ١٨٢٠م لابد أن يكون ضحية فى واحدة من حملات اصطياد الرقيق، ولقد وافقت فرنسا على المادة القانونية التى صدرت وتنص على تنفيذ العقاب حتى فى نقل المعدات سنة ١٨٣٣م

وفعلت ذلك إسبانيا سنة ١٨٣٥م والبرتغال سنة ١٨٤٢م، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم توافق على اتفاقية التفتيش المتبادل إلا سنة ١٨٦٢م، ومع ذلك فإن البحرية الملكية البريطانية توقعت أنها أوقفت ربع سفن تجارة الرقيق سنة ١٨٤٠م، وكانت السفن المقبوض عليها تجر إلى الشاطئ وبحارتها ينقلون إلى (فرى تاون) وكانت إعاشتهم تسبب كثيراً من المشاكل، وبالتالى كانت الوفيات بينهم تصل فى المتوسط إلى خمسة فى المائة عند القبض عليهم، وكانت كذلك الوفيات تحدث بنسبة عشرة فى المائة من أولئك الذين يكونون فى السفن التى تحجز حيث إنه بين سنوات (١٨٢٥-١٨٦٥) تم القبض على ألف ومائة وسبعة وثمانين سفينة رقيق، وبذلك تم تحرير مائة وثلاثين ألف إنسان حى، وكان السيد (ويلبرفورس) مازال ينشط فى التجمع المعادى لتجارة الرقيق فى تلك الفترة، وكانت دوريات هذا التجمع لا تقوم فقط بإيقاف السفن الخارجة من المنطقة، وإنما أيضًا القادمة إليها متجهة إلى موانئ الرقيق، وفى هكذا حالة يتم تفتيش أوراق تلك السفن على الرغم من أن الأوربيين تجار الرقيق على الموانئ يسهل عليهم الحصول على أعداد كبيرة من العبيد حتى بعد فترة تحريم هذه التجارة كما كانوا قبل المنع، وإن كان من الصعب عليهم الحصول على الأموال اللازمة والمعدات المطلوبة للمبادلة، وإن وجدت كانت تحجز عند التفتيش عادة، وكمثال على ذلك فقد حدث أن المدعو (جون فرانسيسكو دوس سانتوس) التاجر البرازيلى الذى يقوم بالتصدير إلى كل من (باهيا وريو) أعداداً من العبيد لتستقر فى (التوقو وداهومى) كان يقول للمتعاملين معه سنة ١٨٤٢م: إنه يقبل أى عملة، وكان تجار الرقيق يتفادون المناطق المعروفة جيداً مثل شاطئ (ويدا) وينقلون حمولاتهم البشرية إلى مناطق فى مواعيد سرية على طول الشواطئ، والتبادلات كما يذكر أحد المؤرخين تتم بسرعة كبيرة وفى هذه الحالات يكون الدفع بالدولار بدلاً من المبادلات السابقة التى كانت بالبضائع، وهكذا زاد الطلب على العملات، ولقد اتضح من تفتيش أوراق سفينة قبض عليها سنة ١٨٤٤م أنها نقلت كميات من العملة تقدر

بألف وثمانمائة وأربعين دولارًا ذهبيًا لمقاول الرقيق المدعو (دا سوزا)[1] وعملات أخرى صارت تستور: إلى سوق شاطئ الرقيق خلال سنة ١٨٤٧م بواسطة التاجر الألماني القبطان (لورينز ديدرتشين) وهو تاجر يعمل مستقلاً ومقره في (فلينبورج) بداية من سنة ١٨٤٣م، وما بعدها حيث كان يأتي بالعملة من المنطقة التي تسمت فيما بعد (بشرق إفريقيا الألمانية) وتلك العملة تسمى (كورينز) وهذه تساوي الواحدة منها مائتي شلن أي دولارين بسعر سنة ١٨٤٧م، ولكن وبسبب وفرة هذه العملة (الكورينز) فقد هبط سعرها حتى صار يساوي ستة وستين سنتًا للكورينز الواحد سنة ١٨٤٩م، وذلك عندما أبلغ (سانتوس) السلطات في منطقة (ويدا) أن المواطنين المحليين صاروا يقبلون في خضم هذا الوضع عملات سعرها غير مستقر، حتى إن أحد المؤرخين قال: إن الاختلاف في أسواق الرقيق يعتمد على طوبوغرافية المنطقة في بعدها عن بحيرة لاجوس، مع أن الأمواج العالية تجعل الهجوم على المخازن صعب بشكل كامل إن لم يكن مستحيلاً كذلك فإن الغابات الكثيفة تحجب جداول المياه بحيث يمكن لتاجر الرقيق أن يشحن ما لديه في أي مكان واي وقت دون خوف، وهكذا فإن هذه الأحوال تفسر كيف أن (الفون) أنشأوا ميناء ثانويًا للرقيق في (كوتونو) خلال نهاية القرن التاسع عشر مما يفسر الحافز الذي يحصل عليه الوسيط الصغير الذي يعمل بين (أنيكسو ولاجوس) من مكاسب معيشية كوكيل أو منافس لكل من (دا سوزا ودومينقو) ثم إن هذا الأخير (دومينقو) بذل الكثير من المحاولات بين سنوات ١٨٤٥-١٨٥٠م لنقل مخازنه في اتجاه غربي أبعد من (بورتو نوفو) إلى (آجودا) وهذه الآن جزء من (ويدا) والمنتج الآن المعروف الذي يوفر ويكون بديلاً عن تجارة الرقيق للأفارقة الغربيين وشركائهم الأوربيين في التجارة هو زيت النخيل وهو الشيء الذي قلل من تجارة الرقيق وإلى أن احتلت بريطانيا لاجوس سنة ١٩٠٠م لم

(١) علمًا بأن حظر تجارة الرقيق قد مر عليه اثنتان وثلاثون سنة، عندما صدر قرار المؤتمر الدولي في فيينا سنة ١٨١٥م، وألزم القرار الدول المشاركة في المؤتمر منع تلك التجارة، ولكن أغلب التجار الأوربيين لم يلتزموا به، وكذلك بعض الدول الأوربية. المترجم.

تكن الشـركات الأوربية التى تـتعامل فى تجـارة الرقيق تزيد علـى ستة فى المنطـقة من (بورتو نوفو) إلى (بينين) ونجد أحـد المؤرخين يذكر أن وكيل شركة (فيكتـور ريجير) فى (ويدا) ورجـال (تومسـون هوثون) فى (ويدا) و(نيـكسو وباداقـرى) قـد انضمـوا خلال سنوات ١٨٤٩-١٨٥٠ مع (شركة ليفريسلى) التى تعـمل وكيلا لشركة ساحل الذهب (بانر بروذرز) لم يكونوا قادرين على إلغاء اتفاقاتهم مع البرازيليين كما فعلوا فى النهاية مع (باداقوسى ولاجوس) ولذلك أجبروا على استمرار التجارة معهم، وفى بريطانيـا خفضت الرسـوم على واردات زيت النخيل سنة ١٨١٧م، وبذلـك ارتفعت كميات الواردات منه حتى وصلت سـتة عشر ألف طن سنة ١٩٤٠م وثلاثين ألف طن سنة ١٨٥١م، وكلما انخفـضت الرسوم زادت الأسعار، ففى لـيفربول بيع طن الزيت بمبلغ عشـرين جنيهًا سنة ١٨١٩م، ثم فى أواخـر الأربعينات وما بعدها وصل السـعر للطن الواحد اثنين وأربعين جـنيهًا كمـا زاد إلى أن وصل ثمانية وأربعين جنيـهًا للطن الواحد سنة ١٨٥٤م، ومن ثم وصل مـجموع المسـتورد التجـارى ثلاثين مليون دولار بحسب قـيمة العمـلة الحديثة، ولكن فى مناطق خـارج بريطانيا كانت الكمـيات قليلة وكانّ الأفارقـة لعدة سنوات يمانعون فى الاعـتماد على هذا المنتج التجـارى الجديد أو على المنتجات الـزراعية التقليدية الأخـرى، ولذلك وصل لندن زعماء أفارقـة بالتتابع يرجون الموافـقة على إعـادة تجارة الرقـيق، وكان من الضـرورى تفهم ممانعـة الإفريقى التـخلى عن تلك التـجـارة المربحـة بدون بديل مـربح آخـر يدعم مخـططات التطوير والإصـلاح، ولهـذا أرسلت المبـشـرية البـريطانيـة ممثلين إلى السـاحل ابتـداء من سنة ١٧٩٢م، وألحقـتهـا ببـعثـة تبشـيرية أخـرى سنة ١٧٩٩م، وفى سنة ١٨٠٣م أرسلت كذلك جمعية الإنجيل البريطانية بعثة تـالية، واجتمعت هذه البعثات معًا وبالاتفاق مع قوات مكـافحة تجـارة الرقيق بدايـة فى (سيرالـيون) بحيـث تقدم الدعم للجـمعـيات الإفريقـية، وتـم الاحتفـال سنة ١٧٨٨م بمناسبة اسـتكشاف مناطق الدواخـل الإفريقـية وقد وجـد المستكشـفون للمناطـق الداخلية فى كـثير مـن المواقع أضراراً بسـبب تجارة الرقـيق، وهكذا تجمـعت أصوات كـل العاملين من أجل الإنسـانيـة للمطالبة برحـيل

الاستعمـار وتجسدت قناعتهم من خـلال محتويات كتاب صـدر بعنوان (تجارة الرقيق في إفـريقيـا وعـلاجهـا) الذى صـدر سنة ١٧٣٩م، وكـان ذلك بفضل جـهـد السيـر (توماس بوكـستـون) الذى خلف السير (ويلبـر فورس) فى زعـامة اللجنة البـريطانية لتحريم تجارة الرقيق، وبذلك سرح قرار اللورد (مـانسفيلد) سنة ١٧٧٢م خمسة عشر من المسترقين فى بريطانيا، ولقد خلقت مرحلة انتهاء الثورة الأمريكية سنة ١٧٨٣م من جملة مـا خلقت مشكلة الزنوج القـدامى الذين خدموا مع القـوات الملكية البـريطانية المهزومـة، على أن عملية تشجـيعهم لاستـعمار منطقـة (نوفا سكوتيا) لـم تكن موفـقة بسبب الطقس وأمور أخرى، كذلك مشروع المستـعمرة الزنجية ألأخرى فى (الباهاما) الذى لـم يتقدم لكثير من الأسـباب، ولقد كانت مؤسسة (قرانفيل شـارب) المتخصصة فى مكافـحة تجـارة الرقـيق فى لندن أول من أيد وانجـذب إلى فكرة إعـادة الإفريقـيين الأمريكان إلى إفريقيا بتخـصيص أراض لهم فى (سيراليون)، وهى بلاد قليلة السكان نسبيًا على الرغم من أن أغلب الأفارقة البريـطانيين بقوا فى إنجلترا وكانوا قد اندمجوا مع السكان المحليين، كذلك فـإنه على الرغم من أن المستوطنين البهامـويين قرروا عدم العودة إلى إفـريقيا غير أن بعـض البريطانيين السود وأغلب السود فى (نوفـا سكوتيا) فى النهـاية تطوعوا من أجل الذهاب إلى (سـيراليـون)، وهناك كانت توجـد مؤسـسة تسمى (نوفا سكوتيا) قائمة باعتبـارها ناديًا رسميًا فى بلدة (فرى تاون الحديثة)، وكان السيد (هنرى سمـيستهام) الذى يعرف باسم جامع الفراشـات الإنسانى قد زار غرب إفريقيـا، وأوصى بأن يكون امتداد شاطئ غرب إفـريقيا المعروف بالكلمات الإسـبانية باسم (ليون رانج) أى (مدى الأسد) مـكانًا مناسبًا للمستوطنين، وكـان الهدف المباشر للمؤسسـات الإنسانية أن تساعد على إخلاء زنوج لندن، وكـان البعض قد هربوا من مزارع جزر الهند الغربيـة عندما سمعوا بقرار قاضى القضاة (مـانسفيلد) الصادر سنة ١٧٧٢م القـائل: إن الرقيق مـحرم فـى بريطانيا، ولذلك فـإن القن يصـبح حرًا عندمـا يصل الجزر البريطانية، أمـا البعض الآخر من الزنوج فقد كانوا خدمًـا أو عمال حقول زراعية وهؤلاء هم الذين بقوا وتقاعدوا فى بريطانيا، طبقًا لمعلومات مؤسسة (قرانفيل

شارب) وصاحبها بحار من قدماء الثورة الأمريكية وقد تحاشى مشروع (نوفا سكوتيا) ووصل إلى إنجلترا سنة ١٧٨٦م، وفى هذا الوقت صار السيد (جوناس هانواى) رئيسًا للجنة الفقراء التى وفرّت أراضي فى (سيراليون) توزعها على أولئك الذين يرغبون فى الذهاب إلى هذا البلد، ولقد قامت الحكومة البريطانية بتقديم مساعدة مالية مناسبة بما فى ذلك سفينة لسفر المهاجرين مجانًا، وذكر الزعيم الإفريقى العقيد السابق فى الجيش الأحمر المدعو (جورج بادمون) فى كتابه الذى نشر قبل وفاته مباشرة أن الجماعة الإفريقية كانت واثقة فى قدرة الزنوج على استيعاب وفهم الحضارة الغربية، وكان المؤسسون غير مهتمين بالتجارة أو استغلال الأفارقة كما كانت أول مجموعة استعمارية[1] تتكون من أربعمائة وواحد وخمسين زنجيًا متطوعا كانوا رقيقًا، ستة وسبعون رغبوا الوضع الجديد، ولقد تم نقل المومسات البريطانيات من السجون وتحديدًا من سجن (بارتسموث) وعدد قليل من الرجال البيض بما فى ذلك جراحون وقساوسة وغيرهم، وطبقًا لما قاله مؤرخ سيراليونى، فإن أكثر من خمسين شخصًا ماتوا خلال النقل من (بورتسموث وبلايموث) بسبب الظروف الحياتية فى السفينة التى وفرتها الحكومة البريطانية، وترك على الشاطئ فى بلايموث حوالى أربعين شخصًا على اعتبار أنهم لا يصلحون للمستعمرة، ثم إن ثلاثة وعشرين آخرين هربوا، وأخيرًا أبحر أربعمائة وأحد عشر شخصًا كانت سفينتهم بقيادة القبطان (ثومسون) وحدثت أثناء الرحلة كثير من الأمراض وعندما رست السفينة على الشاطئ فى مايو ١٧٨٧م كان هناك من الركاب ثلاثمائة وسبعة وسبعون شخصًا أحياء ولقد منح هؤلاء المستعمرون أرضًا اشتريت بواسطة (شارب وأصدقائه) من الملك المحلى (ثوم) وكانت مساحتها فى حدود عشرين ميلاً مربعًا، كما وفروا مخزونًا من الأغذية يكفى لمدة ستة أشهر، وأطلق على الميناء اسم (خليج جورج)، وعلى المستعمرة اسم مدينة (قرانفيل)، ولكن الموقع لم يكن صحيًا، ومن الواضح أنه لا أحد كان يعرف أن فصل الشتاء على الأبواب، وأن الزراعة لم تكن ممكنة لعدة شهور،

(١) يقصد المؤلف بتعبير استعمارية أنها معمّرة أى من أجل الإصلاح. المترجم .

كذلك لم يكن هناك وقت كاف لبناء البيوت، ولقد بقى القبطان (ثومسون) مع المستعمرين مدة أربعة أشهر، ثم عاد ليبلغ عن تلك المشاكل، ويعلن عن موت ستة وثمانين شخصًا آخر بما فى ذلك بعض النساء، أما المستوطنون الآخرون فقد صاروا يؤجرون قدراتهم البسيطة فى تعليم الكتابة والحساب للزنوج المحليين، وخلال السنة التالية أرسلت سفينة بمعدات جديدة وبعض الحيوانات وتسعة وثلاثين مستعمراً جديداً أغلبهم من البيض، وفى هذا الوقت ظهرت علامات مشجعة على تكون قرى سكنية، ولكن فى نوفمبر ١٧٨٩م تفرق المستوطنون على إثر هجوم من طرف رجال القبائل، وتم إحراق المستوطنات، وفى سنة ١٧٩١م أصدر البرلمان فى لندن قراراً بتأسيس شركة (سيراليون) ضمت إليها شركة (خليج جورج) التى كانت تأسست السنة الفائتة وتقرر أن تغطى أرباح هذه الشركة مصروفات حكومة المستعمرة كما عين (هينرى تورنقون) وهو مصرفى معروف رئيسًا للشركة ووكيلها الدكتور (فالكون بيرج)، وتم إرسال المستشارين الفنيين، ولقد وجد (فالكون بيرج وزودته) المستوطنين متشائمين مشاكسين، وفى هذا الوقت كان عدد أربعة وستين فقط من المهاجرين الأصليين باقين، ولذلك فإن هؤلاء قد نقلوا إلى موقع أفضل وهو عاصمة (سيراليون) الحالية (فرى تاون)، وخلال نفس السنة تم نقل مائة وتسعين من المستوطنين البيض الجدد وكان الغرض من نقلهم أن يساعدوا على خدمة المستوطنة، ولكنهم لم يلاقوا المعاملة الحسنة والتفضيل، بحيث يتم خلق دولة إفريقية قابلة للحياة، وبعد هؤلاء جاء أكبر عدد هام من المهاجرين من (نوفا سكوتيا) فى دفعة واحدة عددهم ألف ومائتا مستوطن متطوع على أن هذا العدد الكبير لم يكن يعرف أى شيء عن نسبة الموت السريع الذى حدث عندما جاء آخرون مع العريف السابق (تومس بيترز) الذى وصل لندن ليطلب من مدير الشركة وسكرتير الدولة السيد (قرانفيل) ضرورة عمل أى شيء لرفاقه المحاربين القدامى بالبحرية فى (هاليفاكس) بمقاطعة كندا، وبناء على ذلك أرسل بعض المختصين بتحريم تجارة الرقيق لمساعدة المستوطنين، وكان السيد (توماس كلارسون قد ذهب إلى (نوفا سكوتيا) مع مساعده السيد (هارتشورن) لمقابلة

المستوطنين هناك والبحث فى أمورهم ،ولقد أشادا بما وجدا عليه المستوطنين فى (نوفا سكوتيا) من عزيمة وإصرار وكان أغلب الرجال أحسن حالا من الناس العاملين فى الحياة العامة فى إنجلترا، وبالتالى طلبًا من أولئك المهاجرين أن يحترموا جنسهم ولا يقبلوا العمل كخدم عندما يعودوا إلى إفريقيا، كان أسطول السيد (كلارسون) الصغير الذى يتكون من خمس عشرة سفينة تحمل ألف ومائة وتسعين متطوعًا قد أبحر فى ١٥ يناير ١٧٩٢م مات منهم خمسة وستون فى الطريق، أما الباقون فقد وصلوا بين ١٨ فبراير و ٩ مارس وكان ذلك فى وقت ما قبل تحريم تجارة الرقيق، ومباشرة قبل الوصول مرت قافلة من تجار الرقيق متجهة إلى (آنو مابو) و(نوفا سكوتيا) فى حين تجمع الباقون من المستوطنين السابقين فى الموقع الجديد، وقد تم توزيع الأرض عليهم غير أن المساحة الموزعة قد خفضت دون الموعودين بها أى عشرون هكتاراً للعائلة الواحدة فصارت أربعة هكتارات فقط، وتقرر دفع الإيجارات لمساعدة الحكومة المحلية فى المستوطنة التى نظمت على أساس وحدة واحدة لكل عشر عائلات، وهكذا فإن كثيرين من أفارقة ساحل غرب إفريقيا نظروا إلى هذه الإجراءات بشك وريبة فى تلك المستوطنة، وحدث أنه فى سنة ١٧٩٤م أن هاجمت سفن فرنسية المستوطنة وحرقتها مما أرغم الحكومة البريطانية على نقلها وتعيين حاكم نشط لها هو (زاخارى ماكاولى)، وهذا اتخذ إجراء سريع بحيث أنشأ نظام حكم ذاتى بواسطة سكان المستعمرة، ثم إن حركة أخرى حدثت سنة ١٨٠٠م عندما تمرد المواطنون ضد سيطرة رجال الحكم الذاتى وكان على الحكومة البريطانية من أجل أن تساعد نظام الحكم الذاتى أن وافقت فى نفس السنة على أن تدفع ميزانية تعويضية سنوية، كذلك إن المستوطنة فى نفس السنة ١٨٠٠م زاد عدد المقيمين فيها بوصول المسترقين الذين تمردوا وصاروا يعيشون فى وضع غير قانونى على قمم جبال منطقة (جامايكا) والذين تم نقلهم أخيراً إلى (نوفا سكوتيا) وفى سنة ١٨٠٨م وافقت بريطانيا على إعطاء المستوطنات الصغيرة وضعًا قانونيًا يسمى (مستعمرة التاج)، وأخيراً انتهى تردد الليبراليين فيما يتعلق بإيجاد المستعمرات فى إفريقيا بعد جدال طويل وموفق حول منطقة (روكيل) وإمكانية أن تصلح قاعدة بحرية جيدة،

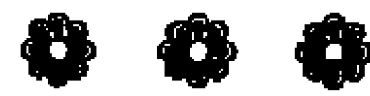
وفى هذا الوقت بدأ نقل العبيد المحررين إلى سكان (كرويل) المقيمين، وفى سنة ١٨١٧م تأسست كلية (الخليج الرابع) ليس فى مكانها الحالى الواقع على (قمة كليف) أى المنحدر الأعلى، وإنما داخل المدينة وتقرر أن تبدأ معها كلية لاهوتية وبذلك كانت أول جامعة فى المنطقة جنوب الصحراء، وهى أول جامعة فى إفريقيا حيث إن (فرى تاون) كان حينئذ الموقع الأمامى الصغير للحضارة الغربية فى إفريقيا وكان المستوطنون ينظر اليهم فى لندن على أنهم بريطانيون سود واجبهم تحضير وتنصير البرابرة المحيطين بهم والمساعدة على بعث حضارة إفريقيا أو ما يشبه ذلك وكان أغلب المسئولين السابقين قد أعجبوا بهم خصوصا عندما يقارنونهم بالمستوطنين البيض، ولقد كتب السيد (بيرنوت تومبسون) إلى خطيبته فى إنجلترا سنة ١٨٠٨م قائلاً: إن أوضاع الأوربيين سيئة أكثر من الوصف ذلك أن السود بشكل ما أكثر التزامًا فيما يتعلق بالدين فى هذه المستعمرة، وبينما نجد أن المقيمين البيض يثرثرون وهم سكارى من جانب نجد هؤلاء السود يرددون بانتظام التراتيل الدينية بخشوع، وهنا كما هى (فرى تاون)، فإن المدينة التى أسسها الفرنسيون وتسمى (ليبريفبيل) صارت بعدئذ عاصمة للقابون وأخذت اسم (مونروفيا) وهو اسم الرئيس (جيمس مونرو) بعد تحرير العبيد والواقع أن اسم (ليبيريا) يرجع إلى سنة ١٨١٦م فى الوقت الذى تأسست فيه الجمعية الأمريكية للمستعمرين، وتمثل إدارة للرجال المحررين بإشراف مؤسسة الرعاية البيضاء لمحبة البشر والقاضى (بوشرود واشنطون) وهو من فيرجينيا وشاركه شقيقه الجنرال (جورج واشنطون)، ثم خلفهما رجل القانون (جون لاتروب) وهو من (ميرلاند)، وكان بعض الناس يرون الفرصة فى تنصير إفريقيا بواسطة الأفارقة الأمريكان، وقد وجدت عدة دراسات لهذه الفكرة، بينما يرى البعض الآخر من الناس أن هناك رغبة لدى بعض الحكومات للتخلص من الزنوج الموجودين بها مما يساعد على تنفيذ الفكرة الأمريكية، وفى السنة الماضية (١٨١٥م) قام صاحب سفينة زنجى يدعى (باول كوفى) بنقل ثمانية وثلاثين زنجيًا إلى (سيراليون) نظير مبلغ قدره ثلاثة أو أربعة آلاف دولار، وفى سنة ١٨١٩م حصلت جمعية على إذن من الحكومة بحيث تقوم بتأسيس إدارة مستقلة للزنوج فى غرب إفريقيا، وعلى هذا الأساس

تم إرسال اثنين من الرجال البيض وهما (صامويل ويلز وأبينيزير بورجيس) إلى إفريقيا من أجل شراء الأرض بناء على نصيحة من الحاكم (ماك كارثى) الذى قابلاه فى (فرى تاون) اشتريا أرضًا فى جزيرة (شير برو)، وخلال السنة التالية تم نقل ثمانية وثمانين زنجيًا مهاجرًا تحت إشراف الدكتور (صامويل كروزر) إلى وكيل الجمعية مع اثنين آخرين من البيض عينا بقرار من الرئيس (مونرو) لكن المسئولين فى جزيرة (شير برو) نكثوا الاتفاق ولهذا السبب مات الاثنان البيض ومات من الزنوج المستوطنين اثنان وعشرون فى حين نقل الباقى بواسطة (دلتيل كوكرو) إلى (فرى تاون)، وحدثت يعد ذلك هجمات عديدة قام بها مستوطنون حصلوا على أسلحة من الكوبيين والإسبان وقاموا بتعذيب القادمين الجدد، ثم حدث فى أول سبتمبر أن هاجم حوالى ألف مسلح المستعمرة ولم يتراجعوا إلا بعد أن أطلقت عليهم القذائف المدفعية، وهكذا أصبح الأول من سبتمبر يوم عطلة عامة منذئذ فى (ليبيريا) وبعد ذلك وصلت بارجة حربية بريطانية تسمى (الوصى على العرش) يقودها ضابط بحرى يدعى (قوردون) ومعه أحد عشر متطوعًا بقوا فى منطقة (بوش رود) للمساعدة فى الدفاع عن المستعمرة ومات منهم ثلاثة ربما بسبب الحمى الصفراء، وأخيرًا جاءت البارجة الحربية الأمريكية المسماة (سيانى) وهى تنقل قادمين جددًا، وبذلك توسعت المستعمرة إلى قرب (رأس ميسورادو)، ثم إن عددًا من المستوطنات الأخرى أقيمت على الساحل حيث تم شراء المزيد من الأرض بواسطة جمعيات محبى البشرية بما فيها جمعية مستعمرة (مايرلاند) التى كان رأسمالها مائتى ألف دولار وقامت مستعمرة هذه الجمعية بإرسال عدة مئات من المستوطنين الجدد بإشراف (جون روس وورم) المولود فى جامايكا، وهو أول زنجى يتخرج من جامعة أمريكية، وقد وصل الساحل فى سنة ١٨٣٦م وكانت ولايات نيويورك وبنسلفانيا وجورجيا وميساسيبى ولوزيانا قد رعت تلك المشاريع رغبة فى التخلص من الزنوج المحررين الذين كانوا يمثلون مصدر حسد لغيرهم من الأرقاء، ولقد استمر تدفق المهاجرين الذين تولت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مسئولية تزويدهم بالغذاء، وكانت المستعمرة الرئيسية قد أطلق عليها اسم (ليبيريا) والعاصمة التى نمت فى (رأس

ميـزورادو) أطلق عليهـا اسم الرئيس الأمريكى (مونرو) فى ذلـك الوقت، ولقد استـمر حاكم ليـبيريا الأبيض حتى سنـة ١٨٤١م ويدعى (ج ج روبرتس) وهو مستوطن عـمره اثنين وثلاثين سنة، كان قـد وصل المنطقة سنة ١٨٢٩م، حيث صار أول إفـريقى أمريكى رئيـسًا للجـالية الناشـئة، وحـدث أنه بالإضافـة إلى المشاكل الأخـرى المتعلقـة بتأسـيس مستعمـرات أخرى واجه روبرتس هذا مشاكل أعقد من تلك التى واجهـته فى سيراليون حيث كـان هناك تحدي لصـلاحيـاته من طرف التحـالف المتكون من المحليين والأوربيين تجار الرقيق، وفى سنة ١٨٤٥م ظهر إشكال دبلوماسى يتمثل فـيما إذا كانت ليبيريا تحت الحماية الأمريكية أم لا؟، هذا حدث بعد خلاف مع سيراليون بشأن ميناء بحرى أدى إلى حجز ناقلة ليبـيرية بواسطة بارجة حربية بريطانية، وكـان رد واشنطون مريبًا ترك إلى حد ما هذا الأمر لأهله فى مواجهة إصرار بريطانيا علـى أنها لن تعترف بمنطقة تجارية كما لو أنها كـانت دولة مستقلة، وهكذا فـقد قرر المستـوطنون سنة ١٨٤٦م إعلان بلادهم ذات سيـادة، ولكن كان لابد أن تمر سنة قبل أن يعلنوا اسـتقلالهم فى ٢٦ يوليـو ١٨٤٧م بعد اجتماع تم فى مونروفيا ضم ممثلين عن المستـوطنات الأربعة التى كانت قائمة وقتئذ وهى (ميـسورادو ووقـراند باسـا وسينو ومـيرلاند) على أن الأخـيرة لم تنضم إلا بـعد عـشر سنوات، ومع ذلك فـإن علمًـا يشابه الـعلم الأمريكى، ولكـن بأحد عـشـر خطًا ونجمـة واحـدة، كان قـد اعـتمـد وتم انتـخاب نواب عـن الشعب لمدة أربع سـنوات كمـا نص الدسـتور وشـيـوخ لمدة ست سنوات، أمـا الرئيس فـقد نص فى هذا الـدسـتـور على أن ينتخب مرتين ولمدة أربع سنوات لكل مرة، ثم تقرر زيادة مدة الرئاسة إلى ثماني سنوات، وفى السنة التاليـة لإعلان الاسـتقلال اعترفت بريطانيـا بالأمة الجديدة وتدريجـيًا تبعتـها بلدان أخرى، إلا أن الاعتـراف الأمريكى لم يحدث إلا سنة ١٨٦٢م، وفى سنة ١٨٤٨م قام الرئيس (روبرتس) بزيارة ناجحة لأوربا وخلالها حصل على تأييد من رئيس الوزراء البـريطانى (بالميرسـتون) ومن الملكة (فـيكتـوريا)، وكذلك الملك (ليـوبولد الأول) ملك بلجيكا ثم هولندا والدنمارك ولوكـسمبورج وبروسـيا ودول اسكاندينافيا وبلدان ايبيريا وبعض الدول فى أمـريكا اللاتينية أعلنت اعـترافهـا أيضًا، ومن البـداية إلى أوقات غـير

بعيدة كانت الحكومة هى المحتكر لثروات تلك المستعمرات، كانت مونروفيا تتقدم فى غرب إفريقيا ببطء، حتى صارت من أنجح دول غرب إفريقيا على أنه كانت هناك تهديدات كثيرة ضد بقاء هذا البلد كدولة مستقلة، وإن لم يحدث شيء غير مشاكل الحدود مع فرنسا حيث فقدت ليبيريا شريط أرض كبيراً فى منطقة جبل (نيمبا) لصالح غينيا الفرنسية (اتضح فيما بعد أن تلك المنطقة غنية بالترسبات الحديدية، وتبعًا لذلك فإن مطالب ليبيريا بالمنطقة صارت مستمرة، لذلك فإن ليبيريا لها خلافات حدودية مع بريطانيا استمرت إلى أن بدأت لجنة الحدود فى العمل سنة ١٩٠٣م، وكان ابن ليبيريا المميّز الدكتور (إدوارد ويلموث بليدن) المولود فى جزيرة الهند الغربية الدنماركية قد سافر إلى نيويورك لإكمال تعليمه الثانوى، إلا أنه لم يتمكن من الانتساب لأى مدرسة بسبب التفرقة العنصرية فى هذا الوقت، لكن الجمعية الاستعمارية فى نيويورك وفرت له فرصة السفر المجانى إلى ليبيريا حيث وصلها سنة ١٨٥٠م، وفوراً صار رئيس تحرير جريدة أخبار ليبيريا خلال السنة التالية على مجيئه، وكان عمره تسع عشرة سنة، ثم عمل مدرسًا فرئيسًا لكلية ليبيريا على الرغم من أن مستوى هذه الكلية كان منخفضًا، ثم أصبح عضواً فى الحكومة (وزيراً للداخلية) وبعدذاك أرسل سفيراً إلى لندن على فترتين وهو لغوى مدهش رغم أنه لم يكمل تعليمه، فقد كان يتحدث اللغات (الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والعبرية واللاتينية والعربية)، كذلك كان يعد حجة فى الدين الإسلامى ومن سنة ١٨٧٢ إلى ١٨٧٣م استخدم من طرف الحكومة البريطانية ليتفاوض مع القادة المسلمين المحاربين فى المناطق الداخلية بمستعمرة (سيراليون)، وبعد بعض الوقت صارت سيراليون متقدمة إلى درجة أنها كانت تساعد تلك البلدان التى لم تستعمر فى الساحل، وكان أغلب أهل الساحل قد أخذوا أسماء إنجليزية طلبًا للحماية، وكان التهجير يحدث بحيث ينتقل الناس من مكان إلى آخر وحدث أن بعض المهجرين كانوا مزارعين يتمتعون ببعض التعليم، وبذلك فهم متقدمون نسبيًا عن المستوطنين السابقين، وكان السيراليونيون والبرازيليون فى الغالب تجاراً وصناعًا، وقد أبقوا على الرقيق المحلى وصار الكثير منهم أغنياء خصوصًا وسطاء تجارة الاستيراد والتصدير، وكان هؤلاء يستاء منهم ويحترمهم فى

نفس الوقت زعماء (الأديجو) بسبب تقدمهم المعرفى، وبتأسيس وسيلة نقل بحرى منتظم إلى خليج بينين وخليج بيافرا سنة ١٨٥٢م، تمكن أصحاب المصانع الصغيرة من نقل زيوتهم بانتظام إلى بيوت التجارة فى بريطانيا التى بالمقابل يحصلون منها على طلباتهم من البضائع والمصنوعات التى يبيعونها للوسطاء البرازيليين والسيراليونيين، كذلك فإن بعض السيراليونيين يعملون فى التصدير أيضًا، وفى سنة ١٨٥٠م استوردت (لاجوس) بين أربعة وخمسة آلاف طن من زيت النخيل سنويًا، وفى سنة ١٨٥٧م وصلت هذه التجارة القمة بسبب الحرب فى الداخل وبسبب إحياء تجارة الرقيق وكانت بعض المواد محتكرة للتجار الألمان وتحديدًا الشركة الألمانية (أوسوالد) حيث كان الجوال الكبير من القبقب يساوى سبعة وثلاثين دولارًا سنة ١٨٥١م حسب قيمة العملة الحالية، وبهذا المبلغ يمكن شراء سبعة وثلاثين جالونًا من زيت النخيل فى سوق لاجوس، وفى سنة ١٨٥٩م صار جوال القبقب يساوى أربعة عشر دولارًا واستوردت شركة (أوسوالد) أكثر من مائتى ألف جوال من زنجبار خلال عقد بداية من سنة ١٨٥١م، أما الشركة الفرنسية (ريجيس) فقد استوردت ما قدره نصف تلك الكمية، وعلى الرغم من أن هذه التجارة كانت نسبيًا صغيرة، فإن الأرباح فى زيت النخيل كانت عالية حيث كان السعر فى ليفربول سنة ١٨٥٤م، قد وصل ستمائة دولار للطن الواحد، ثم وصل سبعمائة وعشرين دولارًا عندما انفجرت حرب (كريميا)، وبالمقارنة فإن الزيت سنة ١٨٥٥م كان يكلف ثلاثمائة دولار فى لاجوس يذهب ثلاثة أرباعه حسب تقدير القنصل البريطانى إلى الوسيط وأطراف أخرى، ثم إن السعر قد تراجع إلى مائتين وسبعين دولارًا سنة ١٨٥٩م، وهذا يزيد فوائد الأوربيين .



الفصل التاسع

غرب إفريقيا البريطانية ما قبل الاستعمار

الفصل التاسع
غرب إفريقيا البريطانية ما قبل الاستعمار

بحلول القرن التاسع عشر كانت مجالات المصالح قد بدأت تظهر واضحة منذ صارت فرنسا تسيطر على مدخل السنغال، أما بريطانيا فقد ركزت على الأسهل الوصول إليه والأكثر فائدة تجارية، ذلك هو النيجر حيث كانت بعثة (ماك قريقورى ولاردو لاندر) الاستكشافية خلال سنوات ١٨٣٢- ١٨٣٤ أعظم حقيقة مدهشة عن تزايد الاهتمام البريطانى الرسمى على النهر كمصدر هام للتجارة وكانت البعثة الاستكشافية اللاحقة سنوات ١٨٤١- ١٨٤٢م قد أشارت فى وقت مبكر إلى الخسائر الكبيرة فى الأرواح عندما قصدت إنشاء محطة وحقل نموذجى فى (لوكوجا) عند ملتقى (بينو مع النيجر)، وقد قامت بذلك تحت ضغط وبرغبة من اللجنة العلمية والإنسانية فى لندن التى يرأسها السير (فوويل بوكستون) على الرغم من المعارضة النشطة التى يظهرها تجار زيت النخيل الأشرار الذين كانوا يعارضون أى تأثير على الوضع القائم، وكانت العداوات القبلية وهجوم مرض الحمى قد ساهمت فى التقليل من نجاح المغامرة التى أنجزت تخطيطًا دقيقًا نسبيًا عن وادي النيجر كنموذج عظيم فى (الدلتا)، وخلال هذه السنوات كان السيد (جون بيكروفت) وهو إنجليزى إسبانى إفريقى أول من زار المنطقة كبحار وتجار حيث إنه من سنة ١٨٢٧ إلى سنة ١٨٣٤ كان فى (فيرناندو بول) يعمل مع الفريق الذى ينفذ قانون منع تجارة الرقيق، وبقى يساعد الزنوج المحررين هناك، وبين سنوات ١٨٣٦- ١٨٤٢ وجد نفسه يستكشف أنهر (بينين وكالابار والنيجر) وإلى أبعد من منطقة (باسا) وفى سنة ١٨٤٢م قررت إسبانيا التى كانت قد استولت على (فيرناندو بول وآنوبون) تأجير الجزيرة لبريطانيا وطلبت من السيد (بيكروفت) أن يكون مديراً لها فوافق، وفى سنة ١٨٤٩م صار القنصل

البريطاني في خليج (بينين وبيافرا) صاحب حضور قوي وأمانة وإحساس بالعدل حيث جعل كلمته هي القانون، وحدث أن كل الفوضويين في التعامل بتجارة الزيت وهم أشرار ومنعدمو الرحمة زعماء الدلتا قد خضعوا لقراراته ولأوامره؛ إذ من المعروف أن وراء هذا القنصل إذا اقتضى الأمر مدافع السفن البريطانية كما حدث فيما بعد، وكان بالتالي دوره في نيجيريا فترة ما قبل الاستعمار كبيراً، وفي سنة ١٨٥٢م وصلت أخبار من (بارث) تقول: إنه تمكن من معاينة نهر (بينو) من جهة الشمال، وكان هذا أكثر من أي شيء آخر قد شجع على إرسال ثالث بعثة استكشافية بريطانية رسمية إلى أعالي النيجر، حيث قام (لايرد)، وهو مالك سفن بتوفير السفن في حين وفرت البحرية الملكية البريطانية الملاحين، وتم رسم الخرائط وتقرر أن يكون (بيكروفت) رئيساً للبعثة، ولكن مع الأسف قبل البدء مات، ولهذا تولى الطبيب البحري الدكتور (وليام بالفوربايكي) تلك المهمة ومباشرة قبل أن تسافر البعثة سنة ١٨٥٤م اكتشف مصلاً يحمي إلى حد ما من المانع الرئيسي عن اكتشاف غينيا ذلك هو مرض الملاريا، وبالتالي استطاعت البعثة أن تحقق كشفاً جديداً دون أن يموت أحد من أفرادها، ومن هنا فإن الاهتمام المتزايد بغرب إفريقيا أحدثه اكتشاف الأدوية والأمصال القاضية على الأمراض مما شجع البعثات التبشيرية كثيراً، ولذلك كانت البعثة التبشيرية الأولى على الساحل الأطلنطي في إفريقيا هي الكاثوليكية غير أن نشاطها تضاءل بحلول منتصف القرن التاسع عشر في الوقت الذي صارت فيه البعثات التبشيرية البريطانية البروتستانتية نشطة، كذلك فإن نشاط البروتستانت الأمريكان ازدهر في ليبيريا، وفي سنة ١٨٦٠م ظهرت البعثة الفرنسية الكاثوليكية مرة أخرى، أما الكاثوليك البرتغاليون الذين لم يتوقفوا أبداً وسعوا نشاطهم خلال القرن التاسع عشر والإنجليكان المبشرون بالإنجيل في البلدان الخارجية الذين كانوا قد تواجدوا سنة ١٧٠١م كان اهتمامهم الرئيسي بالتعليم وكانوا نشطين بشكل خاص في ساحل الرأس (غانا الحديثة) من سنة ١٧٥٢م إلى سنة ١٨١٦م، وكانت أنشطة جمعيات التبشير البريطانية وجمعية لندن وجمعية الإنجيل الخارجية البريطانية خلال بداية القرن التاسع عشر تعمل على تنفيذ إلغاء تجارة الرقيق، كما أن جمعية بعثة

الكنيسة قد بدأت مثل جمعيات أخرى فى القرن الثامن عشر، وصارت تباشر نشاطها بنجاح سنة ١٨٠٦م بواسطة بعثة دائمة فى سيراليون، ولقد شهدت بداية القرن التاسع عشر العديد من البعثات الإنجيليكانية وغيرها تتأسس فى غرب إفريقيا، وفى سنة ١٨٢٧م تأسست كلية الخليج الرابع فى مدينة (فرى تاون) من أجل تعليم رجال الدين الأفارقة، ولهذا فإن أول قسيس إنجليكانى إفريقى تم تعيينه سنة ١٨٥٢م، وحدث أن بعثتين كاثوليكيتين رافقتا البعثة التبشيرية إلى النيجر سنة ١٨٤١م، بما فى ذلك (صمويل كروثر) وهو عبد محرر نشط من منطقة (يوروبا) قد رست سفينته مع رفاقه المحررين فى (فرى تاون) وبين سنوات ١٨٣٩ - ١٨٤٢م، فإن أولئك الذين عادوا من سيراليون إلى (أبيوكوتا) بما فيهم عدد من الإنجيليين والويسليين أيضًا قد أنشأوا وحدة تبشير فى (أبيوكوتا) سنة ١٨٤٤م، وبعد ذلك مباشرة أنشأ (الويسليون) وحدتهم التبشيرية الدائمة، وفى سنة ١٨٤٨م مات أول من كان قد اعتنق المسيحية فى (أبيوكوتا)، وقد حدثت مظاهرة وشغب قبلى عندما كان يدفن حيث اعتدى هؤلاء على المسيحيين، وفى سنة ١٨٥١م أنشئت بعثة تبشيرية فى (لاجوس)، وبعدها بسنتين أنشئت أخرى فى (أبادان)، وفى سنة ١٨٦٤م صار القسيس (كروثر) أسقفًا للنيجر والأبروشية هناك ماتزال تحمل اسمه، وفى هذا الوقت أنشأ المعمدان بعثة فى (بورث كليرينس فى فيرناندو بول) خاصة بالعبيد المحررين، وهذه توسعت إلى الكاميرون وقد أخرجت هذه البعثة (إنجيل بيجين)، وفى سنة ١٨٥٨م طرد الإسبان الكاثوليك المعمدانيين من (فيرناندو بول)، إلا أنهم عادوا خلال نفس القرن ليبشروا النيجيريين العمال المهاجرين ويعلموا أطفالهم، وفى سنة ١٨٤٦م قامت الكنيسة الأسكتلندية بتأسيس مقر لها فى (كلابار)، أما البعثات التبشيرية الألمانية فى الساحل وفى الداخل فقد كانت تزدهر حيث كانت جمعية بعثة (باسل) قد بدأت فى (كيتا) سنة ١٨٢٨م وامتدت غربًا، وفى سنة ١٨٤٨م بدأت أيضًا جمعية (بريمان أعمال إنجيلية بين قبائل (أيوى) وفى هذا الوقت كان (الويسليون) يتحدون (الإنجيليين) فى أرض قبائل (الفولانى)، وكان أكبر زعيم (للويسليين) هو (ثومان فريمان) وهو ابن عبد إفريقى

محرر ومن أم إنجليزية تعلم في إنجلترا، وقد استقر بداية في ساحل الرأس سنة ١٨٣٧م وبعدها بسنتين أسس بعثة تبشيرية في (كوماس)، ثم تحول إلى (بيوكوتا)، حيث استمر يعمل إلى أن مات سنة ١٨٩٠م، ولقد وفرت مدارس البعثات الكوادر ومواقع المدارس ووفرت المدرسين، وكان أول موقع في ساحل الذهب جهز بالمستخدمين من (سيراليون)، ونرى اليوم أن العديد من أخلاف هؤلاء يشكلون العائلات البارزة في (أكرا) مثل عائلات (ثومسون وهوتون وهايسكي زهايفورد زدي قرافت وجونسون) وكثيرين غيرهم، وكان السيراليونيون بشكل خاص قد ساعدوا على تقدم ونمو التجارة البريطانية في ساحل الذهب بعد سنة ١٨٤٣م، كما أنهم مع قبائل الفانتي ساعدوا على إرساء السلطة البريطانية في لاجوس ثم عبر كل المنطقة التي صارت فيما بعد تسمى نيجيريا، وكرد جميل فإن جنود نيجيريا احتلوا الأشانتي خدمة للملكة البريطانية، وقبل انتهاء القرن التاسع عشر كان هؤلاء النخبة قد هيئوا المنطقة لأول حكم ذاتي، ولكن خلال العقود التالية على إجراءات بريطانيا بخصوص تحرير العبيد سنة ١٨٠٧م كانت المستوطنات وردود فعلها مازالت بعيدة مع استثناء تلك التي في سيراليون، كما أن التزام بريطانيا تجاه المستوطنات في غينيا كان يشمل سيراليون ومستوطنة التاج على مساحة حوالي ثلاثمائة ميل مربعة وأربعة آلاف عائلة محررة، وكذلك القلاع في غينيا وهي قلعة ساحل الذهب وبقية كل القلاع كانت تدخل ضمن مسئولية شركة التجارة، ومع هذا فقد حدثت معارضة شديدة حتى بالنسبة لذلك الالتزام المحدود، حيث إن فوائد التجارة لم تكن تعوض نسبة التكاليف من أجل إبقاء والدفاع عن مواقع الأقدام تلك على الساحل، وحدث أن الرأي العام صار يؤثر في سياسة الحكومة، وهذا الرأي العام كان يطالب بالإبقاء على سيراليون فقط، باعتبار أن ذلك أولاً يعد التزامًا أخلاقيًا، وثانيًا لأنه قاعدة بحرية، على أن سيراليون هذه يتوقع أن تعتمد على نفسها، وتمت الموافقة بصعوبة بالغة على إعانتها ماليًا وكانت تلك الإعانة ضئيلة، أما المستعمرات البريطانية في الشرق وفي منطقة الكاريبي فقد اعتبرت مفيدة ومهمة غير أن المنظمات الإنسانية كانت تجادل في شأن

وضع المستعمرات، وبدأت اللجان تجتمع لتناقش ذلك المفهوم، ولقد حدث تحرك بسيط للسيطرة عندما قامت قبائل (الأشانتى) باحتلال منطقة ساحل الذهب، ولذلك فقد أثرت الحرب على التجارة على أن بريطانيا وهولندا والدنمارك هذه الدول التى لها قلاع فى ساحل الذهب قبلت هيمنة الأشانتى على أرض الساحل، حتى إن الدنمارك قد استقبلت وفداً من الأشانتى ببعض الترحيب فى قلعة (كريستيانبورج)، ولقد أثبتت قبائل الأشانتى أن رجالها محاربون أقوياء وليسوا تجاراً ولذلك تراجعت التجارة بعد محاولات غير ناجحة ومفاوضات مع المهيمنين الجدد بما فى ذلك إرسال وفد رسمى إلى (كوماس)، وهكذا قامت بريطانيا بإلغاء شركة التجارة سنة ١٨٢١م، وباشرت الإشراف الرسمى على كل القلاع البريطانية فى ساحل غينيا، وفى سنة ١٨٢٤م تم تعيين السير (تشارلز ماك آرثى) وهو مدافع نشط ضد تجارة الرقيق، تم تعيينه محافظًا فى سيراليون، وهذا تمكن من توسيع الحدود بموجب اتفاقيات شراء من أجل إسكان الجالية التى تبلغ عشرين ألفًا وخلال عشر سنوات من حكمه كمحافظ ارتفع ثمن المستعمرة البريطانية من أربعة وعشرين ألفًا إلى خمسة وستين ألف جنيه حيث كان قد ضم جزيرة (لوزمن كناكرى عاصمة غينيا الحديثة) من أجل أن يمنع تجارة الرقيق مستخدمًا إياها كملجأ وقد أطلق عليها اسم (الحامية)، وفى لندن منعوه من احتلال (باساجا) أى غينيا البرتغالية الحديثة، وكذلك (شيربو) سيراليون الحديثة، ولكن عندما ألغيت شركة التجارة سنة ١٨٢١م كان (ماك كارثى) فى (فرى تاون) حيث صار محافظًا على كل المستوطنات فى سيراليون وفمبيا وساحل الذهب، وبعد ثلاث سنوات عندما كان يقود مائتين وخمسين جنديًا أوربيًا مع رجال من قبيلة (فانتى) قتل فى معركة ضد الأشانتى، وفى سنة ١٨٢٦م تمكنت بريطانيا والدنمارك معا من هزيمة الأشانتى فى منطقة (ودووا) وبموت (ماك كارثى) خسر الليبراليون المعركة فى البلاد فى حين كسب أصحاب الأعمال المناوئون لبرنامج المستوطنات ود الحكومة، وعندما صار السير (نيل كامبيل) محافظًا جديداً سنة ١٨٢٧م منع توسيع الحدود البريطانية إلى أبعد مما هى عليه، وأوقف أى تحالف مع الزعماء المحليين بحيث لا يدخل فى

صراعـات وعمليـات عسكرية مع هـذا الطرف أو ذاك، أما قـلاع ساحل الذهب فـقد أعـيدت إلى سـيطرة التجـار بإعـانة ماليـة تتراوح بين ثـلاثة إلى أربعة آلاف جنيـه فى السنة، وبدراسـة بداية المستعـمرات البريـطانية فى غرب إفـريقيا كـان المراقبـون دائمًا يندهشـون عن الكيفـية التـى وسعت بهـا بريطانيا سلـطاتها ولابد لنا أن نقـول شكراً لنشاط وأعمال التجار برغم التردد الرسمى حول موضوع الاستعمار والبخل الذى لا يصدق فى مـوضوع الميزانيـات، وفى سنة ١٨٣٠م قام تجار سـاحل الذهب عن طريق لجنتهم فـى لندن بإرسال (جورج مـاكلين) للإشراف على قـلاعهم وهو ضـابط سابق كـان قد حـارب ضـد الأشانتى فـى منطقة (دودووا) وكـان رجـلاً منظمًـا وذا خبـرة استـعمـارية سابـقة وقد وجـد حيـنذاك قبـائل الأشانتى على حـالها السـابق فى خلق المشاكل فى حين كانت القبائل السـاحلية فى عداء مع بريطانيا؛ لأن هؤلاء يقولون أن بريطانيا فى البداية اعترفت بقبائل الأشـانتى، ثم اتفقت معهم ضد الأشانتى ولـم تلبث أن تركتهم، وهكذا فإن (مـاك كارثى) وجد أن صلاحياته لا تـتعدى القلاع فى ساحل الذهب وجيمس تاون أى مـركز الميناء فى أكرا، أما سلطته على القـلاع البريطانية فى (أنومابو وديكسوف) فهى اسمية فقط حيث كان احتلال الهولنديين (للمينا) بالاتفاق مع الأشانتى، كمـا أن قبائل (الدانيس) فى منطقة (كريسـتيامبورج) وهى على مـسافة اثنين ميل من جـيمس تاون كانوا يجـادلون من أجل الاستيلاء على (أكـرا)، وكذلك ينازعون على الحدود الأرضية، وفى ظل هذا الوضع المعادى، وكذلك فى حالة الجهل والإثارة والمرض فرض (ماكلين) نوعًا من النظام وأقام محاكم عدل، ولذلك توسعت صلاحـياته إلى حـد ما، فـشملت كل الأراضى الـواقعة بـين (الفولتـا والبرا)، وطبـقًا لبـعض المصـادر كانت قـد امـتدت إلى حـوالى أربعين مـيـلاً أرضيًـا، وبذلك زادت الصـادرات عبـر القـلاع البـريطانيـة من سبـعين ألف جنيـه سنة ١٨٣١م، أى مليـون وخمســمائة ألف دولار إلى أربعة ملايين وثمـانمائة وخمسة وسـبعين ألف دولار سنة ١٨٤٠م، أما الواردات فقد ازدادت من مليون وتسعمـائة وخمس وستين ألفًا إلى ستة ملايين وثلاثمائة وخمسة وأربعين ألـف دولار، وهكذا فإن (ماكلين) كان رجلاً رائعًا

لا يجامل الحمقى فى لندن الذبن صاروا أعداء له وحاول بعضهم التآمر عليه، ونتيجة لذلك فقد تعرض لكثير من النقد، وفى سنة ١٨٤٢م اختيرت لجنة برلمانية للتحقيق معه لكنها برأته وأثنت عليه، وإن قد قررت أن الصلاحيات الكبيرة التى كان يمارس بها الحكم غير قانونية، وقد أوصت بأن يؤمر بضرورة التفاوض من أجل اتفاقيات عادية وعادلة مع القبائل الساحلية، وهكذا اعتمدت الحكومة تلك التوصيات، وفى السنة التالية عينت الحكومة البريطانية نائب محافظ فى ساحل الذهب بصلاحيات أقل من المحافظ فى (فرى تاون) أى تحت إشرافه، وتم التفاوض مع زعماء القبائل فى خصوص حقوق التجارة والإدارة المحلية وتنفيذ القانون، ولذلك وافق الزعماء الأفارقة على إنهاء كل الممارسات غير القانونية الفوضوية والبربرية وخصوصًا قتل الناس بلا ذنب، والتضحية بالبشر، لكن تلك الاتفاقيات لم تعط بريطانيا حقوقًا على أى أراض أو حدود ماعدا القلاع البريطانية نفسها، وكانت الظروف فى هذا الوقت واضحة التصور ذلك أن (ماكلين) صاحب الخبرة والتأثير والسلطة كان ينظر إليه من جانب التجار كضحية للانتهازيين فى لندن ولم تؤد التغييرات السياسية المكررة فى بريطانيا إلا إلى المزيد من الشعور بأن تدخلات الحكومة كانت هواية خطرة، ولعله من الإنصاف القول: إن التجار وماكلين رغم أن ذلك أقل دقة، أنهم كانوا غرباء عن الناس الذين يتعاملون معهم، ولقد مات ماكلين فى الساحل سنة ١٨٤٧م، وصار أهل الساحل الآن أكثر تخوفًا من زيادة التدخلات؛ إذ إن ذراعهم اليمنى قد مات، وكانت المعركة بين الحكومة ورجال المصالح ولهذا فإن الحكومة أرسلت العديد من كبار موظفيها، وفى سنة ١٨٥٠م تعين لساحل الذهب محافظه الخاص به مع تعيين مجلسين تشريعى وتنفيذى وهو ما أقنع التجار بحيث يحدث التعاون، ولقد ساعد ازدهار التجارة جناح الليبراليين فى بريطانيا وقامت الحكومة بشراء القلاع الهولندية فى (كريستيانبورج وكيتا).

وفى سنة ١٨٥٢م اجتمع الزعماء المرتبطون مع بريطانيا، واتفقوا على تحديد ضريبة من أجل تطوير التعليم والخدمات الطبية والطرق؛ إذ إنه بالنسبة للحكومة

البريطانية، فإن الميزانية ماتزال غير كافية حتى لصيانة القلاع التجارية، ومع ذلك فإن أولئك الزعماء لم يكونوا موفقين فى جمع الضرائب، وبسبب بعض النواقص المالية ترك مشروع التطوير، ولقد استمرت العداوة بين الأوربيين وقبائل الأشانتى الذين لم يكونوا قادرين على تصدير إلا القليل من الرقيق عبر ساحل العاج وداهومى، أما الرقيق الزائد وغير القابل للبيع فيضحى به، وفى هذا الوقت كان (بيكروفت) أكثر الناشطين ضد تجارة ونقل الرقيق حيث قاد بعثة إلى داهومى سنة ١٨٥٠م وفى لاجوس أبلغ أن المدينة صارت مركزًا رئيسيًا للرقيق على أنه لم يدخل (ويدا بسبب حروب قبائل يوروبا)، ومن الأخبار التى وردت عن قوة قبائل (الأبومى) قررت بريطانيا أن احتلال داهومى سيكون كثير التكاليف، بينما أبلغ (بيكروفت) أن لاجوس كانت ضعيفة وطالب بتدخل عسكرى، وفى (فيرناندو بول) كان القنصل البريطانى المحترف قد عرض عليه من جانب قبائل (الأكتيوى) تحالفًا يقول: إنه إذا ما قدم للملك المعزول (أوبا) المساعدة ضد المغتصب (كوسوكو)، وأعيد إلى الحكم سوف يمنع تجارة الرقيق، وعندما علم (كوسوكو) بتلك المفاوضات شن هجومًا على قبائل (أبيوكوتو) الذين يؤيدون الملك المعزول وكان هذا الأخير قد هرب إلى (سانتا أيزابيل) ليتفادى القبض عليه، وخلال السنة التالية احتل السلاح البحرى الملكى البريطانى لاجوس وأعاد (أكيتوى) إلى الحكم، وبذلك تطورت التجارة البريطانية فى المنطقة، ولكن رغم الحملات النشطة ضد تجارة الرقيق فقد استمرت تلك التجارة، ومن المفاجئ أن احتلال لاجوس كان سهلاً ميسرًا، وكانت لندن فى البداية مترددة غير راغبة فى التدخل فى الصراع على السلطة، ولم يكن فى المخطط أكثر من إنقاذ الملك (اكيتوى) ونقله إلى مكان آمن ولكن فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥١م أبلغ (بيكروفت) بأمر حصار (ويدا) وطرد (سوكوتو) من لاجوس.

وكان الأمر فى الحالتين يستهدف القضاء على تجارة الرقيق، وبذلك دخل (بيكروفت) بحيرة لاجوس مستخدمًا قاربًا صغيرًا فوجد الملك (كوسوكو) عنيدًا فى موقفه، وهنا طلب بارجة حربية وقوة إنزال لتهاجم المدينة يوم ٢٦ سبتمبر فقام الملك

(سوكوتو) بسد الممر المائى مستخدمًا جذوع النخيل والرمل المبلل حيث وضع مدفعيته على طول الشاطئ فى جبهة الحرب، وهكذا كان على البارجتين الحربيتين أن تنزلا الجنود للمواجهة الميدانية، وحدث أنه قتل المدافعون من رجال(كوسوكو) منهم خمسة عشر وجرح خمسة وسبعون قبل أن تدفع نيران البارجتين (كوسوكو) ورجاله إلى جزيرة (ايدو) وبعد انتهاء المعركة وقّع الأمير الذى أعيد إلى الحكم اتفاقية مع القنصل البريطانى سنة ١٨٦١م، ضمت بموجبها بريطانيا جزيرة لاجوس وهى بحيرة تظهر كمستنقع على مساحة اثنى عشر ميلاً مربعًا تقريبًا.

ومن أجل تعزيز سلطة القانون ومن أجل مراقبة تجارة الرقيق والدفاع عن الميناء عند الضرورة ضد غزوات الداهوميين كانت الاتفاقية قد قضت على الفوضى السائدة فى تجارة لاجوس، وأعطت التاج كل الامتيازات والمكاسب الحدودية وملحقاتها وكذلك فوائد وعوائد الميناء، ولكن دواخل لاجوس ماتزال فى حالة هيجان حيث إن الزعيم (كورومى) قائد قبائل (إيجايا) كان قد مات سنة ١٨٦٢م، بينما كانت مدينته تحت الحصار من طرف قبائل (يوروبا) وتواجه مجاعة وكان على قبائل (إيجايا) أن تبيع العديد من مواطنيها لحليفها (أبيوكوتا) مقابل الحصول على الطعام حيث كان مواطنو (أبيوكوتا) يتلقون المساعدة من أمريكى قناص، ولذلك فإن حالة الحرب قد عطلت التجارة ولم يتمكن نائب المحافظ على ضوء هذه الحالة من تحقيق هدفه فى تحويلها شمالاً إلى المنطقة الصديقة التى يحكمها الملك (ماسابا) .

وفى سنة ١٨٦٣م هاجمت قبائل داهومى قبائل أبيوكوتا لكن المهاجمين هزموا خلال السنة التالية، وفى سنة ١٨٦٤م غزت قبائل الأشانتى أراضى الفولانى، وكان المحافظ قد أرسل برقيات إلى لندن وقدم خططًا من أجل القيام بهجوم مضاد، ولكن لندن فى الحقيقة رفضت تخصيص ميزانية للعملية العسكرية، ولهذا فقد حدثت نكسة هائلة لنفوذ بريطانيا وحدث أن تلك هى المرة الرابعة خلال نصف قرن التى نكثت فيها بريطانيا بوعودها لهذا الجانب أو ذاك، وكانت قد تباطأت فى حرب الفانتى والأشانتى، وبذلك خسر الأشانتيون كثيراً وتوقفت التجارة القانونية كما أن سياسة

اللورد (نيو كاستل) التعيسة كانت واضحة فى لاجوس، ومع ذلك فإن مكتب المستعمرات فى لندن كان يصر على أنه حتى فى تحصيل الرسوم لا يبرر أى توسع على طول الساحل، وكانت جماعة مقاومة الاستعمار مرة أخرى فى وضع يسمى صرخة الحرب، ولهذا فإنه فى سنة ١٨٦٥م حدث أن طلبت اللجنة المختارة من الحكومة البريطانية الانسحاب من كل المستعمرات فيما عدا سيراليون، بينما تتخذ الترتيبات لحماية المصالح التجارية البريطانية فى كل من (جامبيا وساحل الذهب ولاجوس)، بحيث تبقى هذه تحت محمية (فرى تاون) .

كذلك طلبت اللجنة من الحكومة البريطانية بألاَّ تتولى الإشراف على مناطق أخرى فى إفريقيا، وهذه المقترحات وجهت أيضًا من الأفارقة فى المناطق البريطانية بشأن الإسراع فى الاستعداد للحكم الذاتى، وتمت الموافقة على مقترحات تلك اللجنة، ولكن البريطانيين عرفوا تدريجيًا فيما بعد أنه لا يوجد بديل إذا ما أرادوا تطوير التجارة فى منطقة ما بغير إدارة جيدة مسئولة عن كل المستعمرات، وأحدثت هذه المواضيع مناقشات شديدة مع قبائل (ايقبا لاند) وعاصمتهم (أبيوكوتا) وفى سنة ١٨٦٤م كانت هذه القبائل قد رفضت قبول قنصل بريطانى لديها، وعندما مات الزعيم (آلاك أوكوكينو) فى نفس السنة حدث ما نسميه نحن الآن انتصار فريق الحرب فى (أبيوكوتا) وزاد تأثيره، ولذلك حدث فى سنة ١٨٦٤م أن تمكنت قبائل (الأقبا) من القضاء نهائيًا على الغزو الفولانى وبالتالى تحول انتباه (أولوقون) الزعيم الحربى لقبائل (أقبا) إلى قبائل (أب دان وأجييو) وبسبب هذه الحروب تم استيراد كميات كبيرة من الأسلحة يقدر ثمنها بأكثر من ألف وثلاثمائة إلى لاجوس وبيعت فى أسواق (يكورودو)، وفى سنة ١٨٦٥م هاجمت قبائل (الاقيا) منطقة (يكورودو) ولهذا اضطر المسئول الإدارى السيد (قلوفير) أن يتدخل فى الصراع بشدة وتصميم، وهنا حدثت الممانعة المروعة فى الصرف من جانب مسئولى الإمبراطورية فى إفريقيا أى من جانب البرلمان فى (ويستمينيستر)، وأمرت اللجنة البرلمانية بضرورة إعادة لاجوس لحكم المواطنين المحليين، وهكذا بقى المسئول الإدارى (قلوفير) أقل قدرة وصلاحيات وكانت النتيجة الأساسية لهذه الأحداث التأرجح فى السياسة البريطانية

إبقاء حدود لاجوس غير معروفة وصارت حدوداً عرقية تتحول مع تحول الناس على أن مطالب اللجنة البرلمانية تلك لم تنفذ بالكامل أبداً، وفى سنة ١٨٨٤م تم ضم مستعمرة الحكم الذاتى فى لاجوس إلى إدارة ساحل الذهب[1] .

وخلال السنوات اللاحقة امتدت السيطرة البريطانية غربًا إلى (كاتانو) وقبل ذلك فى سنة ١٨٧٩م إلى (ابا) وبعدها فى سنة ١٨٨٤م إلى أماكن أخرى، ولم يوقع أى مرسوم فى شأن ذلك الإجراء، فى هذا الوقت انتهت خدمة المسئول الإدارى السيد (قلوفير) فى سنة ١٨٧٢م التى استمرت ثماني سنوات، وحدث أنه قد تم تعيين خمسة عشر مسئولاً إداريًا خلال السنوات اللاحقة الثلاث، وكان هناك منذ تأسيس مستعمرة نيجيريا سنة ١٩٠٠م إلى أن استقلت سنة ١٩٦٠م ثمانية محافظين ومحافظين عامين، وفى لاجوس كان هناك مجلس استشارى يتكون من قاضى وسكرتير المستعمرة وضابط هو قائد القوات فى جزر الهند الغربية وقائد شرطة منطقة الهاوسا، وبعد انتهاء مدة خدمة (قلوفير) تم تعيين ممثل تجارى عن شركة (ارثوبيتر)، وطلب هذا الممثل الإدارى إضافة اثنين من السيراليونيين إلى المجلس التنفيذى فى ساحل الذهب بحيث يمثلان لاجوس.

ولكن حدث سنة ١٨٧٤م أن الغى المجلس الاستشارى فى لاجوس وكذلك التمثيل فى (أكرا) ولم يعد إحياء المجلس الاستشارى ذاك إلا فى سنة ١٨٨٦م عندما تشكل من خمسة أعضاء رسميين أحدهم تاجر أوربى والآخر تاجر وطنى والثالث رجل دين وطنى وآخرون، وفى هذا الوقت كانت لاجوس تمثل مجموعة تجارية نشطة، ولقد بيّن الإحصاء الذى أجرى أن ٣٧٪ لا يعملون فى التجارة أو فى الحرف الأخرى وكان من ضمن تجار (يوروبا وأيقون) أعداد كبيرة من البرازيليين والسيراليونيين الذين ذكرت المصادر الرسمية أن البالغين منهم سنة ١٨٧١م أكثر قليلا من ألفين، وفى ساحل الذهب نتج عن قرار بريطانيا سنة ١٨٦٥م الانسحاب إلى

(١) هكذا هى سياسة الإنجليز فى كل مكان دخلوه وهى تتمثل فى الخلط والتقسيم مما يخلق المشاكل والصراعات، وكانوا قد اشتهروا بسياسة (فرق تسد)، ولعل الدائرة الآن تدور عليهم ليحصدوا ما كانوا قد زرعوا فى بلدان العالم الثالث . المترجم.

القلاع تأسيس اتحاد تعاونى فولانى من أجل أداء الأعمال الإدارية التى تركتها بريطانيا، وتبعا لذلك قامت بريطانيا سنة ١٨٧م بتبديل كل قلاعها الواقعة غرب ساحل الرأس بقلاع هولندا الواقعة شرق (المينا) بحيث يتمكن البلدان من تركيز إدارتهما المحدودة والضعيفة كل فى منطقته.

وبالنسبة لأهل الساحل كان هناك خوف من أن مقترحات اللجنة البريطانية ستؤدى إلى انسحاب كامل، ولهذا جادل الكثير من التجار من أجل استمرار الإدارة البريطانية فى دعم القلاع، وكان تبادل القلاع ذاك قد شد انتباه ورد فعل المواطنين؛ لأنه يترتب عليه تبادل السكان فى تلك المناطق، وحدث أن أعداء قبائل الأشانتى استاءوا لأنهم حولوا إلى مناطق نفوذ الهولنديين؛ لأن هؤلاء متحالفون مع قبائل معادية لهم، وفى (كوميندا) رفض الأهالى أن يسمحوا للهولنديين بدخول قلاعهم التى نقلوا إليها وقاموا بالهجوم على (المينا) التى يوجد بها سكان من حلفاء الأشانتى وبعض أصدقاء الهولنديين، وفى سنة ١٨٧٨م أعلنت قبائل الأشانتى صرخة الحرب ضد البريطانيين لكن اعتمادهم على مساعدة الهولنديين كان ضعيفًا، وفى السنة التالية اقترحت هولندا على بريطانيا بيع كل قلاعها وكانت سياسة لندن فى هذا الوقت قد تغيرت، وبالتالى وافقت على الشراء وعارضت هذا الوضع قبائل كثيرة منها (كوفى وكاركارى) مدعومين بسكان منطقة (مينا)؛ لأن شراء بريطانيا للمينا سوف يجعلها موقعًا رئيسيًا للأشانتى وكانت قبائل (الفانتى) تأمل أن تحارب بريطانيا قبائل الأشانتى، ولكن بريطانيا وهى تحسب للحرب حساباتها المالية عملت على التفاوض بدلاً من الحرب على أنها لم تكن راغبة فى الاحتفاظ بسيطرتها المحدودة لمدة أطول، وفى هذه المرحلة التقى المثقفون من قبائل الفانتى مع زعماء (المانكيسيم) خلال شهر أكتوبر ١٨٧٩م واتفقوا على صياغة دستور الاتفاق التعاونى لقبائل الفانتى بحيث يمثل أساس بناء الدولة ودفاعها عندما تخرج بريطانيا، ومن المفاجآت أن الإدارة البريطانية فى الساحل لم يكن موقفها مثل سياسة لندن المتأرجحة، ولهذا فقد استاءت كثيراً من سياسة البيع.

ولقد قام المسئول الإدارى على عجل باعتقال الذين أصدروا دستور الفانتى بحجة التآمر ضد بريطانيا ولكن مكتب المستعمرات أمر بالإفراج عنهم وخلق ذلك الإجراء فتنة وهنا

انتفضت قبائل الأشانتى وارتفعت صيحة الحرب، ومن ثم ارتعبت قبائل الفانتى من النتائج، ولكن مرض الزحار والجدرى قضى على الغزاة خلال شهر واحد وبالتالى انتهى التهديد، وفى هذا الوقت رأت بريطانيا ضرورة القيام بعمل عسكرى، وفى نهاية السنة عيّن الجنرال السير (قلرنير والسلى) حاكمًا وقائدًا عامًا لساحل الذهب، ووضع تحت تصرفه ألفان وخمسمائة جندى أوربى وعدد غير محدود من القوات المساعدة الإفريقية معظمهم من نيجيريا.

وكانت أول معركة تقع مع قبائل الفانتى قد دارت فى الفترة بين ٣١ يناير و٤ فبراير واتضح خلال ذلك أن ملك الأفانتى وكثير من رجاله قد هربوا من المدينة على إثر الغزوة البريطانية التى لم يكن مقررا لها الاحتلال والبقاء ولا لمزيد من الحروب والقتال وقام قائد القوات بحرق المدينة التى كانت مبانيها مقامة من الطين ثم غادر ونتيجة لهذه الحملة العسكرية وافقت بعض القبائل على دفع تعويضات مقدارها خمسون ألف أوقية من الذهب ووافقت أخريات على توقيع اتفاقيات من أجل إنهاء تجارة الرقيق، وعندما تولى (ديزرائيلى) وزارة المحافظين فى (ويستمينيستر) كانت سياستها أكثر نشاطًا[1] وتقرر أن تضم المناطق المحمية فى غرب إفريقيا إلى التاج

(١) دزرائيلى بنيامين أيرل بيكنسفيلد (١٨٠٤ - ١٨٨١) من أصل يهودى، نفث روحًا جديدًا فى حزب المحافظين البريطانى بمناصرته مبدأ الديموقراطية والتوسع الاستعمارى، وكان أشد رجال السياسة الإنجليز غموضًا، وأكثر احتقارًا للطبقة الوسطى التى نشأ منها، وكان أبوه (إسحاق دزرائيلى) ناقدًا أدبيًا اعتنق النصرانية، ولهذا تنصر الابن كذلك، وهو فى الثالثة عشرة من العمر، انتخب عضواً فى البرلمان سنة ١٨٣٧م، ولقد قوى زواجه السعيد سنة ١٨٣٩م روحه المعنوية وثقته بنفسه، وهكذا عقدت له زعامة المحافظين سنة ١٨٤٨م، وعين وزيرًا للخزانة فى وزارتى اللورد (دوربى) قصيرتى العمر، واختير رئيسًا للوزراء سنة ١٨٦٧م، وأقر فى عهده حزب المحافظين قانون الإصلاح البرلمانى سنة ١٨٦٨م الذى منح حق الانتخاب لعمال الصناعة، اتسمت وزارته الثانية سنة ١٨٧٤ - ١٨٨٠م بطابع العدوان فى الشئون الخارجية حيث استولت بريطانيا على جزر فيجى سنة ١٨٧٤م والترنفال سنة ١٨٧٧م، وشنت حربًا على الأفغان وقبائل الزولو سنوات ١٨٧٨ -١٨٧٩م، وهو الذى تمكن من شراء أسهم قناة السويس التى عرضها الخديوى اسماعيل للبيع بسبب ضائقة مالية، فقوى هذا الشراء مركز بريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط، وقد أجبر تركيا على التنازل عن جزيرة قبرص لبريطانيا سنة ١٨٧٨م، وأضعف هيبة روسيا فى البلقان بانتصاره الدبلوماسى البارع فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م، كان مقربًا من الملكة فيكتوريا التى توجت إمبراطورة على الهند سنة ١٨٧٦م، (دزرائيلى) الابن كان كاتبًا روائيًا اشتهر ببعض أعماله وممارساته السياسية فى الحكم. المترجم .

البريطاني والإدارة في لاجوس وتفصل عن الحكومة في سيراليون، ولقد عارض رئيس الوزراء دزرائيلي الاتحاد التعاوني لقبائل الفانتي على أساس أنه يتجاوز اتفاقات سنة ١٨٤٤ - ١٨٤٥م على أن بريطانيا سوف لن تطلب حقوقًا في الأرض، ولكنها تصر على السيطرة التشريعية، ومن قرار دزرائيلي يمكننا أن نرى ببساطة أنه في النهاية قرار استعماري ولقد عانت كثيرًا الإدارة في لاجوس، كذلك من التذبذب الذي سبق حكم دزرائيلي، ولكن عندما كانت الوزارة في ويستمينيستر تفشل كان الأفراد ينجحون في بعض الوقت، ففي (فري تاون) كان أحد الإداريين قد أقام غطاء من الإدارة الاستعمارية الممتازة خلال ظروف غاية في الصعوبة هو السيد (ثوماس ثيكمل)، وهذا أوربي إفريقي جاء إلى المنطقة من أجل التجارة وكان قد علّم نفسه، وخلال عشرين سنة شغل مناصب مختلفة وفرض إجراءات في المجالين المدني والقانوني ضد الزعماء السيئين وضد صلاحيات الكهنة الوثنيين، وفي الفترة الأخيرة من حياته كان قد ساعد على تعزيز موقف بريطانيا ضد فرنسا في المناطق الغربية، ولقد قلل من عمليات التهريب وساعد على خفض مستوى السرقات المخيفة والسرقة بالعدوان التي كانت تضرب تجارة المستوطنات وكانت (باداقري ولاجوس)، قد فشلتا في دفع مصاريف إدارتيهما وقد زادت أسعار زيت ولب النخيل خلال الستينيات وارتفع التصدير عبر لاجوس إلى سبعة وعشرين ألفًا للطن الواحد سنويًا ولكن تلك الأسعار بعدئذ هبطت، ففي ليفربول هبط السعر من سبعة وثلاثين دولارًا للطن سنة ١٨٦٨م إلى ثلاثة وثلاثين بعد سنتين من هذا التاريخ وهبط كذلك ثمن لب النخيل من خمسة عشر جنيهًا إلى ثلاثة عشر جنيهًا على أن هذه الأسعار لم تؤثر كثيرًا على المزارعين النيجيريين وإنما كان الخاسر الكبير هم التجار إذ هبط الربح في الطن الواحد من الزيت من عشرين جنيهًا سنة ١٨٦٥م إلى حوالي ثمانية جنيهات سنة ١٨٨٢م والربح في لب النخيل كان فقط ثلاثة أو أربعة جنيهات، ومنذ أن مدد كبار التجار ائتماناتهم أفلس صغار التجار، وفي بيان رسمي ذكر أن من مجموع أحد عشر تاجرًا من سيراليون

يتعاملون مع بيوت مال أوربية سنة ١٨٨٦م لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة خلال العقدين الماضيين، أما من أتى فيما بعد فهم جدد من سيراليون وساحل الذهب أو من أحفاد أسر محلية الذين كانوا قد رهنوا أراضيهم لبيوت مال تجارية أوربية، وذكرت جريدة (لاجوس تايمز) الصادرة فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٨١م أن هذا يحدث عادة كإيداع لدى بيت مال تجارى باسم خيالى عبر أشخاص آخرين، أما بالنسبة للشركات البريطانية فلم يبق منها إلا مؤسسة (بانز بروذرز) حيث انتقلت من تلك الشركات اثنتان إلى الدلتا وثلاث توقفت نهائيًا فى حين دخلت شركات ألمانية منافسة فى المنطقة بما فى ذلك شركتان ماتزالان موجودتين إلى الآن، وبحلول سنة ١٨٨١م كان هناك مائة واثنى عشر تاجرًا أوربيًا وغيرهم فى المستعمرة أو المحمية من بينهم خمسة وأربعون ألمان يعملون بالتجارة ومهندسون يشرفون على سفن تجارية فى موانئ لاجوس وبورتونوفو، وفى سنة ١٨٨٥م ضمنت الشركات الألمانية والفرنسية أكثر من نصف المصدّر من لب النخيل فى لاجوس وثلث الصادر من تجارة زيت النخيل، وكان ما يؤرق الإدارة البريطانية فى غرب إفريقيا كما فى أماكن أخرى من الإمبراطورية هو كيفية توفير الأموال من أجل القيام بالأعمال الضرورية، وهذا فى الواقع أكد ما كان يطالب به نائب القنصل (قلوفير) عندما انفجرت الحرب مرة ثانية فى سنة ١٨٧١م بين كل من (أبادان ويوروبا وأقيا يوروبا) فى منطقة (أبيوكوتا)، وتوقفت التجارة فاتجه (قلوفير) بتفكيره إلى (بورتونوفو) حيث ماتزال التجارة مزدهرة وعلى هذا الأساس سانده مجتمع التجار وقدموا إليه عرائض من أجل أن يضم المدينة، لكن السفينة الحربية الألمانية أرسلت إلى (بورتونوفو) حيث وجهت تهديدًا للملك (ميكبوه) لمنعه من وضع أسواقه تحت السيطرة البريطانية،والى لندن أرسل (قلوفير) يقول: إن السيطرة على (بورتونوفو) سوف تمكنه من إيقاف عدوان قبائل (أقيا) وإجبارهم على قبول السلام ولكن محافظ (فرى تاون) السيد (بوب هينس) رفض مساعدة (قلوفير) على سياسته تلك وأمر السفينة الألمانية أن تنسحب ولكن (قلوفير) تجاهل أوامر المحافظ وما كان

من هذا إلا أن أبحر إلى لاجوس وقرر نقل (قلوفير) وفيما بعد تبين لخلف (قلوفير) أن سياسة سلفه كانت صائبة، حيث إنه قد واجه ما كان معتاداً فى الإدارة الاستعمارية من ممارسات، وبالتالى طلب الموافقة على توسيع حدود المنطقة بحيث تشمل (بورتونوفو) وإغراء الملك الجديد الذى يظهر أنه يتطلع للمساعدة ويبدى مرونة واسمه (توفا) بحيث يعطى جزءاً من عوائد الجمارك ودون أن ينتظر الموافقة النهائية ذهب إلى قصر الملك (توفا) سنة ١٨٧٥م يرافقه القائد (هيوبت) الذى يبحث عن قرينة حول تجارة الرقيق تعطى البحرية حق احتلال المدينة، لكن النقاش مع الملك لم يكن ناجحًا كما يجب، ولكن ما كان موجوداً فى منطقة شاطئ الذهب يعطى مؤشرا أن الملك كان منغمسًا فى تجارة الرقيق، وقد أرسل محافظ ساحل الذهب هذه المعلومات إلى لندن حيث من المحتمل أن يصوت البرلمان فى هذا الوقت على ميزانية للمساعدات الإنسانية ومنع تجارة الرقيق، وكان المحافظ (أستراهان) وصغار التجار من الجالية البريطانية فى كل من (أكرا ولاجوس) على قناعة بأن كل الساحل يجب أن يحتل على الرغم من أنهم يخشون إذا ما عارضت الاحتلال قبائل (ايقون وايوى) فى (بورتونوفو ومنطقة البحيرات) سوف يطلبون المساعدة من المحاربين فى قبائل (الفون والأبونى) وباحتلال الساحل تكون منافذ تجارة (الفون) بالكامل تحت السيطرة البريطانية، مما يجعل هذه القبيلة تشغل الأوربيين فى حرب طويلة كثيرة التكاليف.

وفى حين أن بريطانيا قللت من إمكانيات الملك (توفا) فقد أجرّت سفينة بخارية بريطانية لتستخدمها كسفينة حربية تقصف عدة قرى لاستسلامها فى منطقة (بحيرة نوكوى)، ولقد تم تعيين رئيس خاضع لبريطانيا فى (أبا) وهذه كانت نظريًا تحت السيطرة البريطانية بحيث تقفل التجارة إلى لاجوس، وكان تصرف الملك (توفا) قد أعطى نائب المحافظ فى لاجوس المبرر الذى احتاجه من أجل القيام بعملية عسكرية وقد حصل على موافقة المحافظ فى (أكرا) بحيث ينفذ مخطط قطع سبل تجارة (بورتونوفو) مع (كوتوفو) وقد أبحر المحافظ إلى (بورتونوفو) فى

سبتمبر سنة ١٨٧٩م، وهناك قرر غرامة مقدارها خمسون جنيهًا وطلب من الملك (توفا) أن يرفع الحظر عن تجارة لاجوس.

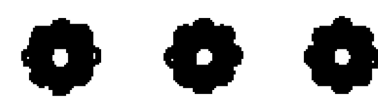
وفى هذا الوقت أطلقت سفينته طلقات تحذيرية لتجعل الملك (توفا) يوافق على رفع الحظر ودفع الغرامة، وقد استغل المحافظ هذه الفرصة ليعلن مد الحماية البريطانية إلى شاطئ (نوكوى) وفى (باداقرى) تشكل وفد مناسب من زعماء (أيوى) ليقابل المحافظ ويطلب الحماية البريطانية وقدر المحافظ أن السيطرة على (بورتونوف) سوف توفر عوائد تقدر بثلاثة ملايين دولار تقريبًا حسب مقاييس هذا الوقت وذكر فى رسالة إلى وزير شئون المستعمرات (هيك بيش) قائلاً: إن لاجوس يمكن أن تكون ليفربول الشاطئ غير أن وزير شئون المستعمرات لم يوافق المحافظ على هذا الرأى على الرغم من أنه سمح له بالاحتفاظ بمنطقة (كاتانو) بسبب أهميتها التجارية، بينما تجارة لاجوس ماتزال مقطوعة بسبب نزعة قبائل (يوروبا) الحربية.

ولقد كتب محافظ لاجوس سنة ١٨٨٣م يقول: ما يسمى حرب هو فى الحقيقة قليل من القتال يحدث دائمًا والقبض على العبيد هو الهدف لدى كلا الجانبين المتقاتلين ذلك أن اصطياد البشر هو الغرض من عمليات القتال من أجل بيعهم، وكل هذه القبائل تجارتها فى كثير أو قليل مع قبائل (آبادان) على الرغم من أنهم فى حرب مع هؤلاء ذلك أن أعظم منتج يباع يمكن أن تقدمه قبائل (آبادان) هو الرقيق حيث إنهم يبيعون لقبائل (أقباس) العبيد الذين يقبضون عليهم من قبائل (أجيشاس) ويبيعون لقبائل (أجيشاس) العبيد الذين يقبضون عليهم من قبائل (أقباس) وعملاء البيع الوسطاء هم من قبائل (أقباس واجييوس وأجيشاس) وعندما يحدث التفاوض مع قبائل (آبادان) من أجل السلام، فهذا يعنى أن هذه القبائل ستأتى بما لديها إلى الأسواق لا أكثر ولا أقل، وبالتالى فإنه لا يمكن لأى تاجر من قبائل (آبادان) أن يتعدى أسواق قبيلته، وعلى الساحل يقوم هؤلاء بتبادل الرقيق مع تجار لاجوس بالبضائع الأوربية، ومع ذلك فإنه لا يمكن لأى تاجر من لاجوس أن يدخل أراضى هذه القبيلة متجاوزًا مكان البيع على الساحل حيث يتم

التبادل وقبائل (أجيبوس) تدفع أسعاراً عالية للعبيد الرقيق لأنهم يستخدمون هؤلاء فى أعمال الحقول.

وبعض الباحثين المحدثين بما فى ذلك البروفيسور (أدى آجاى) تسابقوا على دراسة تلك الظواهر وتبين لهم بوضوح أن نمو اقتصاد المستعمرات البريطانية فى لاجوس يعتمد على تدخل بريطانيا المباشر فى شئون (يوروبا) .

وفى سنة ١٨٨٤م وافقت لندن أخيراً على ذلك العرض البائس من أجل أن تستولى على منطقة الجداول وقد ذكر أحد المؤرخين فى هذا الوقت أن فيضا من الالتماسات والمذكرات من كل من لاجوس وساحل الذهب وغرفة التجارة فى مانشيستر وليفربول كانت تشتكى من التخلف الاقتصادى فى المستعمرتين الواقعتين تحت الحكم المشترك، وأن ذلك أدى عمليًا إلى خلق انقسام بين (ساحل الذهب ومستعمرة ومحمية لاجوس) وحدث فى هذا الوقت أن عاد الفرنسيون إلى (بورتونوفو) مما جعل عملية الأحداث تتحرك بسرعة كبيرة الشيء الذى استهلك عشرين سنة حتى يعود الوضع إلى ما كان عليه فى عهد المحافظ (قلوفير) سنة ١٨٦٤م مع أن فرص احتلال أسواق جنوب داهومى قد ضاعت نهائيًا، والواقع أن أشياء كثيرة كانت قد ضاعت وفى جو فترة التحضير لمؤتمر برلين كانت أيضًا فرصة دمج المستعمرتين الساحليتين قد ضاعت بسبب التقصير ومعها الفرصة التاريخية اللاحقة فى مستعمرة نيجيريا التى كان يمكنها أن تمتد عبر جاراتها الصغيرات (داهومى) والمنطقتان الأخريان المعروفتان باسم (التوقو وغانا) ولابد أن يقع اللوم ما يسميه بعض الكتاب (البلقنة) على أعضاء حكومة المحافظين البريطانية الذين افتقدوا الشجاعة فى أفكارهم وكذلك على بعض القناصل فى (فرى تاون) وبشكل خاص القنصل (هينيس) الذى أضاع أعماله الجيدة فى (سيراليون) بأعماله الفاسدة فى مستعمرات غرب إفريقيا الأخرى.



الفصل العاشر

مبادرات الألمان والفرنسيين

الفصل العاشر
مبادرات الألمان والفرنسيين

الطريق إلى برلين

بدأت أكثر فأكثر تظهر طموحات قوة استعمارية على الساحة ليس فقط فى مناطق (أيقون وأيوى) ولكن بشكل خاص أبعد إلى الشمال خلال منتصف عقود القرن التاسع عشر تلك هى فرنسا حيث انتعش الاهتمام الفرنسى تدريجيا بعد (واترلو)[1] إذ إنه على امتداد أكثر من قرن فى الصراع مع بريطانيا كلف فرنسا أغلب مناطق إمبراطوريتها فى أمريكا وتحديدا (لوزيانا وهاييتى)، وكذلك فى آسيا وقد بقيت إفريقيا ساحة مفتوحة حيث كانت سياسة فرنسا الخارجية كما هى سياسة بريطانيا الخارجية متناثرة وغير جدية لسنوات عديدة، ومع ذلك ففى سنة ١٨٣٠م احتلت فرنسا جارتها الجزائر، وإلى قرب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٩م لم يكن لفرنسا أكثر من مصالحها التجارية فى غرب إفريقيا فى حين أن ألمانيا وقتئذ كانت جاهزة تبحث عن مكان ترفع عليه أعلامها، ولقد كان تحدى هاتين الأمتين قد أجبر أخيراً بريطانيا أن تدرك أنه حتى وجودها السابق فى الساحل التجارى لا يمكن المحافظة عليه ما لم تحاول خلق إدارة تجارية استعمارية بما يحتاج ذلك الترتيب، ولقد كانت عودة فرنسا

(١) واترلو اسم يطلق على معركة يونيو ١٨١٥م وهى آخر معارك الحروب النابليونية التى وقعت جنوب بلجيكا، وقد واجه فيها نابليون الأول أوربا المتحالفة، وكان يأمل أن يهزم القوات البريطانية البروسية قبل أن يلتحم مع النمسا، وفى أثناء القتال ضد القوات البريطانية بقيادة القائد البريطانى ويلنجتون انسحب هذا الأخير إلى موقع جنوب واترلو، وهناك انتظر هجوم الجيش الفرنسى، وحدث أن أمر نابليون بالهجوم يوم ١٨ يونيو فقاومه الإنجليز بنجاح، وتصدت له قوات بلوخر التى أفلتت من الفرنسيين الذين تفرقوا فيما بعد وانهزموا، وهكذا تخلى نابليون عن العرش فى ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥م وأصبحت فرنسا مهزومة فى هذا الوقت. المترجم.

المحسوسة إلى الساحل بعد سنة ١٨١٥م قد تمثلت فى إعادة احتلال جزيرة (غورى) بسانت لويس وقلعة (البريدا) فى (جامبيا) أما محاولات زراعة القطن فى السنغال الأسفل فقد فشلت، وحدث أنه بين سنوات ١٨٣٨-١٨٤٢م أن وقع الضابط البحرى (بويت ويلیامیر) اتفاقية تجارية مع الزعماء فى رأس (بالماس وأبسام الكبرى وسينى) الأولى تقع الآن فى ليبيريا والتى تليها تقع فى داخل غانا وتقع بسام الكبرى فى ساحل العاج، وهذه كانت لعدة سنوات عاصمة ساحل العاج الاستعمارية، أما القلعة الفرنسية فى (ويدا) فقد أعيد احتلالها سنة ١٨٤٣م مباشرة بعد تحصين (أسيتى وبسام الكبرى) ولقد نقلت المراكز التجارية إلى مناطق أخرى فى ساحل غينيا وتحديداً فى (بوتونوفو ووكوتونو وأنيكسو) وعندما حدثت اضطرابات وعدم استقرار بعدئذ تم التخلى عن محطات (فون وأيوى) وأخيراً أعطت بريطانيا لفرنسا محطاتها التجارية فى السنغال بينما أعطت فرنسا لبريطانيا (البريدا) فى قابيا وهكذا صار لكل بلد سيطرته على الجزء الخاص به فى نهر قابيا العليا وكان فى هذا الوقت قد اتجه الاهتمام الفرنسى إلى حد ما بعيداً عن الساحل، مما أعطى بريطانيا مساحات هائلة فى مناطق لم تكن تجذب انتباه قوة أوربية وهى منطقة السودان الغربى وتلك هى المساحة الكبرى الواقعة غرب أرض الهاوسا والتى ظهرت بها أربع دول رئيسية فيما بعد وهى (الفوتا أو تيكرور ومملكة بامبارا ساقو وكارتا وسامينا) والبلد القوى (بامبارا)، إنما هو جمع بقايا (مالى) التى توحدت بعد هزيمة تلك الإمبراطورية بواسطة قبائل (أسكياس) الذين كان يقودهم (بيقوه كولولابى) خلال الفترة من سنة ١٦٦٠ - ١٧١٠م، ثم إن مملكة (بامبارا ساقو) صارت قوية حتى إنها أجبرت قبائل البربر فى تومبوكتو على دفع الجزية، أما (كارتا) فقد كانت منفصلة من مملكة (بامبارا) إذ تحاربت المملكتان الشقيقتان أثناء القرن الثامن عشر وحدث على إثر ذلك العنف فى الصراع أن دفعت حدود (مارتا) غرباً فى اتجاه السنغال الأعلى، أما (ماسينا) فقد كانت تمثل مملكة الماندیق والثيوقراطية التى أسسها على النيجر الأعلى (أحمادو ليبو) وهى التى يتكون أغلب شعبها من (الفولانى) الذين يحكمهم زعيمهم الخاص (جالو) الذى كان قبل (أحمادو ليبو) يدفع الجزية فى البداية لإمبراطور مالى ثم لباشا تومبوكتو ثم من أواخر

القرن السابع عشر وما بعده صار يدفع لبامبارا ملك (ساقو)، وخلال القرن التاسع عشر حدث أن كثيرين من الفولانى فى (ماسينا) صاروا مسلمين بقيادة (أحمادو ليبو) الذى دخل الحرب مع (عثمان دان فوديو) وهو مصلح إسلامى قضى على قبائل (جالو) الوثنية وهزم المحاربين الذين جاءوا من (ساقو) لمساعدة زعيم (جالو) الذى كان يدفع لهم الجزية وبعد هذه الانتصارات أقام (أحمدو ليبو) فى (ماسينا) دولة إسلامية متشددة وتوالى على الفولانى عدد من الزعماء كانوا تاريخيًا سبب الفرقة بين شعب الفولانى الرائع وكان المواطنون (التوكولور) الذين يتكلمون اللغة الفولانية، قد هزموا نظام قبائل (الولوف) وأعادوا قيادة (الفولانى) وهؤلاء منحدرون من أصل المرابطين وكانوا مسلمين منذ قرون، وخلال منتصف القرن التاسع عشر وسع المسلم التيجانى الحاج (عمر) حدود مملكة الفولانى إلى تومبوكتو وعمر هذا الذى تحرك بتوسع هو رجل تقى متعصب وابن بالتبنى للسلطان (سوكوتو بيللو) الذى قاد الجهاد ضد الدول الوثنية فى السودان الغربى، حيث هزم (كارتا) سنة ١٨٥٤م، وبدأ بعد ذلك مسيرته الطويلة عبر السودان الوثنى، وكان قد حدث فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ السودان أن برزت فرنسا، وفى تلك المسيرة رفضت (ماسينا) الاشتراك فى الحرب ضد (سيقو) لكنه هاجم (كاسو وقالم) فى المنطقة الوسطى من السنغال والتقى بطابور متقدم من القوات الفرنسية فرد على أعقابه، وكان عمر قد احتل (سيقو) سنة ١٨٦١م واحتل (موسينا) خلال السنة التالية ١٨٦٢م، وكان عمر هذا رجلاً متعصبًا مخلصًا ومفكرًا متكلمًا غير متسامح مع الوثنيين، ولكن كثيرًا من خططه كانت دون المستوى اللازم للاحتلال والسيطرة وهكذا فإن كل من (بامبارا وسيقو وفولانى مسينا) انتفضوا ضد فرض فولانى تكرور عليهم، وقواتهم الاستعمارية ولقد قدرت حشود هؤلاء بثلاثين ألفًا بين راكب وراجل وقد هزموا قوات عمر الذى قتل هو نفسه فى كهف (وربما يكون قد انتحر) وفى سنة ١٨٦٤م ثأرا من المسلمين ضربت أعناق ثلاثمائة معلّم مسلم فى (ماسينا)، وكانوا مربوطين بعمائمهم واحداً بالآخر، وحدث أن أبناء عمر وأبناء إخوته الذين كان قد جعلهم خلفاء فى المناطق التى استعمرها

واجهوا العديد من الثورات بعد موته أو قتله، ولكن بحلول سنة ١٨٧٢م تم القضاء على الثورات وأعيد تأسيس إمبراطورية (الفوتا) ووضعت كل السلطات فى يد (أحمادو بن عمر من ابنة سلطان سوكوتو) لكن حكمه أثبت أنه غير شعبى وخلال العقد اللاحق أى فى سنة ١٨٨٤م أجبر على نقل قيادته إلى (نيورو فى مقاطعة كارتا)، وفى سنة ١٨٩٢م أجبرته القوات الفرنسية على الهرب إلى (ماسينا) وفى سنة ١٨٩٣م تراجع إلى قرية صغيرة قرب (سوكوتو) حيث مات بعد خمس سنوات، وهناك فى منطقة التواصل بين شمال نيجيريا والسنغال يوجد بيت الحاج عمر إلى هذا اليوم وصار حفيده المدعو (سيدو نوروتال) زعيمًا سياسيًا ودينيًا فى السنغال الحديث وكان سفير نيجيريا بعد الاستقلال فى لندن السيد (عبدالمالك) وهو حفيد (إبراهيم نياس) وإبراهيم هذا كان أحد زعماء المرابطين الكبار وهو الذى سيطر على جزء من المنطقة الانتخابية التى تسمى (بوريد بالسنغال)، ولقد خلف إمبراطور الفولانى تكرور أحمادو ابنًا يدعى (ساموری) الذى وحّد شعب (الماندينقو) حوله ومارس تجارة الرقيق بشكل كبير حيث كان يبيع الغنيمة الإنسانية فى الصحراء وهى المكان الذى كان فيه العرب مازالوا يشترون العبيد، ولم يسمعوا أبداً بقانون تحريم تجارة الرقيق، ولقد ولد (ساموری) من زواج بين (أحمادو) ومحظية وثنية ثم تربى فى حضن تاجر وثنى واعتنق الإسلام وهو فى سن العشرين من العمر، ومن سنة ١٨٧٠م عندما كان يبلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة إلى سنة ١٨٨٢م لم يكن له من عمل غير تجارة الرقيق، ولكن منذ هذا الوقت حدث له ما حدث لوالده قبله من غزوات الفرنسيين، وهكذا فهو إلى سنة ١٨٩٨م كان مشغولاً بالدفاع عن مملكته بشدة وعناد ضد الغزاة البيض لكنه حوصر حتى جوّع ولما قبض عليه رحل إلى القابون فى نفس السنة ١٨٩٨م، ومات هناك سنة ١٩٠٠م، والآن فى غينيا الشمالية حيث تعيش قبائل (الماندينقو) أو (المالكى) ينظر إلى (سامرى) كبطل قومى، أما المؤرخون فيرون أنه قائد عسكرى وإدارى ممتاز، وأول رئيس لغينيا (أحمد سيكوتورى) يفخر بقرابته (لساموری)، ويعتبر نفسه حفيد ذلك البطل، ومع ذلك فإن فى (ساموری) جانب

سلبى لأنه حبس ابنه إلى أن مات لمجرد أن هذا الابن نصحه بالاستسلام للفرنسيين، كما أن الكاتب المعاصر (آمادو هامباتا با) ذكر أن (ساموری) كان يشوى الناس كما يشوى الفول السودانى، أما المناطق التى كان قد احتلها فإن أهلها مازالوا يعتبرون اسمه لعنة أو إهانة حيث كان الإسلام بالنسبة لساموری سلاحًا أكثر منه اعتقادًا حسب ما يرون، وكانت فرنسا قد أسست إدارة مستقلة لكل من (قورى والسنغال) على الساحل وصار (قورى) قاعدة لقيادة البحرية الفرنسية تحمى كل المراكز التجارية الفرنسية فى ساحل غينيا، وكان محافظ السنغال الجنرال (لويس فايديلهيربى) قد وسع نفوذه فى منطقة النهر، وكان اسم المستعمرة الفرنسية الرئيسية فى إفريقيا آتيا من اسم نهر السنغال الذى أخذ كنيته من (زيفاقا) أو (زيناقا) وهم الشعب البربرى الذى كان يعيش على الجانب الأيمن من النهر ومنهم القبيلة الكبيرة التى تدعى (الوولوف) وهذه ذكرها لأول مرة (دا موستو) وأطلق عليها اسم (زيلوفى) ويظهر أن عبارة (وولوف) آتية من كنية القبيلة التى يطلقها عليهم جيرانهم (الماندى) وهى تعنى (أسود البلد)، وكانت قبائل (الوولوف) أساسًا قد تجمعت فى مملكة (الوالو) بالدلتا وكان ملوك البلاد يحتفل بهم وبذكرياتهم منذ نهاية القرن الثانى عشر، وأن مؤسس المملكة يدعى (ناجاى) وكانت عاصمة البلاد حتى القرن الثامن عشر فى (جوربيل) وهى دولة سودانية متقدمة نسبيًا يسكنها قسمان من الناس أى طبقتان (الأحرار والعبيد) وأول اتصال لها بالإسلام كان فى القرن العاشر والثالث عشر، ولكن خلال سنة ١٤٥٥م وجد (دا موستو) أن الأسلمة شكلية فقط وكانت مقاومة الإسلام والحروب ضد المغاربة وضد قبائل (الفوتا والتورو) خلال القرن التاسع عشر قد شجعت قبائل (البراكا)، بحيث وقعت معاهدات مع فرنسا من سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٩٠م بعضها وقعته الملكة الأم، ومع الاستعمار حدث إسلام (الوولوف) إذ صار حوالى خمسة وثمانين بالمائة منهم مسلمون ومع استثناء الوثنيين المتغطرسين كانت إمارة (الوولوف) المستقلة (كابور) مسلمة منذ القرن السادس عشر بقيادة ملكها الذى كان اسمه التشريفى دائمًا (فال) وفى سنة ١٨٦١م تحت قيادة (لات جور) استأنفت (كابور)

مسيرتها ولكن الفرنسيين طردوا (لات جور) حيث اختفى فى منطقة (سالوم)، وهناك اعتنق الإسلام سنة ١٩٦٤م على أنه استطاع بعد فترة أن يعقد سلامًا مع الفرنسيين سنة ١٩٦٨م، وعاد إلى (كابور) مصحوبًا بالداعية المسلم (مومار أنتاسالى) والد (آمادو بامبا) مؤسس طائفة المريدين، وكان المحافظ المدعو (فياديليهرب) يعمل على تنمية المصالح الفرنسة فى إفريقيا السوداء حيث إن فرنسا لها وجود دائم كثيرًا أو قليلاً فى (ساينت لويس وجزيرة قورى) منذ القرن السابع عشر وعند نهاية القرن الثامن عشر كان سكان (ساينت لويس) يبلغ عددهم سبعة آلاف مواطن بما فى ذلك مائة أوربى، وتلك أكبر مجموعة أوربية فى الساحل شمال نهر الكونغو وأغلبهم من الرجال يعيشون مع عشيقاتهم الإفريقيات اللواتى يعترف بأطفالهن ويسمون (مولاتو) أى ربع زنجيين ويعرفون الآن (بالساينت لويسيون) نسبة إلى منطقة (ساينت لويس) وفى سنة ١٨٢٥م صار فى (ساينت لويس وقورى) معًا سكان يبلغ عددهم عشرة آلاف مواطن منهم اثنا عشر ألفًا من الرقيق المحلى حسب تقدير المسئول الإدارى السيد (قوليت)، وفى سنة ١٨٣٣م أعطى المرسوم الملكى الفرنسى كل الرجال الذين ولدوا أحرارًا فى المناطق الفرنسية الجنسية الفرنسية الكاملة وهذا يسرى فى المراكز الفرنسية كما فى فرنسا، وفى سنة ١٨٤٨م نتيجة لثورة الليبراليين التى جاءت بالأمير الرئيس نابليون الثالث إلى الحكم ألغت فرنسا أخيرًا تجارة الرقيق، وفى نفس السنة حصل السنغال على حق انتخاب نائب سنغالى فى المجلس التشريعى ولكن هذا الامتياز ما لبث أن ألغى سنة ١٨٥٤م وكانت هذه السنة التى أرسل فيها السيد (فايديليهرب) إلى (ساينت لويس) التى كان سكانها يبلغ عددهم اثنى عشر ألفًا وثلاثمائة وستة وثلاثين منهم مائة وسبعون أوربيًا فقط، وكان الفرنسيون والأوربيون كما هم الآن يحكمون المدينة، وفى هذا الوقت رفع (فايديليهرب) بنادقه السنغالية ليهدد جيرانه فى الأراضى الداخلية بما فى ذلك هضاب (توتا وتورو)، وقد احتل (داكار) وهى عبر المضايق من (قورى) سنة ١٨٥٧م وأسس (بينيت لابراد) وهذا الآن واحد من موانئ غرب إفريقيا الهامة، وفى هذا التاريخ اخترقت بعثة استطلاعية

الداخل حيث وصلت إلى أبعد من (فوتا جالوه) فى غينيا الحديثة وهناك تم تأسيس عناصر الإدارة مع بعض المدارس ولابد أن (فايديليهرب) قد أخذ معظم الفوائد من ذلك النمو لأنه كان أول فريق المحتلين منذ بداية الإدارة الاستعمارية، ولقد ذكر رفيقه السيد (ريتشارد مولارد) عنه أنه كان موظف الإمبراطورية الموهوب الذى يتمتع بإحساس فى السيطرة غير محدود وهو قنصل محترف بصلاحيات إمبراطورية، وبعد أن غادر (فايديليهرب) سنة ١٨٦٥م ركدت السلطة الفرنسية مرة أخرى لمدة خمس عشرة سنة وكان مواطنو السنغال وقتذاك قد بلغ عددهم مائة وخمسين ألف مواطن منهم خمسة عشر ألفًا فى مدن (ساينت لويس وقورى وداكر) وكانوا من السود والملونين وفرنسيين بيض، وبعد سنة من هذا الوقت عندما تركت فرنسا (بورتو نوفو) اقترح (تشاسيلوب لوبات) أن تخلى فرنسا لبريطانيا محطاتها التجارية فى ساحل العاج وفى غينيا فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تحتل جزر (لوس) مقابل (جامبيا) وأيد بشدة محافظ سيراليون السيد (كيندى) هذا المقترح ورحب به السيد (أيرل قرينيفيللى) المسئول فى مكتب المستعمرات، لكن الاتفاقية البريطانية الهولندية الخاصة بتبادل القلاع سنة ١٨٦٧م أزاحت الإنجليز إلى محطات (ماكورى فى باسام الكبرى وأسينى) ونزعت من المشروع بعضًا من جاذبيته الأولية، وفى الوقت الذى باع فيه الهولنديون كل قلاعهم فى ساحل الذهب لبريطانيا سنة ١٨٧١م بما فى ذلك (ديكسكوف وشابا) اللتان كانتا بالقرب من (باسام الكبرى وأسينى) كانت الحرب الفرنسية البروسية قد أوقفت المباحثات بشأن غينيا وجامبيا، ولو كانت قد تحققت تلك المقترحات لكان يمكن أن تنتج سيراليون بفعالية أكبر ولحلت المشكلة المستمرة للجيب البريطانى فى كل من جامبيا والسنغال، وحدث أن هزيمة فرنسا سنة ١٨٧١م سببت فترة خلل فى الشئون الخارجية الفرنسية ولكن خلال العقدين الأخيرين من القرن احتلت فرنسا تدريجيا مساحات فى إفريقيا بما يماثل مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وهكذا بدأت المباحثات بشأن جامبيا وغينيا وساحل العاج، وبشأن التبادل سنة ١٨٧٥م ثم استؤنفت خلال السنة التالية، ولكن فى ذلك الوقت كانت المصالح

الفرنسية فى المنطقة قد كبرت ولهذا فإن فرنسا ساومت بأكثر عنادًا من أجل ذلك ولأسباب أخرى، وفى سنة ١٨٧١م كان الزعيم (لات جور) قد أعيد بواسطة فرنسا إلى الحكم فى (كابور) وبعد أربع سنوات ساعد هذا الزعيم فرنسا فى حملتها العسكرية ضد المقاومة التيجانية فى منطقة (فوت تورو) لكنه من سنة ١٨٧٧م إلى سنة ١٨٨٢م وقف ضد المشروع الفرنسى المتعلق بالسكة الحديد المار عبر (طابور) من (داكار) إلى (ساينت لويس)، وأخيرًا حمل السلاح لكنه هزم فى نفس السنة، ثم إنه قبل مؤتمر برلين كان النفوذ الأوربى بشكل خاص محدودًا على الساحل فقط مع أميال قليلة من الأرض، وكانت أكبر مستوطنة أوربية فى شمال الكونغو فى ذلك الوقت هى لاجوس التى ظهرت على الخريطة سنة ١٨٨٥م على هذا الحجم، أما على الأرض فإن النفوذ البريطانى توسع إلى أبعد من بحيرة (لاجوس) وفى المركز الغربى أقامت قيادتها فى (باداقرى) كذلك فإن الإدارة البريطانية أيضًا توسعت عدة أميال فى منطقة المستنقعات على أن انحسار النفوذ الأوربى فى الساحل كان مماثلاً لذاك الذى فى ساحل الذهب حيث كانت اتفاقية طرق التجارة إلى (كوماسى) مثلاً غير مضمونة بأى وجود أوربى دائم، وفى البداية عند مناطق الفرنسيين كانت الهجومات فى الدواخل على نفس النمط وقتية واستثناء للقاعدة العامة كانت منطقة (فولتا)، ولقد أنشأت البعثات التبشيرية عدة كنائس فى مناطق مختلفة لكن الحياة كانت صعبة، وعدد الخسائر بسبب الأمراض كان كبيرًا، حيث بلغ ثمانين فى المائة، وفى سنة ١٨٨٦م لم يكن فى كنيسة (أيوا) فى الفولتا أكثر من خمسمائة مواطن بروتوستانتى، وفى هذا الوقت صار الوجود الألمانى محسوسًا فى منطقة الساحل حيث تأسست خمس شركات ألمانية، وفى سنة ١٨٨٧م وسعت بريطانيا حدودها فى ساحل الذهب ثمانية عشر ميلاً فى اتجاه الشرق من (كيتا) إلى (أفلاو) وذلك مركز الحدود الغانية الآن، وكانت بعض المناطق التى هى الآن داخل داهومى الحديثة محطات تهريب أسلحة وخمور كبيرة، وقد لعب الألمان دورهم فى الحصول على الفوائد من رحلات التهريب تلك، وخلال الثمانينات من القرن صارت القرية الصغيرة (لومى) مركزا

لتجارة زيت النخيل من منطقة (أقوديم) الداخليـة، وكان لب النخيل أيضًا يحضر من مناطق بعيـدة مثل (سالاقـا) من خلال طرق أرض الهاوسـا بين (كوماسى والنيـجر)، وكذلك كـان هناك سوق زيت فى (باقيدا) يأتيـها عبر (هاكـو) وهى التى تعرف الآن باسم بحيرة توقو (بورتو سيـقـورو) والآن فإن القـرية الرئيسـية فى (هاكو) تـقدمت نسبيًا، وكانت العملة الإنجليزية ودولار جنوب أمريكا مستعملة فى التبادل عند موانئ البحيرات، وهناك تدفع جزية للتجـار الإنجليز والبرازيليين، ولقد نمت (ويدا) إلى حد كبير حيث بلغ عـدد سكانها حوالى عشرة آلاف خلال السبعـينات فى ظل خمسة من الزعماء اعترفوا بالقلاع الأوربية كحدود إضافية فى مقابل حقوق تدفع (لأبومى)، أما السفن فقد كانـت تجمرك كما كان الحال فى القرن الماضى تبـعًا لعدد السوارى، وكان الملك (قاليلى) هو التاجـر الأساسى فى بلاده وتثبت القيودات أنه كان مـشهوراً بسوء المعاملة فى الدفع، وعندمـا صار البرازيلى (سانتوس) وكـيلاً فى (ويدا) سنة ١٨٧٢م للشركات البـريطانية أمر بأن يقطع الائتمـان الخاص بالملك، وفى سنة ١٨٧٦م رفض طلب الأمير (كـوندو) الأمر الخاص بتوريد الأقمـشة وهذا صار فيمـا بعد ملكًا يجب أن يحـصل على مـدفـوعـات العـائلة المالكة، وبالتـالى رد منتقـمًـا بحـجـز الوكـيل (سـانتوس) وكل ممتلكاتـه، وفى هذه الحالة جـاء الوكـيل الأوربى فى ساحل الرقـيق (تورنبـول) ليتـوسط لكنه احتـجز هو الآخـر ولحسن الحظ أنه تمكن مـن إرسال خـبر للكوماندوز (هوويست) قـائد الفرقة البـحرية الملكية فى منطقـة (باتيس)، وفى الحال أبحر (هوويست) إلى (ويدا) وهـناك صوّب مدافعـه ليفرض إخـلاء سبيل التـاجرين الوكيلين وفرض على الملك غرامة قدرها خمسمائة عبوة من زيت النخيل، وفى يوليو من نفس السنة حاصر الساحل من (بورتو سيقورو إلى بورتو نوفو) وفرض دفع كل الديون من طرف العائلة الملكية واستمر الحصـار ثمانية أشهر وعندئذ تدخلت الشركة الفـرنسـية (ريجـيس) لتـدفع نصف ديون الملك وتقنعـه بأن يطلب من مـواطنيـه دفع النصف الآخر خـلال فترة اثنى عـشر شهراً وكـانت الشركة الفـرنسية قلقه خـوفا من ضـياع إنتـاج النخيل الذى لا يمكن نقـله بسبب الحـصار كـذلك خوفـا من قطع طرق

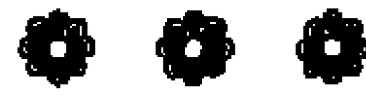
التجارة[1] فيما إذا دفع الملك العنيد هؤلاء البريطانيين إلى استعمال القوة من أجل تحصيل الديون، وقد قبل القائد البريطانى (هوويت) عرض الشركة الفرنسية وكانت النتيجة أن الملك لم يدفع شيئًا على الإطلاق ولا دفع مواطنوه النصف الآخر من ديونه ووقع العبء على الشركة الفرنسية الحريصة على تجارتها، وكان لهذا الحادث عواقب تاريخية حيث أقنع الحصار الفرنسيين، كم كانت تجارتهم العابرة معرضة للحجز فى غياب اتفاقيات مكتوبة، وكم كانت قدرة القوة البريطانية على الرغم من أن هناك اعتقادًا بأن بريطانيا تزحف على (ابومى) من أجل تحصيل الخمسمائة برميل زيت، وكان ذلك الاعتقاد قائما على ملاحظات غاضبة تفوه بها لأحد ضباط البحرية الفرنسية القبطان (سوليفان) التابع للقائد (هويت)، ومن خلال السجلات يظهر أن بريطانيا كانت ترتب لقبول مبررات معقولة دون أن تفرض الغرامة، وهذا الخوف من حرب تعطل التجارة فى المنطقة أكد حاجة فرنسا للحصول على حقوق هامة فى الأرض وهكذا قررت الخارجية الفرنسية مساندة التجار الفرنسيين أى تجار بلادها ولذلك قدم العميد البحرى الفرنسى سنة ١٨٧٨م مشروع اتفاقية إلى ملك (ويدا) يعطى فرنسا أربعة عشر ميلاً مربعًا فى (كوتونو) مع جميع الحقوق الجمركية، ويظهر أن الملك (قليلى) لم يطلع ولم يوافق على تلك الوثيقة المشبوهة والتى لا تحوى أى تعويض عن الضرائب التى سيفقدها، ولقد تعزز الوجود الفرنسى بتعيين القنصل الفرنسى فى (كوتونو) ويدعى (أردين دى ألتيل) وهذا كان نائبا للقنصل المقيم فى (فرى تاون) وحدث أنه فى هذا الوقت قد تطور الصراع بين بريطانيا وفرنسا وبين البلدين وممثليهما بسرعة، وكان القنصل الجديد (دى ألتيل) مقتنعا بأن بريطانيا سوف تستولى على (بورتونوفو)، ولذلك اقترح تجديد اتفاقية حماية

(١) هكذا هى الحال فى معاملات الغرب الاستعمارى منذ ذلك الوقت حتى الآن خلال هذا العصر الذى تحكمه أمريكا ليس بالسوط والكرباج، بل بالصواريخ والطائرات بدلاً من مدافع ذلك الزمن، وعلى أى حال فإن تفكير هذا الغرب لم يختلف، ففى سبيل المصالح يخالف كل المثل والأخلاق والمواثيق، وما يحدث الآن لا يختلف عن عهد الملك (كوندو) رغم مرور مئات السنين. المترجم.

(بورتونوفو) مع فرنسا تلك الاتفاقية التى كانت قد وضعت على الرف فى باريس، وكانت السياسة فى وقت اتفاقية (كوتونو) قد تغيرت ولم يحصل القنصل الفرنسى على مساندة عسكرية حتى إن ميزانيته قد نفدت كما كان الاعتقاد فى باريس وقتئذ أنه يكفى الاحتفاظ (بكوتونو) لمدة ما حتى يتم المشروع الجديد أى مبادلتها بجامبيا، وكان شرط فرنسا أن يبقى ساحل الرقيق خاليًا من مراكز الجمارك البريطانية فى مقابل ترك (كوتونو) لها على أن جزءًا من غينيا سوف يلحق بسيراليون، لكن المشروع لم ينجح وقبلت سياسة القنصل الفرنسى بشأن حماية (بورتونوفو)، وبالتالى وقعت اتفاقية مع الملك (توفا) فى أبريل سنة ١٨٨٢م، وأصبحت سارية علنية بعد شهرين والخشية من انتباه البريطانيين لم تهدأ إذ فى (بورتونوفو) القنصل (باريستى) أبلغ وزارة الخارجية فى بلاده أنه يعتقد أن نائب المحافظ (مالونى) قد ينتقل من لاقوس، وأن السير (صامويل روو) يمكن أن ينضم إليه بقوات من (اكرا) من أجل إحباط تلك المحاولات، وهكذا قام وزير الخارجية الفرنسية الجديد (ليكليك) بإعلان الحماية رسميا خلال السنة التالية وبذلك تم تعيين التاجر الفرنسى المدعو (كولونا دا اليكا) مقيما فى (كوتونو) ورفع العلم الفرنسى على (بورتونوفو) وتوقفت (كوتونو) عن دفع الضرائب لأبومى، وفى (بورتونوفو) تقرر أن يحصل ملك (أيقون) على عشرة آلاف فرنك سنويًا كتعويض عن فقدان حقوقه هناك، وفى يونيو ١٨٨٤م قام العقيد الفرنسى (دورات) باحتلال (كوتونو) بواسطة قواته السنغالية بناء على تعليمات من حكومته بحيث يسبق البريطانيين ثم اتخذت فرنسا موقفًا أكثر صرامة تجاه نجاحات التجار الألمان فى منطقة جناحهم الغربى، وكان الألمان قد نظروا بارتياب إلى نمو النفوذ البريطانى فى ساحل الذهب، وهكذا فى الحال تسارع الاتجاه المنادى بالاستعمار كثيراً؛ إذ بالإضافة إلى غرفتى التجارة فى كل من (بريمن وهامبورج) كان هناك فرعان من قوى الضغط وهما (ويستديتش وكولونياليفيرين)، وفى منطقة ذات مصالح للطرفين التجاريين فرنسا وألمانيا حدث أن تحركت فرنسا بشكل أسرع فى حين كانت حكومتا باريس وبرلين مرتبكتين تقدم مالك السفن الفرنسى المدعو (سايبيريان فابرى) بطلب للحكومة الفرنسية من أجل حماية زعماء (أنيكسو ومورتو سيقورو وقراند

بوبو)، وهؤلاء الزعماء كانوا قد شجعوا ليوقعوا عهوداً بعدم دفع الجمارك المستحقة لبريطانيا إذا ما جاء الأسطول الفرنسي، وعلى الرغم من أنهم وقعوا لكن باريس ترددت ولم تتصرف، وإن قد وافقت أخيراً على طلب (قراند بوبو) دون الخربات، وكان موقف فرنسا من المستوطنة البرازيلية والبعثة الكاثوليكية مريبًا، ولكن من أجل أسباب سياسية اعترفت بريطانيا وألمانيا بالمستعمرة كفرنسية وكان لفرنسا وجود حقيقى فى السنغال، حيث صار المزارعون ينتجون القطن والزيت والتمر وجوز الهند والقهوة، وبعد صحوة فرنسا من هزيمتها أمام بروسيا وكما فى الماضى بعد والترلو، وكما الآن فى الفترة الديجولية وكرد على سقوط فرنسا سنة ١٩٤٠م برزت موجة من الوطنية، وقد أخذت تلك الوطنية حوالى عقدين من الزمان لتجمع قواها، وهكذا فقد وجدت هذه الروح الوطنية مخرجًا لها فى إفريقيا حيث يوجد موقع لها فى السنغال قد يوفر لها فرصة بناء إمبراطورية، وحدث أنه فى سنة ١٨٧١ استعاد المواطنون الفرنسيون السود حقوقهم فى انتخاب من يمثلهم وقد تم تأسيس مجلس عمومى فى المستعمرة ومجلس بلديات فى (ساينت لويس وقورى) سنة ١٨٨٠م، وفى سنة ١٨٨١م أقيمت قيادة عسكرية على نهر السنغال الأعلى أى فى (كايسى) مالى الحديثة وهى أعلى نقطة ملاحة كما احتلت باماكو سنة ١٨٨٣م أما (سيقورو وتومبوكتو) فسقطتا بيد القوات الفرنسية خلال التسعينيات، وفى سنة ١٨٨٧م فصلت (داكار) إداريًا عن (قورى) وبذلك صارت مستعمرة السنغال تقارن بمستعمرة بريطانيا فى سيراليون على الرغم من اهتمام القوتين الاستعماريتين فى ذلك الوقت بتلك المصالح فقد كان بالنسبة لبريطانيا يتمثل فى الانتداب الثنائى الذى يؤدى إلى الاستقلال، ولكنه بالنسبة لفرنسا كان يستهدف تكامل غرب إفريقيا مع فرنسا ولهذا كانتا مختلفتين ويلاحظ كاتب معاصر قائلا، كان ذلك بقدر ما نوعا من الاستيعاب فى السنغال أو كل غرب إفريقيا الفرنسية ولكن إلى سنة ١٩٤٤م لم يكن هناك وجود للحقوق السياسية فى إفريقيا السوداء الفرنسية والواقع أنه فى السنغال كان المواطنون يناضلون للاحتفاظ بما حصلوا عليه ضد إدارة تحاول حرمانهم من تلك الامتيازات التى كانت قد أعطتها للسنغاليين فى بداية التدخل الاستعمارى، وهكذا فإنه إلى أن انفجرت الحرب العالمية

الثانية كانت هناك حالة متناقضة فى سياسة الاستيعاب الفرنسية، وكان السنغاليون يطالبون بأن تطبق بشكل أكثر ليبرالية، ولقد كان هذا هو السبب فى نشاط الفرنسيين الأفارقة خلال السنوات القريبة خصوصا فى السنغـال وإن لم يكن موجها إلى الاستقلال ولكن إلى زعم مساواتهم فى الحقوق الأساسية مع الفرنسيين فى الحقوق وهى التى تعنى فى الواقع سياسة الاستيعاب التى قدمت إليهم، ومع ذلك ففى الجنوب كان (بيرجر) يستكشف إمكانية عقد اتفاقية مع ما يعرف الآن بساحل العاج وجمهورية فولتا، وكانت بعثة أخرى قد اتجهت إلى منطقة تشـاد عبر صحراء واسـعة حيث وضعت فـرنسا يديها على المراكز الأمـامية، وهذه أغلبها صحـراوية وهى التى سماها المستكشف (فايديلهيـرب) باسم (القمرية)، والتى قال عنها اللورد (ساليزبورى) الأرض الـبسيطة، ولقد كانت أغلب أعمال الاحـتلال تقوم بها مجموعات صغيرة من الضباط الفرنسيين مستخدمين جنوداً أفارقة، ولكن الأمل الكبير فى خلق جحفل عظيم لتعـويض فرنسا من حيث القوة العسكرية ضد جارتهـا وعدوتها ألمانيا لم يتـحقق، وكـان فقط السنغـاليون فـى البداية يسـتخـدمون بواسطة فـرنسا فى الحـرب، وكذلك أثبتت قبائل (الموسى) فى فولتا العليا بأنهـا زاد عسكرى طبيعي، وفى التسعينيات حث زعيم الحزب الاستعمارى المولود بالجزائر (أوجين أيتين) فرنسا على أن تقيم حكومة استعمارية من الجزائر إلى داهومى .



الفصل الحادي عشر

دلتا النيجر مقدمة إلى نيجيريا

الفصل الحادى عشر
دلتا النيجر مقدمة إلى نيجيريا

أظهرت إفريقيا السوداء فى العصر الحديث قوة واحدة يمكن فعلاً أن تقارن بالقوى الأساسية فى أوربا وأمريكا اللاتينية وبلدان آسيا، تلك هى نيجيريا وليس مصطنعًا أن قصة ما قبل الاستعمار عن دلتا النيجر تفوق فى التعقيد والتقلبات خلال القرن التاسع عشر كل غرب إفريقيا، والدلتا كانت المنطقة المذهلة فيما يتعلق بتجارة الرقيق وبحسب كلمات عالم نيجيرى هى الركن الأساسى الاقتصادى فى كل محافظات الساحل، لكنها نجت من هذه الوصمة وصارت أغنى منطقة من خلال التجارة الشرعية وهى القناة للمشروع الاستعمارى الرئيسى[1] فى غرب إفريقيا، وفى نفس الوقت فإن الثورة الاقتصادية المتسببة من عملية تحريم تجارة الرقيق أدت إلى تغيير سياسى عميق داخل الحكومات القبلية وكدراسة حديثة، فإن الدلتا تمثل دنيا القرن التاسع عشر فى المجال الأوربى الإفريقى وفى إفريقيا الأطلنطية، ففى هذه المنطقة ذات التربة الغرينية مع منطقتها الداخلية كانت تمثل وضعًا مناسبًا لزرع النخيل على أن الأنهار والقنوات تشكل حواجز طبيعية بين الزعامات النهرية الغنية أو الغنية نسبيًا فى مجتمع نصف عسكرى وحكومات فى بداية النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت كذلك قوية واستبدادية، ولذلك فقد كان التجار الأوربيون يفضلون العمل من على ظهر سفنهم الشراعية بدلاً من العمل على الأرض جاعلين بشكل محدود مخازنهم فى سفن قديمة، حيث يضعون الرقيق وبعض بضائعهم التى يبادلون

(١) تجدر الإشارة إلى أن تعبير استعمارى أينما ورد يعنى التعمير أو الإصلاح وليس الاستعمار بالمعنى العام أو المفهوم الحالى للكلمة. المترجم .

بها، على أنه فى بداية القرون الأولى كان الزعماء الأفارقة يوافقون على هذا الترتيب، ولقد كانت الحياة عموماً صعبة بالنسبة لهؤلاء الغشاشين النشطاء سواء فى تعاملهم مع الرقيق، وفى الأشياء الأخرى من معاملتهم التى تحمل الاسم الذى وصل إلينا عبر التاريخ وهو (عصابات زيت النخيل)، وكانت نسبة الأموات عالية بسبب الأمراض وكذلك بسبب تناول الخمور والقتال، ولقد كتب أحد المؤرخين النيجيريين قائلاً: إنها أولاً كانت تجارة جاءت بالإنجليز إلى نيجيريا وكانت التجارة التى أبقتهم رغم صعوبة الطقس والأمراض وهى التى دفعت بالمبشر والمستكشف والمغامر، ولقد ضرب قانون تحريم تجارة الرقيق غرب إفريقيا مثل الكارثة الطبيعية وكان الجدال الفلسفى الدائر ليس فقط كونه لم يكن مفهوماً لدى الزعماء الأفارقة وأنهم يعلمون فى تلك الفترة أن حملة تحريم تجارة الرقيق تسير قدماً وكانت النظرة الإنسانية باطنية لكسب المريدين فى وقت كانت تجارة الرقيق بمبادرة إفريقية أما تحريمها فكان موقفاً أوربياً[1] وفى تطبيق قانون التحريم اعتبره الأفارقة موقف عداء وقد حاصروا القلاع الأوربية فى شكل طوابير غاضبة تطالب وتهتف بتجارة الرقيق، والحقيقة أن العديد من الممالك مثل (أبومى وولاجوس وبونى) كان وجودها بسبب اقتصاد تجارة الرقيق وقد ذكر القبطان (هوق كروو) فى مذكراته قائلاً: إن تصرف ملك (أبونى) تجاه إجراءات سنة ١٨٠٧م كان يتمثل فى قوله: إننا نعتقد أن تجارة الرقيق لا تتوقف بالنسبة لنا لأنها ذات فوائد اقتصادية أما القساوسة (سكون صمويل وكروثر) اللذان كانا مع البعثة الاستكشافية فى النيجر سنة ١٨١٤م، فقد أبلغا من طرف الملك (أبى أوساى) فى منطقة (آبو) يقول: إننا نعتقد أنها إرادة الله التى تقول: إن الناس السود لابد أن يستعبدوا، كما أن الضابط (ليفينيج) وهو من الفرقة البحرية فى (فيرنانو بول) قال: إنه يرى أن بريطانيا لابد أن تكون فى حالة حرب مع البلدان التى ماتزال تمارس تجارة الرقيق، وأضاف إننا نحن الذين مارسنا هذه التجارة لبعض الوقت، وأرى أن هؤلاء يدركون بوضوح لماذا نحن قلقون من أجل ذلك ويجب أن نمنعها الآن أما (بيبيل) ملك (بونى) فقد أصر عندما كان يوقع اتفاقية سنة ١٨٤١م مع بريطانيا على وضع

---

(١) مع الأسف المؤلف هنا ينكر أن الأوربيين هم الذين بدأوا تجارة الرقيق تلك وشجعوا عليها إغراء وإجباراً، ولم يوقفوها إلا بعد أن اكتفوا بالرقيق اللازم لمشاريعهم، وربما نتيجة صحوة ضمير بعد قرون من الاستغلال. المترجم.

جملة فى الاتفاقية تقول: إنه إذا ما باشرت بريطانيا مرة أخرى تجارة الرقيق يجب أن تسمح لبلاده بأن تفعل نفس الشئ، وعندما أصبحت تجارة الرقيق عمليًا غير شرعية على الرغم من أنها مازالت تمارس كانت التجارة مع إفريقيا الأطلنطية وخصوصًا فى الدلتا ميسرة طبقًا لمسح استثنائى قام به القبطان البحرى (ف و اوين) الذى يستعمل حتى الآن، وهذا القبطان كان من أكثر الرحالة بين سنوات ١٨٢١ - ١٨٢٥م تنقلاً، وقد أثار وجوده فى (بونى) شكوك وغضب الملك (أبوبو) الذى اشتكى قائلاً: إن أخاه الملك جورج الرابع لم يطلب الإذن لهذا الضابط كى يبحر حول مملكته، وكان الضابط (أوين) قد فوجئ بأن التجار المحليين كانوا قلقين جداً؛ لأنه لم يسترض الملك (أبوبو) وكتب يقول: إنهم أرادوا تحقيق نزوات الملك فقط كما لو أن المزايا الآتية من حركتهم التجارية ليست مشتركة، وأوين على الرغم من أنه لم يكن معجبًا بإفريقيا فقد كان متميزاً فى سماع القصص والأحداث وتسجيلها للأجيال القادمة التى تتعلق بزعامات الدلتا، وهو يرى من جانبه أن المسائل تحل بالتفاهم؛ لأن عمله كان للمساعدة وليس فقط للإبحار حول الساحل واختراق الداخل بالسفن البخارية ذلك أن مساحة دلتا النيجر تبلغ مائتين وسبعين ميلاً فى العمق على البحر ويمكن القول: إنها تمتد أكثر من مائة ميل فى الأرض وأن مداخل النيجر الرئيسيين المعروفين هما مدخل (فوركادوس ونون) وهما يلتقيان فى منطقة واسعة عميقة بخارية تمثل جداول وهى (براس وبونى وكوابو وكروس)، وكما هو الحال الآن فإن منطقة الساحل فى غرب إفريقيا تمثل أقل تجانسًا من المنطقة الغربية ذلك أن المدن مثل (آقار وتومبوكتو وجينى) التى نمت بسبب التجارة عبر الصحراء مع العرب والبربر جميعها متشابهة، أما المدن مثل (لاجوس وأكرا وكالابار) التى أقيمت على التجارة البحرية الأوربية فهى تختلف كثيراً، وتحديداً فإن كل قبيلة نهرية وبحرية فى النيجر تختلف فى اللغة والثقافة وفى النظام الاجتماعى والسياسى، ولأنهم يعيشون على أرض الدلتا فإنهم جميعا ميالون إلى العزلة، على أن مجتمع الدلتا حسب رأى مؤرخ نيجيرى يعيشون بالصدفة، وأن أفراد هذه المجتمعات التى قامت على تجارة الرقيق هم أنفسهم تقليديا

منظمون على أساس الرابطة والتحرر، علاوة على ذلك فإن الزايد من الرقيق الذى بقى فى القرية الأطلنطية بسبب منع النقل أكد أن الرقيق أكثر من الأحرار فى هذه المملكة الصغيرة، وفى بعض الأماكن كان الزعماء من بين أولئك الذين كانوا مستعبدين أى أرقاء، وفى سنة ١٨٤٨م ذكر (كوهل) أن عدداً قليلاً من الناس فى (بونى) كانوا من الأحرار كما أكد هذا الرأى (بورتن) سنة ١٨٦٣م أما (هيوق قولدى)، فقد كتب فى أواخر سنة ١٨٩٠م يقول: إن الرقيق أكثر بكثير من الأحرار فى (كالابار) وعلى الرغم من أن التزاوج بين العبيد والأحرار يأتى بتحرير السلالة فإن وصمة عار العبودية عادة تبقى وفى كلمات للعالم (أونووك دايك) أن الطبقات المحررة الباقية تتمتع بالقوة أكثر من نسبتها العددية، وإلى حد ما فإن هذه الحالة قد حدثت فى الواقع خلال فترة ما قبل تحريم الرقيق فى القرن التاسع عشر وقد ظهرت فى كثير من هذه المواقع نظم ملكية قوية وتحديداً فى (دارى وكاليبارى والأخيرة تعرف فى أوربا باسم (كالابار الجديدة وأيبانى تعرف كذلك فى أوربا باسم بونى)، وفى أماكن مثل (براسى وكالابار القديمة) كان هناك انقسام فى السكن بين العشائر المتنافسة حيث إنه لكل عشيرة زعيمها المتطلع إلى السلطة والمال؛ بل إنه فى العشيرة الواحدة هناك بيوت، ولكل بيت رئيس كسب مالاً من تجارة الرقيق فى البداية، ثم بعد ذاك من التجارة الشرعية، ومثل هذا التاجر يتكون بيته من عائلته وعبيده المحليين ويكون البيت الصغير مثلاً يتكون من ثلاثمائة فرد، أما بيت العشيرة الملكية فيعد بالآلاف، وقد لاحظت البعثة الاستكشافية الشهيرة المعروفة باسم الأمل سنة ١٨٤٧م أن ملك (ايو) لديه عدة آلاف من العبيد الرقيق وأربعمائة زورق لكل زورق منها قبطان وبحارة وكانت تلك البيوت تحكم بيد من حديد، ولقد ذكر التاجر (كونت دى كاردى) فى ملحق دراسته عن غرب إفريقيا (لمارى كينجلى) قائلاً: إن العقوبات التى توقع على العبيد الرقيق تتمثل فى قطع الأذن بمختلف الطرق التى تبدأ من قرض جزء منها إلى قطعها كلها إلى نزع الأسنان إلى قطع أصابع الإبهام إلى حشو الفلفل الحار فى الخياشيم وفى العيون والأذنين إلى ربط الضحية ودفعه فى النهر عند مكان

منخفض وتركه فيه بحيث يغرق عندما يرتفع المد فى النهر أو تأكله التماسيح أو سمك القرش أو ربطه بالحديد فى مكان سيده ليبقى أطول مدة يضرب بمدك البنادق أو العصى، وبحسب ملاحظات (أنووك دايك) أن الرعب والاستبداد ظاهرة عادية فى هذه النظم بحيث تبقى الجماهير خاضعة، ويضيف: إنها إما السلطة المطلقة من جانب المستبد أو من الجانب الآخر نظريًا ولكنها فى الواقع الاثنتان، السلطة المطلقة والاستبداد (١) وبعد نصف قرن من الزمان، فإن نفس الأسلوب ربما كان يمكن أن يتبع فى عهد السلطة الاستعمارية بشكل مختلف وحسب الأولويات ولقد لاحظ (هوتشينتسون) قائلا: خلال فترة التسعينيات فإن الأرقاء عادة ما يمارسون قوة كبيرة هم أنفسهم ويحصلون على بعض المال، كذلك ذكرت الآنسة (كينقلى) أن الفرصة للأرقاء أن يرتفعوا إلى سلم السلطة بالتدرج حيث تكون هناك بذور للديمقراطية خلال وجود الحكومات المطلقة فى حين أن الملك لابد أن يتحاشى التدخل فى شئون البيت ما لم يكن مجبراً على ذلك، وهذا ما يجعل السلطة أقل مركزية، وأن هذه الممالك الأطلنطية تشترى المنتجات غالبًا من المناطق العليا فى الدلتا، فيكون حينئذ هناك وسيط وهناك فى الأراضى العليا مجتمع يتميز بالسرية تتزعمه قبائل (أروتشوكو) وهذه تحصل على العبيد بالقوة للبيع ويجمعها اسم (أوراكل) حيث يقوم سحرة (الأوراكل) بإعلام القرية التى يغضب عليها الرب بأنها يجب أن تقدم العبيد كأضاحى، وبالتالى يباع هؤلاء العبيد لوسيط على الساحل، وهذا يبيعهم لأصحاب السفن، وأشار البروفيسور (أونووك دايك) قائلاً: إن سيطرة (الأوراكل) معترف بها ونادراً ما تحدث معارضة لقوتهم فهذه القبائل تحصل على الرقيق بالحرب وبالخطف من أولئك الذين لا يسلّمون أنفسهم لها، أما تجارة الزيت فقد تطورت وصارت (بونى) مركز التجارة الأساسى، وبناء على ذلك فإن قوتها اعتمدت على

(١) ربما لم يختلف الحال فى هذه البلدان حتى بعد مرور قرون عديدة فالاستبداد مازال يمارس على نطاق واسع والدكتاتورية المطلقة هى سمّة الحكم فى إفريقيا الآن، ولعل العرب الذين كانوا أصحاب حضارة وعلم وثقافة لم يرثوا شيئًا منها، وإنما ساروا على نهج وأسلوب هؤلاء الأفارقة مع الأسف. المترجم.

قوة جيشها المتمثل فى زوارق الحرب التى تمسح نهر النيجر وأكبر تلك الزوارق يحمل مائة وأربعين رجلاً، وبها مدافع نحاس وحديد، أما الزوارق الصغيرة فهى تحمل ثمانين محاربًا وبعض المدافع، كما أن كل بيت فى (بونى) يمكنه أن يجمع فى حدود عشرة زوارق، ولذلك فإن هذه القوة النهرية أمنّت (لبونى) سيطرة على أراضى المجتمع الزراعى، وهكذا تقود الروابط هذه المجتمعات بتبادل البنات فى الزواج، وكذلك بوجود أبناء المجتمع الزراعى فى (بونى) للتعلم لدى تجار (بونى) فن ممارسة التجارة وكانت الخلافات أو الصراع بين المجتمعات التجارية والزراعية ينظمها قانون السوق بعقوبات صارمة تنفذ غالبًا على الفور، وفى حالة القتل فإن العقاب يكون شنقًا فى العلن، والقانون يتحدد بتلك الطريقة، وعادة ما ينتقل ملوك الساحل إلى الدواخل لحل الخلافات، ولابد أن يدفع ثمن منع المشاكل أو الخلافات من جانب التجار الأوربيين فى شكل ضريبة تسمى (كومى) وهى تساوى جنيه إسترلينى عن كل ثمانية أطنان من الزيت الذى يتم شراؤه، وهكذا تتصرف هذه الفئة المسيطرة التى سيكون منها أجيال أخرى فيما بعد، وكان أعظم مشروع إمبريالى طموح فى غرب إفريقيا يتمثل فى نيجيريا بمعتقداتها الدينية وممارساتها وشعبها غير المتعلم وأشياء أخرى متصلة بلغاتها وسكانها وأنواع زراعتها وطرق تجارتها وأسلحتها المحلية ونوع محاربى حكومتها وأسرار مجتمعاتها وحرفها النهرية وفشلها فى ركوب البحر واستكشاف الدنيا، إن هذا المجتمع يشبه كثيراً المجتمع البريطانى القديم خلال الغزو الرومانى فى القرن ما قبل الميلاد وشركائه فى المغامرة التاريخية التى أوشكت أن تبدأ عندما كانت خطوات بداية الثورة الصناعية سائدة، وهذه الظروف الناعمة نسبيًا بين الثقافات المتمايزة بشكل مثير من المحتمل أن تعكس فائدة على الجانبين، وكانت الجمعية الاستكشافية البريطانية فى المنطقة سنة ١٥٥٣م حيث أبحر (ريتشارد واينهام) من بريستول فى شهر أغسطس إلى نهر بينين ليتاجر فى الفلفل، ولكن خلال تلك الفترة كان الوباء قد أرعب البحارة الذين أسرعوا بالعودة تاركين بعض المستكشفين عند النهر، أما (وايندهام) فقد مات عند الدلتا، وعاد فقط أربعون من رجاله البالغ

عددهم مائة وأربعين رجلاً إلى بريستول ، وهم الذين كانوا أحياء، ومع ذلك فقد جمعت الأموال ونظمت رحلة جديدة خلال السنة التالية بقيادة (جون لاك)، وفى هذه الرحلة كانت الخسائر فى الأرواح قليلة والفائدة كانت ألف فى المائة وهكذا فإن الفائدة كانت متعادلة مع الخطر والزمن، ثم إن (جيمس والتش) أجر سفنا سنة ١٥٥٨ - ١٥٥٩م لغرض أن يشترى الفلفل والعاج وزيت النخيل، وكانت الجمعية الاستكشافية البريطانية فى المنطقة قد تطورت بسرعة خلال فترة تجارة الرقيق، ثم إنه عندما أصبحت الصناعة تحل محل التجارة فاز المشروع الإنسانى المعروف بإلغاء الرقيق، لكنه مع ذلك أحدث مشكل مدوى لأهل دلتا النيجر، وكانت الموانئ التجارية التى رؤى أن تحل محل تجارة الرقيق هى الذهب والعاج والخشب والفلفل والأرز والصمغ، ولكن حدث أنه فى النهاية صار الاقتصاد يعتمد بالكامل على زيت ولب النخيل ولقد تطورت هذه التجارة بسرعة كمادة سوقية أقبل عليها التجار من ليفربول وهم الذين أضيروا كثيراً فى بريطانيا بسبب منع تجارة الرقيق، وهكذا عرفت منطقة الدلتا باسم نهر الزيت ولم يكن التغيير الكلى فوريًا حيث إن (بونى وبراسى) استمرتا فى ممارسة تجارة الرقيق وهما تستخدمان قوارب صغيرة لهذا الغرض ففى سنة ١٨٣٣م أبلغ مدير (فيرناندو بول) السيد (نيكولس) عن بيع ستة وثلاثين عبداً عند الدلتا، وكانت التجارة الشرعية قد أوقفت فى منطقة (كالابار القديمة) خلال تلك السنة عندما رست هناك سفينة رقيق فرنسية، وكذلك فى سنة ١٨٥٥م أوقفت التجارة القانونية فى (بونى) عندما وصلت عشر سفن إسبانية لتأخذ حمولة من الرقيق وكان ربابنة هذه السفن يستعملون العنف ضد المعارضين وكثيراً ما قتل أولئك الذين يمارسون التجارة الشرعية، وفى سنة ١٨٢٧م تمت السيطرة على (فيرناندو بول) ومنها نظمت حملة منع تجارة الرقيق، و(فيرناندو بول) هذه استؤجرت من إسبانيا بناء على توصية من المدير (أوين) وكان (أوين) هذا له يد عليا فى معارضة بعض الإجراءات بشأن (فرى تاون) خوفًا من أن يكون ميناء (كلارينس) بديلاً للمدينة البريطانية على الساحل، ولقد نجحت (فرى تاون) فى معارضة توصيات اللجنة البرلمانية المختارة

المتعلقة بنقل الإدارة إلى (فيرناندو بول) وكان مالك السفن الإسبانى فى الجزيرة السبب الأساسى فى ممانعة بريطانيا أن يقوم التجار بنقل نشاطاتهم إلى هناك، بينما السفن البريطانية والأمريكية وبلدان أخرى كانت ترسو وتحصل على الصيانة اللازمة فى ميناء (كلارينس)، وقد أوصى العقيد (إدوارد نيكولس) الذى خلف (أوين) بقبول العرض الإسبانى سنة ١٨٣١م الخاص ببيع الجزيرة بمبلغ مائة ألف جنيه وهذا فى الواقع جزء صغير جداً من قيمة التجارة فى الدلتا، وعندما استسلم وزير المستعمرات اللورد (قود ريتش) لقوى الضغط فى (فرى تاون)، ورفض العرض الإسبانى احتج التجار البريطانيون ملاحظين أن تجارة زيت النخيل فى المنطقة قد تطورت من قرابة خمسة وتسعين ألف طن سنة ١٨٢٧م إلى مائة وأربعة عشر ألف طن سنة ١٨٣٠م، ولقد استمر الشجار بين (فرى تاون وفيرناندو بول) عدة سنوات، ومنذ سنة ١٨٢٨م سمحت سيراليون لوارداتها من مناطقها البعيدة أن تتلاشى وبذلك كان (أوين) قد اعتمد فى توريد المواد الغذائية على (إفرايم دوك) زعيم منطقة (كالابار القديمة) وكان (نيكولوس) منزعجا عندما قررت بريطانيا رسميًا سنة ١٨٣٣م أن تنسحب من (فيرناندو بول) حيث كان (بلميرستون) قد حاول إحياء عرض إسبانيا المقدم سنة ١٨٢١م، ولكن الرأى فى مدريد كان قد تغير، وبنظرة بسيطة إلى ما يجرى فى (فيرناندو بول) واستخدامها فيما بعد كمقر للقنصل البريطانى توضح مدى السيطرة الرسمية فى المنطقة وكيف كانت العلاقات الأوروإفريقية وكيف أن جزءاً منها كان فوضويًا؛ إذ إن تجار الدلتا أو عصابات تجارة زيت النخيل كما يعرفون هم أناس يعتمدون على الواقع أى إطلاق حرية التصرف دون خجل وهم لا يحترمون القانون وبلا شك هم يمارسون الغش من أجل استمرارهم، وقد لاحظ كاتب أمريكى معاصر هو (ج-و- روسل) قائلاً: إن تجارة الدلتا تدمر الصحة وتأخذ أرواح تسعة أعشار من يتعاملون بها كما أنها تسمم أخلاق أكثر الباقين على قيد الحياة ومن أجل معالجة بعض هؤلاء الفوضويين قام العقيد (نيكولوس) خلال إقامته الطويلة التى زادت على خمس سنوات (١٨٢٩ - ١٨٣٥) بعقد اتفاقيات مع الزعماء أغلبها بدون إذن من

لندن لمحاربة تلك الممارسات، ولأكثر من أربعين سنة تركز النشاط فى (بونى)، وهنا كان الملك القوى (أبوبو) قد مات سنة ١٨٣٠م تاركًا العرش لابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة المدعو (وليام أدابا) تحت وصاية الزعيم (مادو) وهذا عبد رقيق سابق جعله الملك قبل أن يموت رئيسًا على البيت الملكى، وكان اسم هذا البيت (بيريكولى) لكن المؤرخين الغربيين اعتمدوا الاسم الأوربى حينئذ وهو (بيبيل)، وعندما مات الملك (أبوبو) نقلت الرئاسة والوصاية إلى ابنه الأكبر (آلالى) الذى كان معارضًا للوصى على البيت الملكى (مادو) ثم إلى مجموعة (آلالى) المحيطة بالملك الطفل الذى لم يكن يشاطر والده فيما يتعلق بهذا الوصى الذى كان عبدًا رقيقًا، وعندما بلغ الملك الطفل سن الرشد سنة ١٨٣٥م كان (آلالى) مايزال يمسك بكل السلطات، وكان يخطط لأن يصير أقوى من الملك فيما إذا حاول إلغاء نفوذه، وفى سنة ١٨٣٥م دخلت السفينة الحربية البريطانية مياه (بونى) واحتجزت أربع سفن إسبانية خاصة بنقل الرقيق، وحدث أن (آلالى) غضب بسبب هذا الحدث لكن قائد السفينة الحربية هبط على الساحل ليشرح له أن الحجز كان قانونيًا طبقًا لاتفاقية التفتيش المتبادل البريطانية الإسبانية الموقعة خلال السنة الماضية، وقد تطوع تاجر إسبانى بأن يقوم بترجمة نصوص الاتفاقية للزعيم (آلالى) لكنه عندما صار يقوم بالترجمة غير تمامًا نصوص الاتفاقية وحجب عن (آلالى) الحقيقة بحسب قيودات مكتب الشئون الخارجية فأرغى وأزبد زعلا وضرب بقوة على الطاولة وأمر باعتقال قائد السفينة الحربية البريطانية ومن كان معه من البريطانيين، وهكذا ربطوا بسلاسل وعند وصول أخبار حجز قائد السفينة، ومن معه أبحرت سفن حربية بريطانية إلى مياه (بونى) لترغم الزعيم (آلالى) على التراجع، وهكذا استسلم هذا الزعيم ووقع اتفاقية تضمن لبريطانيا الأرواح والأموال فى المنطقة ويظهر أن تلك هى المرة الأولى التى تستخدم فيها ست سفن حربية على نطاق واسع لتحمى التجار الإنجليز على الرغم من أن واجبها كان اعتراض وحجز سفن تجارة الرقيق، وخلال السنة التالية ١٨٣٧م قام العميد البحرى السير (باتريك كامبل) قائد المجموعة البحرية بأمر القائد (كرايجى)

بأن يتجه إلى (أبونى) بحيث يخطط لإسقاط الملك (آلالى) ويقوم بدعم (دابا) الذى كان على اتصال بالمكتب الرسمى البريطانى القائم بتنفيذ قرار منع تجارة الرقيق، وكان التجار الإنجليز موافقين على الإطاحة بالملك (آلالى) والذى كان يوصف بأنه متوحش استبدادى قاتل وحقود، وعندما وصل القائد البريطانى (كرايجى) يوم ٥ أبريل مع حاشية من حشد مثير وجد الملك وحيداً فى انتظاره على الشاطئ، أما رئيس البيت الملكى فقد كان خائفًا من المجيء، ولكنه أراد أن يقابل القائد البريطانى فى البيت الملكى مع بعض المشرفين على البيت وبعض التجار الإنجليز الذين يمثلون بشكل ما حزب الملك أو قل يتعاطفون معه، وعند عودته عقد القائد البريطانى اجتماعًا مع الأوربيين على ظهر سفينته، وفى ٩ أبريل ومن أجل إظهار القوة تحركت القوة البحرية عبر النهر، وفى حضور مجتمع (أبونى) بما فى ذلك الملك (آلالى) قال القائد البريطانى له: إنه على ضوء ما حدث منه حيث أهان ضابطًا بريطانيًا، فإنه فى الحال لن يبقى فى أى وضع من النشاط غير كونه تاجراً وتسلب جميع سلطاته وهكذا صار (آلالى) يتذلل وقد أجبر على أن يوقع وثيقة تنازل تجعل (دابا) يباشر كل الأنشطة والحكم، وكان (آلالى) قد حاول أن يضمن نوعا من الاستقلال لمملكته بالدبلوماسية، وبعد التنازل تم التوقيع على اتفاقية جديدة مع (بونى) التى كان حجم تجارتها وقتئذ مع بريطانيا يبلغ سبعة ونصف مليون دولار سنويًا، وقد أرسل رئيس الوزراء البريطانى اللورد (بالميرستون) هدايا للملك الجديد الذى حاول أن يضع نهاية للقتل والإثارة فى موطنه، وذلك بالتخفيف من الائتمان الذى يسمى ضمان، وفى اتفاقية سنة ١٩٣٧م مع (بونى) تقرر القضاء على تجارة الرقيق، ولكن لم تتم المحافظة على هذا القرار؛ لأن بريطانيا لم تتمكن من دفع التعويض المنصوص عليه فى تلك الاتفاقية حسب المادة التى أخلت بها الخزانة البريطانية فى عهد رئيس الوزراء (بالميرستون) وبعد ذلك تمكن القائد (توكر) من توقيع اتفاقية جديدة سنة ١٨٤١م، وهذه الاتفاقية زادت من الرشوة التى تدفع للملك (دابا) من ألفين إلى عشرة آلاف دولار جنوب أمريكى، وهذا بالتالى زاد الصعاب المالية على اللورد (آبردين) الذى خلف اللورد

(بالميرستون) فى الوزارة لكنه رفض دفع ما تم الاتفاق عليه أى الزيادة، وفى سنة ١٨٤٤م انفجرت الحرب بين الملك وبين التجار، ولذلك قبض الملك (دابا) على عدد منهم وقد رماهم فى السجون وهدد بأن يشويهم أحياء وكانت السفن قد دمرت والمدافع تم الاستيلاء عليها فى المدينة القريبة (جوجو) ثم إن (فاناتا) المتعصب وهو طبيب مشعوذ نظم مجموعة من الشباب الأشقياء ليحرقوا كثيراً من الجداول، ويقتلوا كل بريطانى كما يدمروا كل الممتلكات التى تقع تحت أيديهم، ولقد ذكر السيد (دايك) وهو الذى شهد الأحداث قائلاً: إن رجالاً ملثمين صعدوا على البواخر الراسية فى الميناء فى حين أن رجال البحرية الذين تدخلوا وجدوا أن الأفارقة والتجار الأوربيين كما لو أنهم فى سباق من أجل التدمير والتقاتل دون أن يراعوا أى اتفاق أو معاهدة وكان قائد البحرية السير (تشارليز هوتام) قد أمر بترك الطرفين يتقاتلان على طريقة كل منهما، ولكن خلال سنة ١٨٤٧م عندما عاد (بالميرستون) إلى وزارة الخارجية قرر أن تكون أرواح وممتلكات البريطانيين والحفاظ عليها أولى مهماته وكان هو نفسه قد اطلع من جانب لجنة التجارة على مدى أهمية وقيمة التجارة مع (بونى)، وهكذا طلب من قيادة البحرية أن تأمر السير (تشارليز هوتام) بضرورة حماية المصالح البريطانية، وأن يفرض دفع الديون الإنجليزية المستحقة للتجار الإنجليز، وبناء على ذلك أرسل السير (تشارليز هوتام) ضابطًا وهو القائد (بيرتش) لاحتلال (أوانتا) بالقوة، وحيث إن الذى أحدث الشغب لم يكن مواطنًا بريطانيًا فإن محاكمته قد تحدث مشاكل، ولهذا فقد أمر وزير المستعمرات اللورد (قرى) قيادة البحرية بأن تنقله إلى أبعد مكان من (بونى) بحيث لا يسمع عنه أحد وإلى حد ما فإن (سكان أوانتا) صاروا يحسون بكراهية للأجانب، ولهذا استغل الملك (دابا) هذا الشعور فى التعامل مع البريطانيين ودفع المشاغبين إلى إثارة المشاكل فى البحر بين (كالابار الجديدة وبونى) بحيث يحرم البريطانيين من منفذ إلى تجارتهم وممتلكاتهم فى القنوات وصار يعمل على استسلام (كالابار الجديدة) لمملكة (بونى)، ولكن وكنتيجة لاتفاقية سنة ١٨٤٨م، فقد أجبر الملك (دابا) على إرسال حراس من عنده على السفن التجارية

البريطانية إلى (كالابار الجديدة) وأن يتحمل مسئولية حماية المواطنين البريطانيين وممتلكاتهم الذين يمارسون التجارة فى منطقة النهر على أن الإبحار فى النهر لا يجوز إلا خلال النهار وبذلك خضع الملك لنصوص الاتفاقية السابقة التى تنص على أن يحصل على تعويض مقداره ألفا دولار فقط، وكانت فى ذلك الوقت صادرات بريطانيا التجارية من النيجر تبلغ ثلاثين مليون دولار أمريكى والى كل من (لاجوس وساحل الذهب وجامبيا وسيراليون) جميعها كانت تسعة ملايين دولار[1] ولقد كان رئيس الوزراء البريطانى (بالميرستون) مقتنعًا أن التجارة فى الدلتا لا يمكن حمايتها بالكامل إلا باستعمال القوة بين وقت وآخر ولذلك قام بتعيين قنصل سنة ١٨٤٩م، وكان هذا القنصل هو ذلك التاجر الإفريقى الإسبانى المدعو (جون بيكروفت) الذى ساعد خلال تسع مرات سابقات البحرية الملكية على التفاوض مع الزعماء الأفارقة فى قضايا حساسة، وكان (بيكروفت) الرقم البارز فى تاريخ الدلتا والمقيم الدائم منذ سنة ١٨٢٧م، وقد عينه السيد (نيكولس) مسئولاً عن إدارة الخدمات فى منطقة (فيرناندو بول) بعد إخلاء الإدارة سنة ١٨٣٤م حيث كان (بيكروفت) شريكا فى مؤسسة (تينانت) التى أفلست سنة ١٨٣٧م، وعندما أعادت إسبانيا سيطرتها على (فيرناندو بول) سنة ١٨٤١م طلبت من (بيكروفت) أن يكون محافظها هناك وقال عنه (بيكولس) إنه رجل يحظى بالاحترام، وله تأثير أكثر من أى رجل فى منطقة الساحل ومع ذلك فإن تعيينه كقنصل كان متنازعًا عليه بين العقول الاقتصادية والبرلمانية، تلك العقول التى طلبت سنة ١٨٦٥م انسحاب بريطانيا رسميًا من كل غرب إفريقيا عدا (سيراليون)، وكان مرتب (بيكروفت) أربعة آلاف وخمسمائة دولار فى السنة، ولقد مرت سنتان قبل أن يتم تعيين موظف معه يساعده، وكان يسافر مع السفن الحربية، وفى

(١) هذا الذى تفرضه بريطانيا خلال منتصف القرن التاسع عشر يذكرنا بما حاولت فرضه والإبقاء عليه خلال النصف الثانى من القرن العشرين فى اتفاقية قناة السويس على مصر، لكن جمال عبدالناصر لم يكن مثل ملك (دابا)، ويذكر أن مصر قبل تأميم تلك القناة كانت تحصل على عائد لا يزيد على ثلاثة ملايين دولار سنويًا، والآن عندما أصبحت القناة ملكًا للشعب المصرى بفضل مواقف جمال عبدالناصر الشجاعة والجريئة، صار كل دخل قناة السويس للشعب المصرى، وقد بلغ المليارات سنويًا. المترجم .

سنة ١٨٥٣م حدث أن بعض أعباء منصبه ساعده عليها تعيين (بينجامين كامبل) قنصلاً فى خليج بينين بلاجوس، وكان الرجل الذى ينحدر من سلالة أوربية إفريقية هو الذى وقف كعملاق فوق معاصريه الأوربيين والأفارقة فى الدلتا قد عين قنصلاً لجلالة الملكة البريطانية فى خليج بينين وبيافرا فى يونيو ١٨٤٩م، وامتدت صلاحياته إلى لاجوس وداهومى، وفى قرار إنشاء القنصلية كانت هناك جملة تقول: إن بريطانيا ليس لها طموحات أرضية فى المنطقة فقام (بالميرستون) بشطبها بيده وكتب المؤرخ النيجيرى (أنووك دايك) قائلا: فى خلال هذه الفترة كان (بالميرستون) وزير الخارجية الوحيد الذى كانت له نظرة ذكية عن تطور الأحداث فى خليج بينين وبيافرا حيث كان مقتنعًا بأنه مع نمو التعادل فى وسائل المرور والمواصلات، فإن تدخل بريطانيا لا يجب أن يتأخر وكان هو الذى حاول شراء (فيرناندو بول) واستعجل دفع التعويضات عن تجارة الرقيق فى (بونى)، وبعد سنتين من تعيين قنصل له فى الخليج سنة ١٨٤٩م كان قد أمر باحتلال لاجوس، وفى سنة ١٨٥٠م قام (بيكروفت) بقيادة بعثته غير الناجحة إلى منطقة (آبومى) من أجل أن يحاول إنشاء علاقات تجارية وينفذ قرار منع تجارة الرقيق، ثم قام ببعثة إلى (ليبيريا وأبوكوتا)، وأمر بفتح (أوقو) للملاحة الآمنة والمساعدة فى مشروع زراعة القطن، وفى هذه الأثناء واجه سوق منتجات النخيل تذبذبًا وهو الذى يهم بريطانيا حيث كانت كمية التصدير منه قرابة أربعة عشر ألف طن سنة ١٨٣٤م، فهبطت إلى أحد عشر ألف طن خلال ثلاث سنوات، ثم ارتفعت إلى خمسة وعشرين ألف طن سنة ١٨٤٥م، ثم هبطت إلى ثمانية عشر ألف طن خلال السنة التالية، وكان إحياء تجارة الرقيق غالبًا السبب فى تذبذب سوق تجارة منتجات النخيل، فى حين أن الهبوط سنة ١٨٣٧م بسبب رد فعل الدواخل على ما حدث للملك (آلالى) ذلك أن زعيم شمال الدلتا تضامن مع الملك، أما هبوط سنة ١٨٤٥م فكان سببه تلك الحرب التى قام بها (دابا) على (أندونى) التى ضمها إليه عندما كانت الأسعار جيدة كما فى سنة ١٨٤٥م وكان زيت الدلتا ثمنه سبعمائة وخمسون ألف جنيه أى حوالى اثنى عشر مليون دولار أمريكية، وفى سنة ١٨٦٤م بلغ ثمن كمية ستة وعشرون ألف طن زيت الدلتا مبلغ ثمانمائة ألف جنيه،

وبالمقارنة بما تم الحصول عليه من العاج والخشب معا كان أقل من خمسين ألف جنيه، وكانت منتجات إفريقيا فى الغالب ماتزال تشترى بالمقايضة وهكذا ارتفعت منتجات بريطانيا إلى غرب إفريقيا من مستوى يقل عن مائتين وخمسين ألف جنيه خلال الثلاثينيات إلى ضعف هذا المبلغ خلال الأربعينيات، وارتفع ثمن القطن من خمسة وسبعين جنيهًا إلى مائتين وستين جنيهًا فى حين انخفض ثمن بيع المشروبات الكحولية بنسبة ثلاثين بالمائة وتجارة ليفربول من الدلتا تراوحت ما بين اثنى عشر وخمسة عشر ألف طن سنويًا وقد بلغت حمولات تجارة السفن إلى (بونى) سنة ١٨٤٠م قرابة أربعة عشر ألف طن وفرص عمل لحوالى ألف بحار، وعلى الرغم من محاولات انتهاء الائتمان سنة ١٨٤٨م، فقد بلغت صادرات المعدات حوالى مائة ألف جنيه بيعت للوسطاء المحليين فى الدلتا قبل أن تبدأ تجارة الزيت وبلغت الديون الائتمانية للتجار الأفارقة الأفراد حوالى خمسة آلاف جنيه، وكانت أحيانًا أكثر من ذلك بالنسبة للملوك، ولقد ذكر (بيكروفت) سنة ١٨٥١م أن التجار الوسطاء فى (كالابار) حصلوا على ما قيمته سبعين ألف جنيه ائتمان من أجل شراء كماليات وسمح لهم بيسر الحصول على ائتمان آخر بلغ مائة وثلاثين ألف جنيه إذا هم أرادوا، وفى سنة ١٨٥٥م أبلغ القنصل (لانسليقر) قائلاً: إن حجم المعدات والممتلكات فى منطقة النهر تقدر بثمن ثمانمائة ألف جنيه وهذا إلى حد ما بسبب الأمن فى الدواخل، وهو الذى كان قد انتهك فى السبعينيات، ولم يكن هناك عداء للرجل الأبيض، ونظرًا لغياب عملة دولية فقد كانت تجارة المبادلات ضرورية، وفى هذا الوقت كان قد تغير الذوق العام والتقاليد والمعيشة وظهرت لوازم المائدة من كل منتجات المصانع الأوربية، وفى هذه التجارة كذلك كانت المبادلات وكانت أهم معدات التبادل تتمثل فى القماش والأسلحة والذخائر والخرز والمشروبات الكحولية والملح، وكان احتكار تجارة الأسلحة للوسطاء فى منطقة الدلتا ومن المعروف أن السلاح عنصر هام فى سياسة نيجيريا منذ اليوم الذى وصل فيه أول الرواد البرتغاليين، وكان أشهر نوع من السلاح هو ذلك الذى يأتى من الدنمارك وأنواعه التى تصنع فى بلدان أخرى والتى ماتزال تعرف باسم (بنادق الدنمارك) وبعض الأشياء

لم تكن تباع بالمبادلة، وإنما بالدولار الجنوب أمريكى، الذى كانت تصدره حكومة سيراليون، وهو يساوى فى القيمة مثل الدولار الأمريكى المعاصر ولكنه مقبول من أغلب عصابات تجار الزيت المحليين، وهؤلاء هم نفس الناس الذين عارضوا القوافل البحرية أثناء حرب نابليون؛ لأنها كانت ستضاعف عدد السفن فى الدلتا وتزيد ارتفاع أسعار الزيت، وكذلك فضلوا المخاطرة مع زيارة الفوائد من خلال استمرار الديون الائتمانية ذلك أن التجار الجدد سيقدمون عروضًا أفضل من التجار القدامى، كما أن التجار المحليين معدومى الضمائر يحصلون على ائتمان من شركائهم التجار الاعتياديين وكذلك من أولئك المتطفلين، وإن كان التجار القدامى غالبًا ما يردون على ذلك بحجز الكميات المرسلة إلى أولئك المتطفلين، وفى كثير من الأحيان رغم ذلك يتضامن التجار البيض بحيث يدفعون السعر إلى الانخفاض على أن التجار المحليين كانوا أيضًا منظمين وغالبًا ما يكون الوقت فى صالحهم؛ إذ إن التجار الأوربيين يدركون مقدار مخاطر البقاء لوقت أطول بسبب الأمراض التى تضرب الساحل وتكاليف الإبطاء، ولقد حدث ازدهار فى التعليم خلال الأربعينيات وكانت البعثة المعمدانية قد تأسست فى (فيرناندو بول) وتكونت بعثة الأمل فى (كالابار القديمة)، وكانت المدارس قد أقيمت منذ القرن الماضى فى منطقة (كالابار)، حيث تمكن أبناء الزعماء من معرفة القراءة والكتابة الذين كانوا قد درسوا فى لندن وانتقل التعليم من جيل إلى جيل، كذلك ظهرت مدارس حديثة وكان الكاميرون فى سنة ١٨٤١م يحصل على تعويض قدره ألفا دولار جنوب أمريكى سنويًا، وهذا المبلغ يحول إلى معدات فى شكل بنادق (ست بنادق ومائة حزمة من القماش واثنان من البراميل المعبأة بالبارود وصناديق من المواد الكحولية ومعطف قرمزى وسيف)، وكان هناك فى ذلك الوقت تقليد بيع الزى التنكرى المدهش الذى يمثل ما كانت ترتديه العائلات النبيلة فى لندن، ولهذا قال الملك (أيو) ملك مدينة (كويك) سنة ١٨٤٢م: إنه يريد لباسًا هنديًا تقليديًا مناسبًا من قماش جيد وليس أشياء حمقاء، وفى سنة ١٨٥٢م أعلن الحاكم البريطانى عن تكوين شركة لنقل البريد إلى غرب إفريقيا، وقد حصلت الشركة الإفريقية للسفن البخارية على عقد الإنشاء واسمها (ألدير

ديمستار)، وكانت هذه الشركة تمتلك ثلاث سفن بخارية حمولة كل منها ستمائة طن وتعهدت الشركة بتسيير تلك السفن على سرعة ثماني عقد مقابل ألفين وخمسمائة جنيه للرحلة وتبعًا لهذا نمت التجارة خلال سنة أو أكثر قليلاً حيث استفاد التجار من انخفاض أسعار الحمولات البحرية التجارية التى وفرتها تلك الشركة وكان التجار الكبار يعملون دائمًا على أساس معين يتمثل فى الأرباح العالية، أما أولئك المتطفلون فإنهم يبحثون عن أرباح سريعة، ولذلك قدم التجار الكبار عروضًا للشركة بحيث يقومون باستئجار كل السفن ليحولوا دون التجار الصغار، واستعمال تلك السفن، وكذلك زعماء المناطق الذين يتاجرون فى بيع الزيت، أما صاحب الشركة الذى يتمتع بفكر ليبرالى، فقد رفض عرض كبار التجار ذاك وساعده على هذا القرار الزعيم الزنجى الأمريكى (جونيس) الذى كان كذلك يشجع الناس من أجل العودة إلى الوطن (سيراليون) وجاءت المساعدة أيضًا على ذلك الموقف من جانب بعثة الكنيسة التبشيرية، وكان غرض صاحب الشركة أن يقطع الطريق على عصابات وملوك الساحل، وأن يفتح الدواخل للتجارة المباشرة، وكان العائدون إلى سيراليون قد قوبلوا باستقبال بارد من جانب مجموعات المعارضين فى (بونى) لكن الملك (أيو) رحب بهم، وهكذا تزايدت المجموعة الجديدة فى (كالابار القديمة) بسرعة حيث إنه فى سنة ١٨٥٥م اتحد التجار الوسطاء مع العائدين الجدد وباشروا شحن الزيت مباشرة إلى بريطانيا، وكان القنصل البريطانى فى ذلك الوقت السيد (ليزلاقر) قد أمر بتدمير المدينة القديمة فى (كالابار القديمة) بواسطة مدفعية البحرية، وكان ذلك من وجهة نظره يمثل إنهاء المعاناة البشرية أى تجارة الرقيق ولكن الحقيقة أنه استهدف بذلك التجار الوسطاء، وخلال السنة التالية أبلغ التجار الكبار القنصل الجديد (هوثيرتسون) أنهم تعاقدوا على شراء كل إنتاج نهر (كالابار) لمدة ثلاثين سنة قادمة، وكان كل الذى حصلوا عليه هو تسعة آلاف طن، وفى هذه الأثناء وصل كثير من أهل سيراليون وحدث التنافس التجارى الذى أدى إلى القتال، وطبيعى أن التجار القدامى كانوا نشطين فى تحصيل ديونهم، وكان القبطان (كوثيرتسون) قد حجز ستة عشر برميلاً من الزيت فى ميناء (كالابار القديمة) حيث كانت قد وضعت هناك فى

انتظار الشحن بواسطة السيراليونى (بيتر تيكول)، إلا أن الملك (أيو) باعها وهو مدين للقبطان (كوثيرتسون) رحدث الشغب أكثر فى (كالابار القديمة) ذلك أن السلطة كانت تتقاسمه بين مدنها الأربعة، والمشاكل عادة تظهر وتتعقد بسبب الديون والخلافات الشخصية بين عصابات تجار الزيت أنفسهم، وأحيانًا مع الآخرين وخصوصًا فى منطقة (نهر وورى) أى الكاميرون حاليًا، ويذكر أحد المؤرخين أن التجار البريطانيين لم يتعلموا فقط كيف يتصرفون معا وفى وقت واحد، وإنما أيضًا تطوير حل إشكالات نظام التجارة والخلافات الأخرى بين الأفارقة والتجار الأوربيين عندما أنشأوا (محكمة العدالة) وحاولوا إنشاء محاكم مماثلة فى مناطق أخرى لكنها لم تنجح، ولقد كان الشخص المهيمن فى منطقة الدلتا هو (بيكروفت) الذى قال عنه (نووك دايك): إنه إلى أن تم تعيينه كقنصل فى نيجيريا كان تدخل البريطانيين فى السياسة النيجيرية غير واضح سنة ١٨٤٩م مع الاستثناء الكامل لسنة ١٨٣٧م عندما تدخلت بريطانيا لتعيد الملك (دابا بوبيل) إلى الحكم وهى العملية التى جاءت بسبب التهديد للأرواح والمصالح البريطانية وبعدها امتنعت بريطانيا عن التدخل فى السياسات الداخلية لدول إفريقيا لكن (بيكروفت) عكس تمامًا هذه السياسة ذلك أن عشرين سنة من الخبرة علمته أن الاحتلال الأوربى لغرب إفريقيا لا يجب أن يتأخر كثيرًا، ولذلك فإنه من اليوم الذى باشر فيه مسئولياته كانت حركته تعتمد على ذلك الاعتقاد والحذر وتبعًا لهذا فإن السيد رئيس الوزراء البريطانى (بالميرستون) وجد حليفًا متحمسًا فقام بحركة جريئة متقدمة للتدخل فى السياسة الداخلية لحكومات المدن وقد شهدت مدة خدمته كقنصل من سنة ١٨٣٩ إلى ١٨٥٤م، نهاية عدم التدخل البريطانى كما شهدت إرساء حجر الأساس فى بناء إمبراطورية فى نيجيريا، وأضاف (دايك) فى ملاحظاته قائلا: لقد أدرك بيكروفت مقدار خوف الزعماء الأفارقة من السفن الحربية، وبالتالى كان يعتمد على إشاعة هذا الخوف والقدرة على استعماله وقال (ديكا) إنه عندما مات الملك (أرتشيبورج) سنة ١٨٥٢م أشرف بيكروفت على انتخابات الملك الجديد ولم يكن هناك من ينازع على سلطاته، وهو من جانبه كان يبادل الزعماء الثقة حتى إنه كان يسمح لهم بوضع الرجال الذين

يختارونهم فى أجهزة الحكم وبعد إنهاء الانتخابات قام بدعوة الملك ورجاله إلى الغذاء على ظهر سفينة حربية وشربوا جميعا الكئوس فى صحة الملكة فيكتوريا، وكذلك صحة الملك الجديد، أما فى الكاميرون فقد قام (بيكروفت) بعزل الملك (أكوا) متهمه بأنه سكير وحشاش حيث وضع مكانه شخصًا آخر قال: إنه الأمير (جيم) وفى سنة ١٨٥١م قام بخلع مغتصب عرش لاجوس المتغطرس (سوكوكو)، وأبدله بالملك الشرعى القدير (أكيتوى)، ومنذئذ ركز (بيكروفت) اهتمامه على (بونى) وهى الباقية الوحيدة على مقاومة سلطته المطلقة، وفى نهاية أغسطس سنة ١٨٥٢م أبلغ تجار نهر (بونى) بيكروفت أن الملك (دابا بيبيل) منذ ثلاثة شهور ماضية يفترض أنه أصيب بصدمة أعجزته، وصار فى وضع سيئ، وبالتالى فهو غير قادر على القيام بواجباته فى البلاد، وأن هذا الملك خلال مرضه برزت شلة حاقدة تنتمى لعهد الملك المخلوع، وأنه أى الملك العاجز بدلاً من أن يختار أوصياء صالحين فضل اختيار اثنين من تلك الشلة السيئة، ولهذا السبب أرسل (بيكروفت) خلال شهر فبراير فى السنة التالية إلى رئيس الوزراء فى لندن (بالميرستون) قائلاً: إن هؤلاء الذين اختارهم الملك هم أعداء (بونى)، وهذا خلق الكثير من المشاكل والتنافس، ولكن قبل اتخاذ أى إجراء فجأة تعافى الملك فى شهر نوفمبر، وتولى السلطة من جديد غير أنه حدث أن أولئك الأعداء قد ذهبوا بعيداً فى السيطرة والاستحواذ على المسئوليات، وكان على الملك أن يصدر قوانين تمنع ذبح المعارضين؛ لأنه يرى أن ذلك يؤدى إلى معارضة قوية وكذلك منع تجار منطقة (بونى) من العمل فى الدواخل ما لم يحصلوا على إذن من الملك، وحدث أن تقييد تجارة الأفارقة أضر أيضًا بالتجار الأوربيين؛ لأن أولئك الأفارقة كانوا قد حصلوا على قروض من الأوربيين، وهذه لم تدفع بعد، ولذلك رأى الملك (دابا) أن يوحّد رجال مملكته حوله على إثر الإجراءات التى اتخذها وأضرت بالتجار البيض، وهكذا هاجم المحاربون كل الأوربيين أينما وجدوا على الأرض أو فى النهر كما هاجموا مخازنهم ونهبوها، ومن أجل أن يوحّد كل المحيطين به قرر فوراً احتلال (كالابار الجديدة) وطلب من قادته تجهيز ثلاثة وأربعين زورقًا فى الوقت الذى كان يزور فيه موقع رأس والدته طالما أنه قد تعافى من

المرض الذى ألم به وقد وعد بما أسماه فدية لأسلافه فى شكل رحلة وطلب من كبار التجار مرافقته فى الرحلة إلى نهر (كالابار)، حيث سيدعو من هناك الملك (أماكرى) على ظهر زورقه ويقدم له بعض الهدايا وإذا امتنع الملك (أماكرى) عن الانضمام إليه فى زورقه، فإن أحد أولئك التجار سيذهب إليه فى الشاطئ ليكون كرهينة، وكانت تلك الهدايا التى سيقدمها (لأماكرى) هى عبارة عن ضربات على الأضلاع، وكان أحد المسئولين فى بلاط (دابا) يعرف ما يريد أن يفعله مليكه بينما بقية المرافقين لا يعلمون شيئًا من ذلك ولا ماذا يقصد الملك بالهدايا ولقد اتضح أن الفدية التى تحدث عنها الملك (دابا) بعد معافاته من المرض هى تلك الحرب[1] على أن الأوربيين ظنوا أنه ينوى الحرب، وهذا ما يؤثر على التجارة ولذلك حاولوا إقناع الملك بالتخلى عن خططه تلك، وقد وصلت الزوارق نهر (كالابار) وأمرت أن تحاصر المدينة لتفصلها عن المنطقة التى توجد بها السفن ومخازن التجار الأجانب لكن فدية هذا الملك التى تمثلت فى حرب قد فشلت، وإذ اعتبر متجاوزًا لحدوده فقد اجتمع أعضاء المحكمة العليا برئاسة (بيكروفت) وقرروا فورًا عزل هذا الملك أى (دابا) لكن زعماء عشيرته قالوا: إنه ليس من تقاليدهم عزل الملك، ثم إنه إذا ما عزل فإنه لا أحد يمكن أن يدفع ديونه، إلا أن القرار اتخذ وكسب (بيكروفت) إذ ذهب الملك ودفعت الديون وأعلن ابن أخ الملك ملكًا مكان عمه المعزول، وهكذا أطلقت سفينة بريطانية إحدى وعشرين طلقة تشريفًا للملك الجديد، وكان على الملك السابق بنصيحة من (بيكروفت) أن يطلب اللجوء السياسى فى (فيرناندو بول) وهكذا فعل وأصبح لاجئًا سياسيًا هناك، ومن الواضح أن بعض الذرائع قد استخدمت لنقل الملك السابق (دابا) بعيدًا عن مكانه وعشيرته، وفى نوفمبر ١٨٥٥م كتب إلى اللورد (كلاريندون) قائلاً: عندما وضعت على ظهر البارجة البريطانية متجهًا إلى (فيرناندو بول) أشيع أننى أجبرت على مغادرة

(١) كانت هذه التصرفات التى يقوم بها الملوك والزعماء الأفارقة فى ذلك الوقت (القرن التاسع عشر) وما قبله كررها خلال القرن العشرين ملوك وأفارقه آخرون مثلما فعل (جان بيدل بوكاسا) فى جمهورية إفريقيا الوسطى وعيدى أمين فى أوغندا، وكان علينا ألا نستغرب ذلك لأنهم خلف سيئ عن سلف أسوأ. المترجم .

أملاكى بناء على مطالب زعماء عشيرتى، وهذا يخالف الحقيقة بالكامل ذلك أن ما تؤكده الرسائل التى أملكها حتى الآن هى من السيد (بيكروفت) ورجال إنجليز آخرين أننى أبعدت على غير رغبة ورضا شعبى وزعماء عشيرتى وهم الذين سوف لن تهدأ أمورهم إلى أن يؤكد لهم السيد (بيكروفت) أننى سوف أعود لأكون بينهم متى رأيت أن الوقت مناسب، وأننى الآن حر طليق وليس سجينًا، ولكن ثرثرة الأوربيين فى إفريقيا لم يكن لها أثر فى لندن حيث بقى الملك السابق (دابا) منفيًا فى جزيرته، وبعد ذلك نقل إلى لندن ومكث بعيداً أكثر من سبع سنوات وكانت الشكاوى الأساسية ضده من وجهة نظر البريطانيين محاولاته أن يحتكر القروض الائتمانية، بينما منعت المحكمة العليا التى تقع تحت النفوذ البريطانى الملك من ممارسة التجارة؛ حيث إن دخله يجب أن يقتصر فقط على دخل الجمارك وبعض الضرائب، وكانت المحكمة نفسها تمثل السلطة العليا فى المسائل التجارية، كذلك فإن الملك الجديد فقد ألحق فى إعلان الحرب دون موافقة المحكمة، بمعنى أنه يجب أن يحصل على الإذن قبل اتخاذ أى إجراء عسكرى، وأن اللقاءات بين الأفارقة والأوربيين مستقبلاً لابد أن تتم فى مقر المحكمة وليس فى البلاط الملكى، وكان المعاصرون للملك (دابا) يرون فيه رجل الذكاء والغطرسة والازدواجية، أما الدكتور (بايكى) المستكشف الذى كان قد قابل الملك فى منفاه سنة ١٨٥٤م فقد قال: إنه مريب والجميع يرون أنه انتقامى مخادع، ومن المؤكد أنه كان غنيًا جداً، وقد كسب من تجارة الزيت أكثر مما كسبه أى ملك آخر من تجارة الرقيق، وقدرت ثروته بين خمسة عشر ألف جنيه وعشرين ألفًا، ثم بدأت مرحلة جديدة فى هذا الوقت تلك هى التجارة البرية لكن القنصل (بيكروفت) لم يعش حتى يشهد هذه المرحلة، حيث مات بعد سنة من نفى الملك (دابا) ولقد لاحظ (دايكا) سنة ١٨٥٤م تلك الزيادة فى التجارة خلال هذه المرحلة وتابع ما كان يحدث من تحول فى السيطرة الاستعمارية حيث قال: إنه لا يمكن القول: إن رغبة بريطانيا اختراق نيجيريا كانت بسبب التجارة فقط ذلك أن الرجال الذين قادوا أكبر حملة تبشيرية فى ذلك الوقت كانوا بلا أدنى شك مدفوعين بأيديولوجية صادقة، وأن الغبى

فقط الذى يقرأ صحف تلك البعثات التبشيرية والاستكشافية، ويبقى غير مقتنع بصدق دوافعهم، ومع ذلك فإنه مع التوسع التجارى هيمنت المسائل الاقتصادية والسياسية على الوضع فى نيجيريا، وعلى كل من الساحل والدواخل الواسعة، وفى هذا الوقت برز شخص آخر أراد أن يستعيد سيطرة العرش وهو يدعى (علالى)، وقد عمل على التخلص من بقايا حزب الملك (دابا) واستدعى على إثر هذا التطور القائد البحرى البريطانى القنصل الجديد السيد (لانسلاجير) ليطلب منه الإفراج عن الوصى على العرش السابق، ذلك أن المحكمة العليا أمرت بتحريره وهكذا حدثت مشاكل وشغب وكان على القنصل أن يطلب من (علالى) أن يعدل عن خططه مادام لديه متسع من الوقت، ولكن (علالى) هذا كان غير صبور وغير دبلوماسى وهو يتصرف بعناد مهما كانت النتائج فى حين أن الملك يجب أن يناقش بموضوعية وعلى أى حال فقد جعل من المحكمة العليا مهزلة، وإذا كان (بيكروفت) قد ذهب فإن عهداً جديداً بدأ حيث تنجح الوساطات، وفى هذا الوقت قرر الملك (دابو) أن يذهب سنة ١٨٥٥م فى زيارة إلى مناطق الأسواق الصحراوية لكنه حوصر لعدة أيام بسبب الأمطار الغزيرة المستمرة، ومات فى طريق عودته إلى (بونى)، ومن المفترض أن موته كان نتيجة داء الرئة، وقد زاره الطبيب البريطانى (ستيليس) لكن أدعياء الطب المشعوذين منعوه من استعمال الأدوية الأجنبية، وتطايرت إشاعات كثيرة عن موته استفاد منها (علالى)، ومع الشغب بدأ القتال فى المدينة وحرقت البيوت؛ وإذ تعالت إطلاقات البنادق من كل جانب تحركت السفن التجارية فى النهر إلى مناطق بعيدة، وفى هذا الشغب قتل العديد من الناس حتى بلغ العدد كما يقال أكثر من ثلاثمائة من الموالين والمحررين، وقد هرب المسئولون، وهكذا استولى المسترقون السابقون على المملكة، وفى هذا الوقت قسمت المملكة بين الأغلبية المؤيدة للنظام الملكى بقيادة المسترق السابق (أوكو جونبو) وجماعة (علالى) الذين يسمون فدائيين؛ حيث إن هؤلاء كانوا يخشون ثأر الملك الذى وصل منطقة النهر فى ١٨ من شهر أغسطس، وبقى على ظهر سفينته المستأجرة إلى ١٥ أكتوبر، وفى هذه الأثناء كان يحاول أن يصل إلى اتفاق بين

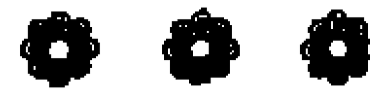
الطرفين قبل أن ينزل على الأرض فى حين أن (علالى) كان يرفض الصعود إلى السفينة، ومن المفترض أنه يخشى القتل، ومن الواضح أن هناك خطة للقبض عليه إذا ما صعد ولهذا هرب وبعد مدة مات ويحتمل أن القنصل الجديد السيد (بورتن) قد سممه، ومع ذلك فإن مشاكل الملك العائد ماتزال باقية، فقد كانت تجارته فى الرقيق والزيت قد نهبت عندما أسقط وبقى شعور العداء لديه قويًا بين المسترقين والمسترقين السابقين، وإذ كانت تجارته قد نهبت فإن أى ملك فقير فى مجتمع مادى لا يكون ملكًا على الإطلاق، ولذلك فقد انتقل إلى عاصمته أى مدينة (جوجو) حيث مات سنة ١٨٦٦م، أما ابنه الملك جورج فقد كان متقدمًا كثيراً عن زمانه، حيث إنه تعلم فى بريطانيا أثناء وجود والده منفيًا هناك، وقد أتقن اللغة الإنجليزية وكان يمكن أن يكون ملكًا قويًا لو كانت ظروف الأربعينيات هى نفسها ظروف الثلاثينيات، وبدون تلك الظروف صار دمية فى أيدى زعماء القبائل وهو كمسيحى وغربى التفكير كان عرضة لكثير من النقد الشعبى على هذا الأساس ويذكر (جيمى كينقرلى) أنه ما لم يعد إلى كل آلهة الوثنية لأسلافه فإن السلطة السياسية والاستقرار لابد أن تضيع منه، ومن المؤكد أن هناك صدى لذلك فى الزمن الحاضر، وكانت منطقة الدلتا فى غرب أفريقيا المنطقة الوحيدة التى لم تحاول بريطانيا فى الواقع تخفيض التزاماتها فيها خلال الستينيات، ولقد أثرت التكاليف على الرغم من ارتفاع الأسعار فى لندن وحدث أن التجار السود والبيض فى منطقة النهر قد اتحدوا ضد التهديد الآتى من القادمين الجدد قائلين لهم: إنهم قتلوا المستكشف (لاندر) الذى حاول أن يخترق مناطق الدواخل كذلك حدث أن السفن التى كانت تبحر عبر قناة ضيقة قد تعرضت لقصف من المدفعية التى نصبها الأفارقة على جوانب النهر، كما قامت الزوارق الحربية بالهجوم وهكذا أمرت البوارج الحربية بعمل انتقامى ردًا على ذلك الهجوم وصار من الصعب استخدام الوطنين للعمل فى السفن التجارية، وعلى إثر تلك الأحداث ارتفعت بوالص التأمين، وفى سنة ١٨٦٠م عندما أثبت السيد (لارد) أن العمل التجارى عبر الصحراء مفيد اضطرت القيادة البحرية أن توافق على حراسات لرحلاته، لكن القائد

(أدمونستـون) المسئول عن المنطقة الإفـريقية قاوم الأمر مـدعيًا بأن الحراسـات المرافقة تمثل انتحـارًا، وبالتالى فإن سـفن السيد (لارد) توقـفت لعدة شهـور وبضاعتـه بيعت بالمزاد العلنى فى منطقـة الدلتا بأثمان منخفـضة، وتركت المحطات التجـارية الداخلية بدون تموين، وبالتالى قـام المشاغبون بنهبـها وما كان على السـيد (لارد) إلا أن قاضى الحكومة بسبب عـدم وفائها بما وعدت، لكنه مـات خلال السنة التالية، وكـان مفلسًا، على أن معركة تاريخية كانت رابحة ففى سنة ١٨٦١م حصلت بريطانيا على لاجوس من الملك (دوسيـمو)، وطبـقًا لمعاهدة يتـخلى بموجبـها على هذه المنطقـة، وهكذا أمر اللورد (روسيل) بتعيين قنصل هناك يدعى (براند) طالما أن نهر النيجر صالح للملاحة خلال سـتة أشهر فى السـنة، وتم انتهاج يعتـمد على حركـة التجارة عـبر هذا الطريق إلى داخل إفريقيا، كذلك فتح الطريق إلى مناطق الهـاوسا، وصارت فرص التجارة هائلة، ولم يكن هناك أى نهر آخر فى غرب إفريقيا فيه فرص تجارية كهذه لكن شغب المواطنين تكرر، وبذلك تم إقفـال القنصلية هنا سنة ١٨٦٩م وإن قـد تأسست ست شركـات كبيـرة خلال الستـينيات بحيث تستـغل مناطق الدواخل فى النيجـر، وكانت أكبر شـركة تجارة إفريقـية برأسـمال قـدره أربعمـائة ألف جنيه، ولقـد طلبت الشـركة تعـويضات من الحكومـة عن استطلاع الأخطار الأرضيـة وعارض هذا الطلب تجار ليفربول، وبالتالى فـإن الموافقة على التعويض ألغـيت، وخلال هذا الوقت فى (بونى) كان الملك (أوكو جومبـو) وزعيم حزب المسترقين المدعو (جاجا) يواجـهان معركة دولة المدينة فى أكبر معركة، وكـلاهما سياسيان إفريقيان ماكران، الثانى منهما ورث القيادة من (علالى) وهو مولود سنة ١٨٢١م وفى مبدأ حيـاته كان قـد بيع لزعيم (بونى) وعـمره وقتـذاك إحدى عـشرة سنة، ولأنه كـان صعب المراس فقد أهداه زعيم (بونى) لزعيم (مـادو)، وفى هذا الوقت كان (جاجا)، قد تمكن من أن يكوّن لنفسه سـمعة طيبة، ولذلك فـإنه عندما صار البحث عن خليفـة للزعيم (علالى) بعـد موت ولى عـهده سنة ١٨٦١م، كـان هو الوحيـد المهيـأ والمستـعد؛ لأن يلتـزم بديون (علالى) وهى التى تبـلغ حوالى مائتى ألف دولار فى تجـارة الزيت، وكان (جاجـا) تاجرًا ممتازًا ويتـمتع باحـترام الأوربيين لنزاهتـه ولم تتم الخلافـة إلا ببطء أى فى شهـر ديسمـبر

١٨٦٣م، حيث تولى (جـاجا) الحكم ولقد ذكر القنصل البريطانى أن هذا الرجل لم يكن معروفًا وهو من رجـال الغابات لكنه نشط وشديد وذو تأثير كبيـر، كما إنه تاجر ناجح فى منطقة النهر، واتضح أنه يكسب فى حدود خـمسين ألف جنيه سنويًا ويعيش أغلب الوقت مع الأوربيين ويظهـر قساوة على القـادمين الجدد إلى (بونى)، ولابد أنه إمـا أن يقتل أو أن يتغلب عـلى كل منافسيـه وأقام سيـاسته على أساس أن الأوربيين سوف يسيطرون على التجـارة عبر الأرض، واعـتمد على عـدد من الشباب الذين كـانوا مستـرقين حيث وضع البعض منهم فى مناصب هامة وزود البعض الآخر بالزوارق والقروض، وهكذا فقد كانت حاشـيته ممن يوالونه، ومنذ تولـى (جاجا) الحكم لم يلتـفت إلى الوراء، وصار أكبـر زعيم يحظى بشعبية فى (بونى) حتى قيل: إنه مـعبود شعبه على الرغم من أن السلطة فى (بونى) ماتزال مقـسمة بين (جاجا) و (أوكـو جومبو) فى حين كان الملك عـبارة عن رقم، وحدث القتـال بين المتنافسين سنة ١٨٦٧م، ولهـذا طلب الملك جورج حـضور القنصل مع سـفينة حربية لإيقـاف القتال والتنافس، لكن هذا امتنع عن التـدخل، وفى سنة ١٨٦٨م كان هناك قتال عنيف فى منطقة (بونى) وعلى أثره تضرر أنصار (جـاجا) بشكل كبير، وأظهر أنصار الملك نوعًا من التحـدى لهم، إلا أن (جاجا) تحاشى المواجـهة لبعض الوقت، وفى سبتـمبر أبلغ كبار التجار القنصل (ليفينجستون) أن الحرب الأهلية على وشك الوقوع، وقد منحوا ثلاثة أيام لينزلوا إلى النهر، وهم لا يستطيعون نقل بضائعهم الثمينة الموجودة على الشاطئ خلال تلـك الأيام الثلاثة، بل وحـتى فى ثلاثين يومًا، وكـانت الاستـعدادات الحربيـة على أشدها فى (بونى)؛ إذ وضـعت المدافع الثقيلـة فى مواقع القتـال حول المدينة وكل الزوارق الحربيـة جاهزة بمدافعهـا وبحدوث الحرائق كـانت مخازن ذخيـرة (جاجا) قد أتت عليـها النيران، وبالتالى انهزم سريعًا وانسحب باحـتيال إلى قرى فى الأطراف أهلها كانوا موالين له، وكتب فى هذا الوقت إلى القنصل (ليـفينجيسـتون) باعتبـاره رئيسًا مسئولاً يقول: إنه يعطى الملكة فيكتـوريا كل مواقعه ويرجع بذلك إلى اتفـاقية الحماية، أمـا الثانى أى (أوكو جومبو) فقد ذكر أنه من جانبه يمكن أن يكون مـتسامحًا مع (جاجا) بشرط أن يسود السلام فى (بونى)، وفى هذا الشأن قام كبـار التجار بإعداد شروط الهدنة، وفيـما بعد وعلى ضوء

المحادثات ساندوا (جاجا)؛ لأنه كان تاجراً أمينًا وموثوقًا فيه، وبعد ثمانية أسابيع من بدء القتال فى (بونى) وصل إليها القنصل البريطانى (ليفينجيستون) وفوجئ بوجود (جاجا) متحصنًا فى منطقة الجداول حيث يجمع قواته، وبدأ يعد لحصار (بونى) إذ كان قد اتفق مع بعض الزعماء الموالين له من أجل إقامة حكومة جديدة يكون هو ملكها، ومع حلول شهر فبراير كانت تلك الحكومة قائمة، وكان القنصل قد رفض التعهد بحماية التجار الذين يذهبون إلى منطقة (أندونى)، لكن الوضع تغير بانتهاء النظام القديم وبقاء الحكومة الجديدة، وبعد تسعة أشهر من تلك الحرب التى أعاقت التجارة كان (جاجا) هو الملك المسيطر، وعندما زاره القنصل البريطانى لأول مرة وجده غير مستعد للتفاهم حيث قال: إن لديه أربعة عشر زعيمًا يؤيدونه، بينما بقى أربعة فقط يعارضون وأنه سيطر على سوق الزيت وسوف لا يسمح لأعدائه بالوصول إلى هذا السوق إلى الأبد لكن القنصل هدد باستخدام القوة من أجل فتح الأسواق، وكان يخشى أن يتجدد القتال إذا ما منع أولئك الزعماء من الوصول إلى سوق الزيت فى (بونى) وكتب إلى رئيس الوزراء البريطانى قائلاً: إن هناك سبع شركات بريطانية لديها معدات كثيرة فى (بونى) ومن المستحيل عليها الانتقال إلى مكان آخر، ولكن الملك (جاجا) كرر رفضه رفع الحصار مما اضطر القنصل إلى استدعاء بارجة حربية، وقد أطلقت النار من المدافع الساحلية، مما اضطر البارجة على أن ترد بالمثل، وقد جرح بعض الناس، وبالتالى ما لبث الملك (جاجا) أن استسلم، لكن مع ذلك عاد التقاتل بين الطرفين وكان التجار الإنجليز يساعدون الطرفين، حتى إن أحد كبار التجار الإنجليز كان لديه زورق حربى فى المنطقة، إلا أن القنصل أبلغ قائد الزورق أنه سوف يعتبره متآمراً هو وبحارته، إذا ما أطلق النار على سفينة بلاده، وكانت الحروب قد استمرت سنتين مما كلف التجار كثيراً من الخسائر بلغت خمسمائة ألف جنيه، وجعلت عدة بنوك تعلن إفلاسها، أما القنصل فقد مات فى (بونى) سنة ١٨٧٥م عندما كان فى طريقه إلى بريطانيا ليتقاعد، وحدث فى السنة الماضية اتفاق بين الملك (جاجا) وبريطانيا فى ظل وجود بوارج حربية غير أن الملك حصل على اعتراف بريطانى بمملكته فى (أوبوبو)، وفى سنة ١٨٧٢م كان هناك مرسوم يعطى القنصل حق معاقبة التجار الإنجليز لمدة واحد

وعشرين يومًا وتوسيع الغرامات والإبعاد من المنطقة لمدة سنة، وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستطلع سبل التجارة فى السودان الغربى بواسطة بعثة استكشافية كانت بريطانيا تدفع التجار من جانب الساحل، بما فى ذلك أحيانًا التجار المسلحون الذين يبحرون بزوارق حربية عبر نهر النيجر ساعين لتأسيس مراكز تجارية، والقضاء على احتكار تجارة الزيت فى الدلتا حتى إن تجارة الملك (جاجا) المحتكرة أخيرًا تم القضاء عليها خلال نهاية السبعينيات وكانت البحرية الملكية البريطانية قد ساعدت على تحطيم سيطرة الدلتا على التجارة الصحراوية على الرغم من أن المحاربين يتوقع أنهم سيعودون إلى الهجوم أثناء فصل الصيف .



الفصل الثاني عشر

البرتغال وإفريقيا الأطلنطية

الفصل الثانى عشر
البرتغال وإفريقيا الأطلنطية

تناولنا فيما تقدم وضع أولئك التجار المستكشفين الذين عملوا فى غرب إفريقيا ويطلق عليهم اسم الرواد، وهذا الجزء من القارة يقول عنه الأفارقة: إنه الساحل القريب من أوربا وهو يمثل طموحات أوربا، وقد سادت فيه أفكار جاءت من مكّة ومن ليفربول، ويظهر أن كلاً من أهل غرب إفريقيا والساحل يدلون على تاريخ كان يسطر على مرحلة هامة من تاريخ إفريقيا ككل، وفى هذا الوقت صار من اللازم النظر إلى الجنوب والشرق، وهذه مساحة تبعد عن أوربا والإسلام، وبأقل عدد من السكان، وهنا فإن اللاعب فى هذه الدراما يختلف كثيراً عن أولئك الذين أشرت إليهم فى غير هذا المكان، وكان البرتغاليون هم القوة المسيطرة، أما البريطانيون فى هذه المرحلة فإنهم يختلفون عن كل من (جون هولت وبيكروفت وتشارلس ماكارثى وماكميلان)، وكذلك كان الأفارقة يختلفون أيضًا ذلك أنهم يتحدثون عدداً من اللغات، ويمثلون ثقافات وشخصيات مختلفة ، وينتجون محاصيل مختلفة ويتبعون عادات مختلفة تمامًا، وإلى وقت متأخر نسبيًا عندما تقاعست الطبقة المثقفة وانطوت على نفسها، وبالتالى فإنه لم يحدث أن إفريقيًا سواحليًا استفاد من فترة الرقيق أو من أى شيء آخر، وهكذا فإن قصة شرق وجنوب إفريقيا هى ببساطة فى غاية السوء وليس كقصة الساحل وهى تتجه إلى أن تكون مختلفة متناقضة بدلاً من أن تكون فصلاً ضروريًا من رواية فى التقدم البشرى، وإذا ما نظرنا إلى الحكم البرتغالى فى إفريقيا فإن هذا يعنى أن نعود إلى الوراء عقوداً من الزمان أى إلى سنة ١٤٨٣م عندما وجد القبطان (ديوقو) أبعد من خمسة من خطوط الطول جنوب خط الاستواء نهراً عظيمًا ماؤه يميل إلى أن يكون أسمر باحمرار يتدفق عبر عشرات آلاف الأميال إلى المحيط أى أن

القبطان (دويوقو) وجد (زائير) وهى تعرف الآن باسم (الكونغو) ولهذا أقام بمساعدة رفاقه نصبًا تذكاريًا على الأرض يرمز ويذّكر بوصولهم ويؤسس علاقات صداقة مع رجال القبائل المجاورة، كما أرسل القبطان وفدًا من أربعة رجال يحملون هدايا إلى الزعيم الكبير، ثم أبحر هذا القبطان فى اتجاه الجنوب وعندما رجع وجد أن سفارة بلاده قد تم الاستيلاء عليها، ولهذا أخذ أربعة من المواطنين كرهائن، وأعلن أنه سيعود بعد سنة أو أقل وأبحر إلى لشبونة، وهنا عمل بكل جهد لإقناع الأفارقة المأسورين بغنى وحكمة البرتغال، وتم تعليمهم اللغة واعتناقهم الدين المسيحى وجعلهم فى مستوى الأرستقراطيين فى السكن والملبس وهكذا من سجناء مرعوبين عادوا إلى بلادهم رفقة القبطان (ديوقو) حواريين متحمسين للثقافة البرتغالية، حاملين أنواعًا من الهدايا للملك (أنزينقا نكوو)، ثم إن هذا القبطان أبحر عميقًا فى اتجاه الجنوب الأطلنطى إلى نقطة تعرف الآن باسم (خليج والفيز)، وخلال عودته اتجه صعودًا فى الكونغو إلى ما يعرف الآن باسم (ماتالدى) وقد أوقف بسبب مياه العيون، وهناك حفر على الصخور قائلاً: هنا جاءت سفينة المستكشف الشهير (البرتغالى ديوقو)، ولقد استمر القبطان المقدام وجماعته أرضًا إلى (موانزا) عاصمة أكواخ الطين، وقد وجد هؤلاء أن القبطان كان سعيدًا بزيارتهم وتحمسوا كثيرًا لأولئك الذين عاد بهم من البرتغال متدينين بالمسيحية وطلب منهم (ديوقو) مجموعة لتدرس علوم البناء والزراعة والإنشاءات المختلفة، حيث اختار عددًا من الشباب الراغبين فى الذهاب إلى البرتغال للدراسة، وكانت رغبة البرتغال فى هذه المنطقة البعيدة المختلفة أكثر من كونها أماكن هامة على الساحل فهى دائمًا كانت باقية كلغز للمؤرخين، وقد اعتقدت إدارات لشبونة فيما جاء على لسان مسئول برتغالى فى إفريقيا وهو السيد (جيمس دوفى) أنها كانت تتعامل مع ملك أكثر تطورًا وسياسي عظيم على غير ما كانت عليه الحالة فى الواقع؛ إذ ليس هناك أى قرينة تؤكد أن شعب (المانيكونقو) قد تمتع بحضارة أكثر تقدمًا مما هو عليه اليوم، ومع ذلك فإن التقارير وقتئذ تقدر السكان بحوالى مليونين ونصف، وأن حدود المملكة تصل إلى الأطلنطى والكونغو وكوانتو وداندى على الرغم من أن تقدير عدد الشعب غير حقيقى فى ظل تلك الظروف، كما أن

الحدود مبالغ فيها قبليًا، وربما هى فقط التى يدعيها (المانيكونقو) اليوم ذلك أن (الباكينقو) يقدرون بحوالى مليون وهم يعيشون فى منطقة واسعة تشمل الأرض الواقعة شمال الكونغو، وفى سنة ١٤٩٠م وصل عدد من القساوسة والعمال المهرة والمواطنين العاديين الذين تعلموا فى الكنائس البرتغالية إلى (ماناقو)، وبعد شهر من ذلك التاريخ عمّد ملك (المانيكونقو) وأخذ اسم الملك السابق (جاو)، وتبعًا لهذا تبعه ابنه وبعض كبار السن، وكان قائد البعثة المدعو (راى دى ساسا) قد ساعد هذا الملك المحلى على قمع ثورة قبيلة صغيرة، وكذلك عملت البرتغال على إسكان (ساوتومى) بالمتدينين المنفيين والمجرمين والمغامرين طالما أنه لم يكن هناك تمثيل ملكى أو مراكز تجارية أو غابات فى أرض الكونغو، وقرب نهاية هذا القرن بدأ هؤلاء المنبوذون بالتجارة مع (سوانزا) وكانوا يشترون أساسًا المسترقين من أجل استخدامهم فى مزارع السكر فى الأرض الخضراء المعشبة التى قيل عنها فيما بعد: إنها أجمل أرض فى إفريقيا، وكان الابن الذى خلف (مانيكونقو) ألفونسو الأول غربى التفكير أرستوقراطى على طريقة الناس فى القرون الوسطى، ومع الوقت الذى صعد فيه على مقعد الحكم سنة ١٥٠٥م لم يحقق فيه شيئا وفشل فى تغيير حياة مواطنيه فى وقت كان فيه منع تجارة الرقيق الذى لم يساعد على تقدم المسيحية، وهكذا أصر الابن على استجلاب أكثر من اثنى عشر قسيسًا جديدًا، إلا أنه فى ظروف طقس البلاد كثيرون منهم أصيبوا بأمراض، بينما رغب البعض الآخر فى العودة إلى البرتغال، وكان آخر قسيس من تلك المجموعة قد مات سنة ١٥٣٢م، ومن أجل إنقاذ ما كان قد تحقق وحفاظًا على وعد التحالف أرسل ملك البرتغال الجديد (مانويل) مندوبًا يدعى (سامو دا سيلفا) ليكون مستشارًا لألفونسو حاملاً فى حقيبته مشروعًا من أربعة وثلاثين بندًا يتطلب تنفيذها فى شئون مملكة الكونغو، وكان على (دا سيلفا) أن يكون مشرفًا على المجموعة البرتغالية هناك، وعليه أن يبعد أولئك الذين أساءوا للمواطنين والقساوسة الذين يفشلون يجب أن يعادوا إلى الوطن، وكان الملك البرتغالى (مانويل) نفسه يريد الرقيق والنحاس والعاج، وهكذا تم تعيين مندوب ملكى فى البلاد، وأخيرًا أمر (دا

سيلفا) بمغادرة الكونغو ويظهر أن ما كان متوقعًا من (دا سيلفا) أن يقوم به كان مستحيلاً، وعلى أى حال فقد مات الرجل بعد عدة شهور من عودته، ثم إن (ألفونسو) كان ذا نظر بعيد، وإن كان فى وضع ضعيف فقرر أن يكتب مرة أخرى إلى الملك (مانويل) يشرح له فيه المؤامرات والاضطرابات التى يتسبب فيها البرتغاليون الرقيق والقراصنة من (ساوتومى) فى مملكته، وطالب بأن تستحدث سلطة قضائية فى تلك الجزيرة البعيدة، كذلك طالب بالمزيد من الرهبان بحيث يحلون محل الموجودين سابقا، وفى سنة ١٥٢٦م كان (ألفونسو) مازال يكافح ضد تجارة الرقيق ويطلب المزيد من البعثات التبشيرية الدينية، وأنه يفضل بعض أولئك الذين أشرفوا على تعليم ابنه فى لشبونة، وابنه هذا يدعى (هينريكو)، وقد عينه البابا بناء على إصرار لشبونة قاصداً رسوليًا فى (أوتيكا وفيكار) بمنطقة الكونغو حيث إنه كان قد عاد إلى البلاد سنة ١٥٢١م بعد ثلاث عشرة سنة قضاها فى أوربا لكنه مات سنة ١٥٣٠م، وصارت كل سلطات المملكة فى أيدى حوالى مائتين من البرتغاليين، وبعض الأفارقة من سلالتهم، وعندما مات (ألفونسو) بعد عقدين تقاتل ابنه (بيدرو) وابن عمه (ديوقو) على الحكم، وفى سنة ١٥٤٨م وصلت بعثة تبشيرية حيث عمّدت خلال أربعة أشهر ألفى شخص، وأقامت ثلاث كنائس إحداها اسمها (سان سالفادور) وأعطت اسمًا للمدينة التى ماتزال تحمله حتى الآن، والجماعة البرتغالية كانت تقوم بنفس الحماس بخصوص دعوتها الإنجيلية وسرعان ما صار أحد أعضائها الأب (جورج فاز) يبحث عن مشتر لعدد ستين من المسترقين الموجودين لديه، وهنا تضامنت بعثة (جوتس) مع (بيدو) الذى كان قد أطاح به ابن عمه لكنها لم توفق حيث انتصر المغتصب فى المعركة، وفى سنة ١٥٥٢م غادرت بعثة (جوتس) خائبة، ثم جاءت بعدها خلال السنة التالية بعثة أخرى لم تكن بأحسن حال، وعندما مات (دياقو) سنة ١٥٦١م انفجر الوضع وبدأ القتال من جديد بشأن خلافته، وقد تولى تلك الخلافة والحكم ابن لقيط (لدياقو)، ولكن سرعان ما قتله أخوه المدعو (بيرناردو)، وتولى هذا الحكم حيث كان على وفاق مع جالية السكان البيض وكذلك مع العرش فى لشبونة، ثم إن هذا نفسه

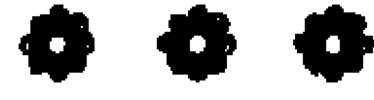
قتل بعد عدة سنوات فى حرب قبلية، وفى سنة ١٥٦٨م استولت قبيلتان على (سان سالفادور) وهرب (مانيكونقو) وآخرون إلى جزيرة على النهر حيث طلبوا من الملك (سابا ستيتو) المساعدة، وفى سنة ١٥٧٠م وصل القبطان (فرانسيسكو دى قوفيا) مع ستمائة رجل وهزم القبائل التى استولت على (سان سالفادور)، وفى هذا الوقت أعلن (مانيكونقو) حقه فى الحكم وامتنان المملكة للبرتغال، وصار يبعث الهدايا سنويًا، وهكذا بقيت مملكته مستقلة إلى القرن التاسع عشر، وفى سنة ١٥٩٦م أعلنت (سان سالفادور) مدينة برتغالية ومقرًا كنسيًا ولكن فى سنة ١٦١٥م، وجدت بعثة استكشافية أن السكان البيض، إما أن يكونوا قد ماتوا أو أنهم هربوا وأن المسيحية تقريبا كانت قد انقرضت وصار الملك (مانيكونقو) حاكما استبداديا، ولذلك انتفضت القبائل التابعة له، وفى سنة ١٦٩٠م حدث أن الكنائس الاثنتى عشرة وقلعتها والسور المحيط بها كانت خرابًا، وهناك على بعد ثلاثمائة أو أربعمائة ميل إلى الجنوب فى أراضى (أنجولا) أسس ميناء (لواندا) سنة ١٦٧٦م، ومع نهاية القرن احتلت (أنجولا) مكان الكونغو الاهتمام لدى لشبونة وفى غياب زعيم قوى وعلى ضوء تجارة الرقيق الواعدة قررت البرتغال مبكرًا أن تفرض حكمًا مباشرًا فى (لواندا) وكانت (أنجولا) ماتزال تواجه حتى الآن ببعض العداوات القاسية على حدودها التى شكلت ماضيها وطبعت مستقبلها، وكان قد هاجر من أنجولا أكثر من ثلاثة ملايين زنجى إلى أمريكا ولابد أن أحفادهم الآن أكثر من سكان أنجولا نفسها، ولقد لاحظ (نقولا) الزعيم التقليدى لشعب (كيمبوندو) بحسد الاهتمام فى مجال التعليم الذى توفر لشعب (باكونقو)، ولهذا كان قد طلب سنة ١٥١٩م إرسال بعثة من المعلمين والتجار إلى موطنه وحصل على طلبه، وحدث أن نمو الاهتمام بأنجولا أغضب الجالية البرتغالية فى (موازنا)، وهم الذين شجعوا (مانيكونقو) لكى يشكل جيشًا سنة ١٥٥٦م ويهاجم (نقولا)، ولقد قاتل الأوربيون لدى الجانبين وفى هذا القتال انتصر (نقولا)، وفى سنة ١٥٦٠م قام (باولو دياسى دى نوفاى) بقيادة مجموعة فى بعثة دينية إلى (أنجولا)، وبقى خمسة شهور على الشاطئ منتظرًا الإذن بلقاء الزعيم (إمبالا) خلالها مات أحد

الرهبان الذين كـانوا معه، وبعدذاك تم الحصـول على الإذن واللقاء وأقيمت الـكنيسة بالمدينة الكبيرة التى قـال: إنها تضم خمسة آلاف كوخ، وإذا كان قـد ساعد على إنهاء الانتفـاضة فقـد رجع إلى لشبـونة بالرقيق والنحاس والـعاج، وفى سنة ١٥٩٢م (عين دى فرانسيسكـو) حاكمًا عامًا مفـتتحًا نظام كولونيالى عـمره الآن ثلاثة قرون ونصف من الزمان، وكانت الخطط الملكية طموحة لكنهـا سارت عكس تلك المصالح المستقرة والثابتـة التى رفض أصحابهـا إفساد مـا تحقق منهـا بجهد كـبير، وهكذا عندمـا حاول الحاكم العام الجديد أن يتحدى غطرسـتهم قام الكهنة على الفور بطرده، ولذلك أجبر خلال السنة التالية ١٥٩٣م على التقاعد من العمل فى أنجولا، وفى سنة ١٦٠٢م تولى (رودجيرو كوتينهو) الحكم بصلاحيات أوسع من أجل أن يحقق المطلب الملكى بتوفير أربعة آلاف ومائتين وخمسين مسترقًا فى السنة للعام الجديد، وكذلك استغلال مناجم الفضة فى منطقة (كـامبامبى)، ولهذا اصطحب (كوتينهو) ثمانمائة جـندى معه إضافة إلى الخيول والمدفعـية، وكانت تلك أكبر قوة برتغالية أرسلت إلى غـرب إفريقيا، لكنه مات بمرض الملاريا خلال شهـر مارس بالقرب من النهر وقد خلفه (مانويل سـيرفيرا) الذى وصل (كامبامبى) إلا إنه لم يجد مادة الفـضة بكمية تجارية، ثم قام الحاكم الذى جاء بعده وهو (مانويل بيريرا) بإرسال بعـثة فى اتجاه الشرق لغرض الاتصال بأراضى (مـونومونتـابا) وكان قـائد البعـثة (بالتـاسار ريـبيللو)، وهو الذى كـان قد بنى قلعـة (موكسيـما)، ولقد سار هذا مسـافة أربعمائة ميل وقال فى مـذكراته: إنه كان يمكن أن يتم مهمته لو لم يستدع ليعود من أجل الدفاع عن (كامبامبى)، وقد مات سنة ١٦١١م محقـقًا قليلاً من الأعمال، وفى سنة ١٦١٧م كـان (سيرفيرا بيريرا) الذى غـادر سابقًا أنجولا فى ظل غيـمة من الشكوك قد عاد لـيجد أن المسئول عن المشـروع، قد وصل به إلى حافـة الإفلاس بسبب تعنتـه وغطرسته، لكن الـكاهن الإفريقى وآخرين اسـتغلوا فرصة مـرض هذا المسئول فوضـعوه فى قارب شراعى صـغير، ودفعوا بـه إلى البحر، وبالتالى سقطت المستعمرة تحت سيطرة (لواندا) إلى سنة ١٦٤١م عندما استولى عليها الهولنديون، ولقد كتب أحد المستكشفين ويدعى (دوفـى) قائلاً: إن المجموعة الصغيرة

من المنبوذين فى (أبينقويلا) الذين وقفوا ضد شهوانية وتطلعات (سيرفيرا بيريرا) عندما أهمل (لواندا) والاحتلال الهولندى كان لهم مكان فريد فى سابق تاريخ أنجولا، وكانت مجموعة المرتدين من الكونغو والمنفيين والمبعدين من البرتغال والمجرمين من البرازيليين مع زوجاتهم وأطفالهم كانوا أول المستعمرين فى أنجولا، وقد أنهكوا فى البحث عن الثروة المعدنية؛ حيث إنهم فى البداية عجزوا عن منافسة مجموعات المسترقين فى الشمال، وقد أجبروا على إثبات وجودهم فى البحر والأرض، وكانت مستوطنة (بينقويلا) منذ البداية مكانًا للتجار والمزارعين وصيادى الأسماك وتلك تشكيلة غريبة من المناشط التجارية الحرفية فى مركز (لواندا)، وهناك فقط فى (سوفالا) بعد تراجع تجارة الذهب يمكن أن يوجد شيء متواز فى إفريقيا البرتغالية كحالة (بينقويلا) خلال منتصف القرن السابع عشر، ولم تكن (بينقويلا) مكانًا لحضارة بهية، وقد بقيت لعدة قرون آتية مقرًا لعناصر من مجموعات غير مرغوبة متعصبة برتغالية، وإن كانت فى نفس الوقت قد صارت مكتفية ذاتيًا فى الزراعة وصيد السمك، وفى وضع محدود جدًا كان نمط وجودها يعكس طريقة الحياة التقليدية البرتغالية أفضل من بقية مناطق التوسع فى إفريقيا والشرق، ولقد لاحظ المستكشف (دوفى) قائلاً: إن المسيحية قد استقرت بيسر على روح (فيراتو) الرائعة، وفى السنة التالية سممت بدهاء شقيقها الذى كان مطاردًا من جانب مجموعة من البرتغاليين عندما انتهك الاتفاقية التى وقعتها شقيقته هذه مع الأوربيين وبعدذاك احتفلت بإعلان نفسها ملكة، وقد تحالفت مع آخرين لتقاتل المتمردين من شعبها، ثم إن حروب البرتغال العشوائية تزايدت دموية وبرتابة حتى سنة ١٦٣٦م عندما استطاع المبعوثون من طرف الحاكم (فرانسيسكو) الوصول إلى سلام مع الملكة (حينقا)، وفى سنة ١٦٤١م استولت البحرية الهولندية على (ساوتومى ولواندا وينقويلا)، وفى سنة ١٦٤٥م انزعجت البرازيل من فقدان التزود بالرقيق، فأرسلت جيشًا لمساعدة البرتغال فى إعادة احتلال أنجولا، لكن قواتها تلك ذبحت جميعها بواسطة القبائل، ثم إن جيشًا برازيليًا ثانيًا هزم الهولنديين ومؤيديهم المتحمسين من الوطنيين، وفى هذا

الوقت بدأت إفريقيا فى المجالات البعيدة تنظر إلى نفسها كمستعمرة، وكان الحكام المتتالون يلاقون صعوبات فى مقاومة رغبات المستوطنين من الجيل الثانى أو الثالث الذين كانوا متحصنين بعضهم خليط (مولاتو)، ومعهم بعض معدومى الضمائر الذين يضعون أصابعهم فى كل شيء، وكانت القبائل بعيدة عن أن تكون هادئة، كذلك حدث أنه من سنة ١٦٦٥م إلى سنة ١٦٨٥م قد انتفضت كل العرقيات ضد البرتغاليين، وهكذا تم احتلال الكونغو وقد مات الملك (مانيكونقو الأول) فى هذه الحرب، وحدث أن أنجولا عاشت لمدة قرن بل تقدمت، وفى سنة ١٧٦٥م جاء حاكم جديد يدعى (فرانسيسكو دى سوسا) وكان يحمل أفكارًا جديدة تتجاوز تجارة الرقيق متصورًا لنظام احتلال يعتمد على إقامة مستعمرات فى الأراضى الصحية العالية على الرغم من أن جميع خططه لم يتح لها الازدهار، ومازال المؤرخون البرتغاليون يرون فيه نموذجًا لأفضل حاكم أنجولى، وفى سنة ١٨١٩م تولى حاكم آخر يدعى (قوفار دى لبوكويريك) فقام بعمل هز به تلك المستعمرة النائمة وبادر بمشروع القهوة والقطن كما أصلح نظام الضرائب، وباشر ببرنامج أعمال عامة، وكان رائدًا فى تنظيم أعمال البريد المحلى، لكنه خلع أثناء الانتفاضة التى جاءت باستقلال البرازيل سنة ١٨٢٢م وما تبعها من اضطرابات فى البرتغال، وفى هذا الوقت كانت الطبقة العليا فى أنجولا كلها من السمر مما ساعد الدعاية البرتغالية حيث إن تمازج الأجناس فى إفريقيا البرتغالية سمّة خاصة بهم؛ إذ إنهم تخلصوا من الإحساس بالعار أى (الدونية) الذى لازم المستعمرات البريطانية؛ حيث إن السمر يعتبرون جنسًا بدائيًا، وكانت (رواندا) قد رفضت عرضًا برازيليًا يقترح الاتحاد بين البرازيل وموزمبيق وأنجولا رغم أن أحد الزعماء كان يفضل ذلك، وإلى أن عين حاكم ليبرالى جديد يدعى (بيرناردو فيديل) سنة ١٨٣٤م عندما كانت سياسة لشبونة متأرجحة، وكانت معظم السلطة القانونية يحتفظ بها البرلمان المحلى وأن الناس الأحرار الذين جاءوا من وراء البحار صاروا مواطنين برتغاليين اسميًا، وفى سنة ١٨٣٨م كانت الإصلاحات المتبقية قد نفذت بواسطة رئيس الوزراء (سان دى باندير)، وهو الذى منع رسميًا تجارة الرقيق سنة

١٨٣٦م، ونقل الحاكم (فيديل) سنة ١٨٣٨م بسبب أنه كان يحصل على رشاوى من أجل أن تستمر تجارة الرقيق تلك، ومع ذلك فإن نقل العبيد مازال مستمراً إلى سنة ١٨٤٥م، وإلى أن تعاون الحاكم الجديد المدعو (بيدرو أليكساندرو) مع البحرية الملكية البريطانية فى القضاء على تلك التجارة .



الفصل الثالث عشر

شـــــرق إفريقـــــيا

(الزانجا - الأزانيا - والبرتغاليون)

الفصل الثالث عشر
شرق إفريقيا (الزانجا - الأزانيا - والبرتغاليون)

لقد بدأ استكشاف ساحل شرق إفريقيا مبكرًا أى قبل أن يبدأ الرحالة فى الاستكشاف على الساحل الغربى باستثناء (الكونغو وأنجولا)، ولكن كان هناك القليل من المعلومات التاريخية، فقد سجل (هيرودوتس) ما يمكن اعتباره طوافًا بحريًا حول إفريقيا وإن كان قد انقضى زمن جيلين قبل (بطليموس)(١) عندما قام بحار يونانى مجهول بإعداد خريطة عن البحر الإريترى خلال النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وقد أوضحت بشكل باهت أجزاء من الساحل الشرقى الإفريقى، وكانت خريطة بطليموس تختلف قليلاً، وذكر أن السفن العربية كانت وقتئذ معتادة فى المنطقة حيث كان العرب أول الزوار المنتظمين لما كانوا يسمونه (بلاد الزنج)، وقد سافر الكاتب العربى الحسن بن حسين بن على المسعودى(٢) نزولاً إلى الساحل خلال الفترة الأولى من القرن العاشر الميلادى على سفينة تجارية عمانية وقبل أن يتوفى فى القاهرة سنة ٩٥٦م كتب عن تلك الرحلة قائلاً: إن الزنج السود أو أرض السود(٣)

---

(١) بطليموس كلوديوس: عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزياء، ومؤرخ يونانى مصرى، نشأ فى الإسكندرية خلال الربع الثانى من القرن الثانى الميلادى، اكتشف عدم انتظام حركة القمر، وله أعمال هامة عن حركة الكواكب، ومكانة بارزة فى تاريخ العلوم.

(٢) المسعودى أبو الحسن بن على بن الحسين، جغرافى ومؤرخ عربى، ولد ونشأ فى بغداد، وأمضى شبابه فى التجوال فزار فارس وكرمان والهند وسيلان ومدغشقر وما وراء النهر وأذربيجان وجرجان والشام، ثم استقر فى مصر وتوفى بالفسطاط، وضع عشرات الكتب، إلا أن أشهر ما بقى منها مروج الذهب ومعادن الجواهر، وهو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهى بسنة ٩٤٧م، جمع فيه مشاهداته ودراساته فى جميع البلاد التى زارها، وله أيضًا كتاب (التنبيه والأشراف).

(٣) الكلمة عربية، وليست كما أورد المؤلف بالقول: إنها فارسية . المترجم .

(وهذه كلمة فارسية ترجع إلى تاريخ غزوة شيرازى)، ومن وقت سابق فإنه كلما قامت سفينة برحلة إلى تلك البلاد كان الزنوج يجذبون الاهتمام وهكذا كانت الطبيعة أرحم على السود الأفارقة من العرب؛ إذ إن لديهم العاج والذهب والبقر والذرة البيضاء والعسل، وخلال القرن الثانى عشر الميلادى عندما كان الإدريسى المحمى من جانب الملك (روجر) ملك سيسيليا النورماندى قد زار إفريقيا ذكر أن كل قبائل ساحل شرق إفريقيا كانت تصهر وتصدر الحديد وربما كانت زيمبابوي تصدره منذ أربعة قرون سابقة، على أن حكومة المنطقة كانت غالبًا قد استقرت فى مملكة مقدسة، وكانت طرق التجارة عبر البحر، وذكر أحد الكتاب ماكانت تمثله الصحراء لغرب إفريقيا تمامًا كما يمثل المحيط الهندى لشرق وجنوب شرق إفريقيا وكانت الجمال تعبر الصحراء بينما تمخر السفن البحار وتحمل الرياح الموسمية تجارة المحيط فى الاتجاه المناسب، الشمال الشرقى والجنوب الغربى، كذلك فإن التقارير العديدة تذكر تفاصيل النشاطات التجارية فى الأوقات السابقة مع العرب والهنود والفرس واليونان والصينيين، حيث إن شعوب هذه البلاد قد استقرت حضارتها فى حين أن شعوب ساحل شرق إفريقيا ماتزال فى فوضى، بل هى توصف بأنواع من الوحشية، وبأنواع من القرصنة غير الموافقة، ولهذا السبب فإن التجار يحصرون نشاطهم عادة فى الجزر مثل (كيلو وأكسيواني وسوغر منارا وجونجى ياكاتى)، حيث كانت توجد كميات من الخزف الصينى والكهرمان والزبرجد، وكان هناك مئات من العرب باقين من خلال الاختراق العربى للمنطقة لأنها ساعدت بلغتها التى تتخللها كلمات من البانتو، وأخيراً كلمات من اللغات الألمانية والإنجليزية التى كونت اللسان السواحلى، ومنذ القرن الخامس عشر عندما أشير عموما إلى شرق إفريقيا على أنها (أزانيا) كان الشريك التجارى الكبير هم الصينيون الذين كانوا بناة السفن الكبيرة ومكتشفى البوصلة المغناطيسية كما أنهم كانوا نجارين ممتازين، وقد رحب الأفارقة بتلك العلاقات حيث أرسل (ماليندى) رسلا فى سفن صينية إلى إمبراطور الصين مع هدية قيمة كانت عبارة عن (زرافة) وكانت أهم الصادرات الصينية (لآزانيا) أنواعًا من الحرير والأقمشة المطرزة والخزف والطلاء، والواقع أن أصل الاسم (آزانيا) لم يكن

معروفًا، وإن كان من الواضح أنه كلمة أوربيـة، ومع نهاية القرن الخامس عشر ظهرت قـوة جديدة تجارية عظيـمة حيث إن (بارتو لوميـو دياسى) فى رحلتـه سنة ١٤٨٧-١٤٨٨م حول رأس الرجاء افتتح مرحلة جـعلت العلم البرتغالى لمدة قرنين من الزمان شعار القوة فى المحيط الهندى وكانت السيادة البـرتغالية فى تجارة شرق إفريقيا، قد تم تحديها بشكل مؤقت من طرف الإمبراطورية العثمانية التى احتلت مصر سنة ١٥١٧م، وسيطرت علـى البحر الأحـمر، ومع ذلك فإن الـسيطرة العثـمانية سـريعًا مـا صارت اسمية فى مصر وبذلك تلاشى التحدى، وكانت الجزر التجارية عمليا من صنع العرب مما يظهر جليًـا كحقـيقة فى واحدة مـنها أى (زنجيبـار)، ولكن عندما أصبح أصـحاب الأرض الأفارقـة هم الأغلبيـة من السكان غرسـوا تقاليدهم، وكـذلك نماذج سكناهم وغير ذلك، ولقد عاد (فاسكو دا جاما) إلى المكان الذى استغله (دياسى) فى بداية سنة ١٤٩٨م حيث أرسى سفينته خلال شهر مـارس بميناء (موزمبيق)، وكان شيخ الجزيرة المعين من قـبل سلطان (كيـوا) يعتـقد أن البـرتغـاليين لابد أن يكونوا تجاراً مـسلمين، لكنهم سرعان ما صـححوا هذا الاعتقاد، ولذلك فشلت المباحـثات وغادر الزوار بعد أن أمطروا المدينة الصـغيـرة بالقذائف من سـفينتـهم، وقام (دا جـاما) فى (مـومبـاسا) بإرسال اثنين من المجرمين إلى الشـاطئ يحملون كمية من الخرز كهـدية لشيخ المنطقة، ولكن هذه المحاولـة أيضًا كانت عـاجلة، وقد حـاول العرب دون نجاح تعطـيل السفن البرتـغالية التـى اتجهت شمـالا إلى (ماليـنـدى)، وقد استـولت على حمـولة وهى فى طريقـها، وفى (مـاليندى) أجـبر (دا جـاما) الحـاكم المحلى على تزويده بربان بحـرى للمـحيط الهندى، كـما حـصل على نوع من الاتفاق التـجارى هذا الاتفـاق الذى دام حتى نهاية القـرن، وكانت العلاقة البرتـغالية مع المواطنين الأفارقة الـسـود خلال القرن السادس عشر والسابع عشر محصورة فى المناطق الداخلية من جوانب الشاطئ أى من (سـوفالا) إلى (كـويليمـانا)، وكان العـرب أو الملّونون مع بعض الزنوج المستعـربين الذين يتكلمون الـسـواحلية يسيطرون على الساحل عند وصـول (دا جاما)[1] وكـان الملك (كيلوا) القوة الوحـيدة المحتكرة لتجارة الذهب فى (سوفالا)، وحـدث كثير من

(١) كان المغـامرون الأوربيون ينقلون معـهم السجناء والمجرمين فى رحـلاتهم إلى هذه البلدان ويستخـدمونهم فى أغراضهم الخاصة ،كما فعل (دا جاما) وإذا ما ماتوا أو قتلوا لا يكلفونهم شيئًا. المترجم .

الشغب بواسطة العرب ضد المنافسين الجدد على الرغم من أن هؤلاء البرتغاليين كانوا قادمين، وفى خططهم تأليب السلاطين المتنافسين ضد بعضهم، وفى سنة ١٥٠٥م أرسل أسطولاً من ثلاث وعشرين سفينة إلى الهند بقيادة (فراسيسكو دى أليميندا)، وفى الساحل الشرقى الإفريقى هاجم (أليميندا) (كيلو)، وقام ببناء حصن من الحجارة عرف باسم (سانتياقو) وقصف (مومباسا) فحرقت ونهبت بحلول سنة ١٥١٢م وبذلك تكاملت سيطرة البرتغاليين على الساحل، ولكن فى سنة ١٥١٢م استعاد العرب (كيلو) وكان هناك تحد فى (مومباسا) سنة ١٥٢٨م[1].

وكان تبادل القصف المدفعى مستمراً بانتظام خلال السنوات اللاحقة، ولم يستطع القائد البرتغالى منع تدفق بضائع العرب المهربة إلى الهند، حيث أثّر التهريب على (سوفالا) والواقع أن بعضه كان بواسطة البرتغاليين الأفراد، وأخيراً عند نهاية القرن كانت الحروب الداخلية قد أثرت كثيراً على تجارة الذهب، فى حين أن التحدى العربى لسيطرة البرتغال فى المحيط الهندى على التجارة أدى إلى حروب بحرية على الساحل، ولأن البرتغال رغبت فى تأكيد سيطرتها على التجارة، ومن أجل أن تعالج الفوضى فى الجزيرة اندفعت إلى الدواخل، وبحلول سنة ١٥٥٠م أنشأ البرتغاليون بعثة لدى القصر الملكى فى (مونوموتابا) كلف بها (أنطونيو كاباك) وهو تاجر فى (زمبابوى) صار مستشارا للملك الإفريقى، ومنح من قبل لشبونة وظيفة نائب الملك فى المنطقة، وفى سنة ١٦٠٧م أعطى ملك (مونوموتابا) التاج البرتغالى كل محتويات مناجمه مقابل الحماية العسكرية[2]، وجاء فى الاتفاقية القول: (إن ملك إمبراطور

---

(١) ذلك عندما كان العرب يحسون بالكرامة ويواجهون المعتدين، أما الآن فقد فقدوا الإحساس والكرامة معًا مع الأسف الشديد، وهنا نحن نراهم جميعًا وهم (اثنتان وعشرون دولة) مخذلين لا يرفعون حتى أصبع احتجاج على الغزوة البربرية التى قامت بها دولة (النجاشى) على بلد عربى مسلم هو (الصومال)، وأنا أقصد بهذا الكلام كل الحكام العرب دون استثناء، لقد قام الأحباش بغزو الصومال لمجرد أنه مسلم، وتحكم جزء كبير منه جماعات مسلمة تسمى جماعة المحاكم الإسلامية بتشجيع من عدوة العرب والمسلمين (الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة بوش الصغير) حدث هذا خلال شهر ديسمبر ٢٠٠٦م . المترجم .

(٢) هكذا بالضبط كما يفعل الحكام العرب الآن مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب الصليبى مقابل الحماية المهينة، أى: لكى يبقوا على كراسيهم وقهر شعوبهم. المترجم .

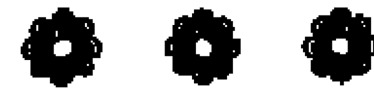
(مونوموتابا) أعطى لجلالتـه كل مناجم الذهب والنحاس والحديد التى يمكن أن توجد فى إمبـراطوريتى طالما أبقانى فى وضعى)، وكـذلك قامت البرتغـال بتقديم المسـاعدة ضد البارونات الـلصوص الذين كانوا يزعجـون الإمبراطور، لكن الحلفاء سـرعان ما اختلفـوا وأدى الاختـلاف إلى الصراع وهذا حـدث فى سنة ١٦٢٩م وعلى إثر هزيمة (المونومـوتابا) فى الحرب وقّع الإمـبراطور اتفاقـية أخـرى تنص على الحمـاية الكاملة وحكم البرتغـال والموافقة على قبـول بعثات مسـيحية، وبذلك تقـرر أن يكون احتكار التـجارة كلـيا للبـرتغـال، وكان قـد بدأ السـفـر فى المناطق الداخليـة سنة ١٥٠٥م مع (أنطونيـو فيـرناندو) الذى استكشف (مـانيكالاند وأجزاء من مـاشونلانـد) أى الجزء الشـرقى من روديسيـا الحاليـة، وقد أوصى بـإنشاء مـصنع تجارى فى (لوندى أو نهـر سـافـا)، حـيث يمكن إحـضـار الذهب من (مـونومـوتابا)، ولـكن فى النهـاية كـانت (زيمبابوى) هى الأنسب وصارت (موزمبيق) أهم ميناء برتغالى يمثل حزامًا إمبراطوريًا تجاريًا فى الكرة الأرضيـة، ولقد حاول بعض البرتغاليين الاسـتقرار هناك أى فى تلك المنطقة التـجارية حيث يكون نائب الملك وكـيلا محـتكرا لبعض المواد غير المحـجوزة للتاج، وهو بذلك يـحتل الإدارة والقيـادة، وكان البرتغـاليون يشتـرون الذهب والعاج ويبـيعون الخـرز والقمـاش، على أنه فى أغلب الأحـوال لم يكن نائب الملك مسيطرًا على أبعد من خط السـاحل، وكان عــدد الأوربيين قد بدأ هـناك بما لا يزيد على مائة شخص، ثم وصل عددهم إلى أربعة أضـعــاف ذلك العدد مع نهاية القرن، وفى سنة ١٥٣١م أنشأ مدير موزمبيق سوقًـا فى (سينا) بمنطقة (زامبازى) وبعده بدأت المشاريع الاستـيطـــانية الزراعـية، ثم أقيـمت بلدة على بعد مـائتين وستين مـيلاً من المكان مع مـشاريع أخـرى زراعيـة خـلال العقـدين التالـيين وعندما اعـتلى العـرش البرتغـالى (سيبـاستايو) سنة ١٥٦٨م، وكان عمـره أربع عشرة سنة صار بعد فـترة مهتمًـا بإقامة إمبراطورية فى إفـريقيا، حيث أرسل فى السنـة التالية جيشًـا من المتطوعين عدده ألف رجل إلى موزمـبيق تحت قيادة (فـرانسيسكو باريتو) الذى كـان حاكمًا عـامًا فى الهند بتعليمات مـحددة تنص على الوصول إلى اتفاقية مع (مـونوموتوبا)، ولقد أبحر ذلك

الجيش فى نوفمبر سنة ١٥٧١م عبر النهر إلى منطقة (سينا) التى أنشئت سنة ١٥٣١م، حيث كانت مشاكل الغذاء والنظافة لم تحل بشكل كامل وتم ذبح الجالية المسلمة وقد حدث أنهم فى بعض الحالات كانوا يقذفون من خلال فوهات المدافع(١)، وكانت بعثة أخرى أرسلت إلى (مونوموتوبا) لكنها غرقت فى (زامبازى) وقد انقضت ستة أشهر قبل أن تتمكن من العودة، أما (باريتو) فقد أرهق جيشه التعب من مقاومة الزعماء المحليين المتمردين، وأخيراً وصل إلى (مونوموتابا) وقدم شروطه، ثم عاد إلى الجهات السفلى فى النهر، وعندما رجع إلى (سينا) فى مايو ١٥٧٣م كان الباقون أحياء من جيشه لا يزيد عددهم عن مائة وثمانين رجلاً، حتى إنه هو نفسه مات بعد ذلك بأسبوعين من الإرهاق والحمى، ثم إن تلك البعثة قد سحبت من (مونوموتابا)، وفى سنة ١٥٧٤م كانت بعثة أخرى أكثر نجاحًا بقيادة (فاسكو فيرنا هوميم) قد وصلت منطقة بالقرب من (آماتالى الحديثة) فى روديسيا، واتفقت على أعمال فى المناجم مع الزعماء المحليين، ولكن بعد ذلك حدث أن مائتى رجل بقوا فى الحامية فى منطقة (شيكاو)، قد نكل بهم بعد مغادرة (هوميم)، ولم يطل الوقت حتى صار الحكم البرتغالى قاصيًا واعتباطيًا فى كل من مناطق الشاطئ، وفى كل مكان آخر، ورغبة فى مغادرة البرتغاليين قام بعض الزعماء المحليين بإيقاف العمل فى مناجمهم، كما حاول ملك (أنقومى) طرد أغلب البرتغاليين بطرق أكثر بربرية، حتى إنه قتل عمال مناجمه الخاصة كى يعطل العمل، وبالتالى فإن لشبونة قررت تركيز عملياتها فى شرق إفريقيا عند موزمبيق التى جعلت مستقلة تابعة لنائب الملك فى إدارة الهند، وقد أقيمت قلعة (جيسوس) فى مومباسا سنة ١٥٩٣م، بحيث تعزز رقابة الشواطئ المحدودة فى (مالیندی وموزمبيق)، وهكذا ازدهرت تجارة البرتغال بين إفريقيا والهند عند انتهاء القرن على الرغم من التحدى البريطانى والهولندى لإمبراطورية الشرق الأقصى

(١) هؤلاء الأوربيون من أجل الاستغلال والمصالح كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أبشع الجرائم ضد الأبرياء كما ذكر المؤلف أعلاه، وإذا كان ذاك يحدث منهم خلال بداية القرن السادس عشر، فها نحن نجدهم يكررون نفس البشاعات فى عصرنا الحالى فى العراق وفلسطين وأفغانستان وكثير من بلاد العرب والمسلمين. المترجم.

باحتلال قلعة (جيسوس) من طرف العمانيين سنة ١٥٩٩م، وموت ألفين وخمسمائة برتغالي وهندي وعربي وسواحلي في تلك المحطة، ومنذئذ اتجه البرتغاليون إلى القليل من الاهتمام بموزمبيق، واعترفوا بأن الساحل في شمال رأس (ديلقادو) هو منطقة نفوذ عربية، وفي سنة ١٥٩٠م كانت أهمية (سوفالا) قد تلاشت مع استمرار التجارة في (سينا)، حيث كان البرتغاليون يدفعون إتاوات في شكل أقمشة وخرز وغير ذلك، وأقاموا مخازن وكنيسة؛ إذ كان هناك حوالي خمسين من البرتغاليين يقيمون في (سينا) ومعهم حوالي ألف من الهنود والملونين، وهناك مصنع يعمل فيه ألفان من المسترقين وبعض المنشآت في (ماسابا ولوانزا وبوكوتو)، حيث كانت البرتغال تتمتع بمزايا كثيرة في منطقة المحيط الهندي تزيد عن بقية القوى الأوروبية الأخرى الموجودة في ذلك الوقت (بريطانيا وفرنسا وهولندا)؛ لأنها كانت تدفع مبالغ كبيرة للتجار العرب من أجل الخرائط والمعلومات على أن مصالحها في إفريقيا وخصوصا تجارة الرقيق تعتمد أساسًا على (أنجولا) وهي المصدر الرئيسي للبرازيل، وعلى الرغم من أن تجارة الرقيق تتطور في شرق إفريقيا، فإن البرتغاليين كانوا يتمتعون بحماية وتطوير تجارة المحيط الهندي وتحصيل الذهب والفضة من مناجم (مانيكالاند)، وفي سنة ١٦٠٨م أمر (فيليبي الثالث) بإرسال بعثة جديدة للبحث عن الذهب في (زامبازي) لكنها انتهت إلى الفشل، وفي سنة ١٦٤٣م قام (جاو الرابع) أول ملك في (براقانزا) بفتح تجارة البرتغال الهندية لكل البرتغاليين، ولقد ذكرت فيما تقدم من هذا الكتاب أن (كاثرين) عندما تزوجت (تشارلز الثاني) سنة ١٦٦١م حصلت بريطانيا على (طنجة) كجزء آخر من مهر كاثرين، ولقد حدث أن تغير القوى جاء بالعديد من الهنود البرتغاليين إلى شرق إفريقيا البرتغالية، حيث صار لهم موقع قدم في التجارة، وعندما قارب القرن على الانتهاء كان الرقيق قد أصبح جزءاً هامًا من التجارة ليزداد تدريجيًا في القرن اللاحق، وفي الداخل كان تحليل الوضع السياسي قد أخذ منحى مدويًا في الاتجاه الأحسن سنة ١٦٢٨م، حيث هزم المتمرد من (مونوموتابا) المدعو (كابرا نزاين)، واستبدل بابن أخته المدعو (مانوزا) على إثر قيام (كابرانزاين) بإلغاء

اتفاقية كان والده قد وقعها، كما حاصر القلاع البرتغالية ومنع التجارة لكن ابن أخته (مانوزا) وقع اتفاقية جديدة متعهداً بالتبعية للتاج البرتغالى ولكل مسئول فى (مونوموتابا) على أن تقوم هذه بإرسال ثلاث قطع ذهبية كإتاوة وبحسب الاتفاقية يتمتع البرتغاليون بالعمل والتنقل عبر أراضى المملكة، وأن العرب سوف يطردون من (البلاد وتبنى الكنائس ومقار البعثات التبشيرية، ولقد أدان ابن الأخت هذا جميع مطالب خاله كابرانزاين) كما أنه غيّر دينه فصار مسيحيًا باسم (فيلييى)، ولكن مع نهاية القرن السابع عشر ضاعت كل المكاسب ولم يكن ممكنا استعادتها لقرنين قادمين، ودمرت سلطة البرتغاليين فى الشرق الأقصى أساسًا بواسطة البريطانيين، وتلاشت إمبراطوريتهم هناك حتى أصبحت عدة جيوب مثل (ماكيو وجو)، وفى بداية القرن الثامن عشر تم سحب حامية (سوفالا)، وكان الرعايا البرتغاليون فى (سينا وتيتى) والمناطق المجاورة قد عاشوا فى وضع سيئ معزولين يتشاجرون مع بعضهم ومع الأفارقة مكونين نصف مجتمع طائفى لا يعترف إلا بقانونه الخاص[1].



(١) أحزننى - والله - منظر صدام حسين وهو يقف وحبل المشنقة حول رقبته، وقرار إعدامه في الصباح الباكر من هذا اليوم (الجمعة ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦م) يوم عيد الأضحى المبارك (١٠ من ذى الحجة الشهر الحرام)، على الرغم من أننى لم أكن فى أى يوم مع صدام حسين؛ باعتباره دكتاتوراً وقاتلاً، لكن طريقة إعدامه هكذا في مناسبة تاريخية دينية إسلامية، وهو موقف مهين لكل عربى ومسلم، بل وكل إنسان. المترجم.

الفصل الرابع عشر

زنجبار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

الفصل الرابع عشر
زنجبار واستكشاف الجدى فى إفريقيا

لقد بدأ الاستكشاف للدواخل فى الشمال من طرف النيل، وفى رحلة الخمس سنوات (١٧٦٩- ١٧٧٤م) كان المستكشف الإسكوتلانى (جيمس بروس) قادمًا من الأعلى عبر مصر ليحدد مسار النيل الأزرق من إثيوبيا، وكان فى هذا الوقت ساحل شرق إفريقيا مايزال تحت النفوذ العربي، وكان الإمام سيد سعيد حاكم مسقط من سنة ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦م قد أنشأ أسطولاً بحريًا، وأعاد التأكيد على مطالب العرب فى موانئ الساحل، ويضع قيادته فى (زنجبار)، فارضًا تحصيل الضرائب والجمارك كذلك كان سباقًا فى نشر معرفة المعادن الثمينة، وحقق بذلك بعض النجاح حيث صارت الجزيرة وجارتها (بيمبا) وقت وفاته تنتج ثلاثة أرباع حاجيات العالم، وفى ظل حكم سعيد هذا أصبحت (زنجبار) المركز التجارى الرئيسى فى الساحل، وهى الميناء الرئيسى لتزويد السفن بما تحتاج والسوق المصدر للرقيق والعاج إلى البلدان الرئيسية، كما أنها كانت السوق المستورد للخرز والأقمشة والسلاح والمعدات من الهند وأوربا وأمريكا، وكان سعيد يقضى الكثير من وقته هناك، وفى سنة ١٨٤٠م جعل زنجبار عاصمة لبلاده وجمع فى بلاطه طبقة من العرب المستثمرين فى حين استجلب العرب من مسقط وعمان ليكونوا طليعة فى التجارة هناك يقترضون المال من الهنود المرابين، وكانت طرق التجارة فى الداخل من بحيرة تانجانيقا إلى الساحل مطروقة بطلائع من الناس الأفارقة المنتمين لقبائل (وانيا ماويزى)، وفى سنة ١٨٤١م امتدوا إلى أبعد فى اتجاه الغرب إلى بلاد (مولوندا وكاتانقا) يقومون بالتجارة لحسابهم مرتبطين مع الزنجباريين والسواحليين فى (بوقويا وبوريورو)، ومع ممالك أوغندا الأخريات، وكانوا مشهورين فى كل عمل تدربوا عليه منذ صغرهم، وبما يكسبون من مال كانوا

يشترون العبيد الرقيق الذين يحرثون حقولهم في وقت ما يكونون على سفر، وحدث أنه تدريجيًا صار شعب (نياموينزى) حمالين بدلاً من تجار حيث كانوا غير قادرين على المنافسة مع رؤوس الأموال الكبيرة والمنظمات المتقدمة الزنجبيارية وبقية التجار المتكلمين باللغة العربية، وهؤلاء ينقلون المزيد من مختلف البضائع بما فى ذلك البنادق، هذه التجارة التى صارت بالتدريج مطلوبة من طرف الزعماء الأفارقة فى مناطق مثل (تابورا فى بلاد النياموينزى)، أو فى (الأصيجى على بحيرة تانجانيقا)، ولقد أحدث العرب تأثيراً سياسيًا مماثلاً لذلك الأوربى فى مراكز التجارة على الساحل الغربى، التأثير الغربى غرب البحيرة فى الزنجيبار أو الساحل بالتضامن مع (النياموينزى) أحيانًا لإسقاط القادة المحليين، وفى كل الأحوال لم يستخدم العرب إلا القليل من القوة فيما عدا القبض على الرقيق، وقد عملوا بطريق الإثارة والتفاوض، وفى أوغندا خلال الخمسينيات أو بداية الستينيات بدأ عرب الخرطوم الذين يشار إليهم على أنهم أتراك ينافسون فى السيطرة على الزنجبياريين، وكانت زنجبيار وقتئذ فى تحالف طويل مع بريطانيا، حيث بدأ ذلك منذ عهد سلف السلطان سعيد خلال الفترة الأولى من حروب نابليون، واستمر التحالف مرضيًا للطرفين منذ ذلك الوقت، وكانت بريطانيا ترحب بأى نفوذ فى المحيط الهندى الذى يمكن أن يوقف التقدم الفرنسى، وشكراً للسلطان سعيد الذى ترى فيه بريطانيا مانعًا لأى تقدم فوضوى فى المنطقة يجعل لندن نفسها تتعامل معه فى غرب إفريقيا، وذلك يمكن أن يكون حافزاً فى تطوير شرعية التجارة ومراقبة منع تجارة الرقيق، وفى سنة ١٨٢٢م عندما كان سعيد مايزال مقيما فى مسقط وافق على توقيع اتفاقية مع بريطانيا تحدد تجارة الرقيق فى النصف الغربى من المحيط الهندى، وهذا يمنع التجار من إحضار الرقيق إلى جزر الهند البريطانية، وعندما انتقل سعيد إلى زنجيبار سنة ١٨٤٠م كانت القنصلية البريطانية الأولى فى شرق إفريقيا قد أنشأت لدى بلاطه، وفى سنة ١٨٤٥م وقعت اتفاقية أخرى تحدد تجارة الرقيق فى محيط سلطنته الإفريقية، وهكذا بدأت أطقم البحرية المكلفة بمراقبة ومنع تجارة الرقيق تنظيف المحيط الهندى بالضبط كما عملت على تنظيف شرق الأطلنطى، وفى سنة ١٨٦١م أى بعد خمس سنوات من وفاة

السلطان تولى أحد أبنائه مسقط بينما تولى الآخر زنجيبار، وهكذا قسمت المملكة، وفى سنة ١٨٧٣م وافق (برغاش) الذى استولى على زنجبيار على إنهاء تجارة الرقيق بشكل كامل، وقد أقيمت كاتدرائية مسيحية على موقع سوق الرقيق فى زنجيبار، ولكن المستفيدين من تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا، استمروا فى تلك التجارة بشكل سرى داخل (زنجبيار وبيمبا)، ولقد استمر وضع الرقيق كما كان عليه، ولم يحظر إلا تدريجيًا فى الجزر خلال زمن الاستعمار وكانت تجارة العاج قد نمت ولذلك فهى إلى حد ما ساعدت على استمرار تجارة الرقيق وكان الذين يحملون العاج وغيره عادة هم من الأرقاء، أما العملة المستعملة فى شراء العاج، فقد كانت الأسلحة والذخائر (اى مبادلة) وهى التى تستعمل بالتالى فى حروب القبائل والسبب أو النتيجة من ذلك كانت الحصول على المكان والتوسع، وفى شرق إفريقيا لم يكن هنالك بديل مناسب كزيت النخيل فى غرب إفريقيا، ومن أجل الحصول على المال من تجارة الرقيق فإن مزارعي (نياموزى وبيمبا) يحتاجون لمورد منظم من الرقيق للعمل، ولابد أن مثل تلك الأساليب قد استمرت لبعض الوقت لو لم تكن هناك مطامع ألمانية أحدثت فجأة صراعًا استعماريًا على الأرض، وحدث أن بعثين ألمانيتين هما (جوهانيس لودويق كرابف وجوهانيس ريبسمان) كانتا أول بعثتين أوربيتين تستكشفان وسط شرق إفريقيا من جانب المحيط، وقد عادتا بدراسات عن (كليمانجورو وكينيا) وكان ذلك مع أشياء أخرى من قصتهما قد أجج خيال الناس على الرغم من عدم التصديق الواسع عن دراستهما، وبين سنوات (١٨٦٢ - ١٨٦٩م) استكشف السيد (جيرهارد روهيفيس) الأرض إلى الشمال من مرتفعات شرق إفريقيا، ومن سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٤م استكشف السيد (قوستاف ناختيقال وآخرين) السودان ما بين بحيرة تشاد والنيل، وبين سنة ١٨٦٠ و ١٨٧٢م كان السيد (كارل ماخس) أول أوربى برتغالى منذ عهد النهضة يستكشف إمبراطورية (مونوموتاباس) المهجورة وقد سبقت البعثات الألمانية كل المبادرات لكنها تركزت فى غرب وشرق وجنوب غرب إفريقيا أما (كرابف ووريسمان)، فكان قد تابع عمله عن طريق المبشرية البريطانية أما (تشارلز

نيو) الذى تسلق (كيليمانجارو) إلى أبعد وكاد يقتل فى النهاية من طرف (الماساى)، وفى الجنوب بدأ الدكتور (ليفيد ليجينقستون) رحلته اللانهائية كمبعوث طبيب وجغرافى مبكراً فى سنة ١٨٤٢م، وقد تزوج من ابنة مبشر وداعية مشهور آخر يدعى (ماريو مافات)، وقد ماتت زوجته مبكراً أما (ليفينقستون) نفسه، فقد رأى أن ينهى حياته فى إفريقيا حيث اجتاز (كالاهارى) مرتين من سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٦م واستكشف المناطق العليا من (زامبيرى) وفى سنة ١٨٥٢م سافر من (كيب تاون)، حيث وصل مناطق الجداول العليا من (لولابا) الكونغو الأعلى مسافراً من الساحل الغربى إلى الساحل الشرقى ليشاهد بحيرة (ماء العين) الشهيرة وهى التى سماها شلالات فيكتوريا، وفى سنة ١٨٥٨م كان قد عيّن فى وظيفة قنصل صاحبة الجلالة فى الساحل الشرقى والدواخل غير المستكشفة، حيث قاد بعثة للتحقق من إمكانية الملاحة فى (زامبيزى السفلى)، وهو الواجب الذى شغله إلى سنة ١٨٦٤م وفى سنة ١٨٦٦م، ثم سافر هذا الدكتور الإسكتلندى الجرىء مرة أخرى؛ ليستكشف الأراضى الواقعة بين بحيرات (نيازا وتانجانيقا)، وقد تسمت مدينة المنطقة بعد (ليفينقستون الأسكتلندى) باسم مدينة مولد ليفينقستون، وخلال رحلته تلك ترافق مع فريق عربى يمارس تجارة الرقيق على أن مجمل الاكتشافات فى إفريقيا ترجع إلى قدرة وتحمل هذا الرجل؛ حيث إنه استكشف مساحات واسعة جداً وهو يعانى من المرض والتعب والألم، ولقد اختفى عن العالم الخارجى خلال رحلاته تلك لعدة سنوات إلى أن اكتشف من طرف صحفى مراسل لجريدة أخبار نيويورك المدعو (هينرى ستانلى) فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧١م، وأبلغ هذا الصحفى عن أخبار (ليفينقستون) وهزيمة فرنسا فى (سيدان) وأشياء أخرى حدثت، بينما هذا الهائم ضائع كالفراشة المجهولة، وقد غادر الرجلان من المكان الذى التقيا فيه (أجيجى) صاعدين مع البحيرة إلى منطقة تبعد حوالى عشرة أميال جنوب (ماروندى الحالية) عاصمة (يوسومبورا)، حيث افترقا إذ عاد الصحفى ستانلى إلى الساحل، أما ليفينقستون فقرر أن يستمر ليستكشف (لوالابا) التى كان يعتقد أنها النيل وعندما مات (ليفيتقستون) سنة ١٨٧٣م نقل

جثمانه إلى الساحل وكان السيد (فيرني لوفيت كاميرون) الذى رافق (ليفينقستون)، وساعده فى أبحاثه قد وصل زنجبار فى ديسمبر سنة ١٨٧٤م حيث علم بوفاة (ليفينقستون)، بينما كان فى رحلته عبر المنطقة ولهذا استمر غربًا حيث وصل (بينقويلا) سنة ١٨٧٥م ،وهكذا فهو ربما كان أول رجل أبيض يعبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب، أما رحلة ستانلى لعلها كانت أشهر استكشاف معروف لأى إفريقى، وفى سنة ١٨٦٩م كان السيد جيمس قوردون بينيت صاحب جريدة الأخبار قد قال لستانلى وهما فى باريس إنه يطلب منه أن يقوم بتغطية أخبار افتتاح قناة السويس، ومن هناك عليه أن يتجه إلى الهند ثم إلى إفريقيا ليجد الدكتور (ليفينقستون) الذى يقوم بذلك العمل المثير، مما جعله يستقر فى زنجبار خلال شهر يناير ١٨٧١م مقيمًا مع القنصل البريطانى، بينما كان يعد لرحلاته القادمة إلى (باقامويو) على الجبال، ومن هناك غادر برفقة بحار بريطانى وآخر أمريكى يدعى (قودهيو) وهو من المقيمين فى زنجبار إضافة إلى عدد من الحمّالين وكانت هذه البعثة من أكثر البعثات استعداداً، ولأن ستانلى معتاد على الرحيل، فقد كان يحمل أنواعًا من الأغذية الممتازة وأنواعًا من المشروبات، وقد مضت مدة طويلة قبل أن تبدأ هذه الرحلة بتسجيل ملاحظاتها، حيث مات فى الطريق المرافقون البيض، أما أغلب الحمالين الذين معه فقد مات البعض منهم والبعض الآخر هربوا ولم يبق إلا عدد قليل كانوا مرهقين ومتسخين إلا أنه مع ذلك وصل إلى (جيجى) عند نهاية السنة، وعندما عاد ستانلى إلى أوربا طلب منه على عجل أن يعود إلى إفريقيا للقيام بأعمال لصالح جريدة نيويورك الأمريكية وجريدة الدايلى تلجراف اللندنية البريطانية بحيث يتابع اتجاه مصب نهر (لوالابا) وما إذا كان إلى البحر ومرة أخرى بدأ الرحلة من (باقامويو) ليستمر تسعمائة وتسعة وتسعين يومًا كلفت حياة مرافقيه الأوربيين ومن أتباعه عددا كبيراً، ولقد أنجز هذا الرجل أعظم رحلة استكشافية عرفت خلال كل تلك الأزمان وهى الرحلة التى بينت أن (لوالابا) إنما هى الكونغو وأن فى الكونغو ستين شلال ماء تهدد ملاحته مما دفع الملك البلجيكى (ليوبولد) أن يضغط من أجل عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤-١٨٨٥م،

ولقد كانت قصة العبور المدهش من (باقامويو) إلى (بوما) فى جنوب الأطلنطى ربما ليس لها ما يوازيها فى القدرة الفردية المطلقة فى إفريقيا السوداء، حيث إنها من الناحية الثقافية مع أن رحلة ستانلى لا تقارن مع رحلة (بارت) فى غرب السودان؛ إذ كانت أكاديميًا وخرائطيًا وعسكريًا واستطلاعيًا مفخرة، ولكن العقل البشرى قد لا يصدق أن إنسانًا واحدًا يمكن أن يبقى حيًا فى أدغال إفريقيا تلك المدة الطويلة، فلقد غادر ستانلى ومساعدوه الأوربيون الثلاثة ومائتان وأربعون حمّالاً من زنجبيار إلى ميناء الجزيرة فى ١٢ نوفمبر ١٨٧٤م لتبدأ الرحلة بعد ذلك بخمسة أيام، وكانت محتويات الرحلة تتكون من اثنين وسبعين بالة من الأقمشة وستة وثلاثين جوالا من الخرز وأربعة حمولات من الأسلاك وأربعة عشر صندوقًا من الأحجار المتنوعة وثلاثة وعشرين صندوقًا من الذخيرة وحمولتين من المعدات الفوتوغرافية وثلاثة حمولات من حقائب الأشخاص الأوربيين وسفينة نهرية مجزأة منقولة فى اثنتى عشرة حمولة وقوارب صغيرة فى ست حمولات وصناديق أدوات صيدلية وعلاج وحمولة معدات طبخ وأكل واثنتى عشرة حمولة أخرى من الأشياء المختلفة، وفى يناير ١٨٧٥م كانت هذه القافلة الكبيرة قد وجدت نفسها فى وسط غابة كثيفة، فصار الرجال يقطعون أعراف وعيدان الشجر لخلق ممرات عبرها فى حين كانوا يعتلون مرتفعات وينحدرون فى منخفضات، وهم يواجهون غالبًا بالمحاربين فيموت منهم من يموت ويهرب من يهرب، وفى ١٤ يناير وقعت معركة كبيرة فى منطقة (فينيانا) دمرت فيها إحدى الوحدات العسكرية المرافقة للبعثة الاستكشافية، بعد أن رد المهاجمون على أعقابهم، ومع نهاية شهر كامل وصلت البعثة إلى بحيرة فيكتوريا بعد أن مات أحد الأوربيين المساعدين، وهو السيد (إدوارد بوكوت) بالقرب من الساحل وسرعان ما تبعه الأوربى الثانى (فريدريك باركر)، أما ستانلى وعشرة من البحارة، فقد قاموا بجولة حول البحيرة تاركين (فرانك بوكوك) شقيق (بوكوك) المتوفى فى المكان مع معداتهم، وبعد شلالات (إريبون) حيث ينفصل النيل عن البحيرة وصل ستانلى ورفاقه (يوسافارا) فى الرابع من أبريل، وقد أدهشه ما رأى منذ البداية فى (كاباكا بمنطقة

بوقادا) فقال: إننى أرى فيها ذلك الضوء الذى سيبدد الظلام فى هذه المنطقة الجاهلة، إنه ثمرة أمل (ليفينجستون) فى تنوير وتحضير أكبر وأوسع منطقة من وسط إفريقيا، وهذا صار ممكنا، ولقد رجع ستانلى ليلتحق بمخيم رفاقه فى (كاجيجى) يوم ٥ مايو وهناك علم بوفاة باركر وآخرين، ثم انتقل مع البقية منحدراً عبر بحيرة فيكتوريا إلى بحيرة تانجانيقا، حيث واجه معارك مع أهل الجزيرة العدوانيين الشيء الذى كان يتوقعه كما حدث له سابقا عند جزيرة (بومبيرية) وفى ٢٣ يوليو وصل (متيسا فى منطقة جينجا) وهناك استقبل بترحاب لم يجده فى غير مصر، حيث كان هناك حرس شرف وعدد كبير من أهل (ميتسا) الذين يتطلعون إلى فرص التجارة مع أوربا واتفقوا على أن يزودوا ستانلى بقوة حماية فى رحلته القادمة إلى ما يسمى الآن (بحيرة إدوارد)، وفى البداية رافق ستانلى (متيسا) فى الحرب ضد (وافوما) مقدرا أن قوة (باقاندا) فى حدود مائة وخمسين ألف رجل مقاتل وخمسين ألف امرأة وخمسين ألفًا من الرقيق والأطفال يقودهم (كاتيكيرو) والملك نفسه مع أربعمائة مدفع مجرور وعشرة آلاف بحار، وهناك أربعمائة امرأة مقاتلة، ولقد أثبتت القوات البحرية التابعة (للوالوفا) فى البداية قدرتها، ولكن مع ستانلى كمستشار استراتيجى الذى لم يكن متوقعا بدأت الأمور تتجه إلى النصر، حيث قام ستانلى خلال فترات توقف القتال بترجمة الإنجيل لرجال (متيسا)، ولقد كسب مقاتلو (الباقاندا) البحيرة فى ٢١ سبتمبر ولكن فى اليوم التالى ردوا بشكل حاسم، وكان رأى ستانلى فى رجال (متيسا) غير واضح ولهذا كتب يقول: إن رجل (المتيسا) كالطفل لا فائدة من نصحه لأن أى فرد من الأرقاء أو غيرهم مجرد أن ينافقوه يصبح مغفلاً يقبل أى شيء بينما (الواقوما) يستحقون كل إشادة لشجاعتهم وإقدامهم فى حين أن (الواقاندا) من وجهة نظرى محتقرون، ثم تنبه فى اليوم التالى فكتب يقول: لقد كتبت ملاحظات جيدة عن (المتيسا) لكننى فيما بعد أدركت أننى كنت على خطأ فى ذلك، وفى يوم ١٢ أكتوبر اعتنق (متيسا) المسيحية، وبعد يومين استسلم (واقوما)، وفى اليوم التالى قبل الفجر أحرق (متيسا) (ناكارانقا)، ثم غادر إلى عاصمته القديمة فى (أولاقيلا) ومرة أخرى يسجل ستانلى إعجابه (بكابالا)، حيث قال

فى ٨ نوفمبر ١٨٥٥م: إن (متيسا) يظهر لى أنه أذكى إفريقى يستخدم ذكاءه إلى أقصى حد الشيء الذى لم ألحظه عند رجل فى إفريقيا أو خارجها كما أن ثقافته عالية، والواقع أنه يحب المداهنة وهى واحدة من مناطق الضعف، كذلك فهو من محبى النساء على أننى أعجبت بقوة شخصيته فهو إذا أشار بإصبعه فإن الزعماء الأقوياء الثلاثة يقعون على ركبهم ليتشرفوا برضاه، وحتى إنه إذا ما ابتسم فإن كل الحضور يبتسمون، وإذا ما تجهم فإن وجوه الجميع يعلوها التجهم، وإذا ما صاح فإن الجميع ينكفون على الأرض ويقسمون أنهم على استعداد أن يرفعوه إلى القمر إذا هو رغب[1] وهؤلاء عادة ما يقبضون على السباع والنمور والتماسيح ويأتون بها حية إليه، ولقد زود (متيسا) ستانلى بعدد ألفين من الحراس لمرافقته فى رحلته عندما قرر أن يغادر الأراضى الصديقة فى (بوقاندا) إلى منطقة غير صديقة فى (بونويورو) يوم ٢ يناير ١٨٧٦م، ولكن فى ١٢ يناير حدث أنه عندما توقفت القوة المرافقة له قرب بحيرة (أدوارد) حوصرت من طرف رجال القبائل المعادية، وكان عليها أن تقاتل بحيث تتمكن من فك الحصار والعودة إلى (بوقاندا)، أما ستانلى ورجاله فقد غادروا بعد فترة متجهين إلى الجنوب الغربى نحو بحيرة (تانجانيقا)، حيث توقفوا بعد مسيرة فى عاصمة (كافورو) التى كانت تواجه تهديداً من توسع مملكة (رواندا)، ثم غادر (ستانلى) كافورو فى أول شهر مارس، وعلى الرغم من أنه كان يعانى من مرض الحمى، لكنه مازال مصراً على الوصول إلى بحيرة (تانجانيقا)، وفى ١٠ أبريل كان قد لاحظ أن الحد الفاصل بين ملتقى النيل مع الكونغو يتسع حوالى ميلين من الجانب الآخر، وتلك الملاحظة تعنى أن (لوالابا) هى الكونغو، وفى ١١ يونيو بدأ ستانلى الإبحار حول بحيرة تانجانيقا مستكشفًا وضع رجال القبائل، وفى ٢٠ يونيو مر عبر قرية فوجد أن كل ما فيها عدا عدة أكشاك قد حرق، وأن الناس قتلى فى الشوارع، والجماجم تتدحرج تحت الأقدام، والدماء جافة تلطخ الحيطان، الشيء الذى أوضح ما يمكن أن

(١) النفاق ليس غريبًا على مجتمعات العالم الثالث منذ ذلك الوقت وإلى الآن ذلك أن القانون يتمثل فى لسان الحاكم الملك أو القائد أو الزعيم أو السلطان... إلخ. المترجم.

ينتظر هذه البعثة، وقد نهب رجاله بعض الأشياء الباقية فى البلدة، أما ستانلى الذى كان مهتمًا بالحيرة فقد وجد أن مياهها عالية، وفى اليوم التالى ٢٩ يونيو حدث هجوم من طرف رجال قبيلة معادية، لكن ستانلى رد بإطلاق النار فقتل البعض وعاد إلى (يوجيجى) يوم ٣١ يوليو، وكانت سنوات التعب والإرهاق الاثنتان اللتان عاشهما ستانلى كانتا مقدمة لسنة أخرى مرعبة، بدأها عندما غادر (يوجيجى) فى ٢٥ أغسطس ١٨٧٦م عبر أرض كان (ليفينقستون) أو كاميرون لم يكتشفاها وهى منطقة (نيا نقوى) وتبعد سبعة وثمانين ميلاً فى اتجاه الغرب من البحيرة، حيث واجه يوم ١٨ أكتوبر جماعة القائد العربى المشاغب تاجر الرقيق فى إفريقيا الوسطى المدعو (حمد بن محمد) المعروف جيداً فى التاريخ، وقد وصل ستانلى إلى اتفاق معه بحيث يصطحب البعثة عبر الغابة المطيرة التى تحيط بالمنطقة والتى تواجه البعثة فى اتجاه الغرب، وكان على ستانلى من هنا أن يتبع (لوالابا) إلى البحر ليستكشف ما إذا كانت الكونغو أو ما إذا كانت كما اعتقد (ليفينقستون) أنها النيل، وكتب يوم ٥ نوفمبر ١٨٧٦ يقول: بدأت الرحلة من (نيا نقوى) شمال شرق إلى (ناكاسيمبى) مركز (نيا نقوى) سيراً لمسافة تسعة أميال ونصف خلال ثلاث ساعات ونصف الساعة، وكان حمد بن محمد وإلياس ميتولا مصحوبين بحوالى خمسمائة من الناس وأكثر من مائتين من المقاتلين مضافين إلى مجموعتنا مما يكون قائمة من حوالى سبعمائة، وكان حمد بن محمد عربيًا مغامراً مقدامًا دخل مناطق إفريقيا كلها وبدونه ما كان يمكننى أن أوفق فى عبور بلاد خطرة بها قبائل مزعجة، وأنا الآن أعتقد اننى سوف أقوم باستكشافات ثمينة متقدمًا من (نيا نقوى) فى اتجاه الشرق، وفى ١٩ نوفمبر حدث أول اتصال مع (الواقينيا)، ومن هناك بدأ ستانلى وبعض مرافقيه الشجعان الإبحار عبر النهر الخطير بواسطة قارب، بينما سار بقية المرافقين براً، وقد حدث القتال مرة أخرى فى منطقة النهر وكان على البعثة أن تقاتل يوميًا من أجل البقاء، وكذلك فى مواجهة الأمراض والمعوقات، وقد كتب ستانلى يقول، اليوم اعتقدت أننى يمكن أن أمر دون قتال لكن المعارك صارت شديدة ومع ذلك فقد أنجزت المهمة، وكانت الرحلة

مفيـدة وبعد فترة من الراحة بدأت رحلة سـتانلى الثالثة إلى إفريقـيا، وهذه المرة كانت لخدمة ملك بـلجيكا، وأذكر أننى قابلت سنة ١٩٦١م (المؤلف) ثلاثة رجـال كانوا فى أعمـار الثمانـينيات والتسـعينيات وهـم ممن خدموا مع بعـثة سـتانلى فى ذلك الوقت كحمّالين، وعرفت أن سـتانلى عاد للمرة الرابعة إلى إفريقيا لإنقاذ الشـخصية الألمانية الرومانسية أمين باشا أى الدكتور (شنيتزر) الذى كان يعمل مع الجنرال (غوردون) فى السودان[١] وكان هذا الدكتور قد طرد من الخدمة عندما قتل الجنرال غوردون[٢] وقد وجده ستانلى على الحدود بين أوغندا والسودان ولم يكن راغبًا فى المساعدة (الإنقاذ) ومات أخيرًا فى ظروف غامضة دون أن ينجـز هدفه العزيز فى إنشاء إمبراطورية ألمانية على أطراف النيل، وهنا عـاد ستانلى إلى بريـطانيا، حيث اسـتعاد الجنسـية البـريطانية وصار عضوًا فى البرلمان، وفى فترة متقدمة قام (ريتشارد بورتون) ببحث جغرافى رائع فى الشمال ومعـه رفيقه (جون سبيك) وهو ضابط من الجـيش الهندى الذى سار معه فى بعثته الاستكشافية إلى الصـومال سنة ١٨٥٤م، وفى السنة التالية اشتركا فى حرب القـرم[٣] وفى سنة ١٨٥٦م وصل (بورتون وسبيك) زنجبيـار حيث اتجها لاستكشاف بحيـرة المنطقة، لكن مـرض الحمى أوقفـهما فـعادا إلى الساحل حـيث قامـا فى يونيو

---

(١) غـوردون تشارلس جـورج (١٨٣٢ - ١٨٨٥م) قائـد وإدارى بريطانى اشتـرك فى حـرب القرم ثم فى حـرب الصين سـنة ١٨٦٠م، واشتـرك فى الاستـيلاء على بكين، تولى قـيادة الجيش الصـينى الذى أنقذ لـقمع ثورة (ليبينج)، عينه الخديوى إسماعيل حاكمًـا عامًا على السودان (١٨٧٣ - ١٨٨٠م)، وبعدها عاد ليتولى إجلاء الجيـش المصرى من سنة (١٨٨٤-١٨٨٥م)، لكن قـوات المهدى حـاصرت الخـرطوم لمدة عشـرة أشهـر، ثم استولت عليهـا، وقتلت غوردون الذى كان يعرف باسم (قوردون باشـا) وكان مقتله عاملاً كبـيرًا فى سقوط الحكومة البريطانية برئاسة جلادستون سنة ١٨٨٥م.المترجم.

(٢) لم يذكر المؤلف من قـتل الجنرال غوردون ولا أسبـاب قتله ربما؛ لأنه لم يرد أن يعطى هذا الشرف لمحـمد بن عبدالله المهدى الذى قاد تلك الحرب وحرر بلاده من الإنجليز وقتذاك. المترجم.

(٣) حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦م) وكـذلك فى الحرب الأهلية الروسـية، وصارت القرم الملجأ الأخـير للروس البيض، أى الجيش الذى حارب ضد الثورة الروسية، أعلنت جمهورية سوفييتية استقلالاً ذاتيًا سنة ١٩٢١م، ثم ألغى ذلك الاستقلال خلال الحرب الثانية، وطرد ستالين منها الشعب التتارى الذى اتهمه بمساعدة الألمان، تقع على الساحل الشمـالى للبحر الأسود جنوب ر وسـيا الأوربية وفـيها يالطا التى اشتهرت باجـتماع القادة الكبار أثناء الحرب العالمية الثانية الذين قرروا تقاسم العالم (ستالين وتشرشل وروزفلت). المترجم .

١٨٥٧م بعمل أدى إلى استكشاف منبع النيل، وقد نشر الخبر سنة ١٨٦٤م وهذا الاكتشاف قدم أول وصف للحافة القائمة بين النيل ومصب مياه الكونغو وهو أول اكتشاف يؤكد أنه لا يجرى أى نهر شمالاً من بحيرة تانجانيقا، وفى هذا الوقت مرض (بورتون) بينما استمر (سبيك) منفرداً ليجد بحيرة (أوكيريوى) التى أطلق عليها اسم بحيرة فيكتوريا، وفى نهاية شهر يوليو ١٨٥٨م قيل له: إن هناك نهراً عظيمًا لابد أن يكون النيل ينبع من البحيرة فى (جينجى)، ولهذا فقد توقع أن البحيرة هى مصدر النيل وتلك خطيئة غير مفهومة عادة تتردد فى الأدب الحديث، والواقع أن المصدر يقع جنوب البحيرة أى بمنطقة الربيع المخصّب فى موقع يسمى (بوروري فى بوروندى)، واكتشاف (سبيك) للبحيرة والنهر العظيم الذى لابد أنه النيل الذى ينبع منها كان له أثر جغرافى عظيم على الرغم من أنه أثناء عودته إلى بريطانيا قوبل بعدم التصديق المعتاد من طرف أولئك الذين يستكشفون وهم جلوس على المقاعد ولذلك لم يحظ اكتشافه بما يستحق إلا أنه كتب يقول، لم أشعر بأى شك أن تلك البحيرة التى أمامى هى والدة ذلك النهر المهم وهى المصدر الذى كان مثار كثير من التصورات وكان موضوع كثير من المستكشفين، وكان (بورتون) منزعجًا جداً بشأن مهمة البعثة الاستكشافية، وسمح لنفسه بأن يشك فيما إذا كان (سبيك) قد وجد النيل، وهكذا عاد سبيك إلى إفريقيا سنة ١٨٦٠م مع زميل هو ضابط من الجيش الهندى اسمه (جيمس قرانت) وقاما بأصعب رحلة عبر بعض الأراضى، وقد تحمل سبيك المرض أكثر من رفيقه حيث وصل وحده بلاط (متيسا) ملك (كاباكا فى بوروندى)، وجاءت مذكراته فى فبراير سنة ١٨٦٢م أعظم نموذج فى ثقافة الاستكشاف، وربما هى أعظم ما عرف عن الناس فى (بوقاندا)، وفى هذا الوقت غادر سبيك ليطلع على تدفق النيل من بحيرة (فيكتوريا نيانزا) وقال: إن ذلك كان أجمل شيء يراه فى حياته ولا شيء يمكن أن يماثله، فهناك التماسيح والأسماك وأكواخ الصيادين المقامة من القش تتوزع حول النهر، وأضاف لقد طلبت من رجالى أن يحلقوا رؤوسهم ويسبحوا فى النهر المقدس مهد النبى موسى، ونجد سبيك يقول لنا فى مجلته (مجلة اكتشاف مصدر

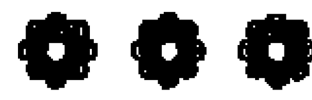
النيل) شيئًا عن ماء العين الآخر الجميل الذى أطلق عليه اسم (شلالات ريبون) نسبة إلى اللورد ريبون عضو الجمعية الجغرافية الملكية، وكان السيد (صمويل هوايت بيكر) المستكشف الغنى الذى غادر القاهرة فى ١٥ أبريل ١٨٦١م ليستكشف النيل الأبيض، وقد أخذ زوجته معه السيدة (بيكر) لكنهما عطلا لبعض الوقت فى الخرطوم من جانب السلطات المصرية، وبعد بعض الوقت غادرا فى اتجاه الجنوب يوم ٣ يناير ١٨٦٣م يرافقهما بعض السباحين الذين ربطوا حبالاً فى جذوع أشجار النهر ليتمكنوا من جر قاربهما ضد الرياح الجنوبية العاتية، وخلال السفر التقيا (سبيك وقرانت) فى منطقة (قوندوكوتو)، ومن هناك غادر بيكر ورجاله على ظهور الإبل إلى (فيكتوريا نيانزا) غير أن السيد بيكر بعد تجربته مع القارب كانت، إما يمشى على الأقدام أو أحيانًا يركب على ظهر ثور، وصل ستانلى ورفاقه المكان الذى يسمى الآن (نيل فيكتوريا)، وكانوا فى حالة إرهاق شديد، وهنا يقدم بيكر وصفًا ممتعًا عن (بونيورو) وهى المملكة التى لم تذكر فى تاريخ أوغندا الحديث وكان الحماليون قد هربوا فى وقت انهار فيه بيكر وكان يهذئ ومع ذلك فإن كآبة المجموعة قد زالت مؤقتًا باكتشاف البحيرة الكبيرة التى أطلقوا عليها اسم (البرت نيانزا) وكتب بيكر يقول: كان الطريق إلى البحيرة متعرجًا وحادًا وكنت قد تقدمت وأنا أتشبث بعيدان الخيزران القوية، أما زوجتى فقد كانت مرهقة جدا وهى تترنح فقمت بمساعدتها وهى تتكئ على كتفى وكنا نتوقف بين الحين والآخر، وبعد الهبوط المتعب خلال مدة تزيد على الساعتين مع ضعف فى الجسد بسبب مرض الحمى الذى لازمنا لوقت طويل لم يكن هناك إلا الرغبة فى النجاح التى قوّت عزائمنا حتى وصلنا السفح الواقع تحت المنحدر، وبعدها سرنا لمدة ساعة تقريبًا إلى أن وصلنا حافة مجرى المياه، ولقد اندفعت أنا فى البحيرة بسبب العطش والتعب والحرارة وقلبى تملؤه السعادة عندما شربت من ماء مصدر النيل، وعاد بيكر كما يقول مستخدمًا قاربه عبر البحيرة إلى فيكتوريا إلى (بونيورو) وأخيرًا عائدًا إلى (قوندوكورو)، وإلى القاهرة ثم إلى إنجلترا، وفى (قوندوكورو)

واجـه بيكر نفس الشكوك تقـريبًا من جـانب كل المستـكشفين الكبـار، ومع كل ذلك كتب يقـول: لقد جلسـت تحت شـجرة، وكنت أنظر إلى أسـفل ملقيًـا نظرة على النيل العظيم الذى يتدفـق ماؤه تحت أقدامى متـأملاً ما فـات من مقدار كـدحى حيث كنت أحث الخطى مـتابعًا النـيل إلى مصدره الـعظيم، حيث ظهـرت أمامى تتـلألأ جداوله، وهنا أحسـست بأن اللغز الذى كـان غامضًـا قد انكشف والذى كنت أنظر إلى مـياهه برهبة قد زرت مهده، وأذكر أننى قضيت سنـوات عمرى أحلم بأهمية هذا الاكتشاف كمـا كنت أتذكر ذلك السـؤال المهم الذى كان يطرحه كـومورو زعـيم (لاتوكا) وهو يقول: نفـرض أنك وصلت تلك البحيـرة العظيمة فمـاذا ستفعل بهـا؟ وإذا عرفت أن النهر يتدفق منها فماذا بعد؟

وبعد هذا الكشف العظيم عـاد بيكر إلى المنطقة ليقود حملـة الخديوى العسكرية داخل السودان حيث كانت خطة خديوى مصر أن يوسّع حدود بلاده إلى الجنوب من (كوندوكـورو) أى إلى ما يعرف الآن بشـمال أوغندا، وعندمـا رافق الجنرال غوردون بيكر كـمسئـول عن المحافظة الاسـتوائيـة المصرية عـرف أن فرص التوسع مـن جانب المحيط الهندى أنسب مما كـان متوقعًا من الشـمال، ولهذا فإن الخديوى إسـماعيل بناء على نصيحة الجنرال غوردون أرسل قوة بحرية لتحتل ميناء (كيسمايا) ولكن إذ كانت هذه ضـمن حدود ملكيـات سلطان زنجيـبار حـدث أن مورس ضـغط بـريـطـانـى دبلومـاسى على الخديوى أدى إلى انسحاب قواتـه، ومن جانب الشمال كانت طرق المواصلات طويلة، وحاول غوردون أن يجعل (بوقاندا وبونيورو) تحت سلطة القاهرة، لكنه فشل، وبذلك ترك المشـروع نهائيًا سنة ١٨٧٧م، وحـدث أنه خلال سنة ١٨٨١م وبروز المهدى فـى السودان وضع نهايـة لحكم مصر فى الـسودان ككل، وأيضًا نـهاية لقيـادة غوردون نفسـه، ثم قاد أحد المعـاصرين لبيكر وهو السـيد (جوزف تومـسون) رحلة طويلة إلى البحيـرات، وكان حظه مثل كل الرحالة فى تلك الفتـرة وعمره اثنتان وعشرون سنة؛ إذ واجـه مشاكل مع محبـى الحرب قبائل (الماساى) وحـدث له مثل ما

واجه أغلب المستكشـفين الإنجليز، وكان (أمين باشا وكايتانو كـاساى) وهما اثنان من المتعنترين من ألمانيا وإيطاليـا قد أظهرا الكثير من الشجاعة ودقـة الملاحظة فى سفرهما عبر شـرق ووسط إفريقيا وأنجزا كـتابًا يظهر تلك القدرات، وكان الألمانى من جـماعة نصرة الطبيـعة، وكما سبق ذكره فـقد كانت بعثة ستـانلى من أجل إنقاذهما أى (أمين وكاساى) على الرغم من أنه عندما وجدهما يوم ٢٣ أبريل ١٨٨٨م كان هو نفسه فى وضع أكثر سوءاً منهما، وكان مـوت الألمانى بعد ذلك بقليل يعتقد حسب قول بعض البـاحثين: إنه كـان انتـحاراً، وبعـد ذلك قـام كل من الكونت (صمـويل تيليكى فـون أزميك) وهو من المجر والملازم (لودويق فون هونهيل) وهو من النمـسا باستكشاف ما يعـرف الآن بشـمال كـينيـا خـلال سنوات (١٨٨٧ – ١٨٨٨م) واكتـشـفـا بحيـرات (رودولف وستيفانيك)، ولقد استمـرت الحكومة والمستكشفون يداً بيد مع الرحالة من مؤسـسة (فريدريك ديلتـوى) الذى كان يرى إمكانيـات الاستقـرار والتطور فى شرق إفريقيا، ولقد كتب (لـوقارد) إلى (قروفلى) سنة ١٨٩٣م يقول: إنى على قناعة أن يد المؤسسـة ممدودة للرحـمة، وأن ما تقـوم به إنما لإنقاذ كـثيـر من الأنفس، واليوم يـتفق أغلب المؤرخين مـحليين وأجانب فى إفـريقيا مع مـا قاله (لوقـارد) على الرغم من أن البعض ربما يستاءون من كلماته الصـريحة ذلك أن هذا الرجل يرى أن القوة والسرعة هى الفاعلة فى الفوضـى الإفريقية، وفى بداية التسـعينيات تجول هذا الضابط الصـغير على نطاق واسع لمدة سنتـين عبـر كينيـا الحـديثة وأوغندا رفـقة سـودانيين ومـقيـمين محليين، وترحل أيضًـا على نطاق واسع مع قبائل (الكيكويو)، ولقـد أعجب بأوغندا كما وقع اتفـاقات مع ملوك وزعماء وقام ببناء قـلاع وجهز مناطق للاستعـمار، حيث كانت بريطانـيا وقتـئذ تأمل فى ضم إفريقـيا إلى إقطاعيـاتها الإمـبريالية، ولقـد كانت حظوظ وتجارب هذا الضابط الـصغير تعكس التطور السيـاسى فى تلك المرحلة وكان (فريد لوقارد) قد ولد فى مدراس سنة ١٨٥٨م لوالد كان مديراً لشركة الهند الشرقية، وقد توفى سنـة ١٨٦٥م بعد سنة من عودته إلى بـريطانيا، وهكذا تربى فـريد بإشراف

والدته، وكان قد تقدم للخدمة المدنيـة ولـم يوفق لكنه نجح فى كشف الخدمة العسكرية سنة ١٨٧٧م وخدم فى منطـقة (باشاور) على الحـدود الشماليـة الغربية، ثم فى مـصر بعـد مقـتل الجنرال غوردون، ثـم فى بورما، وكـان عشـقه لـلترحـال قد جـعله رجل المهمات الـذى يذكره التاريخ، كما أنـه كان قد حاول فى مرات عـديدة من روما ومن (مـاساوا) أن يلتـحق بالقوات الـتى تقاتل فى الحـبشـة لكنه رفض، ولذلك أبحـر إلى زنجبيار، وكان أول عمل له فى إفريقيا مع شركة البحيرات حيث كلف بحماية منشآت بحـيرة (نيـازا) من هجـمات العـبـيد، مما أتاح له التنقـل فى مخـتلف مناطق إفـريقيـا واكتساب المزيد من الخبرة والشهرة.



إثيوبيا:

تاريخ إثيوبيـا فريد فى إفريقيـا فالملكة (ماكيدا) كـانت الحاكمة الأسـبق للمملكة الجبليـة التى فرضت سيطرتهـا من حدود أراضي (أكسيـوم) إلى ما يساوى تقـريبا أى أغلب أراضي إثيوبيـا الحديثة إضافـة إلى جزء من اليمن الحديث عـبر البحـر الأحمر حيث بدأت ملكة سـبأ (بلقيس) الشـهيرة رحلتـها من أكسـيوم فى اتجاه الشـمال إلى القدس لتختبر حكمة سليمان الذى خدعتها أسطورته ولتنام معه بحيلة دبرها، ولذلك فإنه منذ حدث هذا التوحّد صـار ملوك إثيوبيا يدّعون (زورا) أنهم ينحدرون من ذلك الأصل ويحمل الـتوراة شهـادة على (ماكيـدا) ورحلتهـا إلى سليمان الـذى يتوقع أنه طلب منها ألاّ تمس شيئـا من ممتلكاته فى القصر مما لم يقدم لها لكنهـا نهضت ليلاً بعد عشاء كثير التوابل لتشرب بعض ماء غير معروض، ويفترض أن الملك اليهودى الذى كان يقضى الجزء الأول من الليل نائمًا مع خادمة الملكة (مـاكيدا) الزنجية، ثم نام معها لأنها خالفت الوعد الـذى أخذته على نفسها، وهكذا حملت هى وخـادمتها فى وقت متقارب، وتقـول الأسطورة: إن (ماكيدا) جعلت ابنها من سليـمان ويدعى (مينيليك)

الأول ملكًا أثناء حياتها[1] ولهذا فإن أباطرة إثيوبيا مازالوا يحملون لقب (أسد قبيلة يهودا الفاتح)، ولم يبق شيئ من الشهرة السابقة لإكسيوم اليوم غير الحجارة الشاهقة (أبيليسكس) المنحوتة من الكتلة الوحيدة لجبال (كلّية الوجود) التى تأثرت سابقًا باليهودية والإثيوبية، ولم يكن مفاجئًا أن تصبح مسيحية خلال القرن الرابع عشر الميلادى والشكر فى ذلك للبعثات البيزنطية وهى باقية اليوم كموقع قبطى قوى، وكان ظهور الإسلام قد تجاوز إثيوبيا وجعلها منعزلة فى مكانها فلا هى واجهت غزوًا دائمًا ولا حققت تقدمًا، وهى بلاد مترامية الأطراف جبالها ملهمة رائعة ووديانها خصبة خضراء تزخر بأنواع البلابل والسباع وتاريخها يمثل بانوراما زاخرة فى الغرابة بلغتيها المكتوبتين، وهى مقسمة بين لصوص بارونات إلى سنة ١٨٥٥م، وعندما تولى الإمبراطور (ثيودور ديمينتد) كان وصول أول الأوربيين إلى إثيوبيا هم من قباطنة الإغريق على عهد بطليموس الثانى وبطليموس الثالث فى مصر خلال القرن الثالث الميلادى، حيث أسسوا مراكز ساحلية للتجارة باستثناء (ماكيدا) التى ذكرتها التوراة، ولقد أشارت بعض الكتابات فى أكسيوم إلى الملك المعاصر (إيزاناس) ابن (أيلا أميدا) والقليل من أساطير باقية من بداية السلالة الإثيوبية، وكانت تلك الكتابات

---

(١) سبأ هى دولة ظهرت فى شرق اليمن أى فى المنطقة المعروفة الآن باسم صرواح ومأرب فسمى البلاط باسمها وإليها تنسب الحضارة واللغة والديانة السبئية، وقد ورد ذكرها فى التوراة (كما ذكر المؤلف) فى قصة زيارة ملكتها لسليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولقد استمرت حضارة السبئيين فترة طويلة رغم انتقال العاصمة إلى مناطق أخرى، وبقيت لبلاد سبأ أهميتها طالما كان سد مأرب باقيًا يؤدى وظيفته، وظلت للعاصمة مأرب مكانتها كمركز تجارى وثقافى هام فى جنوب الجزيرة العربية حتى قبيل الإسلام عندما تهدم السد ولم يهتم به ويترميمه أحد، وعلمت أخيرًا أن المرحوم الشيخ زايد آل نهيان قد تكفل بالصرف على ترميم السد أخيرًا ،كذلك فإن القرآن الكريم يؤكد مجيء تلك الملكة إلى الملك سليمان بالنص القرآنى فى سورة النمل: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الآيات ٣٠- ٣٦ - ٤٤) النمل. المترجم

باللغة الإغريقية والجيزية والسبئية (لغة اليمن) وهى تحمل الشهادة الشمولية الحقيقية أو النظرية عن المملكة وعن (اليمن) وكيف حول البيزنطيون الإثيوبيين إلى المسيحية، وفى القرن السادس الميلادى كان ملوك الأحباش والأكسيوم باعتبارهم الملوك الأوائل يقومون بإرسال بعثات إلى بحيرة (تسانا) كل سنة بعد أخرى للتجارة بالماشية والملح والحديد مقابل الذهب بطريقة المبادلة، وفى هكذا حالات تقوم بعثة أكسيوم برحلاتها وهى مسلحة اتقاء هجمات اللصوص وغالبًا ما تتأخر الرحلة بسبب الماشية، لكنها عادة ما ترجع إلى أكسيوم وهى تحث الخطى لاستباق موسم الأمطار، كذلك خلال القرن السادس أرسل (جوستنيان) السفير (جوليانز) إلى البلاط الإمبراطورى من أجل تطوير التجارة، وقد ذكر هذا السفير أن الملك يظهر عارى الصدر حافى القدمين ملابسه مخططة بالذهب مع أساور ذهبية وياقة ذهبية، وعندما يظهر فى تنقله فهو يركب عربة بأربع عجلات مطلية بالذهب تجرها فيلة غالبًا عددها أربعة ويتقدمه فصيل من سلاح الفرسان المصرى الرومانى وهو يحمل درعًا مذهبة ورماحًا مذهبة، وحدث أنه أثناء مثول السفير (جوليانز) أن عزفت المزامير، وكانت الكنيسة الإثيوبية الأصلية مع الرومان التجار المتجولين قد استعملت اللغة الإغريقية فى حين أن اللغة المحليه قد استعملت مع بداية القرن الخامس، وكاثوليك إثيوبيا كانوا إلى وقت قريب تحت رعاية الكنيسة القبطية فى الإسكندرية، وأن أقباط إثيوبيا مازالوا يحافظون على الصيام القبطى الطويل بما فى ذلك العشرة أيام الإضافية للصوم الكبير ويتبعون قداس (ست بارك) وكما فى إنجلترا الكنيسة تعتقد وتتبع طقوسًا وثنية سابقة بما فى ذلك ذبح ثور ونعجة وعنزة كتكريس للكنيسة حيث تدق الطبول والرقص، أما أقباط إثيوبيا فيتبعون الخرافات الغذائية اليهودية المتعلقة باللحوم ويحافظون على السبت كيوم مقدس كما هو الحال بالنسبة للأحد، وحدث أن اتصال الإثيوبيين بالعالم الخارجى قد انقطع خلال القرن الثامن نتيجة لاحتلال العرب للخط الساحلى وجزر البحر الأحمر ولم يعود إلا بعد عدة قرون، وفى سنة ١٢٧٠م كان قد أطيح بالحكم (الزاقوى) بواسطة مدّعى يقول: إنه من سلالة سليمان والملكة (ماكيدا) وقد فرض هذا إصلاحًا

ثقافيًا وبعد قرنين أخذ (زارا ياكوب - ١٤٣٤-١٤٦٨م) قرارا حرّم بموجبه الوثنية نهائيًا وأمر كل إثيوبى أن يضع على جبهته تعويذة مكتوبة باللغة المحلية (الجيزية) تقول: (أنا أنتمى للأب) الابن روح القدس، كما أن التعويذات توضع على الأذرع وهى تقول: (أعوذ بالله من الشيطان أنا خادم السيدة مريم أم خالق الكون)، وكانت المقومة قد منعت والجواسيس صاروا يبحثون عن الوثنيين بأوامر من محقق يدعى (الحافظ على البيت) وهؤلاء الوكلاء الرهبانيون عاشوا فى وضع غريب وهم يتركون شعورهم بلا حلاقة خوفًا من أن يستخدم سحرة العالم الأقفال المخصوصة لاختيار العزائم، وعلى آخر عهد (زارا ياكوب) اختفى بعض الخوف وتصالحت الكنيسة القبطية الإثيوبية مع الفاتيكان كما أن (زارا ياكوب) جدد إدارة أكسيوم، وكان مبعوث الفاتيكان السيد (فرانك) ربما هو أول غربى أوربى يدخل أراضى إثيوبيا، وتقول سجلات هذا البلد (إثيوبيا): إنه كان قد واجه حرجًا فى مناظرة دينية بواسطة كبار الأقباط، وفى القرن السادس عشر وصل رسام فينيسى يدعى (برانكاليون) وجمع العديد جداريات الكنيسة، والأسلوب المميز لرسومات الإثيوبيين، ولأنه كان يحظى بشعبية كبيرة فلم يسمح له بمغادرة البلاد إلى أن مات بعد أربعين سنة فى المنفى، وكانت أوربا القرون الوسطى فيها الكثير من الأساطير عن (بريستون جون) هذا الاسم الذى يمكن أن يقارن بما يحدث من ملك إثيوبيا الذى اعتبر حليفًا محتملاً مع المسيحيين ضد بروز قوة الإسلام، حيث إنه عندما وصلت بعض أخبار إثيوبيا إلى العالم الخارجى عن طريق البرتغال عرف أن الملك هو فى الحقيقة إمبراطور للعديد من الممالك الصغيرة، ويحمل لقب ملك الملوك، ومن العادة أن هذا الإمبراطور يسعى للحفاظ على ولاء الممالك التابعة بالزواج من بنات أولئك الملوك، وهو لكى يحافظ على البيت المتعدد الزوجات يعمّده بالمسيحية، وهناك أوكلت مهمة الأمن العسكرى للقوات الإمبريالية حيث يقوم كل قائد بمهمة خاصة، وكان القسيس البرتغالى (ألفاريز) قد أرسل إلى إثيوبيا سنة ١٥٢٠م ويذكر أن التبرع من مملكة (جوقام) كان يتمثل فى ثلاثة آلاف حصان والعديد من البغال وثلاثة آلاف بطانية، والكثير من

الأقمشة القطنية وثلاثين ألف أوقية من الذهب، ولقد استغرق هذا التبرع عشرة أيام لدى القصر الإمبراطورى وتجاوز زائد الدخل كثيراً احتياجاته، لكنها مع ذلك لم تشمل أى نوع من النقود وكانت مصروفات الملك تتلخص فى الوفاء باحتياجات المحيطين به، وأحيانًا يقوم بإعطاء الهدايا للضباط والملوك الآخرين، وهذه عادة فى الغالب تكون متبادلة، ثم إن الهدايا المسرفة تأتى من بطريرك الإسكندرية الذى يعين رئيس أقباط إثيوبيا ومن سلطان مصر، والملك يهب كذلك الأديرة والكنائس على أن أغلب الخزائن الملكية تكتنز فى الكهوف والحفر والقلاع، والواقع أن الملك يعيش بشكل بسيط لكنه محاط ببهارج القوة حيث يصطحب عند سفره أربعة سباع مربوطة بسلاسل ويركب خلف ستائر مقامة على أعمدة فوق ظهر بغل، وغالبًا لا يراه أحد إلا خدمه والمسئولون الكبار والعدالة فى بلاطه تقوم على أساس مركزى صارم رغم أن هناك فرصًا للاستئناف لدى حكام المقاطعات فى القضايا الأساسية، وكانت المحاكم الملكية طبقًا لما ذكره القسيس البرتغالى (ألفاريز) تقام فى خيم بها ثلاثة عشر مقعداً تمثل العدلية والمحلفين[1] وفى هذه الخيم يجلس القضاة القرفصاء على الأرض فى مجموعتين ويقدم المدعى القضية، ثم المتهم ويعلن الحارس وهو رجل أمى عن الكيفية التى ستسير عليها المحكمة، وبعد ذلك يعطى كل قاض رأيه وفى النهاية يلخّص القاضى الرئيسى الآراء ويصدر الحكم النهائى والسجناء فى انتظار المحاكمة يكونون مقيدين بالسلاسل، ويكون العقاب مرعبًا مثلما هو الحال فى أوربا وقتئذ على الرغم من أنه فى حالة الأرستوقراطيين، فإن العقوبة بالجلد تكون أكثر تحقيراً من التعذيب، ويقوم رجال السياط وهم أربعة بطرح السجين أرضًا ثم يقومون بالجلد على الأرض، وليس على جسد السجين، وهذه عادة هى نفس طريقة العقاب للقاضى الذى يكون مذنبًا، وعلى الرغم من أن الملك يعيش فى وضع نصف انعزالى فإن كل أقاربه الرجال الذين يتوقع أنهم منافسون أقوياء على السلطة يعيشون حياة أكثر انعزالاً حيث ينفون

(١) أسماها المؤلف (المخمسينون) وكان علينا أن نضع بدلها كلمة (المحلفون) وهو التعبير الشائع الآن وهو ربما ما كان يقصده المؤلف. المترجم .

إلى قلاع محروسة بشدة مع أسرهم، وبالمقابل فإن نساء وفتيات البلاط الملكى يتمتعن بحرية كاملة، ولقد وجد القسيس البرتغالى (ألفاريز) فضولاً دينيًا عظيمًا، وحدث له مثلما حدث لسابقه السيد (فانكيش) حيث كان غير قادر على أن يناقش القساوسة الإثيوبيين فى المعرفة اللاهوتية وكان من جانبه قد فجع بطريقة الاستحمام عرايا الذى يؤديه الإثيوبيون فى مناسبة عيد الظهور، وكانت السفارة البرتغالية قد رحبت بفرصة زيارة الإمبراطور التى نتج عنها استسلام الإمبراطور للكرسى البابوى وتخليه عن (ماساوا) كقاعدة بحرية للبرتغال، وكذلك قاعدتان أخريان وفى المقابل طلب الإمبراطور تزويده بصناع وأطباء كما طلب بعض الرصاص لترميم أسقف كنائسه، وكل هذا تضمنته رسالة من الملك (لبينا دينجل) إلى الملك (مانويل)، وقد صيغت تلك الرسالة بالأمهرية والعربية والبرتغالية، ذلك أن الملك (دينجل) كان فى حاجة لحليف كالبرتغال، وفى سنة ١٥١٦م احتل السلطان العثمانى (سليم) مصر وخضع له الحجاز، ولهذا فإن الخوف من إمبريالية إسلامية سيطر على المباحثات الإثيوبية البرتغالية، ولكن فى سنة ١٥٢٧م عندما عادت البعثة إلى لشبونة لم تكن البرتغال ولا إثيوبيا جاهزة للهجوم الذى جاء من طرف قوة صغيرة منظمة بقيادة أحمد بن إبراهيم الغازى، ولقد تفرقت قوات إثيوبيا وبالتالى فإن خزائن قلاع (إمباسا) نهبت مع تلك الكنائس والأديرة وحدث أن أغلب الإثيوبيين اعتنقوا الإسلام على عجل، على الرغم من أن الملك مع قوة صغيرة مخلصة له استمر يقاوم من الجبال، وفى سنة ١٥٣٥م استطاع أن يهرّب برتغاليا كان رهينة ويرسله إلى لشبونة ليقنع الملك بحيث يرسل قوة إنقاذ من الهند البرتغالية ولقد تحرك البرتغاليون ببطء، ولهذا أصيبوا بنكسة عندما استولى العثمانيون على اليمن وعدن بمناطقها الاستراتيجية على البحر الأحمر وغيره ولقد حلّت سنة ١٥٤١م قبل أن يتمكن أحد أبناء (فاسكو دا جاما)(١) من فك الحصار وإنزال أربعمائة رجل على أرض (ماساوا)، ولقد مات الملك (لبينا دينجل)

(١) كما أوردنا فى صفحات سابقات فاسكو دا جاما (١٤٦٠- ١٥٢٤) ملاح برتغالى كان أول أوربى يصل الهند بالبحر ١٤٩٧- ١٤٩٩)... إلخ .المترجم .

السنة الماضية وخلفه ابنه (كلاوديوس)، وحاربت القوة البرتغالية لتفتح طريقها من الأعلى عبر الشاطئ بحيث تنضم للقوات الملكية، وبذلك استطاعت أن تقاوم هجومين قامت بهما قوات كبيرة من الجيش العثمانى قرب بحيرة (تسانا)، وهذا فى الواقع ما أخّر (قاما) إلى الشتاء وأفشل محاولاته فى الوصول إلى مخيم (كلاوديوس) وفى هذا الوقت حصل أحمد على تعزيزات من باشا (زابيد) وبذلك هزم البرتغاليين وقتل جنرالهم الجريء، ولكن بعد ذلك واجهت قوات أحمد بك تعزيزاتها المقاومة من جانب قوات (كلاوديوس) ومن جانب فلول قوات البرتغال والقوات الملكية بقيادة والدة الملكة حيث تمكن (كلاوديوس) من توحيد صفوف قواته مع القوات المنهزمة، وسرعان ما صار لديه ثمانية آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان، وفى نفس الوقت استطاع الأحياء من البرتغاليين تصنيع البارود باستخدام ما اكتشف محليًا من السلفور والملح، وقامت هذه القوة بالسير فى اتجاه بحيرة (تسانا)، وفى موقعة شهيرة قتلت أحمد بك نفسه بينما هرب الصوماليون مرعوبين، أما الأتراك فقد قاتلوا إلى أن بقى منهم أربعون فردًا وقد تم طردهم، وأمر الملك البرتغالى أولئك البرتغاليين القلّة (مائة تقريبا من الأحياء) أن يبقوا فى إثيوبيا وهكذا فعلوا، وقد تزاوجوا مع السكان المحليين، وكونوا بالتالى طائفة عسكرية خلصت منطقة الجزيرة كليًا من المسلمين الغزاة، وكذلك أخضعت الوثنيين الفالاس، ثم باشرت حملة إحياء دينى وثقافى لكن الأتراك أعادوا احتلال (ماساوا)، وصارت إثيوبيا مرة أخرى مقطوعة عن العالم الخارجى، وعند هذا المنعطف فإن الإثيوبيين مع اليسوعيين قد بدأوا مع المدعو (بيرموديس) الرهينة الذى أنقذ إثيوبيا عندما حصل على المساعدة من البرتغال، وقد عاد مع جماعة (دا جاما) وبيرموديز هذا أبلغ كلاوديوس أن (ليبنا دينجل) وهو على فراش الموت عينه أبًا لإثيوبيا، وعلى الرغم من أن كلاوديوس يعرف أن بيرموديس كان منتحلاً ولكن من أجل أن يسد احتياجه الشديد لتحالف برتغالى فقد خضع للسلطة الروحية التى أعلنها هذا الكاثوليكى المزيف، ولقد أصر بيرموديس على أن تتحول الكنيسة الإثيوبية إلى الرومانية، وأن كل رجال الدين

الأقباط يعاد ترسيمهم وهكذا فإن الخلاف بين كلاوديوس وحلفائه وصل نقطة التصادم، ثم إن الملك منح البرتغاليين بما فى ذلك كلاوديوس مناصب فى المناطق النائية، ثم سرعان ما أرسلت بعثة بابوية حقيقية، وفى هذا الوقت هرب البابا المزيف بيرمديوس إلى لشبونة، ولقد مرت مائة سنة تقريبًا قبل أن يخترق إثيوبيا مستكشف آخر هو السيد (صمويل بيكر) وهو رجل إنجليزى ذو لحية كثة ومال وفير، ومع زوجته الشجاعة غطيا كثيرًا من المساحات قبل المستكشف (بروس،) وقد وجدا تلك البلاد كما وصفت موحشة وعنيفة (والواقع أنها ماتزال كذلك حتى اليوم موحشة لأى مسافر عبرها بدون سلاح)، وفى الصيف كان على بيكر وزوجته أن يبتعدا عن القرى حيث إنه فى هذا الوقت (كما قال بيكر) تكون هناك فوضى على طول كل الحدود، ونحن الآن فى سنة ١٨٦٠م فى الوقت الذى كانت فيه قناة السويس تشق وصارت بريطانيا تبدى اهتماما بالقوى السياسية فى منطقة البحر الأحمر وما بعدها فى اتجاه ساحل شرق إفريقيا، وكان الوكيل السياسى فى هذا العهد عنصرًا هامًا سواء أكانت القوى السياسية المسيطرة على الساحل مسلمة أم غير مسلمة ذلك أنه من الأهمية بمكان أن لا يحدث ما يمكن أن يهدد تدفق النقل البحرى البريطانى الذى سوف يستخدم القناة فى طريقه من إمبراطورية بريطانيا الشرقية الواسعة وإليها ويمكن أن يقال هنا: إن أى انهيار عقلى عضال يؤشر على نهاية مهنة أى إنسان ومع هذا فإن أى عمل معتدل هو فى الواقع قريب من أولئك الذين صارت أدمغتهم بالكامل معتوهة، ولكن هناك فيما يظهر بعض الاستثناءات فى هذه القاعدة وتلك هى السياسة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ناس كانوا عقليًا غير قادرين على أى مسئولية، ولكنهم حافظوا عليها على الرغم من التوقف العقلى، وحتى إنهم فى بعض الحالات عززوا منزلتهم وليس هناك فى الماضى أو اليوم فى بلد أو بلدان لم يكن فى قمة المسئولية مجنون فالملك (ثيودوروز) الذى يرجع إليه تطور إمبراطورية إثيوبيا الحديثة كان عنده خاصية حسنة واحدة أكثر من أى شخص آخر حيث كان صاحب استعراض مسرحى لشكل مجنون كليا هائجًا معتوهًا يهدد، كذلك (فتيودور) أو كما يعرف بالإنجليزية

(ثيودوروز) كان أسمر ونحيفًا تبرز على ذقنه لحية خفيفة، بينما شعر رأسه يتشكل فى دوائر وقد وصف فى وقت ما بالقول: إنه لو كان أكثر امتلاء فى جسمه لكان يشبه السيد المسيح، ومن المؤكد أن صورته تتفق مع المعالم التى رسمها (جوسيفوس) للسيد المسيح، وفى سنة ١٨٥٣م احتل (امبارا) وبعد سنتين احتل أغلب المقاطعات المجاورة، وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والثلاثين من العمر وقد غير اسمه من (كاسا) وأعلن نفسه ثيودور الثالث ملك إثيوبيا، وكانت بريطانيا قد عينت قنصلاً مقيمًا فى إثيوبيا هو السيد (وولتر بلودين)، وكانت أولى مهامه أن يوقع اتفاقية صداقة مع ثيودور الثالث حيث اعتقدت بريطانيا أن علاقتها مع هذا البلاط لابد أن تكون قوية وقد صارت كذلك، وفى سنة ١٨٦٠م كان القنصل البريطانى مسافرًا عبر البلاد عندما قتل بواسطة رجال إحدى القبائل، ولهذا تولى الملك بنفسه حملة العقاب فقتل وخصى ألفين من الرجال خلال حملته تلك، أما البريطانى الآخر ويدعى (بيل) فقد قتل وهو يسعى لمساعدة الملك الإمبراطور فى تلك الحملة، ولاستمرار العمل القنصلى أرسلت بريطانيا موظفًا مدنيًا الجليزيًا هنديًا هو السيد (تشارلز كاميرون) ولقد أعرب الملك عن تأثره كثيراً بسبب مقتل هذين الإنجليزيين الصديقين كما يقول، وبعد ذاك ماتت زوجته وتدعى (تافانيك) فتزوج أخرى جديدة اسمها (تيرو) كان عمرها اثنتى عشرة سنة لكنها سرعان ما جفته، وبالتالى تحول إلى فاسق سكير، وعندما وصل القنصل البريطانى الجديد (كاميرون) إلى (كوندار) سنة ١٨٦٢م، وكان يحمل معه زوجين من المسدسات الفضية كهدية للإمبراطور من الملكة فيكتوريا وأثناء مثوله لدى الإمبراطور اقترح عليه أن يبعث وفدًا إلى بريطانيا لتوقيع اتفاقية صداقة، وكان الإمبراطور قد أرسل إلى الملكة فيكتوريا مشتكيًا حيث قال: إنه منذ أعاد الأتراك احتلال الساحل لم يعد فى إمكانه إرسال وفود عبر هذا الساحل، وفى آخر رسالته قال: (ترين كيف يضطهد الإسلام المسيحيين) وهكذا طلب من الملكة أن تفتح طريقًا له، وعندما وصلت الرسالة لندن أهملتها الخارجية ولم ترد عليها وهذه خطيئة أخرى أضيفت إلى كثير من أخطاء الشئون الخارجية وبعد فترة أصدر مكتب الشئون

الخارجية البريطانية أمراً إلى القنصل (كاميرون) طالبًا منه أن يتجه إلى (كسلا) فى السودان للتحقق من وضع تجارة الرقيق وبحث إمكانية زراعة القطن ذلك أن ثمن القطن قد تضاعف ثلاث مرات منذ الحرب الأهلية الأمريكية التى قطعت إرسال الفائض إلى أوربا، وربما أمكن إقناع السودانيين بالتخلى عن تجارة الرقيق مقابل ضمان الحصول على القطن، وعندما عرف الإمبراطور (ثيودوروز) أن القنصل البريطانى (كاميرون) قد ذهب وأنه يقيم مؤقتًا مع أعدائه ثار وأرغى حيث اعتقد أن غياب القنصل له علاقة بعدم رد الملكة على رسالته وقال: إن هذا البلد الخيانة فيه مثلها مثل الخبز، وطبيعى أن ثيودورز، بالتالى اعتقد أن بريطانيا تخطط لغزو إثيوبيا عن طريق السودان، ولهذا فإن البعثة الدينية الألمانية فى إثيوبيا التى تعتمد على المساعدة المادية البريطانية سرعان ما وضع أعضاؤها فى سلاسل حديد، وعندما عاد القنصل البريطانى فى يناير ١٨٦٤م كان هو أيضًا قد قيد بالحديد بل وعذب، وفى هذا الوقت وصل شخص كان مساعدا للقنصل يدعى (لوكيرانز) وكان يحمل رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى الإمبراطور (ثيودورز)، ولكن تلك الرسالة لم تكن رداً من الملكة على رسالة الإمبراطور، ولهذا فإن حامل هذه الرسالة أيضًا وضع فى السجن ولقد أرسل القنصل (كاميرون) وهو فى السجن رسالة عن طريق العقيد (ميريويندر) الوكيل السياسى البريطانى فى عدن كما أرسل رسالة أخرى إلى جريدة التايمز اللندنية يطلب بإصرار ضرورة الرد على رسالة الإمبراطور (ثيودورز) إذ إن هذا يمكن أن يحاكم كل المساجين دون رحمة، وهكذا أرسلت لندن رسالة أعدت بعناية للتهدئة وقد عنونت الملكة فيكتوريا الرسالة بالقول (إلى صديقنا العزيز ثيودورز ملك الحبشة)، وفى هذا الرسالة ورد أن لندن على استعداد أن ترحب بسفارة إثيوبية فى إنجلترا كما جاء على لسان الملكة القول: إنها علمت بأسف أن الإمبراطور ثيودورز قد سحب ثقته من خادم بريطانيا السيد (كاميرون)، ثم أضافت: إننا على ثقة أن تلك التطورات قد جاءت عن طريق تصرف غير سليم تجاه جلالتكم الذى ربما كان يتوقع تعاملاً مماثلاً من جانبنا، وكانت الرسالة قد وصلت بواسطة متعاون مع العقيد

(ميريويندر) وهو عراقى كردى يسمى (هارموزد بسام) وكانت رسالة الملكة فى مايو، وفى يوليو كان المدعو بسام فى (ماساوا) وهذه أرض مصرية وقتئذ وقد أرسل بسام هذا مبعوثين إلى الإمبراطور ثيودورز طالبًا مساعدة (كاميرون وقوندار)، ولكنه لم يحصل على رد إلى بداية سنة ١٨٦٥م، وفى هذا الوقت حصل أن حوالى ثلاثين أوربيًا بعضهم متزوجون من إثيوبيات ولديهم أطفال كانوا فى المعتقل، أما فى غابات (مدقالا) مثل حالة القنصل كاميرون أو مع ثيودورز فى حقل بالقرب من بحيرة (تسانا)، ثم أرسل بسام رسالتين أخريين إلى ثيودورز لكنه لم يحصل على أى رد كذلك، ولهذا أرسل بسام إلى القنصل البريطانى كاميرون وهو فى السجن لكن هذا رد عليه قائلاً بحق الله لا تأتى إلى هنا؛ لأنه سيضعك فى قفص؛ لأن هذا الإمبراطور يرى أنه طالما بقينا بين يديه فإنه سيكون فى مأمن من الهجوم الذى يتوقعه، وبالتأكيد فإنه إذا حصل عليك أنت الآخر فذلك جيد بالنسبة له، وبحلول شهر أغسطس ١٨٦٥م استلم بسام خطابًا من الإمبراطور يذكر فيه بغير صدق أن القنصل البريطانى كاميرون قد فكت سلاسله بعد أن ندد به ومع ذلك فقد أبدى استعدادًا؛ لأن يستقبل بسام إذا كان لديه ما يفيد، ورد بسام قائلاً: إنه سيذهب إلى القاهرة وينتظر إلى نهاية الشتاء، وفى القاهرة تجهز بسام بالكثير من الهدايا التى سيقدمها للإمبراطور، وكانت تتكون من ثريات ومرايا ونظارات ومشروبات كحولية، ثم أبرق إلى لندن يطلب التعليمات فقيل له: إنه يجب أن يسلم المهمة لدبلوماسى موجود حاليًا فى القاهرة يدعى (ويليام بيلجراف)، ولقد كان الهدف الوحيد الذى أرسلت من أجله القوة البريطانية إلى الحبشة هو تحرير خادم صاحبة الجلالة وآخرين حبسوا ظلمًا، وحالما ينجز هذا الهدف فإن القوة ستنسحب؛ إذ ليس هناك رغبة فى احتلال أى جزء من الحبشة بشكل دائم أو أن يتم التدخل فى شئون حكومة هذا البلد، فى هذا الوقت صار الإمبراطور يبعث الرسائل إلى بسام معلنًا وصول الضيف الملكى إلى القلاع وهو يقول: أوه يا صديقى لا تظن أننى أحمل أى كراهية تجاهك، وكتب إلى سجينه المكبل بالسلاسل قائلاً: لقد وضعتك فى مكانك الحالى من أجل أن أعرف يومًا ما الناس فى

بلادك، ولقد بدأت المعركة فى وقت كان الإمبراطور يسأل رجاله ما إذا كانوا سيستمرون فى القتال أو أنهم سيتخلون عنه، وأخيراً عندما توضحت نتيجة المعركة وضع فوهة المسدس الذى كانت الملكة فيكتوريا قد أهدته له على جبهته وضغط على الزناد، أما الملكة (تيرو زوجته) فقد ذكرت أن الإمبراطور زوجها أوصى بتعليم ابنه (آلامايو) فى إنجلترا ولهذا فهى تود أن تقيم معه هناك، ولقد وافقت الحكومة البريطانية على الطلب لكنها تجاهلت رغبة الإمبراطور قبل أن يموت فى أن تقوم باحتلال إثيوبيا، وهكذا تركت إثيوبيا فى فوضى بينما نصّبت ملكة (قالا) حاكمة على (ماقالا)، وقد تم تفجير كل شيء فى (قالا) ماعدا الكنائس، وكانت الملكة (تيرو) قد مرضت، وماتت بعد فترة بينما نقل الابن (آلاماتو) ليتعلم فى مدرسة (روقبى) لكنه أيضًا مات وكان عمره تسع عشرة سنة، ولقد دفن فى ويندسون، وفى بداية سنة ١٨٨٥م نزلت حملة إيطالية فى (ماساوا)، وتقدمت فى الأرض حيث تواجهت مع قوات إثيوبية خلال يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٧م وأبيدت القوة الإيطالية حيث كانت فى مواجهة قوات تتكون من عشرين ألفًا من المحاربين الإثيوبيين، وفى (دوقالى) أخليت المواقع الإيطالية، وبالتالى أوقفت إيطاليا مساعدتها العسكرية لميليك الذى كان ينافس (جون الرابع)، وفى المقابل طلبت إيطاليا من ميليك قبل إعادة المساعدة أن يعترف بحقوق إيطاليا فى أسمرة والأراضى المجاورة، وقدمت له هدية متمثلة فى بعض الذخائر وقد قبلها لكنه لم يفعل شيئًا لمساعدة إيطاليا فى احتلال التضاريس التى تريدها، وفى سنة ١٨٨٩م كان جون قد قتل برصاص المهديين(١) فى الحرب مع الدراويش، وتبع ذلك بعض الفوضى حيث احتل الإيطاليون أسمرة وساعدوا مينيليك، ليكون ملكًا على (نيقوزا)، وهو بالتالى منح إيطاليا حقوق الحماية على

(١) يقصد المؤلف محمد بن عبدالله المهدى قائد الثورة المهدية فى السودان، والذى ينتسب إليه الآن حزب الأنصار بقيادة الصادق المهدى، والذى يطلق علية أحيانًا اسم حزب الأمة، وهو من الأحزاب الهامة فى السودان الحديث، وقد تولى رئيسه رئاسة الوزارة عدة مرات، والأنصار كانوا يسمون الدراويش فى بداية نضالهم؛ لأنهم يرتدون ملابس مهلهلة فى شكل جلابيات مازال الأنصار يرتدونها حتى الآن اعتزازاً بتاريخهم النضالى. المترجم .

كامل تـراب الإمبراطورية ومـنذئذ أرسل هذا الملك الإمبـراطور صهـره المدعو (راس ماكونان) إلى إيطاليا ليفاوض من أجل الحصـول على قرض مالى مقابل رهن مقاطعة (هرارى) وبالإضـافة إلى الموافـقـة على القرض منح الملك (إمـبـارتو) ماكـونان اثنين وعشرين مـدفعا وثمانية وثلاثين ألف بنـدقية كهدية، وكانـت هناك قوة أخرى برهنت على اهتمـامها بإثيـوبيا وهى روسيـا القيصـرية حيث وصل البـلاد خلال الثمـانينيات مجموعة تتكون من حوالى مائتى رجل وامرأة تحت غطاء دينى برئاسة الراهب (باسى والقوقازى أشينور)، وكان ضمن هذه المجموعة جنود ومهندسون وقساوسة وحرفيون مستغلون تلك العلاقة القائمة بين الأرثوذكسية الشرقية والأقباط، فأنشأوا ديرا وخشية من أن تسعى روسـيا إلى إقامة مـستعـمرة فى إفريقيـا قام الإيطاليون بإعـداد دراسات مكثفـة عن كل المبادرات والأنشطة الروسـية، بحيث يحـولون دون ذلك المتوقع، وفى سنة ١٨٩٠م قّدم مـبعوثـون روس وفرنسيـون عروضًا من أجل أن يضـمنوا لبلدانهم مواقـع قوة فى إثيـوبيا، وبناءً على ذلك احـتجت إيطاليـا وخلقت كثـيرًا من المشـاكل والتعـقيدات لكن (مـينيليك) سدد القرض الإيطـالى وألغى الاتفاقيـة التى وقعت من إيطاليـا وكان احتـجاج الإيطاليين على عـروض الروس من أجل إبعادهم عـن البلاد، لكن الواقع أن الذى تمكن من طرد الروس هم الفـرنسيـون، وإن قد بقيت مـجمـوعة صغيرة منهم بموافقة (مينيليك)، وفى العصر الحديث كذلك فإن إثيوبيا كانت أول بلد إفريقى أظهرت روسـيا اهتمامًا كـبيرًا به، وكانت إيطاليـا فى سنة ١٨٨٥م قد ضمنت موقـعًا آخـر لها فى إريتـريا وفى اتجاه الجنوب حـيث سيطرت على أراض بجـوبا فى مدخل النهر، وفى سنة ١٨٨٨م وقع سلطان (أوربيا) اتفاقية حماية مع إيطاليا، وهكذا صارت هذه مستعمرة فى الصومـال، ثم امتدت السيطرة على الساحل الصومالى سنة ١٨٩١م، وفى سنة ١٨٩٣م كلفت شـركة إيطالية بإدارة كل المنطـقة، وفى هذا الوقت

أقام (مينيليك) علاقات مع بريطانيا فى (باربارا) ومع فرنسا التى جثمت على جيب صغير يسمى (جيبوتى)، لكن إيطاليا صارت أكثر تشدداً وهى شوكة فى جانب الإمبراطور، وفى هذا الوقت رأى مينيليك أن يستعيد السيطرة لنفسه على الشاطئ، وأن يندفع جنوبًا حتى يصل (نيانزا) أى بحيرة (فيكتوريا) وفى هذه الأثناء استطاع أن يؤسس علاقات صداقة مع لندن، وفى سنة ١٨٩٥م أعطى مؤسسة فرنسية حق إقامة السكة الحديد من جيبوتى، وكان المنافس الرئيسى على السلطة لمينيليك هو (راس منقاشا) زعيم (تيقرى) قد وقّع سنة ١٨٩١م اتفاقية مع إيطاليا حيث تعهدت روما بمساعدته ضد الثوار (التيقريين)، ولكن فى سنة ١٨٩٥م اتحد (مانقاشا) مع (مينيليك) وبذلك تقدم الأميران شمالاً إلى المناطق التى تسيطر عليها إيطاليا لتحريرها وهذا المطلب اكتسب تأييداً إجماعيًا وعبأت إيطاليا قواتها على عجل لتواجه محاربى (مينيليك ومانقاشا)، وكذلك فرسان (قوجام وقالا) فى وقت واحد وقد اختار الجنرال الإيطالى (باراتيرى) أن يبدأ الحرب فى منطقة (أدووا) خلال الجزء الأول من شهر مارس ١٨٩٦م مستخدمًا تلك الأسلحة والذخائر التى حصل عليها من تجار فرنسيين، وكان لديه عدد كبير من الجنود، ولكن بسبب تلك الأخطاء فى الخرائط الإيطالية عن البلاد التى كانت سببًا فى توزيع القوات المهاجمة فإن الإثيوبيين بقيادة (ما كونين) حققوا نصراً باهراً، حيث قتلوا من ذلك الجيش الذى يبلغ عدده أربعة عشر ألفًا وخمسمائة جندى قتلوا حوالى عشرة آلاف أوربى وأربعة آلاف من الجنود المحليين وبتوقيع اتفاقية جديدة فى أكتوبر قبلت إيطاليا بإذلالها معترفة بسيادة إثيوبيا كما وافقت أن تكتفى بإريتريا، أما مينيليك فإنه إلى أن مات سنة ١٩٠٨م ظل يقوم بتوسيع إمبراطوريته، وقام بتحديث إدارتها حيث إنه فى سنة ١٨٨٣م، أوجد عاصمة جديدة لبلاده وهى (أديس أبابا) والاسم يعنى (الودة الجديدة) وهذه التغييرات كانت ربما من

أجل إسعاد زوجته الإمبراطورة، وبعد هذه المرحلة وتلك الإصلاحات جاءت كثير من السفارات تحمل الهدايا للإمبراطور الذى يزداد قوة فى معاركه المحلية، وفى هذا الوقت انتصرت المصالح الفرنسية على منافستها البريطانية فى مشروع السكة الحديد على الرغم من أن مينيليك أوقف العمل عندما أخذت الحكومة الفرنسية الجزء الأكبر من الاستثمارات فى سنة ١٩٠٢م، ثم تراجع وأعطى الموافقة سنة ١٩٠٦م، وأخيراً رخّص لبريطانيا وإيطاليا حيث وافق على تمديد الخطوط إلى أبعد من أديس أبابا، إلا أن ذلك لم ينجز ولم تبدأ القطارات من جيبوتى قبل سنة ١٩١٨م، وهنا ضمنت بريطانيا اتفاقية تثبيت حدود مستعمرتها فى أرض الصومال، وكذلك الحقوق الرعوية إلا أنها فشلت فى إنهاء وتطمين خوف ماكونين من الإنجليز، ولقد كانت الفقرة الهامة فى اتفاقية سنة ١٩٠٢م من وجهة النظر البريطانية تلك التى تنص على أن إثيوبيا لا تقوم بتحويل مجرى النيل، وهذه مهمة للمحميين من بريطانيا فى مصر، وكان مينيليك قد وقع العديد من الاتفاقيات التى لم يكن يأخذها بجدية، حيث إن بعضها كان يعطى نفس الامتيازات لبعض البلدان أو الشركات عندما يحصل على رشاوى ومنح من هذا الطرف أو الآخر، وكانت اثنتان فقط من تلك الاتفاقيات حققتا بعض الفائدة وهما اتفاقية السكة الحديد الفرنسية واتفاقية بنك الحبشة البريطانى، وكان مينيليك يقوم بمسارات صعبة ويحصل عادة على نسب مئوية عالية، كما أنه كان يقرض المال بفوائد فلكية للشركات الاستثمارية الجديدة، ولابد أنه يستخدم تلك الفوائد لدعم جيشه.



مدغشقر :

وضع مدغشقر فى سجل التاريخ الإفريقى يعود فقط إلى القرابة فى الجغرافية ذلك إنها ثقافيا جزء من آسيا كما تدعى إندونيسيا على ما يبدو فى الفترة الأخيرة على

أنها أنقطعت من منطقتها الإفريقية منذ حوالى أربعمائة مليون سنة (أى قبل إنسان بيكين) وانفصاله من أرض استراليا، ذلك أن مدغشقر كانت نباتاتها وحيواناتها قد تطورت عندما كان الشعب (البولينيزى) من أرخبيل الملايوأندونيسى قد وصل إلى مدغشقر منذ ألفى سنة ماضية، إما عن طريق البر أو البحر أو كليهما ولقد جاء هذا الشعب باللغة البولينيزية التى تتصل بالمالايوأندونيسى، وفوق ذلك جاء بزراعة الأرز المالوى ونوع الزوارق المستطيلة وأساطير البولينيزى التى ماتزال تزار فى البلاد والبيوت الزراعية المبنية بعناية وثيرانهم المنيّرة وسلوكهم وتصرفاتهم التى توحى بالتاكيد على أنها غير إفريقية، وكانت موجه الهجرة الأخيرة قد وصلت خلال نهاية القرن الخامس عشر تقريبا، وكانت أول إشارة إلى هذه الجزيرة الواقعة غرب المحيط الهندى قد جاءت فى المدونات المصرية والإغريقية والرومانية وكانت أحيانًا بالخطأ توصف على أنها سيلان ولقد جاء اسمها الحالى على لسان (ماركو بولو) [1] وكان الاسم ككنية، وقد جاء على النحو التالى (ماديقاسكر) ويكون ربما قد اختلط على ماركو الأمر فى بلد لم يره أبدا مع اسم (ماقاديشيو) الذى يظهر فى لغة المالاقازى، ولقد ظهرت الجزيرة على الخريطة سنة ١٥٠٠م عندما توقف أحد قباطنة (فاسكو دا جاما) هناك، وفى القرون اللاحقة عملت القوى الأربعة الكبرى فى المحيط الهندى بعض العمل التجريبى الملحوظ عن الأمراض والعنف الذى جاء من المستوطنين

(١) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) رحالة بندقى سافر مع والده وعمه إلى الصيد سنة ١٢٧١م، وكانا قد زارا كيفينج عاصمة كوبلاى الشرقية، وصلت الرحلة كالومبوك سنة ١٢٧٥م، وهناك التحق ماركو ببلاط قبلاى، حيث قام بعدة أعمال فى الصين الوسطى والشمالية وجنوب شرقى آسيا وجنوب الهند، ترك الصين سنة ١٢٩٢م وعاد إلى البندقية سنة ١٢٩٥م، حيث التحق بقواتها فى حربها ضد جنوة، أسر فى هذه الحرب، وأثناء الأسر أملى على أحد زملائه وصف رحلاته وتحدث عن بداية حياته، ثم عن الأماكن التى زارها، وعادات المغول وتاريخهم، وكانت كتاباته هى المصدر الوحيد تقريبًا لمعلومات الغرب عن الشرق فى عصر النهضة، وكذلك عن بعض جهات آسيا حتى القرن التاسع عشر. المترجم .

البولينيـزيين، حيث كانت الجـزيرة مكانًا هامًا كعـرين للقراصنة خلال القـرنين السابع عشـر والثامن عشـر، وقد صارت (ديبقـو سواريز) سريعًـا جمهـورية يمكن أن تسمى عالمية إذ إنها تـدار بواسطة ثلاثة رجال وثلاث لجان قرصنة تتمثل فى بريطـانيا وفرنسا وإيطاليا، ولهـذه الجمهـورية دستور ولغـة عالمية ومزارع عـموميـة وقراصنتهـا الثلاثة ينتـمون إلى بريطـانيا وفـرنسا وإيطالـيا ويمتع هؤلاء القـراصنة بعـلاقات مع السـويد وروسيا وتركيا، وكان أحد التجار الأمريكيين الذى تعامل مع القراصنة سنة ١٦٩٩م، قد نقل الأرز المالاقاشى إلـى (كارولينا)، وهكذا ظهر الأرز فى أمريكا الشـمالية لكن إنجلترا وفرنسا أعلنتا الجزيرة طوقا للقراصنة سنة ١٧٢٤م، وخلال سنة ١٧٥٠م تزوج عـريف فرنسى هارب ملـكة قاصـر من ساحـل مالاقـاشى، وأقنعـها بأن تتـخلى عن مملكتـهـا لفـرنسـا[1] وكان أحد الـقراصنة قد قرر تحـويل مدغشقـر إلى يوطوبيا سنة ١٦٨٨م، بحيث يستخدمها كقاعدة لإلغاء الرقيق لكنه بعد ثلاث سنوات غادر برحلة رقيق إلى جزر الهند الغربية الفرنسيـة، وحدث أن محكمة فرنسية أمرت سنة ١٧٧٤م أن يتولى الهنغـارى (باردو دى بينيووسكى) حكم الجزيرة، وعندما تخلـت فرنسا عن الجزيرة أعلن (بينيووسكى) نفسه إمبراطوراً، ثم قـدم إمبراطوريته إلى بريطانيا وفرنسا والطفل الرضيع وقتذاك الولايات المتحدة الأمريكيـة، ولكنه لـم يجد قبولا أو مساعدة إلا من جانب الولايات المتـحدة الأمريكية عندمـا قدم له تاجر رقيق من (بالتـيمورى) سفـينة وبعض المال مقـابل احتكار تجـارة الرقيق من مـدغشقـر، وفى سنة ١٧٨٥م أو بعـدها بقليل أطاحت به القـوات الفرنسـية وقـتلتـه، وكان الأوربيـون من الفرنسـيين والبرتغاليين قد اسـتقروا فى مناطق ساحلية ثانوية، أما فى المناطق الداخليـة فقد كانت هناك عـدة ممالك من (الميـرينا ومـن الشـعب البـولينيـزى) الذى لم يتـأثر بالعـرب أو بالأفارقة والهنود، وكانت المعلومات عـن أحوال وثقافة هؤلاء قليلة، وإن قد وصلت

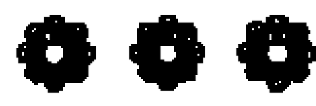
(١) مـا أورده المؤلف فى هذا الجـزء من الكتـاب يكاد يكون من قـصص الخـيال الـذى لا يصدق، ولا حـتى يشـد الانتباه، لكننا ترجمناه كما هو فقط من أجل الإلمام بفحوى محتوى الكتاب. المترجم .

أخيرًا إلى أسماع الأوربيين فى سنة ١٧٧١م، ويظهر أن الممالك ترجع إلى ثمانمائة سنة ماضية، وربما أكثر وعاصمة الجزيرة الحالية تسمى (انتاناناريفو) ومعناها مدينة الألف محارب، وهذا يشير إلى حصار الثوار لها فى وقت ملك (ميرينا) وطبقة الميرينا هى اليوم الطبقة العليا فى الجزيرة وهى تكوّن حوالى ربع عدد السكان، وهؤلاء مشهورون بأسمائهم الطويلة؛ إذ كان أحد ملوكهم اسمه (أندريا تسيميتوفيا مانيا ديريا ديهيبى) وأشهر ملوك الميرينا كان قد حكم من سنة ١٧٨٧م إلى ١٨١٠م، وهو الذى وحّد ونظم المملكة، وقد احتل بولينيزى الصغيرة الواقعة على الساحل وفرض عقوبات شديدة على جرم السرقة والاستعباد أو التسيب الذى وصفه شعرا بأنه (سرقة الوقت)، وقد جعل الملوكية مقدّسة تحرسها الشمس الحمراء، ومنع التدخين والكحول، كما منع دخول الأوربيين للمملكة على أن تكون علاقاته معهم تجارية فقط والتى تقوم على مبادلة الرقيق بالسلاح إن أرادوا وعزز صلاته بأعدائه الثائرين السابقين بأن زوج اثنتي عشرة شابة باثنى عشر زعيمًا، ومن أجل أن يتفادى الاغتيال جعل سريرين للنوم واحد له، والآخر لزوجاته الاثنتى عشرة على أن يرتفع السريران اثنى عشر قدمًا عن الأرض، وكان موته مناسبة للبكاء والحزن الشديد فى الجزيرة، وعندما دفن لف بثمانين عباءة حريرية، ووضع فى زورق فضى، ثم اختير خليفته المدعو (رادام الأول) بواسطة شعب الميرينا من بين أبنائه الأربعة والعشرين الأحياء، واستخدم هذا الخليفة مستشارين سياسيين وعسكريين إنجليز، وهكذا صار المالاقاشيون يحق لهم الالتحاق بجامعة أكسفورد، واليوم بعد ثلاثة أجيال من التأثير الفرنسى مايزال عدد البروتستانت مثل عدد الكاثوليك فى مدغشقر، ولقد شجع (راداما الأول) التجار الأوربيين والبعثات البروتستانتية البريطانية، وفى وقت ما كان جيشه المتكون من خمسة عشر ألفًا تحت قيادة ثلاثة عرفاء تمت ترقيتهم إلى رتب

جنرالات، أحدهم كان أميًا لونه أسمر وهو من جامايكا (مولاتو)، والثانى فرنسى هارب والثالث اسكتلندى، وهذا كان قد جاء بالحصان العربى إلى الجزيرة وبالشعير أى الحبوب التى يصنع منها الويسكى، وكان هؤلاء الرجال يعلّمون كيفية استخدام الأسلحة الحديثة، كما أنهم فرضوا القوانين الغربية فى حين أضاف الملك (رادامـا) إلى تلك القوانين أمرًا يقضى بأن الهارب من الجيش لابد أن يحرق حيًا، وأنه أى (رادامـا) لابد أن يعترف به كأول ملك على مدغشقر، حيث تبادلت معه بريطانيا العلاقات القنصلية، وكان من نتيجة ذلك أن دفع (رادامـا) الكثير من الطلبة إلى المدارس الإنجليزية، وهو قد فعل ذلك بحماس شديد معتقداً أنه من الممكن ومع الوقت ستكون هناك مدارس كثيرة وتلاميذ فى مدغشقر، ربما أكثر من كل إفريقيا، ورادامـا نفسه تعلم من العرفاء الجنرالات اللغات الإنجليزية والفرنسية كما أنه جعل اللغة المالاقاشية تستعمل الحروف الهجائية اللاتينية، ولقد قرأ التوراة وتأثر بها ولذلك أمر أنه منذ الآن ومستقبلاً أن العقاب سيكون طبقًا للتوراة كما أمر بمنع تجارة الرقيق، ووضع لذلك شروطًا وعقابًا شديداً ومنع بشدة تلك العادات الشائنة، وفى سنة ١٨٢٨م توفى (رادامـا) بعد أن أنهكه العمل الكثير والنساء والخمر المحلى، وعمل عدد كبير من الحرفيين الإسبان ليصنعوا نعشه الفضى وعدد كبير آخر لصنع ركائز ذلك النعش الذى يجب أن يتسع لكل حاجياته حيث دفنت معه خزائنه وخيوله وملابسه التى كانت تصنع فى بريطانيا، وذكر أن آلاف من الثيران ذبحت من أجل إطعام اعداد الناس الذين شاركوا فى العزاء، وخلال كامل القرن التاسع عشر كانت مدغشقر قد حكمت من طرف ملكات من بينهن آسيويات وإفريقيات اللواتى عرفن بوحشيتهن، أما أرملة (رادامـا) التى تولت إدارة العرش وما يتصل به فقد كان اسمها (رانافالونا)، وهذه زادت العقوبات عن الجرائم لتشمل المسيحيين كما أعادت تجارة

الرقيق واشتهرت بأنها عـاقبت مائتى ألف من الناس خلال مدة ثلاث وثلاثين سنة من الحكم الدموى، ويذكر أن بعض أولئك الناس قد حرقوا أحياء والبعض الآخر صلبوا فى حين أن آخرين قذفوا من مرتفعات عالية ليموتوا، وكانت أرملة الملك هذه قصيرة وثخينة تمامًا مثل زوجة الرئيس روبرت رئيس ليبيريا المشابهة للملكة فيكتوريا، وكان لهـا اثنا عشـر زوجًا والعـديد من العشـاق، وكانت رجـعيـة تؤمن بالخرافـات بشكل جنونى وتخـاف من الأجانب والاستـثناء الوحيـد لديها كـان (جون لابوردى)، وهو شاب فـرنسى بسيط يعمل حـداداً كان قد انـتقل إلى شاطئ مـالاقاشى سنة ١٨٢٨م، حيـث بقى وعاش فى الجـزيرة خمـسين سنة، وإلى أن مات عندمـا اكتـسب الجنسـية المالاقاشـية، وصـار نبيـلاً حيث أسس مـجمعًـا صناعيًـا فى (ماناسكا)، وهى منـطقة مفـضلة لوفرة الماء المتدفق والغـابات الجميلة، ولقد استخدم هذا الفـرنسى المالاقاشى آلافًا من عمال السخرة بحيث يتمكن من التنقيب عن الحديد ويصهره وليصنع الزجاج والفخار والبلاط والأسـمنت وحامض السلفور والصبغة والصـابون والبوتاس وشمع الأختام والحرير والمطاط وقبعات القش (التى مـاتزال تستعمل فى الجزيرة)، كما صنع الورق والحبر والملابس والبنادق والمدافع والقنابل اليـدوية والبارود والسيوف والسكر وتقطير المشروبات الكحـولية وزرع العنب كما طوّر مـواشى الجزيرة وسبق فى ابتكار زراعة السمك لـلملكة التى كان يعتقـد أنه عشيقـها، وقام ببناء قصر جـديد بأحواض سباحة... إلخ وأخـيراً مات سنة ١٨٦١م وخلفه (رامادا الثانى) الذى ربتّـه أمه رئيسة الوزراء وهو لقيط وهذا ألغى ما تحقق قبله بحيث خلق نوعا من الفوضى الأيدولوجية لكنه سـرعان مـا شنق بأمـر من زوجتـه التى تولت العـرش تحت اسم (راسوهيـرينا)، وقررت من جديد إعادة الحكم بالجلد أمام العامة، ثم خلفتها قريبتها التى أطلقت على نفسـها اسم (رانافـالونا الثانيـة) وتوجت سنة ١٨٦٨م، وكانت تظهـر وهى تحمل فى

يدها التوراة هدية الملكة فيكتوريا، ولقد تزوجت سلفها رئيس الوزراء وحولته إلى المسيحية، وبالتالى أجبرته على ترك زوجاته الاثنتى عشرة وأنجبت منه اثنى عشر طفلاً، وقد اشتهرت (رانافالونا الثانية) بأعمال كثيرة، وعندما ماتت بمرض النقرس عن عمر يناهر الرابعة والخمسين، اختار أرملها رئيس وزرائها قريبتها الجميلة البالغة من العمر اثنتين وعشرين سنة لتخلفها فى العرش وقد تزوجها وأصبحت تسمى (رانافلونا الثالثة) .



جنوب إفريقيا :

تاريخ رأس جنوب إفريقيا متصل مباشرة فى البداية بافتتاح طريق رأس الرجاء الصالح إلى جنوب الهند، ففى سنة ١٦٥٢م أنشأت شركة شرق الهند الهولندية محطة تموين مياه على الرأس من أجل رحلات السفن السريعة وقد اشتهرت المحطة وقتئذ بالرحلات، وكان السكان الوطنيون فى منطقة الرأس عددهم قليل وينتمون إلى فئتين وهم (البوشمين والهوتينتوس)، وهؤلاء كانوا يتمتعون باللطف والسلوك الطيب وكانوا يعيشون على تربية المواشى والصيد، وأحيانًا يقومون ببعض العمل فى المستوطنات الأوربية على أن مقاومتهم للأمراض قد كانت ضعيفة، ولهذا كان ذلك العدد القليل يتضاءل، وهكذا صار أغلب الموجودين الآن فى مقاطعة الرأس من الأوربيين المستوطنين وهؤلاء يمكنهم أن يدعوا أنهم وطنيون أفارقة، وفى كل الأحوال فإن الوطنيين فى شرق مقاطعة (كاى) وفى مناطق (ترنسكاى وناتال وبرنولاند) هم قبائل هاجرت من (زمبابوى) ومن البلد الذى يعرف الآن باسم (موزمبيق) وهم أصلا ينتمون إلى (الناتومى) أسلاف (الزولو) الحاليين، والناس الذين يظهر أنهم ينتمون اليهم يعرفون بأسماء (الهوسا والبوندو والتيمبو) وكل هؤلاء المستوطنين الأفارقة

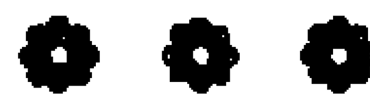
كانوا يقيمون فى الأراضى المطيرة المنخفضة أى (ناتال الحديثة) وما يجاورها من أراض ذلك أن (البشمين والهوتينتوس) صيادون وممولون يتعلقون بما يسمى الآن الرأس الغربى حيث كان السهل الأعلى غير مسكون، وحدث أخيراً خلال القرن الثامن عشر أن تقدم المستوطنون البيض فى الأرض حيث التقوا فى البداية برجال قبيلة (النانتو) قرب نهر السمك العظيم الذى يقع على بعد خمسمائة ميل شرق مدينة الكاب، والشركة الهولندية عندما أقامت محطتها المائية لم تكن لديها نوايا استيطانية ولا اهتمام بالدواخل، وإنما كان غرضها فقط تعزيز الدفاع عن المستوطنات وتموين رجال سفنها، وكان المستوطنون الزراعيون قد شاهدوا مدينة الكاب بما لها من طقس دافئ جميل وأراض خصبة وسقوط أمطار كافية وجمال طبيعى مثير فى جبالها وشواطئها، كل هذا جذب انتباههم أكثر فأكثر، وعندما تهيأ الوقت للشركة وبدأت تبحث عن مهاجرين جدد أظهر هؤلاء الذين استقروا كثيراً من الغضب والمقاومة بسبب الإجراءات التى فرضت على نشاطاتهم فى المناطق التى استحوذت عليها تلك الشركة ومحاولة إبعادهم عن مدينة الكاب التى ستكون سوقًا للسفن، وكذلك الجيل الجديد من المستوطنين الزراعيين البيض، وخلال القرن الثامن عشر، فإن الكثير من هؤلاء الناس العطشى من أجل الأرض عمومًا هم فلاحون تسللوا إلى الداخل بعيداً عن الشركة، وعن أى سلطة دولية، وقد زرعوا وباعوا إنتاجهم للهوتينتوس مبادلة بالماشية، ثم صاروا هم أنفسهم يربون الماشية مثلهم مثل الهوتينتوس، وقد اتضح لهم أن السهول الواسعة أنسب للماشية، وبالتالى تسلل كثيرون أبعد فى اتجاه الشرق بحثًا عن مساقط الأمطار، وهؤلاء الرواد فى الأرض الواسعة التى تعرف الآن باسم جنوب إفريقيا التى لا تدين بالولاء لهولندا صاروا يسمون (أفريكانو) وكان التزامهم الدينى القوى مثل أولئك الرواد الأوائل فى شمال أمريكا المتدينين المتشددين، وقد حملوا

سيوف التقوى حيث حصدوا إنتاجهم بعزائم قوية وتصميم المؤمنين، وكان هؤلاء يؤمنون كأن الله قد اختارهم، وأن إنتاجهم وشجاعتهم مكافأة من الخالق لهذا البلد الذى لا تنازعهم عليه هيمنة ولا أى قوة فى الدنيا، ومن خلال هذا الإحساس يرون الوثنيين من حولهم كأعداء ليس ضدهم فقط، وإنما ضد الله نفسه، ولهذا لابد أن يحرموا من أى حق أراده الله أن يحترم، وهؤلاء الرواد مثلهم مثل زملائهم الأوربيين فى المهارة والنشاط الصناعى الأوربى وقد اكتسبوا الخبرات الثمينة، وإذا كان (البورز) قد تعمقوا شرقا أكثر من شمالاً فقد قضوا على جماعات (البوشمين)، وأبعدوا جماعات الرعاة (الهوتينتوس) وفى سنة ١٧٧٩م كانوا قد وصلوا نهر السمك العظيم، ثم إلى حدود قبائل (البانتو) مع الهوتينتوس، وفى هذا التقدم توجد قبائل لها نفس التقاليد، وكل لغاتها ذات جذور واحدة وقواعد مماثلة فى النحو والنطق مع بدايات مشابهة فى اللواحق والحروف المزيّدة، وفى أغلب اللغات ومن مجمع كلمة (بانتو) يتكون المصطلح العام عن كل الأفارقة الذين ليسوا من الهوتينتوس والبوشمين، وكان التلاقى فى سنة ١٧٧٩م قد سبب بشكل غير مباشر أول تداخل بين القبائل بحيث أحدث حرب الكفار وهذا الاسم أو المصطلح من عرب شرق إفريقيا يعنى الكفار أو الكافر (وهى الكلمة التى استعملها العرب وتطلق على كل من هو غير مسلم، وورثها عنهم البرتغاليون وبعدهم قبائل البورز) الذين لم يعرفوا معناها وبالتالى اعتقدوا أن المسيحيين كفار أيضًا، وكانت هذه الحروب قد مثلت نوعًا من الحرج للسلطات البعيدة فى مدينة الكاب، وأثناء الحروب النابليونية ١٧٩٣ - ١٨١٥م نقلت ملكية الكاب من الهولنديين إلى البريطانيين، وبسبب هذا التغيير حدث الضغط الكبير على ملاك الجناح الإفريقى، وفى سنة ١٧٩٥م عندما كانت الشركة الحكومية قد قاربت على التوقف، فإن المجموعتين من قبائل البورز (سوليندام والقرافرينر)

أعلنتا جمهوريتاهما المستقلتين وهذا يعنى انفصالاً عن مجموعة القبائل الإفريقية الأخرى بزعاماتها التقليدية لكن بريطانيا مع ذلك استطاعت أن تؤكد سيطرتها، وفى سنة ١٨٢٠م أرسلت لندن حوالى خمسة آلاف بريطانى أغلبهم من الجنود السابقين مع عائلاتهم ومنحتهم أراضي بالقرب من حدود توسع البيض، وهذا رغبة فى تعزيز الدفاع عن الحدود الواسعة ضد غزو قبائل البانتو ومن جانب آخر بتعبير تاريخى لتؤكد وجود البريطانيين بين جمهرة قبائل (البوير)، وإلى هذا الوقت كانت قبائل (البانتو) التى تعيش فى منطقة سواحل الرياح الموسمية فى سهول (ناتال) ماتزال قادرة على التوسع من أجل احتياجات الأجيال القادمة كما يقولون داخل المناطق غير المأهولة أو تلك التى يقتلون فيها البوشمين والهوتينتوس، وإذا جاء البيض متسللين فقد أضافوا مشكلة وتحديًا لهم كما هو الحال مع استيطان قبائل البانتو الذين خلقوا مشكلة للبوير، ومن هنا فقد كان هناك اختيار واحد بجانب البانتو، وهو الانضمام إلى القبائل الكبيرة التى تسعى لطرد القبائل الأضعف من أراضيها وكان هذا فى سنة ١٨٢٥م حين بدأت الإدارة البريطانية تشّرع القوانين لحماية الأراضى غير الأوربية وكانت المستعمرات قارب أن ينتهى فيها الوجود العسكرى، وصارت فيها مؤسسات ديموقراطية أولية، وإدارات لتحصيل الضرائب من أجل التغلب على مشاكل الميزانيات، ومن ذلك تنظيم ملكية الأرض بحيث يرتفع ثمنها، ثم صدر القانون البريطانى الخاص بحق الفرد وما يتعلق بمنع تجارة الرقيق خلال سنة ١٨٣٧م فى أراضى نفوذ الإمبراطورية البريطانية، وكان هناك فى هذا الوقت عشرون ألف إنسان مسترق من المالاقاشيين فى منطقة الكاب جئ بهم نظرًا لعدم قدرة البوشمين والهوتينتوس على العمل، ومن الملاحظ أن سلالة هؤلاء المالاقاشيين إضافة إلى أناس من دماء مختلطة أسيوية إفريقية وأوربية إفريقية يمثلون اليوم مليون وثلاثة أرباع المليون ملّون فى الكاب، ولقد تصرف المجلس التشريعى الرضيع تجاه

الليبرالية اللندنية بإصدار قانون يلغى بعض الضمانات الديموقراطية التى حصل عليها السكان غير البيض، وهذا القانون صوت عليه المجلس بحلول سنة ١٨٣٤م، وفى سنة ١٨٣٦م كانت بعض الأراضى التى منحت للأوربيين لأغراض أمنية فى منطقة الحدود الشرقية تمت إعادتها كملكية للبانتو، وهذا قرار بريطانى أخذ لغرض اقتصادى، وفى هذا الوقت كان الجشع البويرى على الأرض بالغ الوضوح، وفى ظل الظروف القائمة فى الدواخل قيل: إن العائلة الواحدة تحتاج ستة آلاف هكتار، وفى سنة ١٨٣٤- ١٨٣٦ اتخذ قرارا يؤيد رأى قبائل (البوير) القائل بأن الإنجليز ينحازون بأنفسهم سياسيًا مع المستوطنين السود ضد البيض، وعلى الرغم من أن قبائل البوير اختاروا حدود الكاب، فإن بريطانيا مازال تصر على أنهم من رعاياها وكانت لندن لا تريد ترك هؤلاء المواطنين المتمردين ينحازون إلى جهة أخرى حيث إن توسع (البوير) يخلق الكثير من المشاكل والحروب، وهذه تكلف كثيراً فيما يتصل بالدفاع عن الكاب وإقرار الأمن، وقد أنزلت قوات بريطانية فى مكان يعرف الآن باسم (دوبان) فى وقت التحق فيه (ناتال) بالتاج البريطانى سنة ١٨٤٥م، وكان المعانيدون (البوير) غرباء عن بريطانيا باللغة وبالسلوك، وخلال الثمانينيات والتسعينيات تحركت بريطانيا لمساندة البعثة المتجهة إلى (نيازالاند) وكانت البرتغال تعارض هذا الموقف وهى تحلم فى أن تتمكن من خلق صلة بين المحيطين فى حين أن هذه الفكرة كانت قد شدت انتباه ألمانيا فيما بعد، لكن هذا المشروع الفكرة قد سقط أمام طموح (سيسيل رودس)، وتلك القوة الجدية النشطة التى لحقت به عبر منافذ إفريقيا لتنجز خطوط السكة الحديد من الكاب إلى ماتابالاند، ثم إلى جنوب إفريقيا وروديسيا وباستولاند التى كانت قد فصلت عن مستعمرة الكاب ووضعت تحت الإدارة البريطانية المباشرة سنة ١٨٨٤م، وهكذا ظهرت محميتان بريطانيتان أخريان فى المنطقة وهما (بيتشولاند وسوازيلاند) أما (بيتسوانا) ذات الحكم الذاتى فى محيط أرض جنوب إفريقيا

فهى جزئيا تحت سيطرة قبائل (الموفات)، وكانت البعثة قد ساعدت على تخليص (البامانتواتو) وهى القبيلة الأهم من قبائل البوتسوانا الثمانية من أهم قبائل (الزولو والبوير والفيديبلى)، وكان الملك (خاما الثانى) الذى خلف القيادة الكبرى فى قبائل (البامانتواتو) سنة ١٨٧٢م، والذى أوقع عدة هزائم فى قبائل (أنديبتلى) قد وجه نداءات عديدة للكاب من أجل العون العسكرى والسياسى، وأخيراً فى نهاية سنة ١٨٨٤م كان السيد (جون ماكينزى) قد أرسل كمسئول إدارى فى منصب نائب المندوب، وكانت (بيتشوالاند) قد صارت محمية خلال السنة التالية، وفى سنة ١٨٩٥م أعلنت بريطانيا أنها سوف تسلم هذه البلاد للشركة البريطانية فى جنوب إفريقيا، ولكن الزعيم (خاما وزعماء آخرين من باتسوانا) ذهبوا إلى لندن محتجين، ويرجع اتصال بريطانيا المباشر مع (سوازيلاند) إلى الوقت الذى طلب فيه سوازى المساعدة منها ضد قبائل (الزولو) وفى الثمانينيات قام الملك (أمباندازينى) وهو زعيم عشيرة (أنكوسى دلامينى) ببيع عدد من الامتيازات للأوربيين ولكن كان هناك مستشاراً بريطانيا قد عين لحماية المملكة من الاستغلال لم يوافق على تلك الامتيازات، وفى سنة ١٨٨٨م حدث مع ذلك أن سمح لجالية المستوطنين أن تقيم مجلس تشريعى، وبالتالى أن تقرر الانضمام إلى جنوب إفريقيا، وكانت جنوب إفريقيا قد ضمت سوازيلاند، لكنها فقدتها نهائيًا خلال حربها من (البوير)، وصار توسع سيطرة الأوربيين فى مناطق غير آهلة بالسكان الأفارقة ذا أهمية فى القارة السمراء وهم بريطانيون وبرتغاليون وإيطاليون وألمان وبلجيك وفرنسيون، لكن فى النهاية صارت إفريقيا لأهلها.



طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٧٩٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

يتحدث (بوسمان) عن إفريقيا ، وعن العادات والتقاليد ، وعن تجارة الرقيق الإفريقى فيقول :

كان الناس في ساحل الرقيق (داهومى الآن) يظهرون الكثير من الاحترام للسلطة وللكبير وللوالدين ، والنساء كن يبدين الاحترام والخشية أمام أزواجهن ، وكان سوق بيع الرجال هنا مثل سوق الحيوانات عندنا ، وإن الرقيق الذين يتم اختيارهم عند الشراء توضع أختام علي صدورهم ، بحيث لا يستبدل الوسيط الأقوياء منهم بآخرين ضعفاء أو كبار في السن، أما المرأة الرقيق ثمنها أرخص بالربع أو الخمس من الرجل ، وإن إطعام هؤلاء الأرقاء بالخبز والماء يكلف سنتين في اليوم الواحد ، وعندما يصعد هؤلاء الرقيق إلي السفن ، فإن الباعة ينزعون كل ملابسهم ، كما أن مستوى كل حمولة في السفينة الواحدة بين ستمائة وسبعمائة فرد ، وغالبًا ما يموت عدد كبير من هؤلاء أثناء النقل ، أو حتى قبل ذلك عندما يوضعون في مناطق تخزين ، هي عبارة عن سفن قديمة راسية في مكان ما ، ولا أحد يهتم بالموتى أو الجوعى أو المرضى.

د/ عبد الوهاب محمد الزنتاني

